المؤلفات الكاملة

الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي



مرآة الفلاح وتجلّي العبوديّة

تفسير الآيات الأولى من سورة المؤمنون والآيات الأخيرة من سورة الفرقان

تدوين وتحقيق: محمد مهدي نادري

ترجمة: علي الهادي مشلب



دار المعارف الحكمية

Dar Al maaref Alhikmiah

مرآة الفلاح وتجلّي العبوديّة

(تفسير الآيات الأولى من سورة المؤمنون
والآيات الأخيرة من سورة الفرقان)

آية الله الشيخ محمّد تقي مصباح اليزدي

تدوين

الشيخ محمّد مهدي نادري

ترجمة

علي الهادي مشلب

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-199-6

[٢٠٢٠م - ١٤٤٢هـ]



العنوان: لبنان - بيروت - سان تيريز - سنتر يحفوفي - بلوك c - ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - mail: almaarf@shurouk.org

تصميم:

زينب ن. ترمس

إخراج فني:

عبّاس درويش

طباعة:



07762001 - 70743117

dpidigitalprinting2020@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

ثمن قراءة الكتابة ذكر الصلاة على محمد واله محمد وعجل فرجهم 10 مرات بنية تعجيل لافرج

الفهرس



مقدّمة مؤسّسة الإمام الخميني (قده) للتّعليم والأبحاث

من بين جميع أسرار العالم وحاجات البشر، تُعتبر الحقيقةُ أشدَّها جمالًا، وأقدمها أصالةً، وأدومها خلودًا. فكم من أرواح بذلها المؤمنون والعلماء الصادقون على درب هذه الحقيقة وفي سبيلها! وكم من مؤامرة ودسيسة حاكتها أيدي الجاهلين وعُبّاد الباطل لمسخ هذه الحقيقة ومحوها! فما أمرّ مظلوميّتها! وما أحلى انتصارَها الحتميّ المُرتقب وخروجَها مرفوعة الرأس، ومحقَ الباطل وخروجَه ذليلًا مُطئطأَ الرأس من هذه المعركة المستمرّة! أعني: معركة الحقّ والباطل. وإنّ مقام الحقيقة السامي ـ بغضّ النظر عن رفعته ورُقيّه الذاتيّين ـ مدينٌ لجهودٍ خالصةٍ غير مُتناهيةٍ، بذلها طالبو الحقيقة، الّذين شدّوا الرحال وأحكموا الهمم في الميادين النظريّة والعمليّة، وحلّقوا خارج مكائد الدنيا وملذّاتها. وهنا يبرز الدور الأساسيّ والتأثير الأكبر، الذي رسمته أيدي الأنبياء والرسل الإلهيّين، وعلى رأسهم النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وآل بيته الطاهرين وأوصياؤه بالحقّ عليهم السلام.

وقد عرف علماء الشيعة الأجلّاء، أنّ رسالتهم الخطيرة التي لا نظير لها، هي الانتفاع من العقل والنقل، والغوص في بحر المعارف القرآنيّة، واستخراجُ جوهرة الحقيقة الصافية النفيسة من سيرة هؤلاء العِظام عليهم السلام،

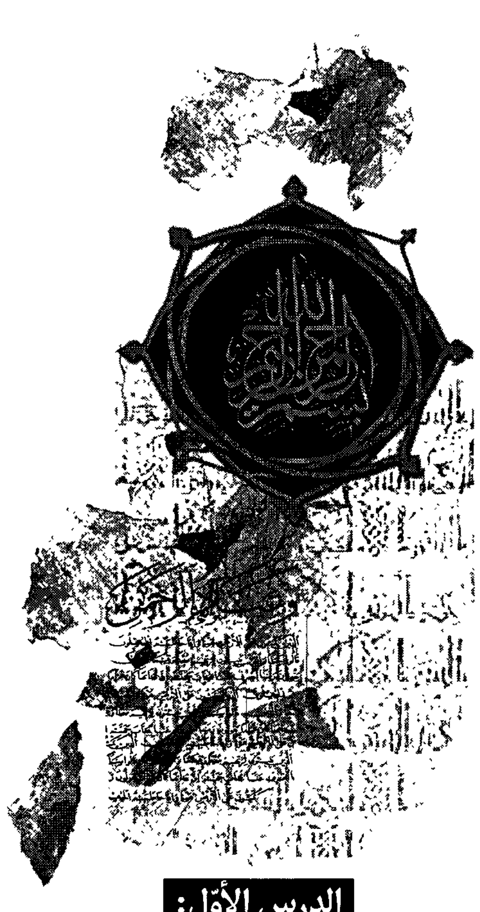




وتقديمها للمجتمع البشري، والاستماتة في التصدّي لشبهات أهل الظلام، الهاربين من الحقيقة، فأجهدوا أنفسهم وأفنَوا أعمارهم. والآن، في عصرٍ كسدت فيه سوق المعنويّات، وجدَّ أعداء الحقيقة والإنسانيّة سعيَهم في كلّ لحظةٍ، للسيطرة على البشريّة، من خلال صناعة ما لا يُعدّ ولا يُحصى من المؤلّفات والمحاضرات ونشرِها، والتوسّل بمختلف الأسلحة المتطوّرةِ، الصلبةِ منها والناعمةِ، باتت رسالةُ أهل الحقيقة والمفكّرين في ميادين الحوزة والجامعة، وخاصّةً علماء الدّين، أعظمَ وأخطرَ وأصعبَ. وإنّ للمحقّقين الحوزويّين في عالم التشيّع، سجلًّا ناصعًا في علوم الفلسفة، والكلام، والحديث، والفقه، والأصول، وغيرها من العلوم. وإنّ تأمّلاتهم العظيمة تشعُّ في سماء العلوم الإسلاميّة. وفي ميدان العلوم الطبيعيّة والتجريبيّة والتقنيّات الحديثة أيضًا، خطا علماؤنا خطواتٍ تلفت الأنظار، وتشعُّ أملًا بمستقبلٍ مُشرقٍ، وها هم يقتربون من بلوغ ما يستحقّونه على الساحة العالميّة، ويسعون من خلال نشاطاتهم الدؤوبة لاستعادة مكانتهم العلميّة في الأوساط الدوليّة، إلّا أنّ الجهود المبذولة في ميدان العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة لم تصل إلى الحدّ الذي يليق بالمجتمع الإسلاميّ، وتمّ الاقتصار في هذا المجالِ على الترجمة والاقتباس من نظريّات الآخرين؛ فقلّما نجد في هذا الميدان أثرًا لابتكاراتٍ وإبداعاتٍ منبثقةٍ من المباني الإسلاميّة. وما زال الطريقُ أمامَنا طويلًا ومليئًا بالتحدّيات كي نصل إلى المقصد المطلوب. ومن هنا، فبالإضافة إلى الاستنباط والاستخراج والتفسير وتبيين التعاليم الدينيّة وتنظيم المعارف الإسلاميّة، بات البحث في مسائل العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة من منظارٍ إسلاميّ، وتبيين هذه المسائل، من أهمّ أهداف المؤسّسات العلميّة وأولويّاتها، وخاصّةً مراكز الأبحاث في الحوزاتِ العلميّة.

وإنّ مؤسّسة الإمـام الخمينيّ قدس سره للتعليم والأبحاث، منذ بداية تأسيسها، وعلى ضوء تأييدات القائد العظيم للثورة الإسلاميّة، ورعاية خلفه الصالح آية الله العظمى السيد علي الخامنئيّ دام ظله، ووفق السياسات والأهـداف التي رسمها آية الله الشيخ محمد تقي مصباح اليزديّ حفظه الله، قد أولت اهتمامًا كبيرًا للأبحاث العلميّة والدينيّة، وعملت في سبيل تلبية حاجات مجتمعنا الفكريّة والدينيّة، من خلال طرح الأبحاث التأسيسيّة والتوجيهيّة والعمليّة. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، تسعى مُعاونيّة الأبحاث في المؤسّسة، بالإضافة إلى وضع البرامج وتوجيه الطلّاب والباحثين، إلى نشر مؤلّفات الباحثين. وقد استطاعت ـ بحمد الله تعالى ـ أن تقدّمَ للمجتمع الإسلامي مؤلّفاتٍ قيّمةً ضمن حدود قدرتها.

ويُمثّل هذا الكتاب مجموعَ دروسٍ أخلاقيّةٍ للأستاذ العلامة آية الله الشيخ محمّد تقي مصباح اليزدي دام ظله، ألقاها في العام الدراسيّ (٢٠٠٥-٢٠٠٦م) في مكتب سماحة القائد دام ظله في مدينة قمّ المقدّسة، وقد عمل على تدوينها المحقّق الكبير حجّة الإسلام والمسلمين محمّد مهدي نادري. وتتمحور سلسلة الدروسِ الأخلاقيّة هذه حول الآياتِ الأولى من سورة «المؤمنون» والآيات الأخيرة من سورة «الفرقان»، حيث يستعرض سماحة الأستاذ أوصاف المفلحين وعباد الرّحمن.



الدرس الأوّل:

المؤمنون المفلحون



﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾[١]

السير المعنويّ للإنسان

كنّا قد أشرنا في المباحث التي عقدناها في السنوات الماضية[٢]، إلى أنّ أهمّ عاملٍ في شقاء الإنسان وحرمانه من السعادة الأبديّة هو الغفلة؛ إذ إنّها تدفع بالإنسان نحو التنزّل إلى حدّ الحيوانيّة، بل إلى ما دون ذلك، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾[٣].

وقد ذكرنا أيضًا، أنّ أوّل ما يلزم على الإنسان القيامُ به في سبيل الخروج من الغفلة، والنجاةِ من هذه المهالك، هو أن يعرف «ما هو؟ ومن

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآيات ١ إلى ٣.

(٢) جمعت هذه المباحث وطبعت في كتاب تحت عنوان: **به سوى او**.

(٣) سورة **الأعراف**، الآية ١٧٩.

هو؟ ومن أين وفي أين وإلى أين؟». ومن خلال البحث والتتبّع في هذه الأسئلة، يلتفت الإنسان إلى مبدأ الوجود، فيعرف الله، ويعرف أنّه منه وإليه يعود؛ فالله مبدؤه ومعاده. وإن صدّق الإنسان بهذه المسألة وأيقن بها، فإنّه ـ بشكل طبيعيّ ـ سوف يخلُص إلى نتيجةٍ، مُفادها أن يجعلَ من الشيء القيّم هدفًا له، ويسعى من أجل الوصول إليه، وهو «القرب الإلهيّ».

ومن جهة أخرى، فإنّ أعظم وسيلةٍ للتقرّب إلى الله والتوجّه إليه هي الصلاة، ولذلك عقدنا عدّة جلساتٍ أيضًا حولَ الصلاة تكملةً لمباحثنا[١]. وبعد الفراغ من بحث الصلاة ـ والتي تعتبر أكبرَ عاملٍ إيجابيٍّ في ترقّي الإنسان وتكامله ـ رأينا من المناسب أن نبحثَ قليلًا حول العوامل ذات التأثير السلبيّ على هذا المسير.

وقبل الولوج في هذا القسم من البحث، نرى من المفيد أن نذكر هاتين النقطتين:

النقطة الأولى: أنّه ينبغي الالتفات إلى أنّ مسير تكامل الإنسان طويلٌ جدًّا، ومهما بذل الإنسان من جهدٍ في سبيل الوصول إلى مقصده النهائيّ فهو قليل. وإنّ هذا السفر الذي يبدؤه الإنسان في طريق التكامل طويلٌ جدًّا، إلى درجة أنّ شخصًا مثل أمير المؤمنين عليه السلام، ومع كلّ معارفه وعبادته، يذرفُ الدموع وينوحُ ويتأوّه من قلّة الزاد في هذا السفر. ولقد كان عليّ عليه السلام ذلك الشخص الذي تفوق ضربةُ سيفه عبادةَ الجنّ والإنس فضلًا ورفعةً، ومع ذلك، تراه في جوف الليل مشغولًا بالعبادة، وفي النهار لا يفتأ عن ذكر الله وقراءة القرآن أثناء اشتغاله في

---

(١) وجمعت مباحث الصلاة هذه وطبعت في كتاب تحت عنوان: **به توى تو**.



أمور الزراعة وسائر أعماله اليوميّة، ثمّ تراه في السَّحرِ ـ مع كلّ هذه العبادة والذكر والتوجّه إلى الله، وبعد ساعاتٍ من العبادة والمُناجاة والأنين ـ يتأوّه وينادي: «آهٍ من قلّةِ الزادِ وطولِ الطريق وبُعدِ السفر»[١]. فإذا كان هذا حال عليٍّ عليه السلام، فواضحٌ تكليف أمثالنا؛ فإنّنا ولو اجتهدنا لطيّ منازل هذا المسير الطويل بأسرع ما يمكننا، ولو صرفنا فيه كلّ طاقتنا، لا نعلم كم يتسنّى لنا أن نجتازَ منه.

والنقطة الثانية: أنَّ هذا المسيرَ ومقصدَه، يختلفان عن سائر المسيرات ومقاصدها. وجوهرُ هذا الاختلاف يكمن في أنّ الوصولَ إلى أيّة مرحلةٍ من مراحل هذا المسيرِ، وقطعَ أيّ شوطٍ منه، هو أمرٌ مطلوبٌ ومفيدٌ في حدّ ذاته. وليس الأمرُ أنّه ما لم يبلغ الإنسان نهايةَ المسير ولم يصل إلى المقصد النهائيّ، فإنّه لن يحصّلَ أيّةَ فائدةٍ من سيره. إنّ أسفارَ الدنيا غالبًا ما تكون من هذا القبيل، بحيث لا تتحقق أيّةُ فائدةٍ من حركة الإنسان وسيره ما لم يبلغ منتهى المسير. في السابق، عندما لم تكن وسائل السفر كما هي عليه اليوم، كان كثيرًا ما يحدث أن يصيبَ السفينة طوفانٌ مثلًا، فيغرقها ويمنع ركّابها من بلوغ مقصدهم، وعندئذٍ لا تحقّقُ هذه الأسفار للمسافرين أدنى مكسبٍ على الإطلاق. هذا بخلاف الأسفار المعنويّة التي يترتّبُ على بلوغ أيّةِ منزلةٍ منها فوائدُ ومكاسبُ. بالطبع، إنّ الفوائد المترتّبة على طيّ هذه المراحلِ، غيرُ قابلةٍ للمقايسة بتلك المترتّبة على بلوغ المقصد الأعلى والنهائيّ، إلّا أنّ للمنازل والمراحل المتوسّطة وغير النهائيّة في هذه الأسفار المعنويّة مطلوبيّةً على كلّ حال. وأساسًا، لو لم يكن الأمرُ كذلك لما عزم العازمون، ولا اجتهد المجتهدون، في سلوك طريق عبادة الله، ومسير التقرّب إليه؛ إذ إنّ ما

---

(١) الشريف الرضي، **نهج البلاغة**، الحكمة ٧٤.



يبعثُ الأفرادَ الضعاف والمتوسّطين على سلوك هذا الطريق أيضًا، هو علمهم بأنّ لكلّ منزلٍ يصلون إليه، ولكلّ شوطٍ يقطعونه في هذا المسير، مطلوبيّةً، وتلحقه فوائدُ ومكاسبُ وآثارٌ خاصّةٌ.

الالتفات إلى العوامل الإيجابيّة والسلبيّة في السير المعنويّ

وعلى أيّة حال، فعندما يصمّم المرء على أن يضعَ قدمَه في هذا المسير، وأن يشرع في حركته وسفره المعنويّ، فإنّ لسلوك هذا الطريق والإسراع فيه شرائطَ لازمةً، وفي المقابل أيضًا، موانعُ ينبغي رفعها وإزالتها من الطريق. وأساسًا، إنّ كلّ فعلٍ كما أنّ له سلسلة شرائط إيجابيّة يُطلق عليها في الاصطلاح «الشروط»، فإنّ له أيضًا مجموعة من الشرائط السلبيّة الّتي يُطلق عليها «الموانع». **بعبارةٍ أخرى**: من أجل بلوغ أيّ مقصدٍ، لا بدّ من القيام بسلسلة أفعال والامتناع عن سلسلة أفعال أخرى. ومن هنا، فإنّ السيرَ إلى الله أيضًا مؤلّفٌ من قسمين:

الأوّل: يرتبط بمعرفة الأفعال التي ينبغي القيامُ بها.

والآخر: يرتبط بمعرفة الأمور المانعة من السير إلى الله، التي ينبغي اجتنابها.

ولا تكفي معرفةُ الوظائف الإيجابيّة وتأديتُها في تحصيل الموفَّقيّة في السّير إلى الله، ولا يمكن لها أن تشكّل وحدَها ضمانةً للوصول إلى المقصد؛ ذلك لأنّ الموانعَ قد تطرأ، وقد نجدُ أنفسنا أحيانًا، ومن غير أن نشعر، نقومُ بأعمالٍ من شأنها أن تُفسدَ كلَّ ما قمنا به، وتشعلَ نارًا تُحرق كلّ محصولنا وتجعلَه هباءً منثورًا. وإنّ آثار المسائل المعنويّة، الإيجابيّة والسلبيّة على حدّ سواء، ليست بالآثار المحسوسة؛ فعلى سبيل المثال، إنّ الآثار الإيجابيّة للصلاة وأنوارها، ليست من الأمور التي تشاهَد بالعين،

وكذلك آثار الذنب والنار التي يُشعلُها لا تُدرَك بالحواس، والحالُ أنّه وفقًا للنصوص الصّريحة من آياتٍ وروايات، فإنّ لكلّ ذنب تبعاتٍ وآثارًا سلبيّة تكون وبالًا على مرتكبه؛ فعلى سبيل المثال، يقول القرآنُ الكريمُ ـ في حقّ من يتصرّف بأموال اليتامى بغير حقّ ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾[1]؛ فهؤلاء الأفراد يملأون بطونَهم نارًا بتصرّفهم الظالم في أموال الأيتام، إلّا أنّهم لا يُدركون حرارة هذه النار في الدنيا، ولكنّها في عالم الآخرة تصبح حقيقةً معلومةً لهم.

أو مثلًا في ما يرتبط بالغيبة وحقيقة هذا الذنب وباطنه وملكوته، يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾[2]؛ فطبقًا لهذه الآية، من يرتكب الغيبة، فإنّه يأكل لحم ميّت متعفّن في هذه الدنيا، إلّا أنّ أحدًا لا يلتفت إلى هذا الأمر، ولا يدرك ملكوت الذنوب وباطنه إلّا من فتح عين باطنه. أمّا الأفراد العاديّون، فلا طريق لهم إلى إدراك هذه الحقائق. وعلى أيّة حال، فإنّنا نقوم أحيانًا بأفعال وتكون قلوبُنا فرحةً لاعتقادنا بأنّنا نُحسن صُنعًا، ولا نواجه أيّة مشكلة على الإطلاق؛ لأنّنا نؤدّي وظيفتنا على أتمّ وجه، غافلين عن أنّنا إلى جانب أداء وظيفتنا نقوم ببعض الأفعال التي تُحبط أعمالنا الحسنة؛ فمن المفاهيم التي أُشير إليها في المعارف الإسلاميّة ـ بصريح آيات القرآن التي لا تقبل الإنكار ـ ما يُعرف بـ«حبط الأعمال»؛ يقول الله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤

(١) سورة **النساء**، الآية ١٠.

(٢) سورة **الحجرات**، الآية ١٢.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[1].

فمن جملة الأمور التي يمكن أن تكون سببًا في حبط الأعمال ـ مثلًا ـ:عدم مراعاة الأدب مع رسول الله ﷺ. ولا نقصد هُنا الجسارة والإهانة بحقّ ساحته المقدّسة ﷺ؛ فإنّ لذلك حسابه الخاصّ، بل إنّ القرآن الكريم يعتبر أنّ مطلقَ عدم مراعاة الأدب مع الرسول الأكرم ﷺ قد يكون من موجبات بطلان أعمال الإنسان الحسنة وحبطها؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[2]. نعم، إنّ مجرّد رفع الصوت فوق صوت النبيّ ﷺ من شأنه أن يحبط أعمال الإنسان، فكيف بذنوب أكبر، كاغتيابه والكذب عليه ﷺ وما شابه؟!

وعلى كلّ حال، ينبغي الالتفات إلى أنّنا في مسير الكمال والقرب من الله في مواجهة نوعين من العوامل:

النوع الأوّل: العوامل الإيجابيّة، ما ينبغي على السالك القيام به.

والنوع الثاني: العوامل السلبيّة، ما ينبغي للسالك أن يجتنب عنه.

وبالطبع، إنّ للأعمال التي ينبغي القيام بها، ولتلك التي ينبغي الاجتناب عنها، مراتب مختلفة؛ فمن جهةٍ، لدينا الواجبات المؤكّدة وتليها الواجبات العاديّة، ثمّ المستحبّات المؤكّدة فالمستحبّات العاديّة، إلى أن

---

(١) سورة **الكهف**، الآيات ١٠٣ إلى ١٠٥.

وقد أشارت آيات أخرى إلى مسألة حبط الأعمال منها: سورة **البقرة**، الآية ٢١٧، سورة **آل عمران**، الآية ١٢٢، سورة **المائدة**، الآية ٥، سورة **الأنعام**، الآية ٨٨، سورة **الأعراف**، الآية ١٤٧... وغيرها.

(٢) سورة **الحجرات**، الآية ٢.

نصل إلى المباحات. ومن جهة أخرى، لدينا الكبائر الموبقة، ومن بعدها سائر الكبائر، وتليها الذنوب العاديّة، ثمّ المكروهات فالمُشتبهات.

وإنّ وجود هذين النوعين من العوامل ـ أي: الإيجابيّة والسلبيّة ـ في مسير التكامل الإنسانيّ والسير إلى الله، من الواضحات والمسلّمات التي لا مجال لإنكارها والتردّد والشكّ فيها، ومن لا يعتقد بوجودها لم يفقه من الدِّين شيئًا. ومن هنا، فإنّ المرحلة الأولى التي ينبغي للمسلم أن يجعلها نُصب عينيه هي معرفة الواجبات والمحرّمات وتشخيصها.

أمّا من أين نشرع في سيرنا إلى الله وكيف؟ فهذا بحدّ ذاته بحثٌ مستقلّ. وفي الأساس، تُعتبر تربية النفس فنًّا ومهارةً خاصّةً عظيمةً وقيّمةً، وتتطلّب خبراتٍ خاصّة. وإنّ الأفرادَ الذين استطاعوا معرفة فنون هذا المسير وخفاياه ومسائله حقّ المعرفة ليسوا كُثُرًا. ومن حسن الحظّ، أنّ القرآن الكريم علاوةً على بيانه أصلَ التكاليف والواجبات والمحرّمات، قد لاحظ في العديد من الموارد ـ أثناءَ بيانه للمطالب ـ نُكاتٍ تربويّة مهمّة، يمكن من خلال التأمّل والتدقيق استخلاصُها من الآيات القرآنيّة وتوظيفها في المكان المناسب. فليس القرآن الكريم من قبيل الرسائل العمليّة التي تكتفي ببيان الواجب والمحرّم من الأفعال، بل إنّه يعرض مطالبَه ببيانٍ وتعابيرٍ خاصّة، ويطرح في طيّات بيانه لأصل الحكم نُكاتٍ تربويّة أيضًا. ومن هنا، فينبغي أثناء مطالعة القرآن الكريم التدقيقُ في عباراته وألفاظه وتوكيداته ومبانيه لاستخراج اللطائف والظرائف الموجودة فيه. والآن، وبهذه النظرة التدقيقيّة نسلّط الضوء على الآيات الأولى من سورة «المؤمنون» بوصفها مُفتَتَحًا لبحثنا.

تبدأ سورة «المؤمنون» بقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾. وإنّ لتعبير «الفلاح» الذي استُعمل في هذه الآية، بُعدًا وثقلًا معنويًّا خاصًّا. فعندما يرى الإنسان نفسَه وسط مسيرٍ محفوفٍ بالموانع والصعاب، ومن أجل الوصول إلى مقصده، لا بدّ له من اجتياز الأشـواك والأوسـاخ والحُفَر والعثرات، فإذا ما تمكّن من عبور هذا المسير والوصول سالمًا إلى مقصده، يُستعملُ في حقّه تعبيرُ «الفلاح». «أفلح»، أي: «وُفّق»؛ إذ إنّ تعبير «المُوَفَّقيّة» يُستعمل في الموارد التي يخوض فيها الإنسان صراعًا مع الموانع التي تقف في طريقه، ويتمكّن من اجتيازها والتغلّب عليها، أمّا ذلك الشخص الذي يجلس في مكانه بهدوء ويصل إلى يده كلُّ ما يريد من دون أن يبذلَ أيّ جهد، فلا يستعمل في حقّه تعبير «المُوَفَّقيّة»، وكذلك تعبير «الفلاح»؛ فهو إنّما يُستعمل في الموارد التي يبلغ فيها السالك مقصده بعد تغلّبه على الموانع والمشكلات في مسيره الصعب والمحفوف بالمخاطر. ومن التعبيرات المشابهة للفلاح «الفوز»؛ فالفلاح يعني الخلاص من المهالك والمشاكل، والفوز يعني بلوغ المقصد. ويُعتبر الفوز والفلاح مطلوبًا ذاتيًّا وفطريًّا لكلّ إنسان.

بعبارة أخرى: إنّ طلب الإنسان للفوز والفلاح هو أمرٌ غير قابلٍ للتعليل، فلا يمكن البحث عن علّةٍ غائيّةٍ وراءَه، بل هو علّة العلل بالقياس إلى ما عداه من رغبات الإنسان ومطلوباته. ولذلك لا نرى في القرآن الكريم عباراتٍ من قبيل: «افلحوا لعلّكم كذا»، بل إنّ القرآن الكريم يرى في الفلاح والفوز غايةَ الأفعال الإنسانيّة ونهايتَها وهدفَها، فيقول ـ مثلًا ـ: ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[1]،

(١) سورة **الحج**، الآية ٧٧.



ولا تجدُ في آيات القرآن الكريم أيّةَ دعوةٍ إلى الفلاح من أجل شيءٍ آخر، بل هو غاية الغايات، ولا غاية له. ومن الأمثلة على آيات الفلاح في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[١] و﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[٢].

ومن أجل ترغيب المؤمنين وتشجيعهم على إطاعة الله تعالى والقيام بالأعمال الحسنة، يعدهم القرآن الكريم بأنّهم إذا ما التزموا بما طُلب منهم، فإنّهم سيصلون إلى الفلاح، أمّا نفسُ الفلاح فلا يحتاج الإنسان إلى ترغيبٍ وتشجيعٍ ليسعى طلبًا له، بل هو مطلوبٌ فطريٌّ وذاتيٌّ له؛ فكلّ إنسان يطلب السعادة فطريًّا، ولا تجد إنسانًا لا يبحث عنها. **وبتعبير آخر**: إنّ مطلوبيّة السعادة للإنسان أمرٌ جبريّ؛ فهو شاء أم أبى، طالبٌ لها، باحثٌ عنها. **وبتعبير أدقّ**: إنّ طلب السعادة أمرٌ «جِبِلّي» عند بني البشر. الإنسان مجبول عليه. قد جَبَلَ الله ذاتَ الإنسان وفطرتَه بنحوٍ يجعل منه طالبًا للسعادة والفلاح.

الشرط المهمّ للفلاح

الأمر المهمّ والمُشكل في هذا الصدد هو الإجابة عن سؤالٍ، مُفاده: «ماذا ينبغي أن نفعل في سبيل الوصول إلى الفلاح؟ وأيّ طريق ينبغي أن نسلك؟». تشير الآية الأولى من سورة «المؤمنون» إلى شرط الفلاح الأوّل فتقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، فتحصيل الإيمان شرطٌ للفلاح يتصدّر كلّ الشروط، ولا يقع الكلام حول الفلاح ما لم يكن إيمانٌ في البين. ومن هنا، فإن جَانَبَ الإنسان الإيمان عن علم وعمد، فلن يكون له نصيبٌ من الفلاح. وقد تجد في بعض الأحيان أفرادًا لم يتمكّنوا من الوصول إلى

---

(١) سورة **الشمس**، الآية ٩.

(٢) سورة **الأعلى**، الآية ١٤.



عمق هذه المباحث، ولم يطّلعوا على الإيمان وما يرتبط به من مطالب، إلّا أنّهم معذورون في عدم إيمانهم، ومع ذلك فلا نصيب لهم من الفلاح ولا يدخلون الجنّة وإن كانوا لا يدخلون النار أيضًا. وعلى أيّة حال، فإنّ بحث «المُسْتَضْعَف الفِكْرِيّ» بحثٌ مستقل يُطلب في محلّه، ولكن من المسلّم به، أنّ الفلاح مختصّ بالمؤمنين، وأنّ غير المؤمن لا يمكن أن يصل إلى الفلاح. وفي الواقع، إنّ هذا المطلب هو عينه الذي أشرنا إليه في مباحثنا الماضية، حيث ذكرنا أنّ أوّل ما ينبغي على الإنسان فعله في مسير خروجه من الغفلة أن يعرف «ما هو؟ ومن هو؟ ومن أين وفي أين وإلى أيـن؟»، أي: ينبغي أن يتمّ مباحث أصول الدين، فيؤمن بمبدئه ومعاده والصراط الذي بعث الله الأنبياء عليهم السلام به من أجل عبور الإنسان من المبدأ إلى المعاد. والإيمان ـ كما ذكرنا أيضًا ـ من أفعال القلب، فلا بدّ للمرء من أن يصدّق قلبيًّا بهذه الأمور، فلا يكون إيمانه محض لقلقة لسان، ولا يتعدّى كونه ألفاظًا وعباراتٍ تجري على لسان قائلها من دون تصديق واعتقادٍ قلبيّ.

وبعد الإيمان، تُشكّل الصلاةُ العامل الأوّل في تقدّم الإنسان في هذا السير واقترابه من الفلاح؛ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[١]. في هذه الآية يتّضح الاختلاف بين أسلوب القرآن الكريم في بيانه لمطالبه وأسلوبنا في بياننا لمطالبنا؛ فالقرآن هنا لم يفكّك بين حيثيّات المسألة المطروحة، فلم يبدأ أوّلا ببيان وجوب الصلاة، ثمّ يعدّد مستحبّاتها، ومن بعدها يذكر فضيلتها؛ إذ إنّ بيان المسائل وبحثها بهذه الطريقة من شؤوننا نحن البشر، حيث نعمد إلى تفكيك الحيثيّات بعضها عن بعض، فنفكّك ـ مثلًا ـ بين الواجب والمستحبّ، والفقه والأخلاق،

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآيتان ١ و٢.



والأخلاق والكلام، وهكذا... ونختار لكلّ منها منهجًا خاصًا في البحث. أمّا القرآن الكريم ـ بوصفه كتاب هداية وتربية ـ فإنّه يسعى ليبيّن مطالبه بأوجز العبارات وأفضل الأساليب وأكثرها تأثيرًا. فمثلًا، إنّه بعد قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ لم يقل: «الذين يؤدّون صلواتهم الواجبة ثمّ يؤدّون صلواتهم المستحبّة بهذه الكيفيّة وتلك الطريقة»، بل إنّ القرآن تعامل مع مسألة وجوب الصلاة تعامل المسلّمات المفروغ عنها عند هؤلاء المؤمنين؛ إذ إنّ إقامة الصلاة الواجبة من أوّل الأعمال التي ينبغي على المسلم الالتزام لها. وعوضًا عن ذلك، تصدّى القرآن للتأكيد على عدم اكتفاء هؤلاء المؤمنين المفلحين بصِرف أداء الصلاة، بل إنّ الصلاة التي من شأنها أن تمضي بالإنسان قُدُمًا في مسيره التكامليّ، وتدنيه من الفلاح، هي الصلاة الخاشعة دون غيرها.

وبعد أن اتّضح كون الصلاة الخاشعة عاملًا إيجابيًّا في تحقّق الفلاح، يورد القرآن بعده مباشرةً عاملًا سلبيًّا، مُفاده: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾[1]. وكما ذكرنا في مستهلّ بحثها، إنّنا لن نبلغ مقصدنا النهائيّ إن اقتصرنا بالنظر إلى الواجبات والمستحبّات والعوامل الإيجابيّة، وأهملنا جنبة معرفة الذنوب وأخذ الحذر من العوامل السلبيّة. فمَثَل هذا الأمر كَمَثَلِ الفلّاح الذي يزرع بذور القمح، ويجتهد في سقايتها والاعتناء بها، حتّى تصل إلى مرحلة الحصاد، فإن وصلت أصابتها صاعقة من نار والتهمتها، فغدت هباءً منثورا؛ يقول تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ٣.

كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

فينبغي أن نحذر من أن يصيب حصادَنا مثلُ هذا الإعصار، وألّا نحرق أعمالنا الحسنة بأيدينا ونجعلها هباءً منثورًا. وتحقّق هذا الأمر مشروطٌ باجتناب بعض الأمور، وفي هذه الحالة فقط، يُوفّق الإنسان لأداء الصلاة الخاشعة أوّلا، ولا تزول آثار هذه الصلاة وثمراتها ثانيًا، بل تبقى وتنمو. وعليه، فمن أجل تحصيل التوفيق لأداء الصلاة الخاشعة وبقاء أثرها، لا بدّ من مراعاة العامل الثاني: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[٢].

ويجدر بالذكر، أنّ بيانات القرآن الكريم فيما يتعلّق بالعوامل الإيجابيّة أو العوامل السلبيّة وموانع التكامل الإنساني، تُطرح عادةً بصورة عامّة مطلقة. فمثلًا، في القسم الأوّل المرتبط بالعوامل الإيجابيّة من سورة «المؤمنون»، طُرح بحث الصلاة، واقتصر القرآن في بيانه لهذا البحث، على الدعوة لأداء الصلاة بخشوع، وهذه الدعوة لا تختصّ بالصلاة اليوميّة الواجبة، بل تشمل كلّ صلاة واجبة، وكذلك تشمل الصلاة المستحبّة، أي: إنّها تشمل كلّ صلاة. وكذلك بيانات القرآن الكريم من قبيل: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[٣]، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾[٤]؛ فهي لا تختصّ بالصلاة الواجبة دون غيرها، بل إنّ المقصود طبيعيّ الصلاة وكلّيّها. ومع أنّ للصلاة ـ بطبيعة الحال ـ مراتب ومصاديق مختلفة، فمنها الواجب ومنها الواجب المؤكّد، ومنها المستحبّ ومنها

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٦٦.

(٢) سورة **المؤمنون**، الآية ٣.

(٣) سورة **العنكبوت**، الآية ٤٥.

(٤) سورة **طه**، الآية ١٤.



المستحبّ المؤكّد، إلّا أنّ البيانات المذكورة لا تختصّ بمصداق خاصّ بل تشمل كلّ مراتب الصلاة ومصاديقها.

وكذلك البيانات القرآنية المرتبطة بالعوامل السلبيّة وموانع تكامل الإنسان فهي أيضا من هذا القبيل؛ فعنوان «اللغو» المذكور في آية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾[1] له هذه الخاصّيّة ـ أعني: العموميّة والإطلاق ـ؛ فإنّ المؤمن يعرِضُ عن كافّة أشكال اللغو. ويطلق اللغو على كلّ أمرِ لا يُرتجى منه فائدةٌ للإنسان وتكامله. ويحوي هذا العنوان في طيّاته الكبائر من الذنوب مرورًا بالذنوب العاديّة والصغيرة، وصولًا إلى المكروهات والمشتبهات. بل إنّ بعض المباحات أيضًا قد تدخل في عنوان «اللغو».

إنّ الإنسان العاقل الذي لا يألو جهدًا في سبيل الوصول إلى هدفٍ معيّن، لا يشغل نفسه إلا بالأعمال المفيدة والمؤثّرة في وصوله إلى غايته، ويمتنع عن كلّ فعلٍ يُعيق سيرَه نحو هدفه، أو لا يساعده في بلوغ مبتغاه. وعندما يتحرّك الإنسان في مسير معيّن، فإنّه يميل بشكل طبيعيٍّ وفطريٍّ إلى أن يصل إلى مقصده بأسرع ما يمكن. وإنّنا لنذكر حينما كنّا صغارًا ونسافر بالسيارة، كيف كنّا نستاء ونحزن إذا ما تجاوزت سيارةٌ أخرى سيارتنا، وكيف كنّا نفرح إذا ما سبقت سيارتنا باقي السيارات وتجاوزتها. وما حدوث هذا الفرح والاستياء الطفوليّان سوى أثرٍ من آثار تلك الميول الفطريّة والطبيعيّة، التي تقضي بأنّه إذا جعل الإنسان الوصولَ إلى مقصدٍ نصب عينيه، فإنّه يميل إلى الوصول إليه بسرعة. وفي طريق تحقيق الهدف والوصول إليه، لا ينسجم التباطؤ وكثرة التعثّر

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ٣.



والنهوض مع تلك ميول الفطريّة والعقل الإنساني السليم. وإنّ الإنسان الذي يؤمن بهدفٍ يعرف طريق الوصول إليه، وبحوزته الوسائل والأدوات اللازمة لقطع المسير والوصول إلى المقصد، لا يجد أيّ مسوّغ يدعوه إلى التوقّف والتراجع وإشغال نفسه بأفعال لغويّة لا طائل تحتها ولا فائدة منها. والطبع الإنسانيّ يقتضي أن يسارع الإنسان في الوصول إلى مقصده ما دام لا مانع من الإسراع ولا يترتّب عليه أيّ خطر. وهذا ما يؤيّده حكم العقلُ أيضًا، فبما أنّه أمكن الإسراع في السير بلا خطرٍ، فإنّ العقل يقبله. أمّا عندما يكون المسير متعرّجًا ومحفوفًا بالمخاطر، فالعقل يحكم بحسن الاحتياط والاعتدال. بل لا مانع أيضًا من التوقّف إن كان بغرض الاستراحة ورفع التعب، بل هو أمر مطلوب، وقد يُعتبر من ضروريّات السير وشروطه. ولهذا، فإنّ الفراغ والترويح عن النفس قد يعتبر نوعًا من العبادة، بشرط أن يكون الغرض منه تجديد القوى، وكسب الطاعة للسير بشكل أفضل في مسير التكامل والعبوديّة، ولا يعتبر إطلاقًا من مصاديق اللغو. فاللغو ـ كما ذكرنا ـ عبارة عن الفعل الذي لا يُرتجى منه فائدة وأثر إيجابيّ، في طريق الوصول إلى المقصد. ومن هنا، يتّضح أن كلّ فعل يؤثّر سلبًا في هذا الأمر، ويعيق الإنسان في وصوله إلى هدفه، سيعتبر بطريقٍ أولى من مصاديق اللغو.

وإنّ صاحبَ الهدف إذا ما أعمل عقلَه، فإنّه سيجتنب أيّ فعلٍ من شأنه أن يكون عائقًا في طريقه، أو مُبطِّئا من سرعة حركته، وإنّ سالكَ الطريق إذا ما صادف صخرةً أو حفرةً أو مطبًّا، فإنّه سيبتعد عنه، ويجتاز من قربه بحذر ودقّة. وكذلك في السير المعنويّ، توجد عوامل من شأنها أن تشلّ حركة الإنسان بشكل كلّيّ أو على الأقلّ تُبطِّئها. وعلى الإنسان العاقل ـ بطبيعة الحال ـ أن يكون حذِرًا ومراقبًا لهذه العوامل، وأن يسير على نحوٍ يكون في مأمنٍ منها. ولهذا، يبيّن القرآن الكريم في سورة



«الفرقان» إحدى صفات «عباد الرحمن» على هذا الشكل: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[١].

وفي المحصّلة، فإنّ شرط الوصول إلى الفلاح أن يجتنب الإنسان، بالإضافة إلى تأدية سلسلة الأفعال المطلوبة، الأمورَ التي تعيق سيره وتقطع طريقه وتوجد خللًا في حركته. ومن هنا، نرى أصحاب الهمم العالية، يجتهدون في اجتناب الأمور التي تُبطّئ من سيرهم، فضلًا عن التي تُقطعه. أمّا أصحاب الهمم الضعيفة، فنجد أنّ سعيهم ينحصر في اجتناب الأمور الموجبة لسقوطهم وتراجعهم على الأقلّ، أي: الذنوب الكبيرة أو ما يعرف اصطلاحًا بالكبائر.

تجنّب المسموع من اللغو على وجه الخصوص

وعلى أيّة حال، فإنّ المسار الكلّيّ يقضي باجتناب كلّ أمر لا يُرتجى منه فائدة في تكامل الإنسان وسيره، ما يعرف بـ«اللغو» في الاصطلاح القرآنيّ. إلّا أنّ اللغو في القرآن الكريم، قد استعمل في بعض الموارد وأُريدَ منه اللغو في المسموعات خاصّة؛ نظير الآية الكريمة التي تقول ـ في توصيف حال الجنّة وأهلها ـ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾[٢]، وقد فسّرت العديد من الروايات اللغو بالمسموع منه، ومن جملة هذه الروايات ما جاء في تفسير آية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[٣] «اللغو هو الغناء والملاهي»[٤]. بالتأكيد، إنّ الموسيقى وأدواتها والألحان

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٢.

(٢) سورة **الواقعة**، الآية ٢٥.

(٣) سورة **المؤمنون**، الآية ٣.

(٤) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٦٩، الصفحة ٤٣، الرواية ٦، الباب ٣٠.

الغنائيّة المحرّمة، تعدّ من أبرز مصاديق اللغو، إلّا أنّ استعمال اللغو فيها لا يقيّد مفهوم اللغو بالمسموعات خاصّة، بل هو أوسع من ذلك، ويشمل كل فعل لا جدوى منه ولا فائدة.

ومن المفاهيم القريبة من مفهوم «اللغو»، مفهوما «العَبَث» و«اللهو»، وقد ورد استعمالهما في القرآن الكريم. ويُطلق العبث على كلّ فعل ليس من ورائه هدف عقلائيّ، أمّا اللهو فهو الفعل الذي ليس فيه سوى جنبة المرح والتسلية ولا يترتّب عليه أيّة فائدة؛ فهو من مصاديق «اللغو» من جهة عدم ترتّب فائدة عليه، ومن مصاديق «العبث» من جهة افتقاره إلى الهدف العقلائيّ. ومن أمثلة استعمال كلمة «العبث» في القرآن الكريم، ما جاء في أواخر سورة «المؤمنون»: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾[1].

وينبغي أيضًا إضافة كلمة «اللعب» إلى المفاهيم التي تقدّم ذكرها، و قد ورد استعمال هذه الكلمة ذات المعنى القريب للّهو في عدّة موارد في القرآن الكريم. وقد وردت كلمتا اللعب واللهو جنبًا إلى جنب في مجموعة من الآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[2].

وعلى أيّة حال، فلمفهوم اللغو معنى عامّ، لا يختصّ بالمسموعات فقط، كالغناء والموسيقى المحرّمين، وإن كانت المسموعات ـ كما ذكرنا ـ من أبرز مصاديق اللغو. ومن هنا، يمكن لنا أن نستفيد نُكتةً تربويّة، مُفادها أنّ على الإنسان ـ أثناء إعراضه عن الأمور اللغويّة ـ أن يبدأ بأبرز

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ١١٥.

(٢) سورة **محمّد**، الآية ٣٦.



مصاديقها، ألا وهي المسموعات منها، وأن يجتنب استماع الموسيقى المحرّمة والأنغام والألحان المبتذلة. وكذلك ينبغي اجتناب غير الموسيقى من المسموعات المحرّمة، كاستماع الفحش والسخرية وغيرها.

وبناءً عليه، فإنّ اللغو في الأصل هو كلّ فعل لا تترتّب عليه فائدة، وتقع في صدارة هذه الأفعال أمورٌ، لا أنّها لا فائدة منها فقط، بل إنّها ضارّة أيضًا، تُعيقنا في مسير التكامل الإنسانيّ، وهي الذنوب والمحرّمات، ومن أبرز مصاديقها بحسب ما جاء في الروايات المسموعات اللغويّة المضرّة، وينبغي على الإنسان أن يكون حذرًا ومحترزًا منها. وإنّ الجلوس على مائدة الأحاديث اللغويّة التي لا طائل منها، من شأنه أن يؤثّر سلبًا في قلب الإنسان وروحه بشكلٍ تدريجيٍّ وإن لم يشارك في هذه الأحاديث بنفسه. وإن الشخص الذي يتردّد مدّة من الزمن إلى هذه المجالس المليئة بالكلام اللغويّ الذي لا فائدة منه، لو تأمّل في داخله بعد أيّام، لاكتشفَ كم تغيّر قلبه وروحه وصفاؤه ومعنويّاته وباطنه، نسبةً إلى ما كان عليه قبل هذه المجالس.

أمّا المجالس التي يذكر فيها الكلام المضلّ والمثير للشبهات، فينبغي الاحتراز الشديد عن الجلوس فيها، والقرآن الكريم يحذّر من هذه المجالس تحذيرًا شديدًا، حيث يقول: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[1].

(١) سورة النساء، الآية ١٤٠.

فقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ الذي جاء في ذيل الآية الكريمة، يشير إلى أنّ الحضور في هذه المجالس والاستماع إلى ما يذكر فيها، إن لم يوصل صاحبه إلى الكفر الظاهريّ، فإنّه سيجرّه حتمًا إلى النفاق والكفر الباطنيّ، وسيُزلزل اعتقادَه القلبيّ بالمسائل والمعتقدات الدينيّة، وإن لم يظهر ذلك على لسانه. لذلك، فإنّ من أهمّ الأمور التي ينبغي على السالك إلى الله أو من يريد أن يخطوَ في مسير القرب الإلهيّ مراعاتُها، هي الالتفات إلى مسألة المسموعات، بأن لا يصغيَ إلى كلّ شيء يطرق سمعه.

ومن النُّكات الملفتة في الآية الثالثة من سورة «المؤمنون»، أنّ الله سبحانه وتعالى لم يقل: «الذين لا يفعلون اللغو» بل قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾، وكذلك في الآية المئة والأربعين من سورة «النساء» التي تقدّم ذكرها، لم يقل: «فلا تسمعوا» أو «فلا تصغوا» بل قال: ﴿فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ﴾.

بعبارة أخرى: لا يكفي عدم الإصغاء، بل لا ينبغي حضور هذه المجالس أصلًا، قبل أن تصل النوبة إلى الإصغاء أو عدم الإصغاء. ومع هذا، فإنّنا نرى أفرادًا لا يتوانَون عن حضور هذه المجالس، بحجّة أنّها لا تؤثّر فيهم. وينبغي أن يقال لهؤلاء الأفراد: إنّ أشخاصًا كانوا يفوقونهم بدرجاتٍ من العلم والاطّلاع، قد غُرّر بهم وخُدعوا، بل انتهى بهم الأمر إلى الشرك بسبب حضور هذه المجالس. وليس هذا كلامي، بل هو كلام القرآن الكريم الذي يقول: «إذا أردت ألّا تسقط في فخّ الكفر والنفاق، فعليك أن تتحكّم بأذنك، فلا تصغِ إلى كلّ كلّام»؛ فوفق صريح القرآن الكريم لا بدّ من الإعراض عن الإنسان الغافل عن ذكر الله، أو على الأقلّ عمّن لا يُرتجى من كلامه فائدة.

نعم، أحيانًا يكون الإنسان في مقام التعليم والتعلّم ومواجهة الانحرافات والشبهات الفكريّة والعقائديّة، فلكي يتمكّن من دفع إشكالات المخالفين والمعاندين، لا بدّ له ـ بطبيعة الحال ـ من الإصغاء إلى كلامهم. ولذلك نرى الأساتذة في الحوزات العلميّة، في دروس الفلسفة والعقيدة على وجه الخصوص، ينقلون آراء الملحدين ومنكري الدِّين ووجود الله، وما ذلك إلّا مقدّمةً لحفظ الدين وتقوية الإيمان، وليس المراد منه بالطبع إيجاد الضعف والتزلزل في دين الأفراد وإيمانهم. أو مثلًا في مباحث الفقه، يطرح فقهاؤنا آراءَ بعض الفرق المخالفة لنا، ثمّ يردّونها من خلال البحث الفقهيّ والعلميّ. ولكن أحيانًا، قد تُعقَدُ مجالس يكون غرض أصحابها تخريب المباني الدينيّة وإضعافها، وقد أكون جالسًا ومصغيًا وليس باستطاعتي ردّ كلامهم والإجابة عنه، أو أنّني لا أجيب لغرضٍ عقلائيّ آخر. هذه المجالس هي التي نهى القرآن عن الحضور فيها. إلّا أنّ بعضًا قد اعتبر هذا النهي رجعيّةً وتحجّرًا. وفي مقابل كلامهم واتّهامهم نقول: إذا كان القرآن رجعيًّا فنحن أيضا رجعيّين ونفتخر برجعيّتنا.

وفي المحصّلة، ينبغي على الإنسان من أجل السير في طريق التكامل، بالإضافة إلى فعل الواجبات والاعتناء بالعوامل الإيجابيّة للسير التكامليّ، أن يلتفت إلى المحرّمات والعوامل السلبيّة واللغو الذي ليس له أدنى تأثيرٍ إيجابيّ في مسير التقرّب إلى الله، وأن يعرض عنها؛ فعندما يكون بإمكان التاجر الذي يمتلك رأس مالٍ ضخم أن يوظّفه في مشروع يحقّق له أرباحًا بنسبة ١٠٪ ، فلا مسوّغ له لأن يصرفه في أمرٍ لا يحقّق له أيّ ربح. وبالطبع، إنّ هذه الأرباح المقدّرة بنسبة ١٠٪ مرتبطةٌ بتجارات عالم الدنيا فقط، وإلّا فإنّ الأرباح في ما نحن فيه، أي: بحث الآخرة والكمال الإنسانيّ والتقرّب إلى الله، وفقًا لآيات القرآن، تُقدّر بعشرة

أضعاف، أي بنسبة ١٠٠٠٪، حيث يقول تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[١].

والآن، عندما يمكن للإنسان أن يدخل في تجارةٍ بأرباح تبلغ نسبتها ١٠٠٠٪، فلماذا يصرف رأس مال عمره ووقته في ما لا فائدة منه؟ وهل يشرع الإنسان العاقل في عملٍ بحيث لو اجتهد لساعات وأيام في سبيل إنجازه، فإنّه سيجد أنه في نهاية المطاف لم يحصل على أيّ مكسب، بل إنّ نفس ما كان بحوزته قبل شروعه بالعمل لا زال معه دون أيّة زيادة؟! إنّ صرف العمر في ما لا فائدة منه من هذا القبيل؛ فكأنّ الإنسان قد دخل في تجارة لا ربح فيها، وفي النهاية سيجد أنّه لا يملك سوى رأس المال الذي كان بحوزته في البداية. فضلًا عن أنّ في هذا التشبيه خطأً؛ إذ إنّ العمرَ رأس مالٍ لا يعوّض؛ فعندما يخسره الإنسان لا يمكن له أن يستعيده ولا أن يتداركه. وعليه، فإنّ أعقل الناس من يصرف كلَّ لحظة من لحظات عمره في ما يعود عليه بالفائدة في مسير التقرّب إلى الله تعالى.

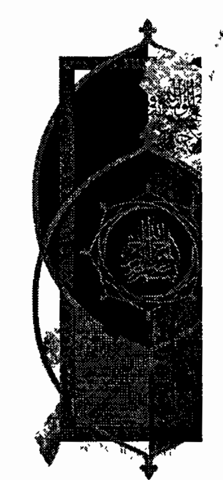
(١) سورة **الأنعام**، الآية ١٦٠.



الدرس الثاني:

العلاقة بين الزكاةِ والفلاحِ (١)





﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾[١]

مرور على مطالب الجلسة السّابقة

تطرّقنا في الجلسة السابقة إلى بعض آيات سورة «المؤمنون» المباركة، التي ترتبط ببحث الفلاح. وأشرنا إلى أنّ كلمة الفلاح تُستعمل في الموارد الّتي يقع فيها الشخص في ضائقة ما، ويواجه أصناف المشاكل والمخاطر، فيتمكّن من تخطّيها والعبور منها سالمًا وبلوغ مقصده. ومن هنا، نرى أنّ بعض الآيات القرآنيّة التي ورد فيها استعمال لفظ الفلاح، من قبيل قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[٢] و﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[٣] و﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[٤]، ونظير هذه الآيات، تشير ـ في الواقع ـ إلى أنّ الإنسانَ إذا ما أراد الوصول إلى كماله، فلا مناصَ له من سلوك طريقٍ

(١) سورة **المؤمنون**، الآيات ١ إلى ٤.

(٢) سورة **المؤمنون**، الآية ١.

(٣) سورة **الأعلى**، الآية ١٤.

(٤) سورة **الشمس**، الآية ٩.

محفوفٍ بالموانع والمشاكل، يواجه فيه خطر السقوط والانحراف عند كلّ خطوة. ولهذا السّبب، فإنّ على كلّ إنسانٍ يصبو إلى بلوغ المقصد النهائيّ، أن يُهيّئَ الظّروف ويُوفّرَ الشّروط الّتي يقدر من خلالها على رفع الموانع وحلّ المُشكلات وتخطّيها سالمًا والوصول إلى مقصده. وإنّ هذه الشروط قد طُرحت في بعضِ الآيـات القرآنيّة على هيئة صفات، أو بحسب الإصطلاح على شكل «مَلَكاتٍ أخلاقيّة»، وبُيّنَت في آياتأخرى على هيئة أفعال وسلوكيّات ينبغي ممارستها. وتُعتبر الآيات الأولى من سورة «المؤمنون» من الموارد الّتي طُرحت فيها الأفعال والسلوكيّات الموجبة لبلوغ الفلاح. وأوّل ما ذُكرَ في هذا المجال مسألةُ الخشوع في الصلاة، حيث يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[1]. وقد بيّنا أنّ هذه الآية الكريمة تتناول في الحقيقة عاملَين إيجابيّين لبلوغ الكمال على أقلّ تقدير:

الأوّل: هو أصل أداء الصلاة.

والثاني: هو المواظبة على الخشوع فيها.

وأمّا الآية التي تليها، فتشير إلى عامل سلبيّ، حيث تقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[2]. وتطرّقنا في الدرس السابق إلى مطالب في «اللّغو»، والاستعمالات القرآنيّة لهذا اللّفظ. وبالطبع، كان بالإمكان التوسّعُ أكثر في بحث هذه المطالب، إلّا أنّنا اكتفينا هنا بهذا المقدار، وبإمكان المهتمّين أن يراجعوا كتب التفسير والروايات الشريفة الباحثة في هذا المجال، من أجل تكميل البحث بشكل أوسع. ثمّ تشير الآيات الكريمة

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآيتان ١ و٢.

(٢) سورة **المؤمنون**، الآية ٣.



إلى شرط آخر من شروط الفلاح، وهو «إعطاءُ الزكاة»، حيث تقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾[١]. وغرضُنا في هذا الدرس أن نستعرض بعض المطالب التي تتمحور حول مسألة الزكاة. ولكن في البداية، نرى من المناسب أن نبحثَ في نفس مفهوم «الزكاة» ونتمعّنَ فيه.

بحث حول مفهوم الزكاة

إنّ بعض المفاهيم الواردة في القرآن الكريم، وإن كان لها في لغة العرب أصلٌ وجذرٌ، فإنّ القرآن الكريم يلحظُ فيها أثناء استعمالها بعضَ الخصائص والمُميّزات التي تبعث على انتقال هذه المفاهيم من معانيها اللغويّة الأوليّة إلى معانٍ جديدة، فتخرج على هيئة اصطلاحاتٍ دينيّة وقرآنيّة وإسلاميّة خاصّة. وفي هذا السياق، نرى أنَّ بعضَ المفاهيم الّتي يكون القرآن الكريم قد تصرَّف في معانيها الأصليّة، قد تطرأ عليها هي الأخرى تحوّلات تدريجيّة جديدة في مُحاورات المتديّنين والمسلمين والعلماء والفقهاء على طول التّاريخ، فتنتقل من معانيها القرآنيّة إلى معانٍ جديدة. ومن جملة هذه المفاهيم مفهوم «الزكاة». وتوضيحُ ذلك على الشكل التالي:

كنّا في بعض مباحثنا السابقة[٢] قد أشرنا في طيّات بحث التقوى إلى أنّه لا فرق في اللّغة بين معاني كلمات «التقوى»، و«التقيّة»، و«التقاة» و«الاتّقاء»، وأنّه قد ورد استعمال هذه الكلمات في القرآن الكريم في معنى واحد. وكذلك في صدر الإسلام وحتّى عشرات السّنين، لم يكن لهذه

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ٤.

(٢) يريد الشّيخ ﷺ من المباحث السابقة الدروس الّتي طرحها في السنوات السابقة على هذا المبحث (المترجم).



الكلمات أكثر من معنى واحد عند العرب والمسلمين، ومن هنا كانت كلّ كلمة منها تُستعمل مكان الأخرى. فنرى على سبيل المثال، أنّ كلمة «التقيّة» قد استُعملت في **نهج البلاغة** بمعنى «التّقوى»، حيث يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فَاتَّقُوا اللهَ عِبادَ اللهِ تَقِيَّةَ ذي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ»(١). ولكن بعد ذلك، طرأت بعض التغييرات التدريجيّة على معنى ومفهوم كلمة «التقيّة»، وظهرت هذه الكلمة بصورة اصطلاح فقهيّ خاصّ. ولكن بالطّبع، لم يكن المعنى الاصطلاحيّ الجديد منفصلًا وبعيدًا عن المعنى اللّغوي؛ فكلمة «التّقوى» في الجذر اللغويّ، تُستعمل في الموارد الّتي يعتري الخوفُ فيها الإنسان، عندما يحسّ بالخطر المُحدِق به فيحذر منه. ومن هنا، فإنّ منشأ استعمالنا لكلمة «التّقوى» أحيانًا في ما يُعادل «الخوفَ من الله» هو لِحاظُ «الخوف والرّهبة من شيءٍ ما» في الجذور اللغويّة لهذه الكلمة. ولمّا كان هذا الخوف قد يكون تارةً من الله تعالى، فتظهر التقوى حينذاك باصطلاحها المعروف. ولكنّ هذا الخوف قد يكون تارةً أخرى من عدوّ أو أمرٍ آخر، وهذه العداوةُ تارةً تنشأ من خصومة شخصيّة، وطورًا من اختلافات دينيّة وعقائديّة، ووجهُ الاشتراك بين جميع هذه الموارد، هو الحذرُ والاحترازُ الذي يساور الإنسان. ولكن إذا كان منشأ هذا الحذر والاحتراز الاختلافات العقائديّة والدينيّة، وتملّك الإنسانَ خوفٌ ممّن يختلف معه في العقيدة والدّين، فأخفى دينَه أو تصرّفَ في الظّاهر على خلاف عقيدته وباطنه، كي يأمنَ خطر مُخالفه، يقالُ: إنّه مارس «التقيّة». وهذا هو الاصطلاح الجديد الّذي ظهر في الفقه الإسلاميّ وروايات أهل البيت عليهم السلام، وقد اتّضحَ بما قدّمناه أنّه في غاية التّوافق والانسجام مع جذره اللغويّ وأصله. ويستفيد القرآن الكريم من اصطلاح

(١) الشّريف الرّضي، **نهج البلاغة**، الخطبة ٨٢.



«تُقاة» و«تتّقوا» في هذا المعنى، حيث ينهى المسلمين عن إقامة العلاقات الوطيدة مع أعداء الله تعالى، إلّا في حالات التقيّة، فيقول: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[١]، وقد واجه الصحابيّ عمّار بن ياسر رضي الله عنه هذه المشكلة بشكلٍ عمليّ، حينما هدّده مشركو قريش وهدّدوا أباه وأمّه بالقتل، ما لم يُعلنوا براءَتهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وتحت وطأة التعذيب الشديد الّذي مارسه المشركون استشهد أبوه وأمّه بعد رفضهم الاستجابة لأمر المشركين، غير أنّ عمّارًا رضي الله عنه من أجل النجاة من أيدي المشركين لجأ إلى التبرّؤ الظاهريّ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأخلَوا سبيلَه وأطلقوه. ولكن سرعان ما انتابه الخوف والقلق الشديدين بسبب ما فعله، فانطلق خائفًا مضطربًا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقصَّ عليه ما حدث، وسأله عمّا إذا كان فعلُه هذا موجبًا لهلاكه وعذابه، فأجابه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد كنت عالمًا ومدركًا لما ينبغي فعله، ومع أنَّ لأبيك وأمّك جزيل الأجر عند الله تعالى، إلّا أنّ الصحيح هو ما فعلتَه أنت، حيث نجوت بنفسك بتبرّئك الظاهري منّي». وبناءً على ما تنقله الروايات الشريفة والكتب التفسيريّة، فقد نزلت بشأن هذه الحادثة الآية المئة والستّون من سورةِ «النّحل»، حيث يقول تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٢٨.

(٢) سورة **النّحل**، الآية ١٠٦.

وقد وردت كلمة «تُقاة» في القرآن الكريم أيضًا بمعنى «التقوى»، حيث يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[1]، ووجه الاشتراك بين جميع هذه الاستعمالات، هو إقدام الإنسان على فعل معيّن ليحميَ نفسه من الخطر المُحدق به جرّاء خوفه من شخصٍ أو أمرٍ ما.

وعلى أيّة حال، فإنّ الأئمّة عليهم السلام قد أمروا شيعتهم في بعض الأزمنة، بسبب شدّة الاختلافات بين الشيعة والسنّة، بإخفاء دينهم ومذهبهم عن العدوّ المتربّص بهم والقاصد لقتلهم، ورويدًا رويدًا اختصَّ مفهوم «التقيّة» بهذا المورد، وبحسب الاصطلاحِ حدث وضعٌ تعيّني وتخصُّصي في معنى «التقيّة». ومن هنا، يقول الإمام جعفر الصّادق عليه السلام: «التَّقيَّةُ دِينِي ودِينُ آبَائِي»[2]. ومنذ ذلك الوقت، لم يعُد يُستفادُ من كلمة «تُقاة» وأمثالها في إفادة هذا المعنى، بل انحصرت إفادته في استعمال لفظ «التقيّة». وعلى طول التاريخ، يمكن العثور على كثيرٍ من التحوّلات المُشابهة في مختلف الألفاظ وأصناف اللغات.

وإنّ من شأن الالتفات إلى هذه المقدّمة الكلّيّة أن يكون عاملًا مساعدًا ومفيدًا في الإحاطة بكثير من الأبحاث، ومن جملتها بحثنا الفعليّ، أي: بحث الزكاة؛ فللزكاة في أيّامنا هذه اصطلاح فقهيّ خاصّ، والمراد منه ذلك المقدار المشخَّص من المال الّـذي يتعلّق ببعض المُمتلكات من قبيل القمح، والشّعير، والتّمر، والبقر والغنم، عند تحقّق شروط خاصّة، وتُعتبرُ هذه الزكاة من الواجبات الإسلاميّة ذات الأهميّة الكبيرة. وعادةً ما يُحصي العلماء في كتبهم الفقهيّة مُتعلّقات الزكاة بتسع أنواع من المُمتلكات. وكذلك، فإنّ الموادر التي يُمكن صرفُ الزكاة فيها

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٠٢.

(٢) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٢، الصفحة ٧٣، الرواية ٤١، الباب ١٣.



ودفعها إليها مشخّصة هي الأخرى في القرآن الكريم والرسائل العمليّة؛ قال الله تعالى: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[١].

وفي المباحث الفقهيّة أيضًا ما يُعرف بزكاة الفطرة، التي تُعتبر أيضًا من الواجبات الإسلاميّة ذات المقدار والحدّ المعيّن، والتي تجب على الأشخاص الواجدين لبعض الشروط الخاصّة. وعلى كلّ حال، فإنّ ما تقدّم بيانه هو الاصطلاح الفقهيّ للزكاة، بينما يُعتبرُ الاصطلاحُ القرآنيّ لها أوسعَ بكثير وأشملَ من هذا المفهوم الفقهيّ. وعندما تُطلَق كلمة «الزكاة» في القرآن الكريم، فإنّها لا تختصّ أبدًا بزكاة الفطرة ولا بالمصطلح الفقهيّ للزكاة.

وجه استعمال لفظ الزكاة في الآية الشريفة

إنّ البحث في موارد استعمال كلمة «الزكاة» في القرآن الكريم، يُعتبر من جملة المباحث التفسيريّة الخارجة عن دائرة بحثنا الفعليّ وحدوده، ولكن ما نريد الإشارة إليه هنا فيما يرتبط بالآية الشّريفة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾[٢]، أنّه كان بإمكان الله سبحانه وتعالى أن يستعيضَ في هذه الآية عن لفظ «الزّكاة» باستعمال لفظ «الإنفاق»، كما في كثير من الموارد الأخرى، أو بالاستفادة من ألفاظ «الإيتاء» و«الإعطاء»، نظير بعض الآيات الشريفة، وأن يقول سبحانه وتعالى في وصف المؤمنين أنّهم المنفقون، أو الّذين يُعطون أموالهم ويؤتونها في سبيل الله تعالى. ومن

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٦٠.

(٢) سورة **المؤمنون**، الآية ٤.

هنا ندرك أنَّ السرّ في استعمال لفظ الزكاة في هذه الآية الكريمة دون غيره من الألفاظ يكمن في وجود لطائف ودقائق مُستبطنة في هذا اللفظ، ولا أثر لما يُعادلها في غيره من الألفاظ؛ فإنّ مفهوم الزكاة في الواقع يشتمل على أمرين مهمَّين، من شأن الالتفات إليهما أن يكون عاملًا مؤثّرًا في تربية الإنسان:

الأمر الأوّل: وهو ما أشارت إليه الروايات الشريفة من أنّ أموال الفاعلين للزكاة تنمو وتزيد بفضل هذه الزكاة. **بعبارةٍ أخرى**: إنّ إعطاءَ الزكاة، فضلًا عن أنّه لن يكون موجبًا للفقر ونقص الأموال، فإنّه سيعود أيضًا بالزيادة والرُّشد على هذه الأموال. وإنّ هذا الأمر في الواقع يُشير إلى استعمال مـادّة «الزكاة» في الكلام حول الزراعة. وإنّ الفلّاحين والمزارعين على دراية بهذه المسألة أكثر من غيرهم، وهي أنّ ثمار الأشجار تقلّ وتنقص عندما يزيد طول أغصانها وأوراقها عن الحدّ اللّازم، ولذلك تراهم يلجأون إلى تقصير أغصان الأشجار وأوراقها، ويقومون بما يُعبَّر عنه في اصطلاحهم «تشذيب الأشجار وتقليمها». وإنّ عمليّة التشذيب هذه، وإن كانت تؤدّي إلى نقصان أوراق الأشجار وأغصانها والتّقليص من حجمها الظاهريّ، إلّا أنّها ـ في الحقيقة ـ تكون موجبةً لنموّ ثمار الأشجار ورشدها كمًّا وكيفًا. وإنّ أحد الأسرار الكامنة في تسمية الزكاة بهذا الاسم، هو تنبيهُ فاعل الزكاة ومُعطيها على ضرورة ألّا يقع أسير خوفه، وألّا يسيطر عليه القلق من أنَّ دفعَ قسم من أمواله تحت عنوان الزكاة سوف يكون موجبًا لنقص هذه الأموال. بل على العكس تمامًا، فإنَّ إعطاءَ الزكاة بمثابة تشذيب أوراق الأشجار وأغصانها، فمن شأنه أن يضاعف هذه الأموال والمُمتلكات. ولو استُبدلت كلمة «الزكاة» في الآية الكريمة بكلماتٍ من قبيل: «الإعطاء» و«الإيتاء» و«الإنفاق»، لما أدّت هذا المعنى المهمّ، ولما أفادت هذه الفائدة اللّطيفة.



والأمر الثاني[١]: يتّضحُ من خلال الالتفات إلى المفهوم المقابل للزكاة وهو «الدسّ». في سورة «الشمس» نرى القرآن الكريم قد وضع هذين المفهومين بعضهما مقابل بعض، عند حديثه عن مسألة تزكية النّفس، حيث يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[٢]. وبحسب اللغة، فإنَّ للتزكية والزكاة جذرًا لغويًّا واحدًا ومعانيَ متشابهة، وقد جُعلَ مفهوم «الدسّ» في الآية الشريفة في مقابل مفهوم «التزكية». ويُستعمل مفهوم «الدسّ» في الموارد الّتي يتمّ فيها إخفاء شيءٍ ما في مكان، ممّا يؤدّي غالبًا إلى تعفّن هذا الشيء وجعله في معرض الفساد. ويشير مفهوم «الدسيسة» أيضًا إلى معنى الإخفاء هذا، والّذي يُستعمل في موارد إخفاء بعض الأمور والتوسّل بالمكر والخداع بغرض تخريب أمر ما وإفساده. وكذلك «الدسّ في الأحاديث» وهو مفهومٌ يحكي عن التصرّف في الأحاديث والتغيير فيها بشكلٍ خفيّ من دون أن يلتفت أحد.

وبناءً على التوضيح الذي ذكرناه، يصبح معنى الآية الشّريفة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[٣] أنَّ النفسَ الإنسانيّة إمّا أن تكون في معرض التشذيب والتطهير والتنقية وبلوغ رشدها وكمالها، وإمّا أن تخفى وتدفنَ تحت ركام الأوساخ والأشواك، فتتلوّث وتسلك طريقها نحو الفساد. وإلى هذا المعنى يُشار في سورة «الأعلى»، الّتي تبحث أيضًا في مسألة تزكية النفس، حيث يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾[٤]. بالطبع، إنّ ما ورد في سورة «الأعلى» هو لفظ

(١) الّذي يمكن استفادتُه من تعبير «الزكاة».

(٢) سورة **الشمس**، الآيتان ٩ و١٠.

(٣) سورة **الشمس**، الآيتان ٩ و١٠.

(٤) سورة **الأعلى**، الآيتان ١٤ و١٥.



«تزكّى» من باب «تَفَعُّل»[١]، بينما في سورة «الشمس» وردَ لفظ «زكّاها» من باب «تفعيل»[٢]. ولكن على أيّة حال، فإنّ غرضنا الأساسيّ هو أن نشير إلى المعنى اللطيف الذي يفيده لفظ «الزكاة». إنَّ في هذا اللفظ إشارة إلى أنّ الإنسان لو امتنعَ عن إعطاء هذا المقدار من المال، فإنّه حينها يكون قد دفن نفسه تحت رُكام القذارة، وجعل نفسَه في معرض الفساد والتعفّن. **بعبارةٍ أخرى:** إنّ إيتاء الزكاة بالإضافة إلى كونه عاملًا من عوامل رشد المال وزيادة المُمتلكات، فهو أيضًا من عوامل وموجبات حفظ النفس الإنسانيّة وحمايتها من التعرّض للفساد والتلوّث. ولهذه الحقيقة شواهد قرآنيّة؛ إذ يقول الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[٣]، وإنَّ المُراد من الصدقة في الآية الكريمة هو الزكاة. وإنّ الله تعالى في هذا المورد لم يقل: «خُذ من أموالهم صدقةً تُطهّرُ أموالَهم»، بل قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾. فالغرض من أخذ الزكاة ـ إذًا ـ تطهيرُ الأنفس وتزكيتها.

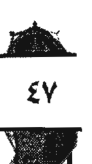
في عرف المتديّنين والمؤمنين، عادةً ما يُقال بعد أداء الحقوق الشرعيّة: «لقد طهّرنا أموالَنا»، وإنَّ الدّليل على هذه القضيّة واضح؛ إذ عندما يتعلّق الخمس والزكاة في مال شخصٍ ما، فمعنى هذا التعلّق أنَّ للفقراء والسادة حقًّا ثابتًا في هذه الأموال. وعليه، فإنّ بقاءها تحت تصرّفه يجعل منها أموالًا مغصوبة، نجسة ومحرّمة حالُها حالُ المال المسروق. ومن هنا، يكون دفع الحقوق الشرعيّة الواجبة لمستحقّيها مُطهّرًا لهذه الأموال. ولكنَّ القضيّة الّتي تريد الآية الكريمة أن تشير إليها

---

(١) تَفَعَّلَ تَفَعُّلًا.

(٢) فَعَّلَ تفعيلًا.

(٣) سورة **التوبة**، الآية ١٠٣.



ـ كما أسلفنا ـ ليست مسألة تطهير المال، بل إنّها تحكي عن حقيقة أسمى؛ إذ تفيد الآية الكريمة أنَّ أثرَ أخذ الزكاة لا يقتصر على تطهير الأموال فقط، بل إنَّ الأنفس تُطهّر وتُزكّى أيضًا.

أمّا كيف تغدو الزكاة من موجبات تزكية النّفس، فهو مطلب مستقلّ يحتاج قدرًا من التّوضيح، ولذلك سنُخصّص تكملةَ بحثنا للخوض في هذه المسألة والبحث فيها.

المانع المهمّ في مسير تكامل الإنسان

في مسيره التكامليّ، يوجّه الإنسانُ وجهَه نحو الله تعالى، فيكون مقصدُه ومنتهى سيره الوصولَ إلى الله والقربةَ إليه؛ يقول القرآن الكريم ـ في هذا الصدد ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[١]. ومن هنا، فوفق الرّؤية القرآنيّة يُعتبر الإنسانُ في هذه الدّنيا مُسافرًا، وفي حركة دائمة، مقصدُها اللهُ سبحانه وتعالى. وكنّا قد أشرنا أكثر من مرّة في طيّات مباحثنا السّابقة[٢]، إلى أنّ حركة الإنسان هذه ليست من سنخ الحركة الجسمانيّة، وأوضحنا أنَّ سيرَه هذا ليس سيرًا مرتبطًا ببدنه، بل مرتبطٌ بروحه؛ إذ ليس لله سبحانه وتعالى مكان، وليس موجودًا في نقطة خاصّة كي نسيرَ نحوها بأجسامنا وأبداننا، فنقترّب من ذاته المقدّسة تارةً ونبتعد أخرى، بل هو موجود أينما اتّجهنا: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾[٣]؛ ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾[٤].

---

(١) سورة **الانشقاق**، الآية ٦.

(٢) يريد الشيخ ﷺ من المباحث السابقة الدروس التي طرحهَا في السنوات السابقة على هذا المبحث (المترجم).

(٣) سورة **البقرة**، الآية ١١٥.

(٤) سورة **الحديد**، الآية ٤.

وعليه، فإنّ حركةَ الإنسان وسيرَه نحو الله تعالى هو سيرٌ روحانيّ، وروح الإنسان هي من ينبغي عليها أن تتحرّك وتسير كي تبلغَ كمالها. وإنّ الكمالَ الإنسانيّ يكمن في جعل الإنسان حركتَه بنحوٍ يوجبُ تقرّبه إلى الله ودُنوَه منه. وبالطّبع، إنّ طريقَ التكامل هذا ليس بالطريق السهل والمُعبَّد، ولا يمكن طيّه دائمًا براحة وبساطة، ولا يتأتّى لأيّ شخص ورود هذا المسير وسلوكه وبلوغ المقصد والمُنتهى من خلال أدائه بعض الأعمال البسيطة تبعًا لهوسه وهواه، كأن يتفوّه ببعض الأذكار والأوراد ويجريها على لسانه. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في الآية السادسة من سورة «الانشقاق» الّتي تقدّم ذكرُها، حيث استفاد من تعبير «الكدح». فالكدحُ في اللغة يدلّ على الحركة والسعي المحفوف بالمشقّة والمُصاحب للألم والتعب. ومن هنا، فإنّ معنى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1]، أنّ سيرَ الإنسان نحو الله تعالى ليس بالسير الهيّن والبسيط، بل هو سيرٌ مليءٌ بالمتاعب والصعاب، الّتي ينبغي على الإنسان أن يجابهها ويقاومها.

من المُناسب في هذا الصدد، أن نتأمّل في مطلب أشـار إليه المرحوم الشيخ محمّد تقي الآمليّ، حدّثني به الشيخ الشهيد غلامرضا دانش آشتياني، وقد كان من جملة الشخصيّات الّتي نالت وسام الشهادة مع الشّهيد بهشتي وأصحابه في حادثة تفجير مقرّ حزب الجمهوريّة الإسلاميّة. ولقد كان المرحوم الشيخ محمّد تقي الآمليّ من العلماء العظام، وصاحب حاشية على منظومة الملّا هادي السبزواريّ، وكان من أهل التقوى والتهذيب. ينقل الشهيد آشتياني أنّه حضر يومًا عند المرحوم الآمليّ، وفي أثناء حديثه وشرحه لحالاته الرّوحيّة التمسَ الشهيدُ آشتياني

(١) سورة **الانشقاق**، الآية ٦.



من المرحوم الآمليّ أن يذكر له مطلبًا حول السير والسلوك وطيّ الطريق إلى الله تعالى، وأن يرشدَه. فكان جواب الشيخ محمّد تقي الآمليّ أن قال: «اعلم أنّ هذا المسير الذي تبتغي سلوكه صعبٌ جدًّا، ولا تتوهّم أنّه عمل هيّن بسيط. ولا بدّ من أن توطّن نفسك على تحمّل آلام هذا المسير وصعابه»، ثمّ قال له: «إنَّ سلوك هذا الطريق بمثابة حفر جبل برمش العين! فإن أردت ذلك فبسم الله، ولكن ينبغي أن تعلم أنّك وردت على مسير من هذا القبيل، فلا تتصوّر أنّه رغبة وهوىً كسائر الأهواء الّتي يسعى الإنسان في سبيل بلوغها. ولكن من جهة أخرى، فإنّ مقصد هذا المسير ومُنتهاه عالٍ جدًّا وكلّ خطوة يخطوها المرء على هذا الطريق تفوق الدنيا وكلَّ ما فيها فضلًا وقيمةً».

وعلى أيّة حال، فعلى كلّ من يريد سلوك هذا الطريق أن يتحمّل متاعبه ويجابه مخاطره ويُذلّل مصاعبه؛ لأنَّ كلَّ خطوة في هذا المسير محفوفة بالمزالق والمهالك والمُنحدرات الخطرة، فلا بدّ على السالك من أن يحذر أشدَّ الحذر عند كلّ خطوة يخطوها، وأن يبقى يقظًا مُراقبًا كي لا تنزلقَ قدمُه فيسقط. واتّفق أن قرأت رواية في هذا المجال في أحد كتب الحديث، إلّا أنّني بعد ذلك بحثت عنها فلم أحظَ بها. وقد جاء في هذا الحديث المرويّ عن الإمام الصادق عليه السلام تفسيرٌ للتّقوى، مفادُه أنّها بمثابة أن يريد الإنسان عبورَ صحراءٍ مليئة بالعقارب والثّعابين في ظلمات الليل. وبالطبع، يحتمل السالكُ في مثل هذا الحالة عند كلّ خطوة أن تدوس قدمُه عقربًا أو ثعبانًا، فيلدغه. فلنتصوّر طريقة سير هذا الشخص في هذه الصحراء، ومدى تأنّيه وحذره في كلّ خطوةٍ يخطوها، ليكونَ في مأمنٍ من لدغات العقارب والثعابين. يعتبر الإمام الصادق عليه السلام أنّ مَثَلَ مُراعاة التقوى في هذه الحياة كمَثَلِ سير هذا الإنسان؛ إذ إنّ المتّقي دائمًا ما يكونُ على أتمّ الحذر والمراقبة في كلّ حركاته وسكناته

وأبسط تصرّفاته ومسائل حياته، لئلّا يقدمَ على أيّة خطوة تُخالف رضا الله تعالى. وإنّ هذا الإنسان المتّقي، بالإضافة إلى مراقبة يده وقدمه ولسانه وسمعه وبصره، يسعى على الدوام في سبيل مراقبة قلبه، وكلّ ما يخطر في ذهنه، ويدور في خَلَدِهِ؛ مخافةَ أن تصدرَ منه أيّةُ زلّةٍ أو عثرةٍ. ومن هنا تراه، فضلًا عن سيطرته على جوارحه (أعضائه الظاهريّة)، يحثّ سعيَه أيضًا في تطهير قلبه من الأحقاد والضغائن وأمثالها. وكما أسلفنا سابقًا، إذا ما أراد الإنسان أن يسلك هذا الطريق وحده مُعتمدًا على عزمه الذاتيّ وإرادته الفرديّة وجهده الشخصيّ، فإنّ دربه سيكون في غاية الصعوبة، ولكنّه لو عقد عزمَه وأحكم هِمَمَه، فإنّ عناية الله تعالى سوف تشمله، والمدد الإلهيّ سوف يصله، وعندئذٍ ستُذلّل كلّ صعاب هذا المسير وستحلّ كلّ مشكلاته.

وفي جميع الأحوال، فإنّنا أمام طريق طويل يكاد يكون غير متناهٍ من أجل بلوغ كمالنا. ومن جهة أخرى، فإنّنا نواجه في كلّ خطوة على هذا الطريق المئات من المخاطر والموانع، ويتوقّف وصولنا إلى الفلاح على عبور هذه الأخطار، واجتياز هذه الموانع. وإنّ بعض هذه المخاطر والموانع شبيهٌ بإلقاء مادّة الأسفلت اللزجة على مسار يريد الإنسان أن يعبر منه. ففي مثل هذه الحالة، من الممكن أن يلتصق الأسفلت بيد الإنسان ورجله، إذا لم يكن منتبهًا ومحترزًا. وقد يصلُ هذا الالتصاق إلى حدّ يُثبّت الإنسانَ في مكانه بشكل كامل، ويسلب منه القدرة على التحرّك. بل قد يكون موجبًا لالتصاق كميّات أكبر من الأسفلت، بالإضافة إلى أمور أخرى، بيد الإنسان ورجله وبدنه وثيابه. وحينئذٍ، فبالإضافة إلى القذارة والنتانة والرائحة الكريهة التي يأتي بها هذا الأمر، فإنّه سيؤدّي أيضًا إلى تحميل الإنسان ثقلًا هائلًا من شأنه أن يُنهكَه ويُضعفَه؛ يقول



القرآن الكريم ـ في هذا الصدد ـ: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾[١].

وكذلك من الممكن للإنسان في بعض الأحيان أن ينزلقَ نحو الهاوية، على أثر غفلته وهفواته وزلّاته، أثناء سلوك هذا الطريق. وعندئذٍ، سوف يكون مضطرًّا لبذل كثيرٍ من الجهد، وتحمّل كثيرٍ من العناء، وصرف كثيرٍ من الوقت والقوّة، ليعودَ بنفسه مرّةً أخرى إلى حيث كان. إنّ هذه الأمور من جملة الأخطار والموانع التي تواجه الإنسان في مسير تكامله.

وإنّ من جملة الأمور القابعة في هذا المسير، الّتي من شأنها أن تُشكّل عائقًا أمام طيّ مسير الكمال، ومانعًا من بلوغ المقصد، التعلّقُ بمال الدنيا. وقد يقوى هذا التعلّق ويشتدّ إلى أن يصل ـ بحسب تعبير القرآن ـ إلى درجة أن يُلصقَ الإنسانَ بالأرض، فيشعر حينئذٍ بثقل عجيب في أداء أعماله ولو صغُرت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٢].

وفي وصفه لـ«بلعم بن باعوراء»، وبيانه لسبب تنزّله من مقامه العظيم ـ مقام «مُستجاب الدعوة» ـ، يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾[٣].

ومن الواضح أنّه ليس المراد التصاق البدن والجسم بـالأرض، بل المراد التصاق الروح بالأرض وإخلادها إليها بحيث تعجز عن التحرّك. وإنّ

---

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ١٣.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ٣٨.

(٣) سورة **الأعراف**، الآية ١٧٦.

من أهمّ عوامل التصاق الروح بالأرض والإخلاد إليها حبُّ المال؛ يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[1].

وإنّ أرضيّة هذا التلوّث موجودة عند كلّ بني البشر، وكلّ إنسان يضع قدمَه في هذه الدنيا، يولد معه هذا التعلّق أيضًا. حتّى إنّك ترى الطفل ذا السنتين، وهو يريد أن يتعرّف على نفسه للتوّ، يتعلّق بأغراضه الشخصيّة تعلّقًا قلبيًّا خاصًّا، إلى درجة أنّهم لو أرادوا ـ مثلًا ـ استعارة دميته منه عدّة دقائق وإعطائها لطفل آخر، فإنّ صراخه يعلو ويعتريه الانزعاج والغضب، فتشتعل الشجارات بينه وبين الآخرين. ومن هنا، فإنّ التعلّق بالمال يظهر في الإنسان منذ نعومة أظافره، ولا يفارقه ولو غدا بالغًا عاقلًا متعلّمًا، بل يستمرُّ معه حتّى آخر لحظات عمره. وعلى ما يبدو، فإنّ هذه التعلّقات، فضلًا عن أنّها لا تنضب ولا تنقص مع بلوغ الإنسان رشدَه، تنمو فيه وتتضاعف يومًا بعد يوم. وقد يشتدّ هذا التعلّق إلى درجة يغدو معها المال غاية الإنسان ومقصده؛ فالإنسان تارةً يطلب المال وغايته من ذلك رفع احتياجاته من مأكلٍ وملبسٍ ومسكنٍ وغيرها، وتارةً تكون غاية لذّاته ومُنتهى رغباته في امتلاك حساب مصرفيّ، أو اقتناء خزنة مليئة بالنقود؛ فكم من شخصٍ يحرم نفسه من الطعام الجيّد واللباس المناسب والمسكن الملائم، ولكن يريح بالَه ويرضي خاطرَه امتلاكُه للأموال وتكديسها. من الاصطلاحات الرائجة في أدبيّات طلبة العلوم الدينيّة اصطلاح «لِذَاتِهِ»، حيث يُقال «يطلب الإنسان هذا الأمر لذاته». فعلى سبيل المثال، بعض النّاس يحبّون العلم ويطلبونه لنفسه، وبحسب الاصطلاح يطلبونه لِذَاتِهِ، لا أنّهم يطلبون العلم لأنّه يعود عليهم بالمال أو الشهرة أو السلطة. وفي ما يرتبط بمسألة التعلّق بالمال ينقلون

(١) سورة **العاديات**، الآية ٨.



قصّة عن شخصٍ كان يجلس في غرفته ناشرًا أمواله حوله، يقبّل أوراقه النقديّة، وخاصّة تلك الجديدة غير المُهترئة، ويخاطبها قائلًا: «يطلبكِ بعض كي يشتري غذاءً، ويطلبكِ آخر كي يشتريَ وسيلة نقل، ويطلبكِ ثالث كي يشتريَ مسكنًا، أمّا أنا فأحبّكِ لذاتك وأطلبكِ لا لأجل مأكل ولا مسكن ولا وسيلة نقل».

نعم، قد تشتدّ علاقة المرء بماله حتّى تبلغ هذا الحدّ. ومن الواضح أنّ هذا ضربٌ من الجنون يصيب البشر ولا يختصّ بفردٍ معيّن أو جماعة خاصّة. وربَما صادفنا مـرارًا أشخاصًا عقلاء في الظاهر، أتمّوا مراحل التعليم العالي، وحازوا بدل الشهادة الواحدة شهاداتٍ جامعيّةً عديدةً، إلّا أنّهم مولعون بالمال، ويرَون في الثروة كلّ حياتهم، وقد ترسّخت هذه التعلّقات في قلوبهم، حتّى باتت تمنعُهم من القيام بأيّة حركة. فلو أراد أحدهم أن يساعد فقيرًا، ولو بإعطائه ألف تومانٍ فقط، فإنّ يده ترتجف ويتملّكه التردّد «أيُعطي من ماله أم لا!» فيُبقي يده في جيبه طويلًا ويماطل، حتّى ييأس الفقير ويمضي في حال سبيله، وما زالت يده عالقةً في جيبه. بل يأتون بأشكال الاستدلالات تسويغًا لأفعالهم. فلو كان بحوزة أحدهم مئة ألف تومانٍ لرأيته يقول: «إنّ هذه الأموال حزمة مؤلّفة من مئة ألف تومان، فلو أعطيت منها ألفًا لاختلّت الحزمة»، ولو كان بحوزته تسعة وتسعون ألف تومان لقال: «لو أُضيفَ إلى هذه الأموال ألف تومان لأصبحت حزمةً كاملةً، لذا فمن الصلاح ألّا أعطيَ منها شيئًا».

الإنفاق: العامل الأساسي في مواجهة التعلّق بالمال

على كلّ حال، فإنّ هذا التعلّق بالمال، الّذي قد يصل في بعض الأحيان إلى درجة الجنون، موجودٌ إلى حدّ ما عند كلّ بني البشر. وقد يغفل الإنسان عن هذا العيب، ولا يتنبّه إلى هذه الشائبة، فيتصوّر أنّ تعلّقه

بالمال أمرٌ طبيعيّ. لذا، فمن المهمّ في هذا الصدد، النّظر في ما ينبغي القيام به في سبيل اجتثاث هذه التعلّقات القلبيّة، أو الحيلولة منذ البداية دون ظهورها وبروزها في الأساس.

ومن السبل المهمّة التي طرحها القرآن الكريم في هذا المجال «الإنفاق». فإذا ما أراد الإنسان أن ينجو من فخّ التعلّق بالمال، فعليه أن ينفق هذا المال في سبيل الله، وأن يبذل ما اكتسبه من كدّ يمينه وعرق جبينه للفقراء والمحتاجين. ولا بدّ أثناءَ بذله لهذا المال من إخفائه عن كلّ أحدٍ سواه، وبحسب القول المشهور: ألّا تعلم يدُه اليسرى إن أعطى بيده اليمنى.

في إحدى آيات القرآن الكريم الحاكية عن فضيلة الإنفاق وأهميّته يقول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1].

وتُستعمل «لن» في أدبيّات العرب للنفي المؤبّد، فيصبح معنى الآية الكريمة ما يلي: «إنّك لن تغدو إنسانًا حسنًا وخيّرًا وتقيًّا، بل يستحيلُ أن تبلغ هذا المقام، ما لم تعطِ من الأشياء التي تحبّها وما لم تنفق من الأمور الّتي تعلّقتَ بها». وسرّ هذا الأمر يكمن في أنّ الله تعالى يريد لجذور هذا التعلّق وأصول هذه المحبة أن تُجتثّ من قلب الإنسان وتُستأصل، وطريق اجتثاثها هو إنفاق الإنسان من هذه الأمور التي يحبّها. وكمال هذا الإنفاق في تأديته ابتداءً من دون أن يكون في مقابل خدمات الآخرين وتعويضًا عنها. يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2]. فبالنسبة

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٩٢.

(٢) سورة **الليل**، الآيات ١٨ إلى ٢٠.





لمثل هذا الإنسان غرضُ الإنفاق ليس الإحسان إلى الطرف المقابل من أجل التعويض عن خدماتٍ أسداها له سابقًا.

ولهذا الإنفاق أيضًا مرتبة أعلى ودرجة أكمل، وفيها لا يتوخّى المنفقُ ولا يرتجي أيّ أجرٍ أو جزاءٍ على إنفاقه، ولو كان مقدار هذا الجزاء تشكّرًا لفظيًّا بسيطًا جامدًا وعقيمًا؛ يقول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[١].

نعم، فلقد كان إنفاق أهل البيت عليهم السلام بنحوٍ لا ينتظرون في مقابله شيئًا حتّى كلمة شكر واحدة، بل كان عملهم خالصًا لله تعالى.

وإذا أنفق الإنسان على هذا النحو وأبعد المالَ عنه؛ فإنّ مادّة الأسفلت اللزجة اللاصقة المُتمثّلة بحبّ المال والتعلّق به سوف تذوب وتضمحلّ. وإنّ المادّة المذيبة لهذا التعلّق الفاسد والمُفسد إكسيرٌ اسمه «الإنفاق». ولا يقع الكلام هنا في الإنفاق الواجب أو المستحبّ؛ إذ إنّ كلّ إنفاق يتمتّع بهذه الخاصّيّة. فينبغي الالتفات إلى ما أشرنا إليه في مستهلّ البحث، من أنّ لفظَ الزكاة في القرآن الكريم، لا يحكي عن المصطلح الفقهيّ، ولا يختصّ بالزكاة الفقهيّة الواجبة، بل هو أعمّ منها. ومن هنا، فعندما يطالعنا في القرآن الكريم على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[٢]، فليس المراد منه الزكاة الواجبة فقط. ومن هنا، لا يمكن لأحد أن يدّعي خُلوّ ماله من متعلّقات الزّكاة؛ إذ إنّ

---

(١) سورة **الإنسان**، الآيتان ٨ و٩.

(٢) سورة **المزمّل**، الآية ٢٠.



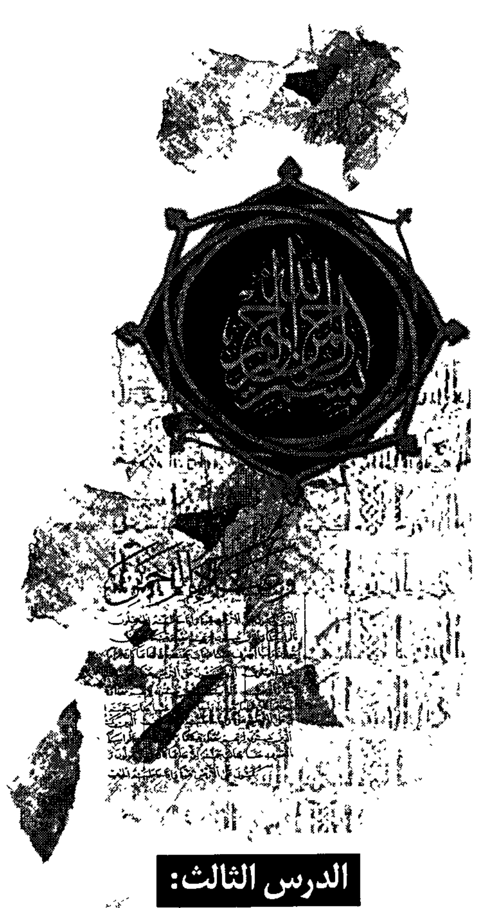
الزكاة أعمّ من الإنفاق الواجب والمستحبّ. ويمكن للإنسان أن ينفقَ المقدار الزهيد من المال المتبقّي في جيبه تحت عنوان الزكاة.

ومن الفلسفات المهمّة للزكاة ـ كما أسلفنا سابقًا ـ إزالة واستئصال جذور حبّ المال من القلب، الأمر الذي يُعتبر منشأً لتلوّث الإنسان. ويمكن أن تتحقّق هـذه الفلسفة في كلا نوعي الإنفاق الواجب والمستحبّ. وعندما يقول القرآن الكريم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[1]، فإنّ المراد أنّ أخذ هذه الأموال تحت عنوان الزكاة من شأنه أن يُطهّر روح الإنسان من هذه الأدران والتلوّثات التي تصيبه بسبب تعلّقه بأموال الدنيا. فما دام الإنسان لم يعطِ من هذه الأموال، وما دام ملتصقًا بهذه الأموال بكلتا يديه، فلن يتسنّى له أن يصون نفسه من هذه التلوّثات الروحيّة الخطرة. إنّ العلاج المهمّ لهذه التعلّقات الإفراطيّة الملوّثة يكمن في الإنفاق وإيتاء الزكاة، وعلى حدّ تعبير القرآن الكريم: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2].

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ١٠٣.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ٩٢.



الدرس الثالث:

العلاقة بين الزكاةِ والفلاحِ (٢)





﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾[1]

حبّ المال مانع مهمّ من بلوغ الفلاح

كما ذكرنا سابقًا، إنّ الكلام في هذه الآيات يتمحور حول بعض صفات المؤمنين الّذين يبلغون الفلاح، وأوّل صفةٍ تطرّقت إليها الآيات الكريمة هي «الخشوع في الصّلاة» والّتي لم نقف عندها، باعتبار كونها محورَ كلامنا في مباحث سابقة، فكان عبورنا عنها سريعًا. وتحدّثت الآية التي تليها عن «الإعـراض عن اللغو»، باعتباره صفةً ثانية للمؤمنين المفلحين، فاستعرضنا على ضوء هذه الآية مسألة اللغو، وقدّمنا بعض الإيضاحات، وقد تقدّم البحث فيها. ومن بعدها تُسلّط الآيات الكريمة الضوء على مسألة «الزّكاة» بوصفها صفةً ثالثةً، وقد كانت محلّ كلامنا في الدرس الماضي، حيث عرضنا قسمًا من المطالب المرتبطة بها. ونرمي

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآيات ١ إلى ٤.

في هذا الدرس إلى تتميم بحث الزكاة وتكميله من خلال الإشارة إلى بعض الإيضاحات، وبيان بعض المطالب.

كنّا قد أشرنا في الدروس السابقة، عند بياننا لمفهوم «الفلاح»، إلى أنّ في هذا المفهوم إشارةً إلى الموارد الّتي يسلكُ فيها الإنسان مسيرًا محفوفًا بالمعضلات والمآزق، ومليئًا بالأودية والمرتفعات والتعرّجات، فإن استطاع تجاوزَ هذه العقبات بسلامة وعبورَها بأمان، يقال: إنّه أفلح. وبطبيعة الحال، سيكون المراد من عدم بلوغ الفلاح حينئذٍ، عدمَ استطاعة السّالك النّجاة بنفسه من هذه المآزق، والسقوطَ في عثرات المسير، والعجزَ عن عبور تعرّجات الطريق وعقباته.

وبالطّبع، إنّ هذه العقبات والمشاكل قد تُفرَض أحيانًا على المرء وتُحمَّل عليه من قبل الآخرين، ولكن في أحيان أخرى، قد يوجِد الإنسان موجباتِ هذه العقبات، ويُهيّؤها بنفسه. ففي مسألة التخلّف عن مسير الفلاح، فإنّه وإن كان لإبليس دورٌ في ذلك، فإنّ الدورَ الأساس في تحقّق هذا التخلّف على عهدة الإنسان نفسه؛ إذ إنّ الإنسان هو من يكبّل يديه ورجليه، وهو من يلقي بنفسه في غمرات المهالك السحيقة الخطيرة.

وينبغي الالتفات أيضًا إلى أنّ التخلّف عن مسير الفلاح ـ كالفلاح نفسه ـ أمرٌ ذو مراتب ودرجات مختلفة، والأفراد في تخلّفهم عن الفلاح ليسوا على نحوٍ واحد. ومن باب تشبيه المعقول بالمحسوس، يمكنُ تشبيه هذه القضيّة بما يلي: تارةً تكون أيدي الإنسان مكبّلة، وتارةً أخرى تكونُ أقدامه مكبّلة أيضًا، ولكن أحيانًا بالإضافة إلى تكبّل الأيدي والأقدام يسقط الإنسان في مهلكة عميقة جارفة. وأكثر من ذلك، قد يكون الفضاء المحيط بالإنسان أيضًا مظلمًا وقاتمًا وغامضًا، فلا يستطيعُ رؤيةَ أيّ شيء.



وعلى أيّة حال، فإنّنا نريد الآن، وبمناسبة البحث حول الإنفاق، أن نشير إلى نقطة، مُفادها أنّ أحد أهمّ العوامل التي تكبّل أيدي الإنسان وأقدامه، والّتي تشكّل مانعًا كبيرًا في طريق بلوغ الفلاح هو «شُحّ النفس»؛ إذ يعتبر القرآن الكريم في موردين اثنين ـ وبتعبير متّحد ـ أنّ الخلاصَ من هذه الصفة، والنجاةَ من مهالكها أحدُ شروط نيل الفلاح؛ يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[1].

وقد وردَ فعل «يـوقَ» في هذه الآية الكريمة بصيغة المجهول، وعوضًا عن أن يقول: «وَمَنْ يَقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» قال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، ومن المُحتمل أن يكون في هذا التعبير إشارةٌ إلى أنّ الله تعالى هو من يساعد الإنسان، ويمدّ يد العون له، ويحفظه من شرّ بُخل النّفس وشُحّها، ولو أراد الإنسان أن ينهض بهذه المهمّة وحدَه لما استطاع ذلك.

وفي الأساس وبشكل عامّ، فإنّ واحدةً من النكات التربويّة والأخلاقيّة المهمّة، أن يكون الإنسان ملتفتًا إلى حقيقة أنّه ليس لديه شيءٌ من نفسه، وأنّ كلّ أشكال التوفيق وجميع أصناف النعم التي تحيط به هي محضُ لطفٍ من الله وعناية منه تعالى. وفي مسير مجابهة المخاطر المحدقة والتصدي لانحرافات النّفس، فإنّنا أيضًا لا نمتلك أيّة قدرةٍ من أنفسنا، ولو استطعنا أن نصونَ أنفسنا من هذه المخاطر، فإنّنا في الحقيقة نكون قد نهضنا بهذا الأمر بمددٍ من الله تعالى الذي جعل هذا التوفيق من نصيبنا.

---

(١) سورة **الحشر**، الآية ٩، وسورة **التغابن**، الآية ١٦.

وفي جميع الأحـوال، فإنّ مضمون هذه الآية ومُفادها هو بحث الإنفاق، ويمكن أن نستفيد منها شرطيّة الإنفاق وبذل المال في سبيل الله في بلوغ الفلاح. وكما أشرنا سابقًا، فإنّ هذه الآية الشريفة قد تكرّرت بعينها في موردين في القرآن الكريم، ولو تأمّلنا في المطالب والتعابير الـواردة قبل هذه العبارة في كلتا الآيتين، لوجدنا أنّها تؤيّد المُدّعى المذكور ـ أي: ارتباط الفلاح بالإنفاق ـ وخاصّةً آية سورة «الحشر»، حيث يقول تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[١].

وكذلك في المورد الآخر (الآيـة الأخـرى)، حيث يأمر الله تعالى بالإنفاق قبل إيراد هذه العبارة يقول: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

و«الشّح» هو ذلك البخل والحالة النفسانيّة التي تشكّل مانعًا من الإنفاق، وتحول دون بذل الإنسان أمواله في سبيل الله تعالى. وتُفيد الآية الكريمة أنّ المرء إذا تمكّن من الخلاص من شرّ هذه الصفة، فإنّه حينها سوف يدخل في زمرة أهل الفلاح، وهذا ما يُعرف بـ«منطوق الآية»[٣]، أمّا «المفهوم المخالف»[٤] لهذا المنطوق في الآية الكريمة فمفاده أنّ الإنسان ما لم يتمكّن من النجاة والتحرّر من هذا البخل، فإنّه سيعجز عن الوصول إلى الفلاح. وهذا المفهوم المخالف ـ في الحقيقة ـ يمثّل تقريبًا

---

(١) سورة **الحشر**، الآية ٩.

(٢) سورة **التغابن**، الآية ١٦.

(٣) منطوق الآية: الدلالة المباشرة الظاهرة في الآية.

(٤) مفهوم الآية: الملازمات التي يستنتجها العقل من الآية.



مضمون الآية الكريمة: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾[١]؛ إذ يقول الله تعالى في هذه الآيةِ: «إنّكم لن تتمكّنوا من بلوغ الخير ونيل البرّ أبدًا، إلّا إذا بذلتم من الأشياء التي تحبّونها».

إنّ الآية الكريمة ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[٢] تُخْبِرُ بمنطوقها ومفهومها، أنّ الإنسانَ الّذي ينظر في أمر بخل النفس وشحّها سوف يكون مفلحًا، بينما لو كان واقعًا في أشراك البخل والمنع، فإنّ يديه لن تصلا إلى الفلاح إطلاقًا.

ولكن، هل يمكن لمجرّد إنفاق الإنسان لأمواله أن يكون موجبًا لبلوغ الفلاح؟ أم ينبغي أن تتوفّر حتمًا بعض الشروط في إنفاقه؟ بالطبع، لا يمكن استفادة هذا الأمر من الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾[٣]. وبحسب الاصطلاح، فإنّ الآية الكريمة ليست في مقام بيان هذه المسألة، بل إنّها ـ من هذه الجهة ـ مشابهة لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾[٤]؛ إذ ليست الآية الكريمة في مقام بيان أيّة صلاةٍ هي الموجبة لبلوغ الفلاح، ولا عدد ركعاتها أو كيفيّة أدائها، بل هي تبيّن إجمالًا حقيقةَ أنّ للصلاة المصاحبة للخشوع تأثيرًا مهمًّا في بلوغ الإنسان الفلاح. وكذلك الحال في آية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾[٥]، فهي بصدد بيان حقيقةَ أنّ لإيتاء الزكاة تأثيرًا مُلفتًا للنظر في تحقّق فلاح الإنسان، وهي ليست بصدد الإجابة على أسئلة من قبيل: «هل إنّ كلّ

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٩٢.

(٢) سورة **الحشر**، الآية ٩، وسورة **التغابن**، الآية ١٦.

(٣) سورة **المؤمنون**، الآية ٤.

(٤) سورة **المؤمنون**، الآية ٢.

(٥) سورة **المؤمنون**، الآية ٤.

زكاة لها هذا الأثر؟ وهل كلّ أشكال الزكاة وأنواع الإنفاق متساوية في إيصال الإنسان للفلاح أم لا؟».

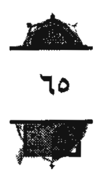
وكما أشرنا في بحث الصلاة، إنّها ـ ولحسن الحظّ ـ قد تطرّقت آيات متعدّدة وروايات شريفة مختلفة إلى البحث في هذه المسائل. وبصرف النظر عن الروايات الكثيرة في هذا الموضوع، فإنّ كثيرًا من هذه المسائل يمكن استفادتها من خلال الرّجوع إلى الآيات الأخرى، وسنشير إلى بعضها في تتمّة بحثنا.

نقطتان أساسيّتان في الإنفاق

من جملة التعاليم التي يمكن استفادتها بشكل يقينيّ من مجموع المعارف الإسلاميّة:

أوّلًا: أنّ كمال الإنسان وفق الرؤية الإسلاميّة يتمثّل بالقرب من الله.

وثانيًا: أنّ الأمـور التي تؤثّر في تحقّق هذا الأمر فعليًّا وتوجب سعادة الإنسان، مشروطة بنيّة القربة. **بعبارةٍ أخرى**: إنّ التقرّب إلى الله تعالى أمرٌ قصديّ، ولا يتحقّق من دون القصد؛ فالصّلاة، التي تشكّل أكمل العبادات، وأسمى وسائل التقرّب إلى الله تعالى، من الممكن أن تُؤدّى بنحوٍ توجب بعد الإنسان عن الله، فضلًا عن أنّها لا توجب التقرّب إليه تعالى، وذلك حين تؤدَّى رياءً. وإنّ كلَّ عبادة أخرى، بل كلَّ عمل يُرتجى منه أن يكون موجبًا للقرب الإلهيّ، لا بدّ من أن يحتويَ على قصد القربة، ومن دونه لن يكون لهذا العمل أدنى تأثير في التقرّب إلى الله. **وبتعبيرٍ ثالث**: إنّ الأفعال التي يُطلق عليها في الإسلام اسم «العبادات» أو «الأفعال الأخلاقيّة»، والّتي تعتبرُ أفعالًا مطلوبةً، تبقى بمنزلة عضوٍ أو بدنٍ يحتاج إلى روحٍ. فكلّ عضوٍ، وبشكلٍ عامّ بدن الإنسان، إنّما يكون ذا فائدة



وأثر إذا حلّت فيه الروح. أمّا البدن الذي لا تحلّه الروح، فلا تُرجى منه أيّة فائدة، ولا تُنسب إليه أيّةُ ميزة، مهما كان قويًّا وجميلًا ومتناسقًا ومتكافئًا، بل قد يكون أثرُه في بعض الأحيان سلبيًّا. ومن هنا، فإنّ أوّل شرط ينبغي توفّره في الإنفاق وإيتاء الزّكاة، كي يكون مقرّبًا إلى الله، هو أن يؤدّى بقصد القربة ونيّتها.

ولكن، بالإضافة إلى قصد القربة، تحوز مجموعة من النّقاط الأخرى على أهمّيّة بارزة فيما يرتبط بالإنفاق والزكاة، وقد أكّد عليها القرآن خصوصًا. من جملة هذه النقاط، ما أشرنا إليه أيضًا في الدرس السابق، وهو ضرورة أن يتعلّق الإنفاق بالأموال والأشياء التي يحبّها الإنسان؛ فكثيرٌ منّا عندما يريد أن يُنفقَ شيئًا من أمواله، يعمد إلى إعطاء الأشياء التي تشكّل مصدرَ إزعاج في منزله، أو تلك التي تكون في معرض التلف ويريد أصحابها رميَها بعيدًا والتخلّص منها؛ لأنّها لا تعود عليهم بأيّ طائل أو ثمرة، سوى تضييق المكان وزيادة الازدحام. وإن أراد أن ينفقَ طعامًا، فإنّه يبحث عن الطعام الذي يحتمل فسادَه، ولو أراد أن ينفقَ لباسًا، فإنّه يختارُ تلك الألبسة القديمة والتي تآكلت ألوانها، وفقدت قيمتها، ولم يعد بالإمكان الاستفادة منها، ويُعطي من أثاث منزله وآلاته، تلك التي لا يمكن الانتفاع بها، بل ينبغي إلقاؤها خارجًا بسبب ضيق المكان، حتّى يأتي عاملُ تنظيفات المحلّة فيأخذها، كي يرتاح صاحبها من شرّها.

إنّ الله الذي خلقنا والذي يعلم جيّدًا نقاطَ ضعفنا، قد أكّد على هذه المسألة على وجه التحديد، وأمرنا ـ بأنواع البيان ومختلف التعابير ـ أن ننفقَ ونبذلَ من الأشياء التي نحبّها. وإنّ واحدةً من هذه البيانات تلك

الآية المعروفة: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾[١]، وقد تقدّم البحث فيها. والآية الأخرى الّتي تطرّقت إلى هذه المسألة وقد تقدّم ذكرها أيضًا: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[٢]، هذا بالطّبع بناءً على إرجاع الضمير في «حبّه» إلى «الطّعام»، بينما لو اعتمدنا على الاحتمال الآخر، وهو أنّ يعود الضمير إلى لفظ الجلالة «الله»، فحينئذٍ يصبح معنى الآية الكريمة: «ويُنفقون طعامهم للمسكين واليتيم والأسير حبًّا لله تعالى».

وفي آية أخرى، ينهى الله تعالى عن أن يكون المال المُنفَق من الأشياء التي لو أعطيت لنفس المُنفِق لما كان لديه أيّة رغبة في أخذها، ولو قبلها فإنّه يأخذها مُغمِضًا عينيه، ويتقبّل هذا الإنفاق من جهة أنّه لا يريد ردّ يد الطّرف المقابل فقط، وإلّا فإنّه مستغنٍ عنه ولا حاجة له فيه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[٣].

وكما أشرنا سابقًا أيضًا، إنّ سرّ هذا التأكيد يكمن في أنّ أحد أهمّ الموانع التي تقف في طريق رشد الإنسان هو التعلّق بمال الدنيا. هذا التعلّق الّذي يُفلجُ الإنسان، يشلّه، ويسلبه القدرة على التحرّك، يحول دون تحليقه في الملكوت، ويجذبه نحو حضيض الدّنيا وعالم المادّة وتعلّقات الدنيا وزخارفها. إنّ مَثَلَ روح الإنسان كَمَثَلِ طائر يميل نحو التحليق إلى الملكوت، ومَثَلَ التعلّقات الدنيويّة كمثل أحجارٍ عالقةٍ في أقدام هذا

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٩٢.

(٢) سورة **الإنسان**، الآية ٨.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٢٦٧.



الطائر تُضعف تحليقَه، بل قد تثقل في بعض الأحيان إلى درجة تسلب منه القدرة على النهوض من مكانه، مهما بذل من جهدٍ، ومهما تحرّك في الأرض محاولًا النهوض.

إنّ صعودنا وتحليقنا ينبغي أن يكون نحو الله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[1]، إلّا أنّنا نُقيّد أنفسنا بالأمور الدنيويّة، ونثبّت في أقدام قلوبنا وأرواحنا حجارة التعلّقات الدنيويّة الثقيلة، والتي تشبه الحجارة الثقيلة التي تُثبَّت في أقدام الطائر الصغير. ومن الواضح أنّ الطائر في مثل هذه الوضعيّة لن يتمكّن من التحرّك من مكانه مهما حاول وسعى. وبالطبع، إنّ مدى تأثير أحجار التعلّقات الصغيرة يرتبط بمقدار وزنها، فتُثقل بهذا المقدار كاهل الإنسان، وتقلّل من سرعة سيره، وتوجد خللًا في مستوى ذروة تحليقه.

وإنّ السرّ في كون الإنفاق باعثًا على الفلاح أيضًا، أنّ من شأنه نزعَ أغلال هذه التعلّقات من قلب الإنسان وروحه؛ فعندما يُقدم الإنسان على إنفاق تلك الأموال وبذلها في سبيل الله، مع أنّه قد تعلّق بها وبذل من أجل تحصيلها كثيرًا من الجهد وأسال في سبيل اكتسابها عرق الجبين، فيكون حينئذٍ قد خطا خطوةً على طريق إضعاف هذه التعلّقات القلبيّة. وكلّما أقدم على تمرين نفسه أكثر فكرّر هذا الأمر، فإنّ تعلّقاته هذه ستغدو يومًا بعد يوم أقلّ فأقلّ. وهكذا يتّضح أنّ إنفاق تلك الأموال الّتي لا يرتجي أصحابُها منها أيّة منفعة لأيّ سبب كان، وتلك الّتي يريد أصحابُها التخلّصَ منها، لن يكون له أدنى تأثير في إضعاف حبّ الإنسان لماله وإزالة هذه التعلّقات القلبيّة. فهل يُعقل أن يأتي الإنسان بالأشياء

---

(١) سورة **فاطر**، الآية ١٠.

التي كان يريد رميها والتخلّص منها، ثمّ يمنّ على الله تعالى، ويُنفقها في سبيل رضاه؟! كيف يتسنّى لمثل هذا الإنفاق أن يُزيل عن قلب الإنسان صدأ التعلّق بمال الدنيا؟! وكيف يمكن له أن يُنقصَ من أثقالها؟! ومن هنا، فإنّ أحد الأصول المهمّة في مسألة الإنفاق وتحقّق تأثيره في بلوغ الهدف الّذي شُرّع من أجله، هو أن يُنفق الإنسان من الأموال التي يحبّها، ويرتجي منها نفعًا، ويميل إلى امتلاكها.

أهميّة الإخلاص في الإنفاق

ومن الأمور الأخرى التي أكّدت عليها آيات القرآن الكريم فيما يرتبط بقضيّة «الإنفاق»، وهو شرط عامّ في مختلف العبادات والأفعال القُربيّة، مسألةُ «الإخلاص»؛ إذ يُعتبر الإنفاق من جملة الأفعال التي تكونُ ماهيتّها بنحوٍ يجعل أرضيّة ظهور الرياء والغرور وبروز المقاصد غير الإلهيّة فيها أكبرَ بالقياس إلى بعض الأفعال الأخرى. ومن هُنا، نرى التأكيد الخاصّ الذي أولاه القرآن الكريم لمسألة الإخلاص في الإنفاق. ومن جملة هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِۚ﴾[1].

تختلف المقاصد والنيّات غير الإلهيّة في مسألة الإنفاق، حتّى إنّ بعض هذه المقاصد قد تكون ممدوحة ومقبولة من الناحية الأخلاقيّة، إلّا أنّها على كلّ حال، من وجهة نظر الإسلام، قاصرة عن إعطاء «الإنفاق» الثقل القيميّ اللازم. فعلى سبيل المثال، قد يُقدم شخصٌ على الإنفاق بدافع الرأفة والعطف والشفقة، فإنّه وإن كانَ كون الإنسان عطوفًا تجاه الآخرين أمرًا ممدوحًا في حدّ ذاته، ولكن لو وقع الإنفاق بهذه النيّة، فلن

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٧٢.



يكون له ذلك الأثر في تحقيق التقرّب إلى الله. ولو تحقّقت هذه الصفة وهذه النيّة عند الإنسان الكافر على سبيل المثال، فإنّ من شأنها أن تكون عاملًا مؤثّرًا في إبعاد ظلمات الكفر وعبادة النّفس وما شابه هذه الأمور عن روحه، وأن تهيّئ في نفسه الظروفَ المناسبة للرشد والتكامل وقبول الإيمان. ولكنّ أثرها لا يتعدّى هذا الحدّ المذكور، ولا يمكن أن تترك اَثرًا أعلى وأرفع. وبالطبع، إنّ في هذه المسألة بحثًا وكلامًا بين العلماء المسلمين حول ما إذا كان بالإمكان أن يكون للأعمال الخيّرة التي تصدر من غير المؤمن تأثيرٌ في تحقيق سعادته أم لا؟ ويُعتبر هذا البحث من جملة الأبحاث المفصّلة والتي لا مجال لطرحها في ما نحن بصدده؛ إذ لا تتناسبُ كثيرًا مع بحثنا الفعليّ. ولكن كما أشرنا سابقًا، إنّ أدنى فائدة يمكن أن تُرتجى من أعمال هذا الإنسان أن تزول بواسطتها تلك الأدران والتلوّثات الشديدة التي تظهر في روح الكافر على أَثَر كفره والذنوب التي يرتكبها، فيتهيّأ بفضل هذه الصفة الظرفُ النّظيفُ نسبيًّا والمساعدُ على تقريب هذا الإنسان من قبول الإيمان في المستقبل، فلا يحتاج بعدها نورُ الإيمان إلى أكثر من شرارة واحدة ليتجلّى في قلبه. **وبتعبير فلسفيّ**: إنّ تأثير هذه الأعمال الحسنة على الإنسان الكافر ينحصرُ في حدود «رفع المانع»، ولكن هل تترتّب عليها فوائد أكثر وآثار أخرى أم لا؟! فهذا بحثٌ عميق ينبغي أن يُطلب في فلسفة الأخلاق، ويُبحث بشكلٍ فنّيّ وتخصّصيّ.

وعلى أيّة حال، فإذا ما أردنا لآثار أعمالنا أن ترتقي فوق حدود «رفع المانع» وأن تكون موجبةً لرشدنا وتقرّبنا إلى الله، فلا بدّ لنا من تأدية هذه الأعمال بقصد التقرّب إلى الله فقط، وكما يعبّر القرآن الكريم: ﴿تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾؛ يقولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ

أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾[1].

وبالطبع، إنّ للإخلاص في العمل وقدرة الإنسان على أداء عملٍ ما *خالصًا لوجه الله* مراتب مختلفة. وعلى وجه الإجمال، ترتبط درجة إخلاص الفرد في عمله ارتباطًا وثيقًا بمدى معرفته بالله تعالى ومقدار حبّه له. ومن هنا، يجب على الإنسان، من أجل الارتقاء بدرجة إخلاصه، أن يُصيّرَ معرفَته بالله تعالى أكمل، وحبّه لذاته المقدّسة أكبر؛ إذ كلّما كان حبّ الإنسان لله تعالى أزيد أمكنَه تأدية الأعمال بإخلاص أكبر. وإنّ هذه القاعدة حاكمة أيضًا في الصداقات والعلاقات الدنيويّة؛ فلو ملأتْ قلبَ الإنسان محبّةُ شخصٍ ما، فإنّه حينئذٍ يُصبح على استعدادٍ لتقديم حياته كلّها لمحبوبه دون انتظار أيّ مقابل، بل من أجل نفس المحبوب وجلب انتباهه ورضاه فقط. ولكن في المقابل، إذا لم يكن الإنسان محبًّا، فإنّ تأديته للأعمال من أجله سوف تكون محفوفةً بالإكراه ومصاحبةً لكثيرٍ من العناء. وفي عالم المعنويّات أيضًا، كلّما كانت معرفة الإنسان بالله تعالى أرفع ومحبّته له أكبر، استطاع الارتقاء بأسس بنيان الإخلاص وقواعد التقرّب إلى الله. وكما أشرنا سابقًا، من الممكن أن يصل الإنسان في إخلاصه إلى درجة ألّا ينتظر مقابل عمله حتّى كلمة شكر واحدة جافّة وفارغة ممّن أسدى إليه خدمة، ولا يبتغي أجرًا سوى رضا الله، ولو بمقدار ذرّة؛ يقول الله تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾[2].

---

(١) سورة **الروم**، الآية ٣٩.

(٢) سورة **الإنسان**، الآيتان ٨ و٩.

مثلٌ قرآني حول الإنفاق

ولكن في الطرف المقابل لـ«مرضاة الله» و«ابتغاء وجه الله»، يواجهُنا خطر الابتلاء بآفة «الرياء». ومن أجل بيان التفاوت والاختلاف بين أعمال الأشخاص الذين ينفقون أموالهم لله تعالى وفي سبيله، وأولئك الذين ينفقون أموالهم رياءً وبدوافع غير إلهيّة، يضربُ القرآن الكريم مثلًا مُلفتًا وجذّابًا وواضحًا. وهذا المثل القرآنيّ وإن كان طويلًا وقد بيّنه القرآن في عدّة آيات، فإنّ من المناسب استعراضَه هنا من أجل أن يتّضح بحثنا:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ
فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾
ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى
لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ
وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ
وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ
وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ
أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ
يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ
جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ
وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟
مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ

مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[1].

إنّ أعمالنا شبيهة بالزراعة، وما نقوم به في هذه الدنيا بمنزلة بذور نزرعها اليوم لنحصدَ ثمارها في الآخرة؛ «الدُّنْيا مَزْرَعَةُ الآخرة». تصوّروا أنّ شخصًا يريد أن يزرع على صخرة ملساء عليها مقدار من التراب، فينثر على هذا التراب بعض البذور، وينتظر اخضرارها ليجنيَ منها محصولًا. وتصوّروا في مثل هذا الحال، لو بدأ المطر الشديد بالانهمار والوابل القاسي بالهطول. إنّ نتيجة هذا الأمر معلومة؛ إذ إنّ هذه الأمطار سوف تغسل كلّ التراب والبذور وتأخذها معها، وعندئذٍ ستذهب كلّ آمال الزارع أدراج الرياح، ولن يبقى له شيء على الإطلاق؛ يقول القرآن الكريم: إنّ مثل الإنسان الذي لا يؤمن باليوم الآخر وينفق ماله لغير الله تعالى كمثل هذا الزارع، فجهوده التي بذلها وأتعابه التي لاقاها ستذهب سدىً، ولن يجنيَ لنفسه أيّة نتيجة منها: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾.

وفي المقابل، تصوّروا جنّةً وأرضًا خصبة تقع في مكان مرتفع ومناسب، وكما يعبّر القرآن الكريم: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾، فماذا لو هطل على هذه الأرض وابل ومطر شديد؟ في هذه الحالة ستكون النتيجة معاكسة بشكل كامل للنتيجة السابقة، فهذا الماء الكثير سوف يكون باعثًا على حصول صاحب الجنّة على محصول كبير في موسم الحصاد، بل سيكون القطاف أكبر ممّا كان يتوقّع؛ ﴿فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ﴾. ولو لم تهطل هذه الأمطار الشديدة، فإنّ من شأن الأمطار القليلة والخفيفة أن تكون كافية أيضًا لهذه الأرض كي تُنبت للزارع محصولًا جيّدًا وجديرًا

---

(١) سورة **البقرة**، الآيات ٢٦١ إلى ٢٦٧.



بالالتفات إلى حدّ ما: ﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾، يقول القرآن الكريم: إنّ مَثَلَ الإنفاق الذي يؤدّى بنية سليمة وصحيحة وبغرض جلب رضا الله تعالى، كَمَثَلِ هذه الجنّة التي لن يخرج منها صاحبها على كلّ الأحوال بأيدٍ خاليةٍ وفارغةٍ وبلا أرباح.

إنّ كثيرًا من الأشخاص يبذلون أموالًا كثيرة وينفقون الملايين بل المليارات في النشاطات الخيريّة وذات المنفعة العامّة، وإنّ الناس أيضًا يدعون لهم ويقومون بتمجيدهم ومدحهم. ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ درجة تأثير هذه الإنفاقات وفائدتها الواقعيّة على نفس هؤلاء الأشخاص تعتمد على مدى طهارة نيّاتهم ومقدار كونها نيّات إلهيّة. فإن كانت أعمالهم رياءً وغرورًا وشهرةً وأمثال هذه الأمور، فإنّها ولو طالت فوائد هذه الأعمال وثمراتها عموم الناس، إلّا أنّ هذه الأعمال ستكون بالنسبة إلى هؤلاء الأشخاص بمنزلة ذلك الزرع على الصخرة الملساء، الذي يغسله هطول واحد للمطر فيفنيه ولا يُبقي له أثرًا. ولكن لو كانت نيّاتهم إلهيّة وسليمة، فإنّه ولو كان حجم أعمالهم محدودًا وقليلًا، فستنالهم فائدة كبيرة وحظٌّ وافرٌ من هذه الأعمال.

وعلى كلّ حال، فإنّ هذه المسألة واحدة من المسائل التي شدّد القرآن الكريم عليها فيما يرتبط بموضوع الإنفاق. وإنّ القرآن نبّهنا إلى حقيقة، مُفادها أنّ كون العمل مفيدًا وذا أثر على رشد المرء وكماله، مشروطٌ بتأديته بإخلاص، أو كما يعبّر القرآن الكريم ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ و﴿تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾.

تحذير قرآني آخر

ماذا لو أنفق الإنسان بنيّة سليمة وخالصة، وكان غرضه الواقعيّ القربة إلى الله، فهل يمكن له أن يكون مطمئنًّا من أنّ إنفاقه سيكون مثمرًا؟ أو على حدّ تعبير القرآن الكريم، هل يمكن له الاطمئنان من أنّه سيحصل من كلّ بذرة ينثرها على سبعمئة ضعف؟

الجواب: لا، بل على الإنسان أن يكون حذِرًا مراقبًا، لئلّا يرسل على مزروعاته ومحصولاته عاملًا يحرقها ويفسدها. **بعبارة أخرى:** إنّ ما طرحناه حتّى الآن هو الشرائط والمباحث المرتبطة بأصل وقوع الزراعة على الوجه الصحيح، ولكن بعد الزراعة ينبغي على الزارع أن يتوخّى الحذر، لئلّا تتعرّض مزروعاته للضرر، ولئلّا تشبّ فيها النيران فتلتهمها وتذهب في مهبّ الريح. في الآيات الكريمة التي تقدّم ذكرها يقول القرآن الكريم ـ حول هذه المسألة ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾[١].

ويقول أيضًا: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[٢].

من هنا، ينبغي أن نكون حذرين جدًّا من أن نفسد أعمالنا الصالحة ونضيّع إنفاقنا، من خلال المنّة على الناس، وطرح بعض المسائل، والحديث عن بعض الأمور. فقد يتلفّظ الإنسان أحيانًا بكلام من دون أن يلتفت إلى أنّه بهذا الكلام يشعل نارًا في أكوام المحصولات التي جناها

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٦٤.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٦٢.



بواسطة إنفاقه، ويحوّلها إلى كومة من رماد. وإنّ بعض الناس في يوم القيامة لا يجدون أيّ أثر لإنفاقهم الكثير في هذه الدنيا مهما بحثوا، وعندما يسألون عن علّة هذا الأمر يُقال لهم: «إنّكم أضرمتم في هذه الأعمالِ نارًا فأفنيتموها». ويصوّر القرآن الكريم في الآيات المذكورة من سورة «البقرة» هذا الأمر على النحو التالي: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

فينبغي للإنسان أن يتوخّى الحذر كي لا يبطل أعماله ويمحق آثارها، من خلال تقريع الناس المنفق عليهم وتحقيرهم وتعريضهم للأذى اللفظيّ والتصرّفات المؤذية.

الإنفاق السرّي أم الإنفاق العلني؟

ومن المسائل المرتبطة ببحث الإنفاق الإسرار والإعلان، أي: هل ينبغي للإنفاق أن يكون ظاهريًّا علنيًّا أو أن يكون سرّيًّا مخفيًّا؟

يُقدّم القرآن الكريم الإجابة عن هذا التساؤل في واحدة من آياته، فيصرّح بأنّ الإنفاق العلنيّ وإن كان جائزًا ولا إشكال فيه، إلّا أنّ الإنفاق السرّي المخفيّ أفضل وأرفع: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾[2].

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٦٦.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٧١.

إنَّ من محاسن الإنفاق العلنيّ ومزاياه أنّه موجب لتشجيع الآخرين وحثّهم على القيام بهذا العمل، وتقديم أسوة وقدوة لسائر النّاس. ولقد جرّبنا هذا الأمر أيضًا، وشهدناه بأنفسنا في مساجدنا وتكايانا[1] ومجالسنا الدينيّة؛ ففي أوقات جمع الأموال والتبرّعات من أجل القيام بالأعمال الخيريّة لا بدّ لشخص من أن يبادر أوّلًا ويتقدّم كي يحفّز الآخرين ويدفعهم نحو المشاركة والتبرّع أيضًا. وما لم يتقدّم هذا الشخص ويحثّ الآخرين على المشاركة، فإنّ دافع تقديم المساعدة سوف يضعف تلقائيًّا عند سائر الأشخاص، بل قد يغفلون بشكل كامل عن هذه المسألة. ولكن لو تقدّم شخصٌ واحد وقام بهذا الأمر، فإنّ الآخرين سيقتفون نفس الأثر تبعًا له، وسيُقدمون على هذا الأمر أيضًا ويساهمون في إنجاز هذه الأعمال الخيريّة. أمّا لو وقع الإنفاق بنحو سرّيّ ومخفيّ بشكل كامل ولم يعلم به أحد، فعندئذٍ لن يؤدّي هذا الإنفاق إلى اقتداء الآخرين والتأثير فيهم. ومن هنا يُعلم أنّ هذه الجهة هي جهة حُسن وامتياز موجودة في الإنفاق العلنيّ ويفتقر إليها الإنفاق السرّيّ.

ولكن من جهةٍ أخرى، فلأنّ الإنسان معرّضٌ في مثل هذه الحالات للابتلاء بالرّياء، ولأنّ يدَ الشيطان تصبح أقوى وأصلب في إبطال عملِ الإنسان في موارد الإنفاق العلنيّ، يكون من الأفضل لأولئك الّذين لم يبنوا أنفسَهم حتّى الآن، والّذين لم يصلوا إلى درجة السيطرة على النّفس والشيطان، أن يؤدّوا إنفاقَهم بشكلٍ مخفيّ سرّيّ. وإنّ هذه الحقيقة صادقةٌ أيضًا في حقّ سائر الأعمال الأخرى، فمن الأفضل أيضًا لمثل هؤلاء

---

(١) «تكايا» جمع «تكية»، وهي في الأصل محلّ اجتماع الصوفيّين أو النُزُل المجّانية التي يسكنها الزوّار في المدن ذات المزارات الدينيّة، وهي في الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران محلّ إقامة مراسم العزاء على أئمة أهل البيت ﷺ، وبالأخص في أيام شهر المحرم. (المترجم)



الأشخاص أنّ يؤدّوا صلاة الليل، على سبيل المثال، وأن يصوموا في الأيّام المستحبّة بشكلٍ مخفيّ، من دون أن يُلاحظَ أحدٌ ذلك. وفي المحصّلة، كلّما سعى الإنسان في إخفاء أعماله الخيّرة وأفعاله الحسنة كان هذا أفضلَ له.

ويحضرني ـ في هذا الصدد ـ ذلك الزمان الذي كنّا فيه طلبةً للعلوم الدينيّة، ونسكن داخل الحوزة العلميّة، حيث كنّا نستيقظ في أوقات السحر أحيانًا، فنرى أضواء بعض الحجرات مطفأةً، فنخال أنّ الطلبة الموجودين في تلك الحجرات قد حُرموا توفيق صلاة الليل والمناجاة في الأسحار، غير أنّنا كنّا نكتشف لاحقًا أنّ هؤلاء الطلبة كانوا يتعمّدون عدم إضاءة حجراتهم كي لا ينتبه أحد إلى أنّهم من أهل قيام السحر وصلاة الليل والتهجّد. وقد كان بعضهم أذكياءَ في إخفاء أعمالهم هذه إلى درجة أنّهم، وبعد ساعاتٍ من المناجاة والبكاء وقراءة القرآن وتأدية نافلة الليل وصلاة الصبح، كانوا يأتون إلى المسجد قبل شروق الشمس بوقت يسير، فيؤدّون ركعيتن كي يوهموا الآخرين بأنّهم قد صلّوا صلاة الصبح في ذلك الوقت. وحينئذٍ، ليس الآخرون لا يعرفون شيئًا عن قيامهم في الأسحار وأدائهم لصلاة الليل فحسب، بل يظّنون أنّهم أخّروا صلاة الصبح كثيرًا، حتّى أدّوها قبل طلوع الشمس بدقائق قليلة! ولقد كان غرضهم من فعلهم هذا أن يمرّغوا أنف الشيطان بالتراب، وأن يغلقوا أمامه طريق الوسوسة المُفضي إلى ابتلائهم بالرياء والتظاهر والغرور، وهكذا يحطّمون آماله بشكل كامل.

ولكن ينبغي أن نضيف أمرًا في هذا السياق، مُفاده أنّه من اللازم علينا أيضًا أن نحذر من السقوط في الطرف الآخر من هذه المكيدة، وأن نحترس من الوساوس الشيطانيّة التي تعتمد على مسألة اجتناب

الرياء؛ إذ إنّ الشيطان يدخل أحيانًا من هذا الباب، فيُلقي في ذهن الإنسان كلامًا عن ضرورة الحذر من فخّ الرياء، إلى حدّ يدفع بالإنسان نحو ترك هذا العمل كلّيًّا، فيعزب عن خير أداء صلاة الليل. ومن الواضح أنّ بلوغ الإنسان هذا الحدّ من الوسواس في إخفاء أعماله هو أمر *مخالف للصواب*، وينبغي *أن نقطع أنّه* من مكائد الشيطان. وإنّ مثل هذه الحالة من مصاديق المثل المشهور: «الإملاء التي لم تُكتب لا يقع الخطأ فيها»[1]. ففي هذه الحالات يخدع الشيطان الإنسان عبر سلوك هذا الطريق؛ فقد يقول الإنسان في قرارة نفسه: «من الأفضل ألّا أؤدّي صلاة الليل هذه الليلة لئلّا أُبتلى بالرياء»، وفي الليلة الثانية يمتنع أيضًا بسبب وسواسه هذا عن أداء صلاة اللّيل، وكذلك في الليلة التالية، وتستمرّ معه هذه الوساوس حتّى يترك هذا العمل بشكل كلّيّ. وإنّ قرّة عين الشيطان في تركنا صلاةَ الليل، وقد حقق غرضه هذه المرّة من خلال وساوس «تجنّب الرياء والغرور». لذا، ينبغي أن نتوخّى الحذر كي لا نسقط في مكائد الشيطان هذه، والقاعدة الكلّيّة في هذا المجال، تقضي بأنّه لو دار الأمر بين أداء العمل بشكل علنيّ وأدائه بشكل مخفيّ فإنّ الأفضل، من أجل تجنّب الرياء، أن نؤدّيه بشكلٍ مخفيّ وسرّيّ. ولكن لو دار الأمر بين أدائه بشكل علنيّ وتركه من أساسه والامتناع عن أدائه، فهنا ينبغي أن نُبادر إلى أداء هذا العمل بصورة علنيّة.

وفي الختام، نرى من اللازم أن نشير إلى نقطة، مُفادها أنّ غالبيّة المطالب التي ذكرناها هنا حول الإنفاق، لا تختصّ بالإنفاق فقط، بل تسري وتجري في سائر العبادات أيضًا، ولكن لمّا كان بحثنا الفعلي

---

(١) من الأمثلة الفارسيّة المنهورة: «ديكته نانوشته غلط ندارد».



يتمحور حول الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾[1] اختصّ كلامنا بموضوع الإنفاق ومراعاة هذه الأمور فيه.

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ٤.

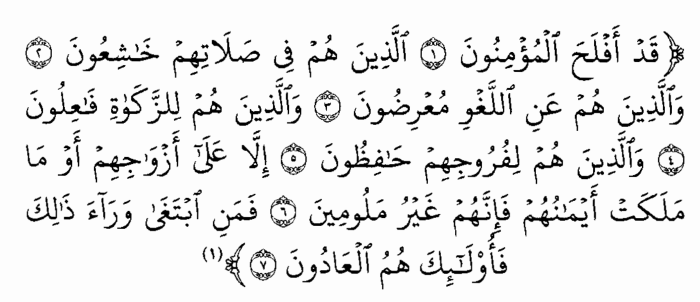


الدرس الرابع:

التحكّم بالغريزة الجنسيّة






﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢
وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ
۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾[1]

شرط الفلاح: التحكّم بالغريزة الجنسيّة

يُطلق القرآن الكريم على الأشخاص الذين يتمكّنون من اجتياز المخاطر وبلوغ هدف خلقتهم وصفَ «المفلحين». وتأتي الآيات القرآنيّة على ذكر العديد من السمات والصفات التي يتحلّى بها هؤلاء المفلحون. وتُعتبر الآيات الأولى من سورة «المؤمنون» من جملة أطول هذه الآيات إسهابًا وأوسعها بسطًا لصفات المفلحين. ولهذا السبب، شرعنا في بحث الغرض منه شرح وتفسير هذه الآيات الشريفة، وقد تطرّقنا إلى حدّ الآن للبحث والحديث حول عدّة آياتٍ منها. وقد حطّ بنا الرحال ـ في مقام استكمال هذه الأبحاث ـ في بحث وصف آخر من أوصاف المفلحين، أشارت إليه

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآيات ١ إلى ٧.

هذه الآيات الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧﴾[1].

تؤكّد هذه الآيات على أنّ أحد الشروط المهمّة لبلوغ الفلاح الطهارة ومُراعاة العفّة فيما يرتبط بالغريزة الجنسيّة. ووفقًا لمُفاد هذه الآيات، فإنّ المفلحين هم أشخاصٌ سيطروا على غريزتهم الجنسيّة، وامتنعوا عن سلوك أيّ طريق في سبيل إرضاء هذه الغريزة سوى طريق «أزواجهم»، الطريق الذي أباحه الله تعالى. وإنّ كلّ من يصنع خلاف ذلك، يُعتبر متجاوزًا لحدود الله تعالى، مُتعدّيًا لها، بعيدًا كلّ البُعد عن ركب الفلاح والمفلحين. وكي يتّضح هذا المطلب بشكل أكبر، نرى من اللازم أن نطرح المقدّمة التالية.

تحليل حول فلسفة وجود الغرائز في الإنسان

بشكلٍ عـامّ، ومن أجل أن يقتدر الإنسان في هذا العالم على سلوك المسير الصحيح لحياته الإنسانيّة والوصول إلى هدف خلقته، وضع الله سبحانه وتعالى تحت تصرّفه واختياره وسائلَ متنوّعة وأسبابًا متعدّدةً وأشكال النعم وأصنافها. ولكنّ هذه الأسباب غالبًا ما تكون بنحو يستطيع الإنسان أن يستفيد منها ويوظّفها في المنحى الإيجابيّ وفي المنحى السلبيّ على حدّ سواء. وفي الصورة التي يُستفاد منها بمنحىً غير صحيح، تعود على صاحبها بآثار ونتائج معكوسة، وحينئذٍ لا تكون غير مساعدةٍ في تكامل الإنسان فقط، بل تُعيقه أيضًا عن بلوغ مقصده. ولقد صُمّمَ

(١) سورة **المؤمنون**، الآيات ٥ إلى ٧.



عالم الخلقة ـ بشكلٍ عامّ ـ وفق نظامٍ يكون الإنسان قادرًا فيه على إدارة حياته الفرديّة، بل حياته الاجتماعيّة أيضًا، والوصولِ إلى الكمال اللائق به المتمثّل بالقرب إلى الله تعالى، عبر الاستفادة من هذه المواهب والنعم المتوفّرة في هذا العالم. وعليه، فإنّ الهدف الأصليّ والأساسيّ من خلق هذه النعم، هو أن يستفيد كلّ إنسان يعيش في هذه الدنيا لمدّة معيّنة من هذه النعم، كي يستمرّ في حياته، ويُهيّئَ لنفسه ظروف التكامل والرقيّ.

بعبارة أخرى: بما أنّ الإنسان، حالُه كحال سائر الحيوانات، يستهلك طاقةً في القيام بأفعاله، فتضعفُ بسبب ذلك قواه البدنيّة وتتآكل، فهو محتاج إلى توفّر أشياء في هذا العالم، بحيث يمكنه بواسطتها تدارك الطاقة التي خسرها وتعويضها وتحصيل بديل عنها. ومن هنا، تتّضح ـ مثلًا ـ فلسفة جوع الإنسان وعطشه؛ إذ ينبغي للإنسان أن يأكل الطعام من أجل استعادة الطاقة الّتي خسرها لاستمرار حياته. وكي يتحقّق فعل أكل الطعام، من اللازم أن يكون في الإنسان غريزة باسم «الجوع»، من أجل أن يتحرّك من تلقاء نفسه عند اللزوم، ويتولّد في داخله على أثرها ميلٌ نحو الطعام. فلو لم يتولّد في الإنسان ميلٌ نحو الطعام، ولو لم يشعر الإنسان بالجوع والعطش لكانت حياته في خطر؛ لأنّ في مثل هذه الحالة قد تؤدّي انشغالاته الأخرى إلى الغفلة عن لزوم تناول الطعام وشرب الماء، فيتنبّه من غفلته بعد فوات الأوان، وتملُّك الضعف الشديد والضرر الجدّي من بدنه، وبعدَ أن تُسلب منه القدرة على الحركة. وعلى الرغم من وجود نظام الخلقة هذا، فإنّنا نرى في بعض الأحيان أشخاصًا يغفلون، في بعض الظروف الاستثنائيّة وبسبب تعلّقاتهم الخاصّة، عن تناول الطعام، مع أنّ غريزة الجوع فعّالة عندهم، والميل نحو الطعام متحقّق

في باطنهم. فعلى سبيل المثال قد ينشغل طالب العلم لساعاتٍ طويلة في البحث والتحقيق غافلًا عن ضرورة تناول الطعام.

وعلى أيّة حال، فلو لم تكن غريزة الجوع والميل نحو الطعام متحقّقة في باطن الإنسان، فإنّنا ولو افترضنا أنّ كبار السن سوف يذهبون من تلقاء أنفسهم نحو الطعام بناءً على تشخيصهم العقليّ لضرورته، إلّا أنّ الأطفال الذين لا يمتلكون مثل هذا التشخيص، سوف تُلهيهم ساعات اللعب والترفيه عن تناول الطعام وشرب الماء، فسوف تكون حياتهم ونموّهم في خطر، وخاصّة أنّنا نعلم أنّ حاجة الأطفال والمراهقين إلى اكتساب الطاقة أكبر من حاجة غيرهم، باعتبارهم في سنين النموّ والرشد.

وعليه، فإنّ أصل وجود غريزة الجوع عند الإنسان، وأصل وجود الطعام في الخارج هي نعم إلهيّة في غاية الأهمّيّة؛ لأنّ حياةَ الإنسان مرهونة بها، وبقاءَه مشروط بوجودها. ومن هنا، نرى أنّ الله تبارك وتعالى قد جاء في كثيرٍ من آيات كتابه الكريم على ذكر أسماء الأطعمة، وأكّد في موارد متعدّدة على أنّها نِعَمٌ إلهيّة، يجدر بالإنسان الالتفات إليها. ومن جملة هذه الموارد ما جاء في سورة «المؤمنون»: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾[1].

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآيات ١٨ إلى ٢١.



وكذلك الأمر في غير غريزة الجوع والميل نحو الطعام؛ إذ إنّ بدن الإنسان عندما يحتاج شيئًا معيّنًا، يتعلّق ميلُه بهذا الشيء بشكل طبيعيّ، وهذه نعمة إلهيّة أخرى في هذا المجال قد منحها الله تعالى للإنسان.

ومن هنا، نلاحظ مدى حكمة هذا النظام الّذي صمّمته يد القدرة الإلهيّة ليتمكّن الإنسان من العيش لسنواتٍ طويلة في هذه الدنيا، وكي تستمرَّ حياته وتدوم.

إلّا أنّ القضيّة لا تنتهي عند هذا الحدّ؛ فقد جعل الله تعالى وراءَ كلّ هذه النعم مصلحة أخرى تُحيّر الإنسان وتصيبه بالدهشة، وتشير إلى مدى تتابع حكَم الله تعالى وتواليها، وإلى أنّ بعد كلّ عُمقٍ يوجد عمقٌ آخر من حكمته تعالى. وهذه الحكمة الأخرى التي وضعها الله تعالى وراء نظام غريزة الجوع المعقّدة وخلقِ أنواع الطعام في الخارج، تكمن في أنّ الله قد جعل لكلّ لقمة يريد الإنسان تناولَها حكمًا شرعيًّا، يشكّل أرضيّة اختبار وامتحان لهذا الإنسان؛ فأحكام من قبيل ضرورة ألّا يكون هذا الطعام من ربًا أو من مال مغصوب، وألّا يكون نجسًا أو من حيوان محرّم اللحم، وعشرات الأحكام الأخرى، كلّها أرضيّة لاختبار الإنسان. هذا الاختبار الذي لا مفرّ منه، بل إنّ الله تعالى قد خلق الإنسانَ أساسًا كي يضعه تحت هذا الابتلاء والاختبار، ليُعلَم الصالحُ من الطالح؛ يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[1].

ومن هنا، فإنّ الغرض الأساسيّ والهدف الأوّليّ هو اختبار الإنسان وامتحانه، ولكن يلزم من أجل تحقّق هذا الاختبار، أنّ تُوفَّر للإنسان

---

(١) سورة **المُلك**، الآية ٢.





فرصة العيش والبقاء، وأن تُمنح له الحياة في هذا العالم. وإنّ واحدًا من أهمّ الأمور التي توفّر للإنسان إمكانيّة الحياة والبقاء في هذا العالم، هو الطعام وما يتعلّق به، من قبيل: غريزة الجوع، ووجود الطعام في الخارج، وامتلاك الأسنان، وقدرة الابتلاع، والجهاز الهضمي وأمور أخرى.

وإنّ نظير ما ذكرناه في غريزة الجوع موجود ومتحقّق في سائر الغرائز أيضًا. وفي هذا المجال، تُعتبر الغريزة الجنسيّة واحدة من أكثر غرائز الإنسان تمرّدًا وأقواها جموحًا، **وبعبارةٍ أدقّ:** هي أكثرُها تمرّدًا وأقواها جموحًا. وإنّ قضيّة امتحان الإنسان واختباره، والتي ذكرنا أنّها تُلحظ في جميع الغرائز الإنسانيّة، تتجلّى أكثر في هذه الغريزة. وفي الواقع، إنّ الغريزة الجنسيّة هذه من أصعب وسائل اختبار الإنسان وأشدّها حساسيّةً وأكبرها تأثيرًا. ومن هنا، فإنّ الأشخاص الذين يخرجون منتصرين ومرفوعي الرأس من اختبار الغريزة الجنسيّة، ينالون أعلى درجات الكمال، ويبلغون أرفع المقامات كالنبيّ يوسف عليه السلام. ولكن من جهة أخرى، بسبب صعوبة هذا الاختبار ومشقّته، يُخفق عدد كبير من البشر، ويسقطون في هذا الميدان.

وإنّ هذه الغريزة متمرّدة وجامحة إلى درجة أنّها تدفع ببعض الأشخاصِ أحيانًا لإشعال العالم بأسره في سبيل إرضائها. ولو أجرينا بحثًا سريعًا في إحصائيّات الجرائم التي يشهدها عالمنا الواقعيّ، فمن المحتمل أن تتصدّر اللائحةَ تلك الجرائم التي تتدخّل الغريزة الجنسيّة في وقوعها. حتّى إنّ بعض الأشخاص قد بحثوا ودوّنوا كتبًا حول الحروب التي كانت جذورُها الأولى وأصولُها الأساسيّة ترجعُ إلى طغيان الغريزة الجنسيّة.



وعلى أيّة حال، ففيما يرتبط بمسألة الاختبار والامتحان، تُعتبر الغريزة الجنسيّة إحدى أهمّ وسائل اختبار الإنسان وعوامل امتحانه. ولكن مع ذلك، ثمّة في مرحلة أدنى غرض مهمّ آخر من وجود هذه الغريزة في الإنسان، وهو بقاء النسل البشريّ ودوامه؛ إذ لولا هذه الغريزة لانقرض النسل البشريّ، ولما بقيَ على سطح هذه الأرض أيّ أثر لنوع من الموجودات يحملُ اسم «الإنسان» بعد مدّة قصيرة.

ولكنّنا من جهة أخرى، نعلم أنّ إرضاء الغريزة الجنسيّة وتلبيتها من خلال الطرق الطبيعيّة والوسائل العاديّة، أي: اختيار الزوجة وتشكيل الأسرة، يواجه مشاكل مختلفة وتقف في طريقه عوائق متعدّدة، من قبيل: تأمين المسكن، والمأكل، والملبس، وإنجاب الأبناء وتربيتهم وتنميتهم. ولذلك، منح الله تعالى هذه الغريزة قوّة وجاذبيّة خاصّتين، توجبان أن يندفع الإنسان نحو الزواج وتشكيل الأسرة رغم وجود كلّ هذه المسائل، وأن يكون على استعدادٍ لتحمّل كافّة المشاكل والصعاب المحيطة بهذا الأمر وتهوينها وتسهيلها على نفسه. وعليه، فبالإضافة إلى أصل وجود الغريزة الجنسيّة عند الإنسان، لو لم تكن قوّة هذه الغريزة وجاذبيّتها على هذا النحو، لما وجد الإنسان في نفسه الرغبة والدافع لتشكيل الأسرة، ولكان النسل البشريّ حينئذٍ في معرض الزوال والانقراض.

ولقد هيّأ الله سبحانه وتعالى بالطبع، بالإضافة إلى الأمور التي ذكرناها، أسبابًا أخرى في هذا المجال من شأنها هي الأخرى أن تساعد الإنسان على تقبّل فكرة الزواج وتحمّل مسائله ومشاكله. ومن جملة هذه الأسباب: المحبّة والتعلّق القائم بين الزوجين، والمحبّة بين الوالد وولده، وعاطفة الأم وغريزة «الأمومة» المحيّرة والمدهشة.

وبناءً عليه، فإنّ الله تعالى قد أوجد نظامًا عجيبًا وحكيمًا يُحفظ تحت ظلّه نوع الإنسان ويدوم نسل البشر. ولولا هذا النظام، لخلق الله تعالى مجموعة من البشر تعيش فوق سطح الأرض أيامًا قليلة ثمّ ينقرض نسلهم بعد مدّة قصيرة، ثمّ يخلق الله تعالى مجموعةً بشريّة جديدة تواجه نفس المصير، ولحدثت هذه القضيّة مرارًا وتكرارًا.

وفي المحصّلة، فإنّ من الأهداف المهمّة وراء وجود الغريزة الجنسيّة في كيان الإنسان هو بقاء النسل البشريّ، ولكن رغم ذلك، قضت الإرادة الإلهيّة الحكيمة ـ كما أشرنا سابقًا ـ أن يواجه الإنسان في هذا الخضمّ أشكال الامتحانات وأنواع الابتلاءات الكثيرة، بل العجيبة في بعض الأحيان، وأن يخضع للاختبار بواسطة هذه الغريزة. وبإجراء حسابٍ سريع يمكن أن ندّعي أنّ نصف امتحانات البشر على الأقلّ ترتبط بهذه الغريزة. وقد تكون الرواية النبويّة المشهورة، التي يقول فيها رسول الله ﷺ: «مَنْ تَزَوَّجَ فَقَدْ أَحْرَزَ نِصْفَ دِينِهِ»[1]، شاهدًا ومؤيّدًا على هذا المدّعى؛ إذ يستفادُ من هذه الرواية الشريفة أنّه من حيثُ النِّسَب ترجع نصف عثرات الإنسان إلى الغريزة الجنسيّة، ومن خلال الزواج يمكن للإنسان أن يقيَ نفسه من نصف العثرات التي يمكن أن تعترض طريقه.

النّظرة الإفراطيّة والتفريطيّة إلى الغريزة الجنسيّة

ولكنّنا كما في أغلب المسائل الأخرى، كنّا وما زلنا على طول التاريخ، نشهد ألوان الإفراط والتفريط فيما يرتبط بالغريزة الجنسيّة؛ فمن جهةٍ، نرى بعضهم عند ملاحظة الآثار المؤذية والمضرّة التي ألحقتها هذه الغريزة بحياة البشر، يرتسم في أذهانهم تصوّرٌ مُظلمٌ قاتمٌ وقبيحٌ حول

(١) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ١٠٣، الصفحة ٢١٩، الرواية ١٤، الباب ١.



هذه الغريزة، فيعتبرونها رذيلة ويعقدون العزم على الطعن في مسألة الـزواج والعلاقات الجنسيّة بشكل كلّيّ، ويجتهدون في منعها بشكل مطلق. وتعمد هذه الفئة إلى ترويج مقولة أنّ الإنسان الكامل والنورانيّ والملكوتيّ هو ذلك الذي استطاع الامتناع مطلقًا عن إرضـاء غريزته الجنسيّة، وكبح جماحها طوال عمره. ويمكن أن نجد مصاديق كثيرة لمثل هذا التوجّه على طول التاريخ بين الأقـوام والمجموعات البشريّة المختلفة، ومن جملة هذه الأقوام يمكن الإشارة إلى الديانة المسيحيّة؛ فوفقًا لقوانين الكنيسة، ليس من حقّ الكهنة «الكاثوليكيّين» أن يُقدموا على الزواج، بل ينبغي على من يريد نيل هذه اللياقة والانضمام إلى زمرة خَدَمة الرب والكنيسة، أن ينأى بنفسه عن تلك الروح الرذيلة، وأن يهجُر غريزته الجنسيّة وكلّ ما يتعلّق بها، وأن يرمي بها جانبًا إلى الأبد. ومن الجدير بالذكر أيضًا، أنّ هذا التفكير الانحرافيّ الخاطئ قد عاد على الكنيسة بكثيرٍ من المفاسد والعديد من المشاكل والقضايا أخرى، حتّى ظهر بين بعض الكهنة والقساوسة انحرافات جنسيّة متعدّدة، من شأن بعضها أن يولّد في باطن أيّ إنسان حرّ شريف شعورًا بالخزي والعار.

ومن جهةٍ أخرى، نُصادف بعض المذاهب والتوجّهات من قبيل المذهب الطبيعيّ ومذهب أصالة اللذّة، حيث يعتقد أنصار هذه المذاهب أنّ كلَّ الميول الطبيعيّة واللاهثة وراء اللذّة في الإنسان، ومن جملتها الغريزة الجنسيّة، ينبغي أن تكون حرّة طليقة بشكل كامل، وأنّ إيجاد أيّ مانع في طريق هذه الميول هو عمل خاطئ ومخالف للفطرة. وقد ذهب بعض هؤلاء إلى أبعد من ذلك الحد؛ إذ لم يعترفوا بأيّ شيء إلا باللذّة الجنسيّة، وأرجعوا أصل كلّ شيء في حياة الإنسان وشخصيّته إلى الغريزة الجنسيّة. وإنَّ بعضهم، كالعالم والمحلّل النفسيّ الألمانيّ «سيغموند فرويد»، حاول أن يُضفي على هذه النظريّة طابعًا علميًّا،

مُدّعيًا أنّ هدف الإنسان الأصليّ هو إرضاء الغريزة الجنسيّة، أمّا باقي الأمور فهي ـ في الواقع ـ بمنزلة المقدّمة من أجل إرضاء هذه الغريزة. واعتبر «فرويد» أن التمايُز الأساسيّ بين الشخصيّة الطبيعيّة السليمة والشخصيّة الشاذّة السقيمة، يكمنُ في الغريزة الجنسيّة؛ فكلُّ خلل يظهر في شخصيّة الإنسان يرجع إلى كبتٍ ما في الغريزة الجنسيّة. ومن هنا، فوفق نظريّة «فرويد» العلميّة، إذا ما أردنا للإنسان أن يكون متمتّعًا بشخصيّة سالمة وطبيعيّة، ينبغي الامتناع عن إيجاد أيّة محدوديّة في طريق إشباعه لغريزته الجنسيّة، بل يجب تركه بكامل حريّته من هذه الجهة.

وكما أشرنا سابقًا، فإنّنا بالالتفات إلى فلسفة خلقة الإنسان والحكمة الإلهيّة، ندرك بسهولة أنّ أصل وجود هذه الغريزة في الإنسان هو خير في الحقيقة، وكذلك سائر الغرائز؛ فهي نعم وضعها الله تعالى في طبيعة الإنسان ونظام خلقته. وبهذه النظرة تتّضح معاني الآيات والروايات الواردة في هذا المجال، وحينئذٍ لن يبقى قبولنا لهذه الروايات محض تعبّد لا أكثر. وكما أوضحنا، فإنّ حفظ النوع الإنسانيّ والنسل البشريّ مرهون بوجود هذه الغريزة، ولولاها لما ارتدت رداءَ الوجود جميعُ التطوّرات والمواهب التي بلغتها البشريّة، على أثر استمرار النسل الإنسانيّ، وانتقال التجارب من جيل إلى آخر، ولما استطاع الإنسان أن يستفيد منها؛ ذلك لأنّ عدم وجود الغريزة الجنسيّة يعني انقراض نسل أيّة جماعة بشريّة يخلقها الله تعالى في مدّة قصيرة، وعندئذٍ يصبح من اللازم أن يخلق الله نسلًا جديدًا من البشر، ممّا يعني بقاء الحضارة البشريّة في عصرِ الإنسان البدائيّ إلى الأبد، عصر البربريّة والعيش في الكهوف. ومن فوائد الغريزة الجنسيّة أيضًا، تلك الابتلاءات والامتحانات الّتي يتعرّض لها الإنسان بوسيلة هذه الغريزة، ممّا يوفّر له أرضيّة الرشد



والتكامل والمضيّ قُدمًا في مسير القرب الإلهيّ. وفي المحصّلة، فإنّ الغريزة الجنسيّة تحوي في داخلها حِكَمًا مختلفة، لو التفتنا إليها لأيقنّا بأنّ هذه الغريزة من المنظور الفلسفيّ ليست سوى خيرٍ ونعمةٍ تحيط بالإنسان.

بَيد أنّه ينبغي التنبّه إلى أنّ المسألة تختلف من المنظور الأخلاقيّ؛ فهذه الغريزة، وإن كانت محضَ خيرٍ ونعمةٍ من المنظور الفلسفيّ، إلّا أنّ إرضاءها ـ من منظور أخلاقيّ ـ قد يتمّ بنحوٍ مطلوب وذي قيمة أخلاقيّة إيجابيّة، وقد يتمّ أيضًا بنحوٍ مرفوض وذي قيمة أخلاقيّة سلبيّة. وحالُ الغريزة الجنسيّة من هذه الجهة حال سائر الأفعال والأمور الأخرى؛ فمن المنظور الأخلاقيّ، لا يُعتبر تناول الطعام ـ مثلًا ـ في حدّ ذاته حسنًا ولا قبيحًا، ولكن لو أصبح مصداقًا لعناوين من قبيل الشّرَه، والنهم، والإسراف، وأكل الحرام، ونظير هذه الأمور، فإنّه يغدو حينئذٍ أمرًا قبيحًا، وكذلك الحال فيما لو أقدم الإنسان على تناول الطعام إلى درجة تُضعف قواه وتمنعه من القيام بأيّة حركة.

وعليه، فالرأيُ الصحيح فيما يرتبط بالغرائز والقوى التي وضعها الله تعالى في باطن الإنسان أن يُقال: إنّه بلحاظ نظام الخلقة تُعتبر جميع هذه القوى من أفعال الله تعالى، ولله ـ بالطبع ـ حكمة من خلقها، وكلّ ما يخلقه الله تعالى حسن وجميل؛ ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾[1]. أمّا بلحاظ النظام الأخلاقيّ، فتقع على عاتق الإنسان وظيفة السعي إلى معرفة الحدود التي ينبغي مُراعاتها أثناء إعمال هذه القوى والغرائز، والجهات التي ينبغي توظيفها فيها، والعناوين التي ينبغي استثمارها فيها

(١) سورة السجدة، الآية ٧.

من أجل أن نضفي عليها قيمة أخلاقيّة إيجابيّة. ومن الواضح في هذه الحالة أنّنا لو لم نراع هذه الحدود، فإنّ الفعل الإنساني سيفقد قيمته، بل قد يكتسب قيمة أخلاقيّة سلبيّة. ومن هنا، يصفُ القرآن الكريم أولئك الذي لا يراعون هذه الحدود بتعبير: «العادون»، أي: الذين يتعدّون الحدود ويجتازون الخطوط التي عُيّنت لهم.

فتحصّل إذًا، أنّه لا إشكال أبدًا في جواز إعمال أيّة غريزة من هذه الغرائز، بشرط مُراعاة الحدود الموضوعة لها، بل أكثر من ذلك، فمن الممكن أن تكتسب هذه الغرائز قيمة إيجابيّة، وأن تكون موجبة لكمال الإنسان ورضا الله وأوليائه، وأن يترتّب عليها أجر وثواب إلهيّان.

انحراف الغرائز عن مسارها الطبيعي

وليكون هذا البحث ملموسًا وعينيًّا أكثر، نرى من المناسب أن نطرحه في قالب مثال. ولنتصوّر المأكولات مثلًا؛ إذ إنّ الإنسان قد خُلق بنحوٍ يجعله يميل بشكلٍ فطريّ نحو تناول أشكال المأكولات. وكما أسلفنا سابقًا، فإنّ هذا الميل يُعتبر إحدى النعم الإلهيّة على الإنسان؛ فهي التي توجب تأمين حاجات بدنه، من الطاقة وأنواع الموادّ والفيتامينات، ليتمكّن من الاستمرار في حياته. ولكن نرى في هذا المجال بعض الأشخاص، على أثر الوساوس الشيطانيّة والظروف الاجتماعيّة الخاصّة، يُقدمون على تناول بعض المأكولات التي تعود على بدن الإنسان بالضرر، وعلى جسمه وروحه بالمرض.

مثال آخر: خلق الله تعالى الماء العذب وأنواع المشروبات اللذيذة بغرض تأمين حاجات بدن الإنسان إلى الماء، وجعل لأهل الجنّة أيضًا أصناف المشروبات اللذيذة والعطرة والمُبهجة؛ يقول الله تعالى:



﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[1].

ولكن على الرغم من توفّر أنواع المشروبات اللذيذة والمُحبّبة في هذا العالم، نرى مَن يُقبل على استهلاك بعض المشروبات التي تعود عليهم بالأعراض المؤذية، وتُخفي في باطنها أضرارًا عديدة. ومن الممكن أن يعتاد هؤلاء تدريجيًّا على تناول أشياءٍ لا تنسجم مع طبيعة الإنسان الأوّليّة، وترفضها الفطرة الإنسانيّة السليمة، وشيئًا فشيئًا تتشكّل عند هذه الفئة طبيعة ثانويّة، فيتأقلمون مع هذه المواد القذرة وكريهة الرائحة والطعم إلى درجةٍ لا يقدرون بعدها على ترك هذه الموادّ، وقد صادفنا إلى حدّ ما نماذج عدّة فيما يرتبط بآفة الإدمان على بعض المشروبات والمواد المخدّرة، ودُهشنا كيف يمكن لإنسانٍ عاقلٍ أن يُقدم على تعاطي مثل هذه المواد، وأن يتعلّق بها!

وإنّ القضيّة هي عينُها فيما يتعلّق بسائر الرغبات والمُشتهيات الأخرى. فالله تعالى، في جميع هذه الموارد، قد خلق فطرة الإنسان الأوّليّة بنحوٍ يجعل رغبة هذه الفطرة وميلها يتعلّق بما فيه مصلحة لها، ويعود عليها بالخير والصلاح.

والغريزة الجنسيّة أيضًا من هذا القبيل؛ فإنّ وجهتها الأوّليّة تقتضي أن يميل الإنسان نحو الجنس المُخالف له، أي: أن يميل الرجل إلى المرأة، وأن تميل المرأة إلى الرجل، فيُقدم تحت تأثير هذه الميول على اختيار شريك وتشكيل أسرة، وهكذا تتحقّق مصلحة الإنسان في بقاء النسل البشريّ. وبناءً عليه، فإنّ الهدف هو بقاء النسل البشريّ، ووسيلة تحقيق

---

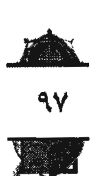
(١) سورة **المطففين**، الآيات ٢٥ إلى ٢٨.

هذا الهدف وتأمينه هي الغريزة الجنسيّة والميل الفطريّ وانجذاب كلّ جنس إلى الجنس المُقابل له. وقد خلق الله تعالى الغريزة الجنسيّة بهذا النحو ليُقبل كلّ جنس على الآخر وينجذب إليه، فتتحقّق المصلحة المذكورة، غير أنّ بعض البشر، نتيجةً للوساوس والتلقينات الشيطانيّة والتقليد غير المنطقيّ، ينحرفون عن هذا المسير الفطريّ ويسقطون في المآزق السخيفة والقبيحة، فتراهم يتعلّقون على أثر هذا الانحراف الفطريّ بأمورٍ تأباها ميولهم الفطريّة، وترفضها طبائعهم الأوّليّة. وقد يصل بهم الأمر إلى حدّ الإدمان، فلا يقدرون بعدها على النجاة من أشراك هذه التعلّقات. وهذا نظير الإدمان على المشروبات الكحوليّة والموادّ المُخدّرة؛ فالطبيعة الأوّليّة والفطرة الإنسانيّة لا تجذب صاحبها نحو أمثال هذه الأمور، بل إنّ الشخص نفسَه هو من يُلقي بنفسه في قبضة مثل هذه البلاء؛ فالله تعالى خلق العنب الذي يمكن بواسطته تحضير الشراب المُسكر والمُذهب للعقل، ويمكن بواسطته أيضًا تحضير العصير العنبيّ اللذيذ؛ يقول الله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[1]. وإنّ ميل الإنسان الفطريّ لا ينسجم إطلاقًا مع صناعة الخمور وتناولها، بل إنّ هذه الأعمال يتعلّمها البشر من شياطين الإنس والجن: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[2].

وكذلك الأمر في المسائل الجنسيّة؛ فإنّ بعض السلوكيّات التي تصدر من بعض البشر في هذا المجال لا تتوافق مع طبيعة الإنسان وفطرته؛ فمثلًا يعتبر القرآن الكريم قوم النبيّ لوط عليه السلام أوّل المبتكرين لمثل هذه

(١) سورة **النحل**، الآية ٦٧.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ٩٠.



الانحرافات، وأثناء تعريفه بأعمالهم القذرة، يشير إلى أنّ هذه الأعمال لم تصدر من بشرٍ قبلهم: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[1].

وإنّ حقيقة أنّ أحدًا لم يرتكب هذه الأفعال الشنيعة قبلَ قوم لوط، تشير إلى أنّ فطرة الإنسان لا تطلب هذه السلوكيّات، وإلّا لتشكّل لدى الأقوام السابقة ميلٌ نحوها أيضًا، ولمارسها البشر في العصور المتقدّمة. ولقد أسّس قوم لوط بنيان هذه السلوكيّات، ثمّ شاعت تدريجيًّا بين البشر. وقد شهدت ـ مع الأسف ـ في زماننا هذا تطوّرًا كبيرًا، حتّى باتت تُطرح على هيئة مسألة عاديّة، وبات بعضهم يتبجّح بهذا العمل، ويفتخر بعضويّته في منتديات وتجمّعات المثليّة الجنسيّة.

إنّ مثل هذه الميول تُخالف ـ بالطبع ـ الفطرة الإنسانيّة، بل هي انحرافات عن هذه الفطرة، يسقط فيها الإنسان بمساعدة الوساوس الشيطانيّة، وقد تبلغ هذه الانحرافات حدًّا يُفسد فيه الإنسان نفسَه أوّلًا، ثمّ يُفسد عائلته، وقد يطال هذا الفساد مجتمعًا بأسره. وهكذا تندثر الحكمة الإلهيّة من خلق هذه الغريزة عند البشر ـ أي: بقاء النسل البشريّ ـ. ويصف القرآن الكريم هؤلاء الأشخاص بتعبيرات من قبيل: «العادون»، و«قومٌ مسرفون» و«قومٌ تجهلون»؛ يقول الله تعالى:

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[2].

---

(١) سورة **الأعراف**، الآيتان ٨٠ و٨١.

(٢) سورة **الشعراء**، الآية ١٦٦.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[١].

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[٢].

وبناءً عليه، فإنَّ الاستفادة الصحيحة من الغريزة الجنسيّة، منوطةٌ بإرضائها ضمن المسير الفطريّ. فلو تحقّق هذا الأمـر، فإنّ الغريزة الجنسيّة حينئذٍ لا تكون غير مانعة من تقدّم الإنسان فحسب، بل من شأنها أيضًا أن تتحوّل ـ عند توفّر بعض الشروط ـ إلى عبادة تكون عاملًا مساعدًا في تقدّم الإنسان وتكامله وتقرّبه إلى الله تعالى. بينما لو قاد الإنسان غريزته نحو التيه، وحَرَفَها عن مسيرها الأوّليّ، وأفسد نعمة الله تعالى، فعليه حينئذٍ أن يتحمّل العواقب الوخيمة لهذا الأمر، ولا يتأتّى له أن يلقي باللوم على هذه الغريزة. فما هذه الغريزة سوى نعمة من نعم الله تعالى، ورغبة وميل زرعه الله في وجود الإنسان من أجل بقاء النسل البشريّ، بل قد تكون هذه الغريزة في بعض الظروف من موجبات القرب الإلهيّ وبلوغ الأجر والثواب الأخروي، كما أشرنا. أمّا لو أراد شخص إعمال هذه الغريزة بنحوٍ غير سويّ وموجب لإفساد نفسه والآخرين، فهل من الممكن أن نستنتج من هذا الأمر أنّ الغريزة الجنسيّة أمر قبيح في حدّ ذاتها أو أنّها شرّ ورجس لا يعود على الإنسان إلّا بالأذى والضرر؟!

---

(١) سورة **الأعراف**، ٨١.

(٢) سورة **النمل**، الآية ٥٥.

أهميّة التحكّم بالغريزة الجنسيّة في بلوغ الفلاح

ومن الأمور الجديرة بالالتفات أيضًا في هذه الآيات، الأهمّيّة الكبيرة التي أعطيت للسيطرة على الغريزة الجنسيّة، بعنوانِ شرطٍ من شروط بلوغ الفلاح؛ ففي الآيات السابقة التي تحدّثت عن شروط بلوغ الفلاح وقع البحث في عناوين «الصلاة»، و«الإعراض عن اللغو»، و«إيتاء الزكاة»، وقد كان نصيب كلّ شرط من هذه الشروط آيةً واحدةً فقط، ولكن عندما وصل الكلام إلى عنوان التحكّم بالغريزة الجنسيّة، خصَّ القرآن هذا الشرط بثلاث آياتٍ كريمة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾[1].

وعلى كلّ حال، فمن أجل بلوغ الفلاح والنجاة من مخاطر هذا المسير والخلاص من حبائل إبليس، ينبغي على الإنسان أن يكون في أعلى درجات مراقبة الغريزة الجنسيّة، وألّا يطلق العنان لنفسه في هذا الميدان، وألّا يُجيب الشيطان عند كلّ نداء. وينبغي علينا الحذر من أن نُبدّل نعمة الله هذه، التي بإمكانها أن تكون وسيلة تكاملنا وتقدّمنا، إلى نقمة ومانع يقف في مسير تكاملنا. وعلينا أن نعلم أنّنا لو عملنا في هذا المجال بما تقتضيه الفطرة الإنسانيّة، فإنّ الغريزة الجنسيّة ستصبح حينئذٍ سببًا في وصولنا إلى المودّة والرحمة والسكن الروحي؛ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[2].

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآيات ٥ إلى ٧.

(٢) سورة **الروم**، الآية ٢١.



فإنّ من شأن الميل والانجذاب الفطريّ الموجود عند الرجل والمرأة تجاه الطرف الآخر، أن يُدنيَ كلًّا منهما إلى الآخر، وأن يكون موجبًا لتشكيل حِياطِ الأسرة، وإيجاد الصفاء والمحبّة بين الزوجين، ووصول كلّ منهما إلى السكنَ الروحي على ساحل هذا البحر الهادئ. ومن هُنا، يمكنُ اعتبارُ الحياة الأسريّة نموذجًا مصغّرًا عن الجنّة في هذه الدنيا المادّيّة. ولكن ممّا يدعو إلى الأسف، أنّ بعضهم ـ لمّا كانت أهواؤهم وقلوبهم في مكانٍ آخر، ولأنّهم انحرفوا عن مسار الفطرة السليمة ـ يحرمون أنفسهم من نعم تشكيل الأسرة وفضائله.

ومن هنا، ينبغي على الإنسان أن يحذر من السقوط في هذا المسير الانحرافيّ؛ لأنّ السقوط فيه يحمل معه خطر تسافل الإنسان إلى أدنى دركات الحيوانيّة، عوضًا عن ارتقائه في مدارج الإنسانيّة. وإنّنا نشهد ـ مع الأسف ـ في عالمنا الحاضر فجائعَ مريرةً في هذا المجال، وإنّ بعض هذه الفجائع تنتشر أخبارها في صفحات المجلّات والجرائد. وممّا يدعو إلى الأسف أيضًا، أنّ الأمر بلغ حدًّا، باتت معه بعض الدول تعتبر الشذوذ الجنسيّ سلوكًا قانونيًّا ورسميًّا، لا أنّها تُزيل الحدود في العلاقة بين الجنسين فقط. حتّى وصل بهم الأمر إلى ارتكاب ما يخجل الإنسان من وصفه؛ إذ بتنا نشاهدهم ـ مع الأسف ـ قد أقبلوا في أعمالهم هذه على استهداف الأطفال وصغار السنّ أيضًا. ولم يكتفوا بهذا المقدار، بل بلغ عمق الفاجعة أن توجّهوا إلى الحيوانات أيضًا، بحثًا عن التنويع في إرضاء رغباتهم الجامحة! وتتضاعف دهشة المرء وأسفُه عندما يواجه حقيقة وجود عصابات ضخمة في هذا المجال، وأنّ من بين الفاعلين في هذه الشبكات وأصحاب العضويّة، شخصيّات معروفة ورجال سياسة وبعض الأثرياء وأصحاب رؤوس الأموال.



ويا للأسف والعار من هؤلاء البشر الذين يُدعَون في اصطلاحات هذه الأيّام «عصريّين وحضاريّين»! وفي مقام مقايسة هؤلاء البشر إلى الحيوانات، يقف الإنسان على حقيقة الكلام الإلهيّ: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾، ويُدرك أنّ هؤلاء الذين يمتلكون ظاهرًا إنسانيًّا هم ـ في الحقيقةِ ـ أدنى وأسفل من أيّ حيوان، وأنّهم قد ذهبوا بماء وجه «الإنسان» و«الإنسانيّة»؛ يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾[1].

نعم، هذه هي قصّة ذلك الإنسان الذي يمكنه من جهةٍ أن يتنزّل فيصبح أدنى من أيّ حيوان، ويمكنه من جهةٍ أخرى، أن يرتقي فيبلغ درجة أرفع من الملائكة. وفيما يرتبط بالغريزة الجنسيّة والتحكّم بها، يمكن للإنسان أن يرتقي إلى درجة بلوغِ مقام النبيِّ يوسف الصدّيق عليه السلام؛ فلقد كان يوسف في عنفوان شبابه وأوج شهوته وغريزته الجنسيّة، ولقد كانت كلّ الظروف مؤاتية وجاهزة لإرضاء غريزته، إلّا أنّه لم يستجب لنداء هواه وشهوته وغريزته، بل رأى الله تعالى في تلك الحادثة، فسلّم له وأطاع أمره: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2].

ففي موضوعِ الغريزة الجنسيّة، ينبغي على الشباب خاصّةً أن يحذروا جيّدًا؛ لأنّ طغيان هذه الغريزة في هذه السنين أشدّ من أيّ عمر آخر، والسيطرة عليها أصعب، وخاصّةً في أيّامنا هذه، حيث وسائل إثارة

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٧٩.

(٢) سورة **يوسف**، الآية ٢٣.

الغريزة وتحريكها تنزل من كلّ حدب وصوب، والعوامل المُحرّكة لها متوفّرة في كلّ مكان، فتزداد حساسيّة الحذر والمراقبة وتحتاج إلى تأكيد أكبر.

والآن، من الممكن أن يُطرح هذا السؤال: «ما هو تكليف الشباب في هذه الظروف وفي هذا الواقع؟ وما الذي ينبغي عليهم فعله في هذا الصدد؟».

في مقام الإجابة، ينبغي أن يُقال: إنّ التوصية بالزواج تتصدّر كلّ التوصيات في هذا الموضوع. وإنّ القرآن الكريم في هذا الصدد يوصي الآخرين أيضًا بتهيئة ظروفِ الزواج للأفراد غير المتزوّجين؛ إذ يقول الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

ولكن من الممكن، ولأيّ سبب كان، ألّا تسمح الظروف الاجتماعيّة لعددٍ من الشباب بالزواج. وإنّ هذه القضيّة في مجتمعنا اليوم قضيّة عامّة؛ فشبابنا لا يستطيعون الزواج بسهولة في أغلب الأحيان، بسبب المشاكلِ الماليّة والاقتصاديّة، والظروف التعليميّة والعمليّة، ونظير هذه الأمور. وبالإضافة إلى ذلك، قد توجب بعض الشرائط العقلانيّة ألّا يُقدم بعض الشباب على الزواج بسرعة بمجرّد بلوغهم سنّ التكليف؛ إذ إنّ على من يريد الزواج ـ بطبيعة الحال ـ أن يكتسب أمورًا ترتبط بتشكيل الأسرة، والحياة الأسريّة، والنظام الأسري، وآداب إنجاب الأبناء وتربيتهم، وغيرها من الأمور. ومن هنا، فلو أقدمَ الشابّ على الزواج بمجرّد الإحساس بالحاجة إلى شريك، وقبل الوصول إلى بلوغٍ عقلانيّ كهذا، فإنّ احتمال

(١) سورة **النور**، الآية ٣٢.





أن تكون خاتمة هذا الزواج الإخفاق، وألّا يكونَ زواجًا موفّقًا في نهاية المطاف هو احتمال كبير.

وعلى كلّ حال، فإنّ مسائل من قبيل «لـزوم الرّشد العقلانيّ»، و«الانشغالات العلميّة»، و«الضوائق الماليّة والاقتصاديّة»، وغيرها من المسائل، قد تكون في بعض الأحيان موجبةً لعزوف الإنسان عن الزواج مدّةً معيّنة. ومن الممكن أن يكون لهذه المسألة مصاديق أكثر في مورد النساء على وجه الخصوص، فقد تمضي سنوات على بلوغها سنّ الزواج من دون أن تحظى بالخطيب المناسب الذي تقبل به. ومن هنا، يوصي القرآن الكريم الرجال والنساء بالعفاف، فيقول: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[1].

ضامن مهمّ للسيطرة على الغريزة الجنسيّة

من أجل السيطرة على الغريزة الجنسيّة والحفاظ على العفّة وتفادي السقوط في هذه التلّوثات، هناك مقدّمات لو لم يوفّرها الإنسان، لتضاعفت إمكانيّة تعثّره ووقوعه في الخطأ. ومن هُنا، فرض الله تعالى مجموعة من الأحكام الشرعيّة في هذا المجال، الغرض منها حفظ جميع البشر، وخاصّةً الشباب وغير القادرين على الزواج، من هذه التلوّثات الجنسيّة. ومن جملة هذه المقدّمات مقدّمة تحوزُ على أهميّة كبيرة، وهي السيطرةُ على البصر والعين. ويشير القرآن الكريم في سورة «النور» إلى العلاقة بين السيطرة على البصر والوقاية من التلوّثات الجنسيّة، حيث يقول تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ

---

(١) سورة **النور**، الآية ٣٣.

أَزْكَىٰ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[1].

فوفق ما تفيده الآيـة الكريمة، إذا ما أردنـا الوصول إلى مقام ﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾، لا بدّ علينا من إحكام السيطرة على أبصارنا والالتزام بالأمر الإلهيّ القائل: ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾.

وفي سبيل الحدّ قدر الإمكان من أرضيّة التلوّث الجنسيّ الحاصل عن طريق النظر والعين، وإضعاف احتماليّة التعرّض لهذا التلوّث مهما أمكن، يتطرّق القرآن الكريم في ذيل الآية الشريفة إلى فريضة الحجاب، فيوصي النساء بستر زينتهنّ وحليّهنّ وجمالهنّ، وإخفائها عن أعين غير المحارم. وباختصار، يدعو القرآن الكريم النساء لاجتناب أيّ عمل من شأنه أن يمهّد أرضيّة الإثارة الجنسيّة عند الرجال. يقول الله تعالى:﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

إنّ السيطرة على العين ـ من حيث المبدأ ـ أسهل وأيسر من السيطرة على الشهوة، هذا والحال أنّ أرضيّة طغيان الشهوة والهيجان

---

(١) سورة **النور**، الآيتان ٣٠ و٣١.

(٢) سورة **النور**، الآية ٣١.



الجنسيّ غالبًا ما تُمهّد عن طريق العين والنظر إلى أجسام الأشخاص أو وجوههم، ومشاهدة الصور أو الأفلام أو ما شابه ذلك. ومن هنا، تُعتبر السيطرة على العين والبصر من أهمّ المقدّمات التي ينبغي توفّرها من أجل السيطرةِ على الشهوة والحدّ من الهيجان الجنسيّ الشاذّ والملوّث بالذنوب. فإذا ما عوّد الإنسان نفسه منذ البداية على السيطرة على بصره، واجتناب النظر إلى أمثال هذه الأمور، فإنّ طريق ظهور كثيرٍ من الذنوب والتلوّثات الجنسيّة سوف يُسدّ من تلقاء نفسه.

أضف إلى ذلك، أنَّ السيطرة على العين والبصر من موجبات كمال النفس ونورانيّتها وصفائها الباطنيّ، وبسببها يفيض الله تعالى على الإنسان بكثيرٍ من العنايات الإلهيّة الخاصّة. ومن جملة هذه العنايات يمكن الإشارة إلى القدرة على تفسير الأحلام والرؤى، والحصول على العين البرزخيّة(١)، ورؤية ما لا يراه الآخرون، والاطّلاع على الأسرار والخفايا. وإنّ قضيّة تعليم الله تعالى نبيَّه يوسف عليه السلام تفسير الأحلام لم تكن منفصلةً وبمنأى ومعزل عن قضيّة عفّته في مقابل إغواء زليخا. وقصّة مفسّر الأحلام «ابن سيرين» في هذا الصدد معروفة ومشهورة أيضًا، وغيره كثيرٌ ممّن نعلم أنّهم أصبحوا موردًا للعنايات الإلهيّة الخاصّة بسبب حفظهم لأبصارهم عن المعاصي، وورعهم عن أيّ هيجان جنسيّ

---

(١) يتحدّث الشيخ المصباح في بعضِ كتبه عن العين البرزخيّة فيقول: «نحنُ نعتقد بأنّه ثمّة أمور يراها ويسمعها بعض عباد الله كالأنبياء والأولياء، كالرنّة التى أطلقها الشيطان غيظًا أثناء نزول الوحي والتي سمعها أمير المؤمنين عليه السلام فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله: «إِنَّكَ تَسمَعُ مَا أَسمَعُ وَتَرَىٰ مَا أَرَىٰ إِلاّ أَنَّكَ لَستَ بِنَبِيٍّ». فهؤلاء العظام كانوا يسمعون صوت الوحي، أمّا غيرهم من الحاضرين فلم يكونوا يسمعونه. ومن هنا فإنّه ثمّة في هذا العالم ـ إجمالًا ـ بعض ما يُسمع وما يُرى ممّا لا نستطيع نحن سماعه أو رؤيته. *ولقد أطلق بعض أهل المعقول على ما يُشاهَد بهذه الطريقة مصطلح «الصورة المثاليّة» أو «الصورة البرزخيّة»*، وقالوا: إنّها صورة تقع بين المادّيّة (أي: صُوَر عالم المادّة) والعقليّة (أي: صُوَر عالم العقل)، **وبتعبير آخر**: بين المادّيّ المحض والمجرّد المحض. (المترجم)





ملوّث. وإنَّ واحـدًا من هؤلاء العظام هو المرحوم الشيخ رجب علي الخيّاط ﷺ، وهو من المعاصرين لنا، وقد كان يسكن في مدينة طهران، وارتحل إلى الرفيق الأعلى في العام ١٣٤٠ هــ.ش[١]. ولقد كان هذا العظيم من أصحاب العين البرزخيّة والمقامات المعنويّة الشامخة، وإنّ بداية تحوّله، التي رافقها تطوّر سريع وقفزة بارزة في *مسيرته التكامليّة*، كانت قضيّة مرتبطة بمسألة السيطرة على الغريزة الجنسيّة وكفّ النفس في هذا الميدان[٢].

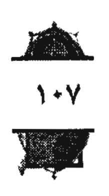
وبناءً عليه، فإنّ السيطرة على البصر من العوامل المهمّة في كبح جماح الغريزة الجنسيّة، والوقاية من السقوط في العثرات الناشئة من طغيان هذه الغريزة. وبالطبع، لا يقتصر الأمر على حاسّة البصر، بل ينبغي أيضًا السيطرةُ على العديد من الأمور الأخرى في هذا المجال؛ فإنّ بعض الإيقاعات الموسيقيّة، على سبيل المثال، مثيرة جدًّا، والاستماع إليها يبعث على التحرّك الشديد للغريزة الجنسيّة. ومن هُنا، فبالإضافة إلى البصر، ينبغي السيطرة على حاسّة السمع، والاحتراز عن استماع أمثال هذه الأنماط من الإيقاعات الموسيقيّة.

أو مثلًا توجد بعض القصص الروائيّة التي تُعتبر في ميدان المسائل الجنسيّة شديدة الإغواء والإثارة. وإنّ من شأن قراءة بعض هذه القصص

---

(١) الموافق للعام ١٩٦١م.

(٢) خلاصة القصّة كما ينقلها الشيخ رجب علي الخيّاط نفسُه: في أيّام شبابي أُعجبَت بي فتاةٌ جميلةٌ من أقاربنا، وبسبب هيامها بي ومكرها استطاعت أن تلتقي بي في يومٍ من الأيّام بعيدًا عن الأنظار، فقُلت في نفسي: «يا رجب علي، إنّ الله قادرٌ أن يختبرَك في مواقف كثيرة، فلو تختبر ربَّك مرّةً واحدة وتمتنع عن ارتكاب الحرام المُهيّأ لك على ما فيه من لذّة» ثمّ دعوتُ الله وقلتُ: «اللهم إنّي أمتنعُ عن اقتراف هذا الإثم امتثالًا لأمرك، فربّني يا ربّ كما تحبّ». (من كتاب: **كيمياء المحبّة** لمحمّد الرّيشهري، وفيه لمحاتٌ من حياة المرحوم الشّيخ رجب على الخيّاط الطهراني)



أن يكون مثيرًا بنحوٍ يُضاهي مشاهدة كثيرٍ من الأفلام. لذلك، من الطبيعيّ أنّ يكون اجتناب قراءة أمثال هذه القصص والمتون أمرًا ضروريًّا من أجل تفادي طغيان الشهوة الجنسيّة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى دخول الإنسان ساحة المزاح والكلام الجنسيّ البشع والمُبتذل والمثير، والّذي يمكن أن يشكّل أرضيّة انحرافٍ جنسيّ. ومن هنا، ينبغي الاحتراز عن الحديث في هذه المسائل أو الاستماع لها، وخاصّةً غير المتزوّجين.

وبالطبع، إنّ التقيّد بمثل هذه السيطرة، على غرار جميع موارد إطاعة الله تعالى والعبوديّة له، قد يبدو في البداية أمرًا صعبًا على الإنسان، بل قد يعتبر أمرًا تعجيزيًّا وغير ممكن التحقّق، ولكن لو اجتهد الإنسان في هذا المسير ومرّن نفسه مدّة معيّنة، فإنّه سوف يلاحظ أنّ هذه المسألة باتت عاديّة جدًّا، وتحوّلت إلى أمر سهل وبسيط في وقت يسير. وقد يصل به الأمر إلى درجة أنّه لو أفلت منه العنان أحيانًا، كأن نظر نظرةً محرّمةً واحدة طيلة يوم كامل، فإنّ من شأن هذا الأمر أن يحرمه الرقاد ويسلب النوم من عينيه، فيعاتب نفسه ويقرّعها لصدور مثل هذه الزلّة منها. ويقول أهل هذا المسير من الذين تذوّقوا لذّة طاعة الله والعبوديّة له، أنّ من يسيطر على سمعه وبصره يهبه الله تعالى لذّات أحلى وأسمى من لذّة إشباع الغريزة الجنسيّة.

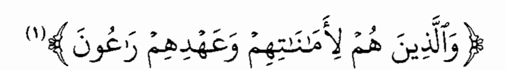
وفي الختام، نذكرُ نقطةً أخيرةً، مُفادها أنّه ينبغي على الإنسان أن لا يستصغر أو يستهين بأيّ حكم أو أمر من الأحكام الإسلاميّة والأوامر الإلهيّة. فلا ينبغي للإنسان في هذا المسير أن يتصوّر أنّ الذنب الكذائيّ صغير، ليس ارتكابه بالأمر المهمّ؛ ذلك لأنّ بعض الذنوب الصغيرة تكون مقدّمة لدخول الإنسان في متاهات الذنوب الكبيرة. فلا بدّ من الالتفات إلى أنّ هذا النوع من الذنوب في الكثير من الموارد يجذب الإنسان

رويدًا رويدًا، وبشكل تدريجيّ، نحو كبائر الذنوب. ومن ثمّ يصل الأمر بالإنسان إلى الاعتياد على الذنوب الكبيرة، فيصبح تركها في غاية الصعوبة. وبناءً عليه، من الجدير بنا، كي لا نسقط في مثل هذه المهالك، أن نتوخّى الحذر منذ البداية، وأن نربّي أنفسنا بنحوٍ نعتبر فيه أصغر الحدود الإلهيّة والأوامر الشرعيّة أمورًا مهمّةً، فنراعيها ونلتزم بها.



الدرس الخامس:

الأمانة والوفاء بالعهد، شرطان مهمّان في بلوغ الفلاح



ميل الإنسان نحو التفلّت

كنّا قد مررنا في ما مضى من دروس، على الآيات الأولى من سورة «المؤمنون». وقد تمحور البحث حول بعض أوصاف «المفلحين»، وهم الأشخاص الذين تمكّنوا من بلوغ هدفهم والوصول إلى مطلوبهم، بعد النجاة من أخطار المسير، وعبورهم لموانعه ومتاعبه، فدخلوا في زمرة السعداء والمفلحين. وبعد شرح وتوضيح بعض هذه الأوصاف التي ذكرتها الآيات السابقة، وصل بنا الكلام إلى البحث في وصف آخر من أوصاف المفلحين، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾.

فوفقًا لهذه الآية الشريفة، المفلحون هم أشخاصٌ يرجعون الأمانات إلى أصحابها، ويوفون بعهودهم ويراعونها ويعملون وفقها. ومن أجل توضيح هذه الآية الشريفة، من المناسب أن نستعرض المقدّمة التالية:

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ٨.

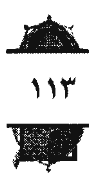


في طيّات بعض مباحثنا السابقة[١]، كنّا قد تعرّضنا للبحث في مطلب، مفادُه أنّ الإنسان بحسب طبعه الحيوانيّ، يميل إلى التحرّر والتفلّت الكامل. وليس مُرادنا من هذا التحرّر والتفلّت ما نعبّر عنه نحن بـ«الحرية»، بل المراد من التحرّر هنا رغبة الإنسان بألّا يُقيّده أيّ قيد، وأن يمارس أيّ سلوك يهواه في أيّ وقت يشاء من دون أن يقف أيّ مانع في طريق تحقيق ميوله ورغباته. ويُعبَّر عن أمثال هذه الميول في الأخلاق والمعارف الإسلاميّة بأوصاف، من قبيل: «ميولٌ حيوانيّة» و«شيطانيّة» و«نفسانيّة»، وإنّ كلًّا من هذه التعبيرات دقيقٌ وصحيحٌ في محلّه؛ ذلك لأنّ هذا الميل له ارتباط بالبُعد الحيوانيّ للإنسان، وهو يرتبط أيضًا بالشيطان، وكذلك بهوى النفس. وأصل هذه المسألة أنّ هذه الرغبات والميول تنشأ من الجنبة المادّيّة الحيوانيّة عند الإنسان، ولكن من المنظور الأخلاقيّ، يُعبّر عنها بعنوان «الأهواء النفسانيّة والشيطانيّة».

وعلى أيّة حال، فإنّ هذا الميل يؤثّر على الإنسان في مراتب وسطوح مختلفة. ففي الصورة التي يكون فيها هذا الميل شديدًا وإفراطيًّا، بإمكانه أن يؤثّر بشكلٍ غير شعوريّ على رؤى الإنسان وأفكاره واعتقاداته. فإذا كان لدى الإنسان ميل شديد نحو التفلّت والتحرّر من كلّ القيود، فإنّه ـ ومن دون أن يشعر ـ لن يسمح للأمور التي من المفترض أن تُوجِد له في بعض الأحيان قيودًا ومحدوديَّة، أن تدخل إلى ذهنه ليفكّر فيها. وإنّ هذه الحالة تُعتبر أشدّ حالات هذا الميل إفراطًا، والّتي من شأن تأثيرها أن يجعل الإنسان غير مستعدّ لأن يحسب حسابًا للأمور المُلزمة والمُقيِّدة في ميدان الفكر والنظر، فضلًا عن غيره.

---

(١) يريد الشيخ (حفظه الله) من المباحث السابقة الدروسَ التي طرحها في السنوات السابقة على هذا المبحث. (المترجم)



ولكن على كلّ الأحـوال، فمن الممكن أن يواجه الإنسان بعض الظروف والشرائط التي يضطرّ فيها إلى إعمال فكره وتأمّله. فعلى سبيل المثال، لنفرض أنّه قد تمّت دعوة هذا الإنسان لحضور جلسة من أجل البحث في موضوع معيّن ذي صلة وارتباط به. أو كان مثلًا في محفل معيّن وخطب شخص ما خطبةً وقع على أثرها نقاش بين الحاضرين، وكان من المُنتظر والمُتوقّع أن يتحدّث هذا الإنسان أيضًا ويُدلي بدلوه. في هذه الحالة تبرزُ المرحلة الثانية من تأثير هذا الميل المذكور؛ ففي مثل هذه الظروف، حيث ينبغي على الإنسان ـ لا محالة ـ أن يعطف تفكيره نحو الأمور المقيِّدة والمُلزمة، قد يقع أيضًا تحت تأثير هذا الميل التحرّريّ، فيسعى إلى ترتيب مقدّماته الفكريّة والنظريّة وتنظيمها بنحوٍ يوصله إلى النتيجة الموافقة لهوى نفسه المتفلّت. والنقطة المهمّة هنا، أنّ هذا التأثير يحدث في كثيرٍ من الموارد بصورةٍ غير شعوريّة، فكم من شخصٍ يعتقد أنّه وصل إلى هذه النتيجة وهذه الرؤية الفكريّة، معتمدًا بشكل كامل على الأسس البرهانيّة والمنطقيّة والتفكير الحرّ، ومن دون أيّ خداعٍ أو غشّ أو تدخّل منه. ومن أجل الحكاية عن أمثال هذه الموارد، تُستعمل اصطلاحات مثل «الحيل النفسانيّة» و«كيد النفس ومكرها»، للإشارة إلى الأفعال التي تقوم بها النفس بشكل خفيّ ودقيق وتحت حُجُب الإبهام بنحوٍ يخفى على الإنسان نفسه.

والمرحلة الثالثة من تأثير هذا الميلِ، تبرز في الموارد التي يتّجه فيها الإنسان في النهاية، ولو مُضطرًّا، نحو التفكير في أمرٍ مُلزمٍ ومُقيِّدٍ، فيُؤتى له بالأدلّة الناصعة، وتُقام له البراهين الواضحة على حقّانيّة هذه المسألة. في هذه المرحلة، على الرغم من كون المسألة تامّة عنده من حيث الدليل والبرهان، إلّا أنّ قلبه لا يذعن بها ولا يرضخ لها، بسبب ميله الذاتيّ نحو التفلّت والتحرّر من القيود والالتزامات. وهذا ما يُعبَّر

اصطلاحًا بأنّ شخصًا لديه علم ولكن ليس لديه إيمان، أي: إنّ المسألة ذهنيًّا ونظريًّا محلولة عنده، ولكنّ قلبه لم يؤمن بها. يقول القرآن الكريم ـفي هذا الصدد ـ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾[١].

وإنّ من المصاديق البارزة لإنكار كهذا، ما يُطرح عادةً في قضيّة المعاد؛ فمُنكرو المعاد ـ في الواقع ـ لا يلجأون إلى إنكاره بناءً على امتلاكهم دليلًا عقليًّا على نفيه، أو بناءً على حكم عقلهم باستحالته وبعدم قدرة الله على إحياء البشر مرّة أخرى، بل إنّ العلّة الأساسيّة لإنكارهم هذا هي ميلهم الذاتيّ نحو التحرّر والفسق والفجور؛ يقول الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾[٢].

فالكافرون ومنكرو المعاد يعلمون جيّدًا أنّ إحياء الإنسان مرّةً أخرى ليس بالأمر المحال، وأنّ الله لو أراد فإنّه يقدر على جمع خطوط رؤوس أصابع الإنسان وإعادة بنائها بنفس الدّقّة التي كانت عليها. فلماذا إذًا يُنكرون المعاد؟ إنّ سرّ إنكارهم يكمن في أنّ قبولهم للمعاد هو أمر مُقيّد ومُلزم لهم. فإذا ما قبل الإنسان بوجود المعاد، لا بدّ عليه حينئذٍ من مراقبة أعماله والاحتراز عن ارتكاب الأفعال السيّئة كي لا يؤاخذ يوم القيامة ويناله العذاب الإلهيّ. ومن هنا، يلجأ هؤلاء إلى إنكار المعاد منذ البداية كي يرتاح بالهم ويمارسوا فسقهم وفجورهم بضمير مرتاح: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾[٣].

---

(١) سورة **الحجرات**، الآية ١٤.

(٢) سورة **القيامة**، الآيات ٣ إلى ٥.

(٣) سورة **القيامة**، الآية ٥.



وهذه ـ في الواقع ـ مرحلةٌ من مراحل تأثير ميل الإنسان نحو التفلّت، وقد ذكرنا أنّ من شأنها أن تؤثّر في اعتقادات الإنسان، وأن تبعث على عدم قبوله وجودَ الله والمعاد وإنكارهما، على الرغم من توفّر الأدلّة القطعيّة واليقينيّة. **بعبارة أخرى**: إنّ هذه المرحلة من التأثير هي التي توجب عدمَ إيمان الإنسان.

وكما أشرنا في مباحث سابقة، إنّ بين «العلم» و«الإيمان» بونًا كبيرًا؛ فحقيقة الإيمان أن يبنيَ الإنسان، بعد علمه بأمر مُعيّن، بناءً قلبيًّا على الالتزام بلوازم هذا العلم؛ فإن بنى هذا البناء القلبيّ بات حينئذٍ ـ بالإضافة إلى علمِه ـ مؤمنًا. أمّا لو لم يبنه، فهو حينئذٍ عالمٌ ليس أكثر، وبعيدٌ كلّ البعد عن حقيقة الإيمان. وتُسمّى هذه الحالة وفق الاصطلاح القرآنيّ «الكفر الجحوديّ»؛ يقول الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1].

حقيقةُ الإيمان: الالتزام بالعهد وقبول القيد

ومن هنا يُعلم أنّ حقيقة الإيمان عبارة عن بنيان قلبيّ وتصميم يتّخذه المرء على العمل بلوازم علمه. وهذا ما يُمثّل ـ في الواقع ـ أوّل عهد يقطعه الإنسان مع نفسه، ومن بعده تصل النوبة إلى مقام العمل والمسائل الخارجيّة.

في مرحلة الإيمان، لا يستحضر الإنسان في ذهنه جميع الأعمال بصورة تفصيليّة، بل يبني بناءً إجماليًّا ويصمّم تصميمًا كلّيًّا على الالتزام بلوازم علمه مهما كانت. ومن هنا، فإنّنا عندما نؤمن بالنبيّ الأكرم ﷺ

---

(١) سورة **النمل**، الآية ١٤.

على سبيل المثال، فمعنى إيماننا هذا أنّنا نُسلّم بأنّه ﷺ رسولُ الله حقًّا، ونصمّمُ إجمالًا على قبول كلّ ما يأتينا به من طرف الله تعالى. ولكن بعد هذا التعهّد الإجماليّ، وعندما تصل النوبة إلى مقام التفصيل والعمل بما جاء به النبيّ ﷺ من الله تعالى، قد تواجهنا بعض الأحكام التي يصعب امتثالها، ولا تنسجم كثيرًا مع مذاقنا، ولا تتّفق مع ميلنا الذاتيّ نحو التحرّر. ولقد كان بعض المسلمون في صدر الإسلام يواجهون أمورًا من هذا القبيل؛ فهم آمنوا برسول الله ﷺ بعد مشاهدة معجزاته وقبلوا نبوّته، ولكن بعد ذلك، جاءهم النبيّ ﷺ ببعض الأحكام الإلهيّة مثل: الجهاد، والإنفاق والزكاة وغيرها من الأحكام التي كان امتثالها صعبًا وثقيلًا على هؤلاء المؤمنين. فعلى سبيل المثال، عندما يؤمر الإنسان الذي لا يملك كثيرًا من المال والثروة بالإنفاق، فإنّ امتثال هذا الأمر لن يكون صعبًا عليه؛ لأنّه لو كان يملك في جيبه مئة تومان ـ مثلًا ـ، فإنّ عليه إنفاق عشرين تومانًا فقط، والحال أنّ دفع عشرين تومانًا من أصل مئة والتخلّي عن هذا المقدار من المال ليس بالأمر الصعب. أمّا ذلك الشخص الذي يمتلك المليارات في حساباته المصرفيّة، فإن أراد دفع خُمس ماله، فسوف يكون الرقم ثقيلًا عليه. فعلى سبيل المثال، لو كان يملك مليار دولار، فعليه دفع مئتَي مليون دولار تحت عنوان «الخُمس»، وهذا الرّقم ليس بالرّقم القليل الذي يمكن للإنسان أن يتخلّى عنه بسهولة، ويمتثل لهذا الحكم، ويوفي بعهده الّذي قطعه بالعمل، وفق ما تقتضيه الأحكام الإلهيّة. فهنا يأتيه مرّة أخرى ذلك الميل الذاتيّ نحو التحرّر والتهرّب من كلّ القيود، ويدفعه إلى السعي باحثًا عن أيّة ذريعةٍ للفرار من هذه القيود والحدود. ومن هنا، فإنّ العمل بهذه الأحكام وامتثالها يحتاج في حدّ ذاته إلى تعهّد جديد مغاير للتعهّد الإجماليّ المعقود عند بداية الإيمان.



في صدر الإسـلام كان تلفّظ الإنسان بالشهادتين، أي: أن يشهد بوحدانيّة الله تعالى ورسالة النبيّ محمّد ﷺ، كافيًا من أجل انخراطه في صفوف أهل الإيمان والإسـلام، ولكن على الرغم من ذلـك، كان رسول الله ﷺ عادةً ما يأخذ من المتشهّدين بيعة خاصّة بعد التلفّظ بالشهادتين في كثيرٍ من الموارد. فمثلًا، كان رسول الله ﷺ يأخذُ منهم عهدًا يقضي بأن يسارعوا إلى نصرته ﷺ عند أيّ هجوم يشنّه أعداء الإسلام، أو كانوا يعاهدونه ـ مثلًا ـ على قبول وتنفيذ كلّ الأحكام الإلهيّة المُنزلة عليه ﷺ الّتي يبلّغها لهم. وقد أخذ الرسول ﷺ عهدًا من النساء اللاتي هاجرن من مكّة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة. وقد كانت طريقة أخذ البيعة منهم أن يُؤتى بظرف فيه ماء فيضع رسول الله ﷺ يده المباركة فيه، ثمّ تضع النساء اللواتي يردن البيعة أيديهنّ أيضًا. وقد أشارت آيات القرآن الكريم إلى مُفاد ومحتوى هذه البيعة، حيث يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

فإنّه ـ وعلى الرغم من أنّ أصل إيمان هذه النسوة وشهادتهنّ بوحدانيّة الله تعالى وقبولهنّ لرسالة النبيّ الأكرم ﷺ يشمل ويحوي في طيّاته جميع الموارد المذكورة في الآية الكريمة ـ بسبب الأهميّة الكبيرة التي تحوزها بعض هذه الأمور، كان من اللازم التأكيد عليها تأكيدًا خاصًّا، ولذلك أُخذت بيعة منفصلة من هذه النسوة على العمل بهذه

---

(١) سورة **الممتحنة**، الآية ١٢.

الأمور، وأُبرم تعهّد جديد غير التعهّد الإجماليّ المُستبطن داخل التلفّظ بالشهادتين.

وعلى أيّة حال، فإنّ العهود الّتي يُبرمها المسلمون تبدأ من إبرام العهد مع الله تعالى ورسوله ﷺ، إلى أن تصل إلى العهود التي يبرمها أيّ شخصين فيما بينهما. وإنّ هذه العهود:

تارةً: تكون من قبيل المعاملات ذات التسميات الخاصّة، كالبيع، والإجارة، والرهن، والمضاربة.

وأخرى: تكون من قبيل العهود والاتّفاقات العرفيّة العموميّة، حيث يتّفق شخصان على بعض الوعود والمقرّرات، وليس لهذه العهود أسماء خاصّة.

سعة مفهوم «العهد» ومصاديقه

وبناءً عليه، فإنّ العهد مفهوم واسع جدًّا، وله أفراد ومصاديق كثيرة ومختلفة. وتظهر هذه السعة في الاستعمالات القرآنيّة لهذا المفهوم؛ إذ نلاحظ أنّ القرآن الكريم قد استفاد من كلمة «العهد» في موارد مختلفة. فعلى سبيل المثال، يستعمل القرآن هذه الكلمة في مورد الحديث عن أولئك الذين يطلبون من الله تعالى أن يرزقهم المال والسعة في الرزق، ويعاهدونه أنّه لو حقّق لهم هذه الرغبة، فإنّهم سينفقون قسمًا من هذا المال في سبيله تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾[١].

---

(١) سورة **التوبة**، الآيتان ٧٥ و٧٦.



أو مثلًا يشير القرآن الكريم في موارد أخرى إلى العهود التي أبرمها المسلمون في صدر الإسلام مع المشركين. ومن جملتها ما جاء في سورة «التوبة»، حيث يقول تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وفي جميع الأحوال، يُعتبر الالتزام بالعهد والعمل به من أكثر القيم الإنسانيّة عُمومًا؛ إذ ينبغي على كلّ فرد من أفراد البشر، وإن لم يثبت لديه صدق أيّ دين من الأديان، أن يلتزم بالعهد ويقبل به. فعلى سبيل المثال لو تعاهد شخصان، وإن كانا لا يدينان بأيّ دين، على إجراء معاملة حول بيع منزل، وتوافقا على قيمته وأجريا المعاملة، فإنّ على كلّ فرد منهما أن يلتزم بهذا العهد، فيجب على البائع أن يسلّم المنزل للمشتري، وعلى المشتري أن يُسلّم الثمن للبائع. ولو فَعَلا خلاف ذلك، فامتنعا عن الالتزام بالعهد القائم بينهما، فحينئذٍ لن يبقى للحياة الاجتماعيّة أيّ معنى، ولن يبقى في المجتمع الإنسانيّ حجرٌ على حجر، بل ستُهدّم أُسس الحياة الاجتماعيّة. فلو تعاهد البشر فيما بينهم واتّفقوا وأجمعوا أمرهم، ثمّ خالفوا عهودهم وعاد كلّ واحد منهم حرًّا يتصرّف وفق هواه، فهل ستنعقد حينئذٍ حياة اجتماعيّة أو نظام بشريّ؟! فعلى سبيل المثال، إذا أبرم الرجل والمرأة بينهما عهد الزواج وميثاقه، وبعد عقد القران، عاد كلّ فرد منهما حرًّا مثلما كان قبل الزواج، يفعل ما يحلو له، ويذهب ويرجع في أيّ وقت، وإلى أيّ مكان، ومع أيّ شخص، فهل يمكن حينئذٍ إطلاقُ اسم «الزواج» على هذا الميثاق؟ وهل من الممكن أن نأملَ استمرارَه وثباتَه؟

(١) سورة **التوبة**، الآية ٧.



وكما أشرنا سابقًا، ليس لهذه المسألة ارتباط بالتديّن. بل إنّ البشر، وإن كانوا غير معتنقين لأيّ دين، سوف تقع بينهم الفوضى، وتتهاوى أسس حياتهم الاجتماعيّة، في حال أرادوا مخالفة عهودهم ونقض مواثيقهم. وإنّ أساس أيّة حياة اجتماعيّة يبتني على التزام أفراد هذا المجتمع بعهودهم ومواثيقهم، ولا فرقَ في ذلك بين أصغر المجتمعات المؤلّفة من فردين، وأضخم المجتمعات البشريّة المؤلّفة من مئات ملايين البشر.

وفي أيّ مجتمع إسلاميّ يعتقد بالله تعالى ودين الإسلام والرسول الأكرم ﷺ، تجد بالإضافة إلى العهود والمواثيق المتعارفة في كلّ المجتمعات البشريّة، عهودًا ومواثيق خاصّة يعترف بها أبناء هذا المجتمع في علاقتهم بالله تعالى ورسوله ﷺ، ويتعاهدون على مراعاتها والعمل وفقها. هذا، وإنّ العهود والمواثيق القائمة بين أبناء المجتمع الإسلاميّ لها أحكامها الخاصّة أيضًا. ومن الأمثلة على هذه الأحكام الخاصّة، ما يرتبط باشتراط كون العهد ذا طرفين ليكون العمل به واجبًا، أو إيجاب العمل به، ولو كان تطوّعيًا ومن طرف واحد... وغيرها من الأبحاث التي يتصدّى الفقهاء العظام لطرحها في مباحثهم الفقهيّة، وهي خارجة عن محلّ بحثنا الفعليّ.

ولكن لو تجاوزنا البحث الفقهيّ، فمن اللحاظ الأخلاقيّ ينبغي على كلّ إنسان أن يراعي أيّ تعهّد يبرمه، وأن يلتزم بأيّ ميثاق يأخذه، وإن كان تطوّعيًّا ومن طرف واحد. ولكن بالطبع، إنّ «ينبغي» المذكورة أعلاه تشتدّ وتضعف باختلاف الموارد؛ ذلك لأنّ القيم الأخلاقيّة هي أيضًا كالأحكام الفقهيّة، ليست في مرتبة واحدةٍ أو سطحٍ واحدٍ. فكما أنّ لدينا في الفقه فعلًا مباحًا، وفعلًا مستحبًّا، وفعلًا واجبًا، وآخر واجبًا مؤكّدًا، كذلك القيم



الأخلاقيّة تختلف فيما بينها في مدى ضرورة مراعاتها والالتزام بها. ومن هنا، قد يكون الالتزام بالتعهّد التطوّعي ذي الطرف الواحد في مرتبة قيميّة أدنى بالقياس إلى بعض أنواع التعهّد الأخرى، ولكن بلحاظ أصل القيمة الأخلاقيّة فإنّ الالتزام بأيّ شكل من أشكال التعهّد هو أمر مطلوب وقيّم. نعم، إنّ الالتزام ببعض أنواع العهود، بالإضافة إلى قيمته الأخلاقيّة، قد يكون حكمه الوجوبَ من الناحية الفقهيّة.

العهد مع الله والعهد مع الكافرين

تؤكّد الآيات القرآنيّة في بعض الموارد على مراعاة العهود الخاصّة، ومن جملتها العهود التي يقطعها الإنسان مع الله تعالى، وفي موارد أخرى، تؤكّد الآيات الكريمة بشكل كلّيّ على عنوان الوفاء بالعهد بوصفه قيمةً أخلاقيّة عامّة، ومن جملة هذه الموارد ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1].

إنّ «البرّ» ـ ومعناه: الخير والإحسان ـ بحسب أدبيّاتنا واصطلاحاتنا المعاصرة هو «القيمة الأخلاقيّة». من هنا، فإنّ الآية الكريمة تعتبر الوفاء بالعهد أحدَ مصاديق الخير والقيم الأخلاقيّة: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ﴾.

---

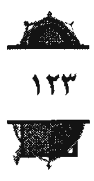
(١) سورة **البقرة**، الآية ١٧٧.

ولقد جاء لفظ «عاهدوا» في الآية الشريفة مطلقًا، أو بحسب الاصطلاح، لم يُذكر له أيُّ مُتعلَّق؛ فإن سأل أحد: «عاهدوا مَن؟» تكون الإجابة: «أيًّا كان من عاهدوه، سواء عاهدوا الله تعالى أم عاهدوا رسوله ﷺ أو عاهدوا بشرًا عاديّين»، وإن سأل: «أيّ نوعٍ من العهود عاهدوا؟» فالإجابة: «إنّ الآية الكريمة لم تذكر نوعًا خاصًّا من العهود، بل هي مطلقة من هذه الجهة أيضًا، فتشمل كلَّ عهد». ولكن من المسلّم به والواضح، أنّ هذا العهد ينبغي أن يكون ضمن إطار الضوابط الشرعيّة؛ فالعهد المحرّم والمخالف للشريعة ـ والعياذ بالله ـ ليس فاقدًا للقيمة الأخلاقيّة فقط، بل هو ذو قيمة أخلاقيّة سلبيّة، وهو ممنوع ومحرّم. وعليه، فإنّ مُفاد هذا القسم من الآية الكريمة ـ ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟﴾ ـ يُشير إلى أنّ الالتزام بكلّ عهد وميثاق مع أيّة جهة كانت هو أمر ذو قيمة أخلاقيّة.

وإنّ الآية الشريفة ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾[1] تشير أيضًا إلى أنّ للوفاء بالعهد قيمةً أخلاقيّةً، بل أكثر من ذلك، تعتبره شرطًا من شروط الفلاح. وبالطبع، كما أشرنا سابقًا، إنّ مراتب هذه القيمة الأخلاقيّة تتفاوت، إلّا أنّ الآية ليست بصدد بيان مراتب قيمة الوفاء بالعهد وسائر الجزئيّات المرتبطة بها، حالها في ذلك حال الآيات السابقة، كآيات الصلاة والزكاة التي لم تتطرّق أيضًا إلى جزئيّات القيم المذكورة فيها؛ فقد جاء في إحدى هذه الآيات الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[2]، ولكن أيّة صلاة هي؟ هل هي الصلاة الواجبة أم المستحبّة؟ الصلاة الواجبة اليوميّة أم كلّ صلاة واجبة؟ كلّ هذه التفاصيل لم تبيّنها

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ٨.

(٢) سورة **المؤمنون**، الآية ٢.



الآية. ومن هنا، يمكن استفادة أنّ كلّ صلاة من شأنها التأثير في بلوغ الفلاح، ولكن بالطبع، يختلف مستوى هذا التأثير ويتفاوت بين أن تكون الصلاة واجبة مؤكّدة وبين أن تكون واجبة عاديّة أو مستحبّة مؤكّدة أو مستحبّة عاديّة. وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾[١]، حيث ذكرنا أنّ المراد من الزكاة لا ينحصر بالزكاة الواجبة والمُصطلحة في الفقه، بل المراد «مطلق الإنفاق». ومن هنا، يصبح معنى الآية المباركة أنّ كلَّ صدقة وإنفاق، له تأثير في إيصال الإنسان إلى الفلاح، أمّا مقدار هذا التأثير وشروطه، فهو مطلب سكتت عن بيانه الآية الشريفة.

وفي مورد «الوفاء بالعهد» أيضًا، أكّدت الآية الكريمة على أصل العلاقة القائمة بين هذا الموضوع ـ أي: الوفاء بالعهد ـ وبلوغ الفلاح فقط، من دون الورود على جزئيّات هذه العلاقة؛ إذ لا تحمل الآية في طيّاتها أيّة رسالة في هذا الصدد. ولكن، إذا ما التفتنا إلى الأدلّة والآيات الأخرى، نرى أنّ بعض مراتب الوفاء بالعهد ومصاديقه، هي ذات قيمة أخلاقيّة فقط، وليست واجبة فقهيًّا، كما أنّ بعضًا آخر منها بالإضافة إلى قيمته الأخلاقيّة هو واجب فقهيًّا، بل إنّ للوفاء بالعهد مراتب ومصاديق بالإضافة إلى قيمتها الأخلاقيّة ووجوبها الفقهيّ، يعودُ عدم مراعاتها والالتزام بها على الإنسان بعواقب وخيمة، ومن أمثلتها ما يذكره القرآن الكريم حول بعض المنافقين الذين ابتلاهم الله بمرض النفاق بسبب عدم مراعاتهم لعهدهم معه سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ٤.

فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾[1].

فظاهر الآية أنّ هذه الصدقة لم تكن تكليفًا واجبًا عليهم، ولم تكن خُمسًا أو زكاةً واجبة، بل غاية ما في الأمر أنّ هؤلاء قد أبرموا عهدًا بينهم وبين الله تعالى على أنّه لو آتاهم الله مالًا وثروةً، فإنّهم سينفقونَ مقدارًا منه صدقةً في سبيل الله، ولكن بعدما منحهم الله هذه الأموال نكثوا عهدهم معه، وامتنعوا عن العمل بميثاقهم. وبسبب نكثهم الوعد وخُلفهم العهد، ابتلاهم الله بعقوبة شديدة، حيث قذف في قلوبهم نفاقًا يلازمهم إلى يوم القيامة: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾[2]، وسببُ ابتلائهم بهذا النفاق: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾[3].

نعم، فكما أنّ الله تعالى رحمن رحيم في موضع العفو والمغفرة، يغفر ذنوب عبده ويجعله موردًا لرحمته بنداء واحد يصدح فيه العبد بقول: «يا الله»، وبلحظة ندم واحدة يبديها، فهو أيضًا أشدّ المعاقبين في الموارد التي يتعلّق فيها الأمر بالسنن والقوانين الإلهيّة: «وَأَيْقَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرّاحِمينَ في مَوْضِعِ الْعَفْوِ وَالرَّحْمَةِ، وَأَشَدُّ الْمُعاقِبينَ في مَوْضِعِ النَّكالِ وَالنَّقِمَةِ، وَأَعْظَمُ الْمُتَجَبِّرينَ في مَوْضِعِ الْكِبْرياءِ وَالْعَظَمَةِ»[4].

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٧٧.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ٧٧.

(٣) سورة **التوبة**، الآية ٧٧.

(٤) الشيخ عبّاس القمّي، **مفاتيح الجنان**، أعمال ليالي شهر رمضان المبارك، دعاء الافتتاح.



فلا مجال للسخرية والاحتيال في العلاقة مع الله تعالى، وإنّ أولئك الذين يواجهون الله تعالى بالمكر يُقابلهم الله بالمثل، ونتيجة هذه المواجهة واضحة: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾[1]. ومَن يُعاهد الله، ثمّ يُقدم على التسويغ والخداع وينكث عهده، فسوف يكون تعاملُ الله معه شديدًا؛ ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾[2].

ولكن في المقابل، إذا أوفى الإنسان بعهده مع الله والتزم بوعده وميثاقه، فإنّ الله تعالى سيُغدق عليه أجرًا وثوابًا، وسيضاعف من درجة إيمانه؛ ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾[3].

ومن الجدير بالذكر، أنّ استعمال لفظ «رجال» في الآية الكريمة هو استعامل وفق قواعد المحاورة على ما يبدو، والمراد منه إضفاء طابع المدح على الكلام، وليس المقصود منه «الرجال» في مقابل «النساء»، بحيث لا تكون الآية شاملة للنساء؛ فسيّدة عظيمة مثل سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام هي بالطبع مشمولة في هذه الآية. وإنّ تعبير «رجال» الوارد استعماله هنا نظير بعض التعبيرات المستعملة في اللغة الفارسيّة، من قبيل: تعبير «مردانگى» ـ ومعناه «رجوليّ» ـ؛ فعندما نقول ـ في الفارسيّة ـ: «إنّ العمل الكذائيّ رجوليّ»، ليس المراد منه التعريض بالنساء أو اعتبار الأنوثة نقصًا. فكم من امرأة تقوم بعمل عظيم، فنقول في توصيفه: «لقد قامت بعمل رجوليّ». إنّ هذه الأشكال

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٥٤.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ٧٧.

(٣) سورة **الأحزاب**، الآيات ٢٣ و٢٤.





من التعبير تعتمد على قواعد اللغة والمحاورة، ومراد المتكلّم منها إضفاء ثقل خاصّ على قيمة الكلام، وليس المراد استعمال لفظ «رجل» في مقابل لفظ «امرأة». وعلى جميع الأحوال، فإنّ أمثال هذه الأمور موجودة في اللغة العربيّة. وكثيرٌ من الآيات القرآنيّة الأخرى هي بحسب الظاهر من هذا الباب، مثل قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1]؛ ففي هذه الآية أيضًا، لا خصوصيّةَ لـ«الرجولة» على ما يظهر، واستعمال لفظ «رجال» فيها من هذا الباب الذي أشرنا إليه.

وعلى أيّة حال، فبالإضافة إلى العهود التي قطعها العبادُ مع الله تعالى، فثمّة صِنف من العهود يبرمها العباد فيما بينهم، وقد تُبرَم بين شخصين، أو مجموعتين، أو مجتمعين، أو دولتين؛ ففي صدر الإسلام، بعد تشكيل المجتمع الإسلاميّ والحكومة الإسلاميّة في المدينة المنوّرة، عقد رسول الله ﷺ عهودًا متعدّدة مع مجموعات مختلفة من الكفّار والمشركين. وفي بعض هذه الموارد كان الطرف المقابل لرسول الله ﷺ والمسلمين ينقض عهده وينكث وعده. وقد كان الله تعالى يواجه هذه الفئات المُشركة بالقسوة والغلظة، ويأمر المسلمين بقتالهم وقتلهم: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾[2].

ومن جهةٍ أخرى، فإنّ مراعاة العهد من الأهمّيّة بمكان، بحيث لا تفرّق بين مسلم وكافر؛ فالله تعالى يأمر المسلمين في حال أبرموا عهدًا

---

(١) سورة **النور**، الآية ٣٧.

(٢) سورة **التوبة**، الآيتان ١٢ و١٣.



مع الكفّار أو المشركين، بمراعاة العهد والثبات عليه، ما لم ينقضه الطرف الآخر؛ ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1].

أداء الأمانة: وظيفة إلهيّة وإنسانيّة

ونظير مسألة الوفاء بالعهد موجود في مورد «الأمانة»؛ فعند جميع الأقوام والملل، يُعتبر أداء الأمانة قيمة أخلاقيّة، وتُعتبر خيانة الأمانة أمرًا منافيًا للقيم. وتُمثّل هذه المسألةُ واحـدةً من البَدَهيّات في مجال القيم الأخلاقيّة، ولا يتردّد أيّ إنسان فيها؛ فكلّ بني البشر يُذعنون بأنّ خيانة الأمانة أمر قبيح ومذموم، وأنّ حفظ الأمانة ومُراعاتها أمر حسن وممدوح.

ويمكن القول: إنّ «أداء الأمانة» بمعنىً من المعاني وشكلٍ من الأشكال، هو في حدّ ذاته مصداق من مصاديق «الوفاء بالعهد»؛ ذلك لأنّ الإنسان عندما يقبل تحمّل أمانة معيّنة، فهذا يعني أنّه عقد اتّفاقًا وأبرم عهدًا مع صاحب الأمانة (الشخص الذي وضعها في عهدته) على أن يُرجعها إليه متى أراد. وعليه، فإنّ الأمانة أيضًا نوع من أنواع العهد، ولكن لحيازة هذا العهد على أهمّيّة خاصّة أفرَدَت الآيات القرآنيّة ذكره بشكل منفصل. وفي الآية مورد البحث أيضًا، نجد تفريقًا بين الأمانة والعهد، فذُكرتا بعنوان وصفين مستقلّين من أوصاف المفلحين، حيث يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾[2].

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٧.

(٢) سورة **المؤمنون**، الآية ٨.

ولقد فسّرت بعض الروايات الشريفة الأمانات والعهود المذكورة في هذه الآية وأوّلتها بتأويلات خاصّة، ويمكن اعتبارها ـ ككثيرٍ من الروايات الواردة في تفسير القرآن ـ من باب تبيين المصاديق المهمّة والبارزة؛ فإنّ في الآية إطلاقًا يشمل كلّ أمانة وعهد. حتّى إنّ بعض الروايات ذكرت في تفسير هذه الآيات مصاديق للأمانة لا نعتبرها في فهمنا العرفيّ مصاديق لها. فعلى سبيل المثال، جاء تفسير الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[1] أنَّ المراد من الأمانة «الحكومة» و«حقّ الحاكميّة»، وأنّ أهل هذه الأمانة التي أمرت الآية بأدائها إلى أهلها هم أهل البيت عليهم السلام، أي: إنّ الحكومة حقّ منحه الله تعالى لأهل البيت عليهم السلام، ووظيفة الناس أن يرجعوا هذه الأمانة الإلهيّة إليهم عليهم السلام. وإنّ في الآية قرينة مؤيّدة لهذا التفسير، وهي أنّ الآية الكريمة قد تحدّثت مباشرة بعد هذه العبارة عن الحكم والقضاء ـ وهي أمور مرتبطة بطبيعة الحال ببحث الحكومة ـ، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾[2].

وفي جميع الأحوال، يُعتبر الوفاء بالعهد واحدًا من أهمّ الأحكام الإسلاميّة، والذي وقع مورد تأكيد القرآن الكريم في موارد متعدّدة، وشدّد على أهمّيّتها بتعبيرات مختلفة كنّا قد أشرنا إلى نماذج منها. والآن نختم بحثنا بالحديث عن آية أخرى تتمحور حول هذه المسألة، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾[3].

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٥٨.

(٢) سورة **النساء**، الآية ٨٥.

(٣) سورة **الإسراء**، الآية ٣٤.



ومن المهمّ أن نتأمّل ونُدقّق في معنى هذه الآية؛ إذ ليس المقصود من تعبير القرآن الكريم ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أنَ نفس العهد سيتعرّض للسؤال: «هل عُملَ بك أم لا؟». بل إنّ المراد منه أنّ الإنسان سوف يسأل عن عهده: «هل عملتَ به أم لا؟». **وبتعبيرٍ اصطلاحي:** إنّ الإنسان هو المسؤول، هو من سيكون في معرض السؤال، أمّا العهد فهو المسؤول عنه أو مورد السؤال. من هنا، فإنّ هذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1]؛ ففي هذه الآية أيضًا ليس المراد أنّ السمع والبصر سوف يسألان: «ماذا سمعتم وماذا أبصرتم؟»، بل المراد أنّ الإنسان سوف يُسأل عن سمعه وبصره، وسوف يُستجوب حول ما شاهده وما سمعه. نعم، إنَّ مسألة «شهادة جوارح الإنسان وأعضائه على أعماله يوم القيامة» هي أمر مسلّم ومحفوظ في مكانه، ولكنّ هذه الآية المباركة ليست بصدد الإشارة إلى هذا المطلب، وإنّما غرضها الإشارة إلى حقيقة أنّ الإنسان سوف يسأل عن أعضائه وجوارحه: «كيف وظّفها؟ وفي أيّ طريقٍ استعملها؟ وماذا فعل بها؟».

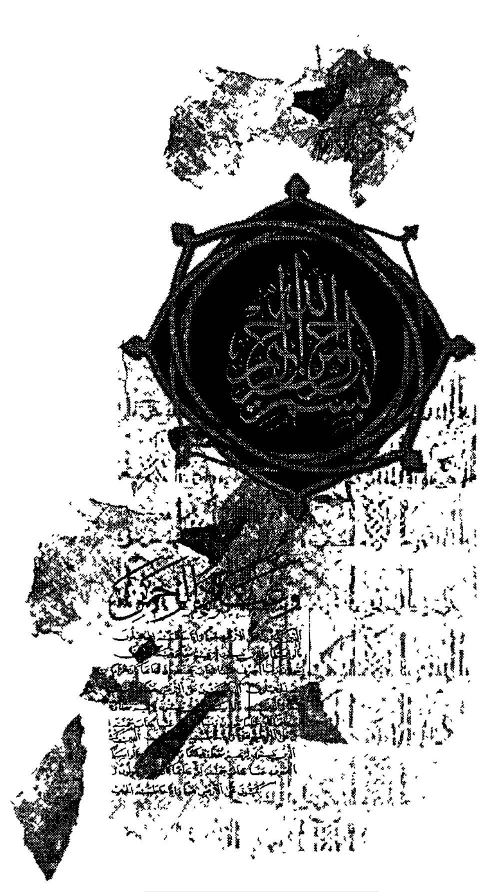
ومن هنا، ليس المراد من الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[2] أنّ العهد سوف يكون مخاطبًا وفي معرض السؤال، بل المقصود أنّ الإنسان سوف يُسأل عن عهده وعن التزامه به.

نسأل الله تعالى أن يوفّقنا لمعرفة الصراط المستقيم أكثر، والوفاء على الدوام بعهودنا معه سبحانه وتعالى ومع أولياء الدين عليهم السلام ومع المؤمنين ومع سائر مخلوقات الله.

---

(١) سورة **الإسراء**، الآية ٣٦.

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ٣٤.



الدرس السادس:

الصلاة والفلاح

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1]

أهميّة الصلاة في بلوغ الفلاح

ذكرت الآيات القرآنيّة في موارد متعدّدة أوصاف أهل السعادة والنجاة والفلاح، الذين عبّرت عنهم بأسماء من قبيل: «المفلحون» و«الفائزون». غير أنّ هذه الأوصاف ليست على نحو واحد في كلّ الآيات القرآنيّة، بل تُذكر في كلّ مورد بعضُ هذه الصّفات وتقع موردًا لتأكيد الآيات القرآنيّة، بناءً على ما يقتضيه الحال والمقام. أمّا تحديد مقتضى كلّ حال ومقام وتعيين سبب الاقتصار على ذكر بعض الصفات الخاصّة في كلّ مورد، فهو مطلب يقصر عن إدراكه العقل البشريّ الناقص. وممّا يجدر الالتفات إليه في هذا الصدد، أنّ جميع هذه الموارد تقريبًا تشترك في أمر واحد، وهو ذكر الصلاة والتأكيد عليها؛ فقلّما نجد موردًا لا تُذكر فيه الصلاة بوصفها وصفًا من الأوصاف وخاصّية من الخصائص العمليّة التي يمتاز بها المفلحون والفائزون. وقد وقعت هذه

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآيات ٩ إلى ١١.



المسألة محلّ تأكيد في الآيات الأولى من سورة «المؤمنون» في موردين اثنين، لا يفصل بينهما سوى عدّة آيات قصيرة. المورد الأوّل في بداية السورة المباركة، حيث طُرحت الصلاة بوصفها أوّل صفة للمؤمنين المفلحين، حيث قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[١].

وفي الآية التاسعة من هذه السورة أيضًا تتناول الآيات القرآنيّة مرّةً أخرى بحث أهميّة الصلاة ودورها في وصول الإنسان إلى فلاحه بهذا التعبير: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٢].

ونُلاحظ شبيهًا لهذه المسألة أيضًا في سورة «المعارج» المباركة؛ إذ يقول الله تعالى أوّلا: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[٣]، ثمّ يقول عزّ وجلّ في تكملةِ الآيات، وبعد ذكر عدّة صفات أُخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٤].

نعم، إنّ هذا التعبير ورد في سورة «المؤمنون» بصيغة الجمع «صلواتهم»، بينما جاء في سورة «المعارج» بصيغة المفرد «صلاتهم»، وفلسفة هذا الاختلاف في التعبير هو من جملة المسائلِ التي تتوقّف معرفتها على الرجوع إلى المفسّرين الواقعيّين للقرآن الكريم، أي: أهل البيت عليهم السلام.

وعلى أيّة حال، فإنّ أقلّ ما يمكن لهذا التكرار أن يفيده، هو أنّ الصلاة قد وقعت مورد اهتمام والتفات خاصّين في المعارف الإسلاميّة،

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ٢.
(٢) سورة **المؤمنون**، الآية ٩.
(٣) سورة **المعارج**، الآية ٢٣.
(٤) سورة **المعارج**، الآية ٣٤.



وأنّها تحوز على دور مهمّ وحيويّ في تحصيل سعادة الإنسان. وفي هذا المجال، نرى القرآن الكريمَ يؤكّد أحيانًا على العامل الكمّيّ في الصلاة، فيقول ـ مثلًا ـ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾[١]. وفي أحيانٍ أُخرى، يؤكّد على العامل الكيفيّ والأوصاف التي توجب كمال الصلاة، فيقول مثلًا: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾[٢].

وكما أسلفنا سابقًا، ينبغي الالتفات إلى أنّ هذه الأوصاف التي بيّنها القرآن الكريم في وصفه لمختلف الفئات، كالمفلحين والفائزين وغيرهم، هي بالطبع ذات مراتب ودرجات مختلفة من حيث القيمة والمطلوبيّة، والتي يصلُ أعلاها مطلوبيّة إلى حدّ الوجوب الفقهيّ؛ ففي طيّات بحث الزكاة، وأثناء تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾[٣]، كنّا قد أوضحنا أنّ اصطلاح الزكاة القرآنيّ يشمل كلّ أشكال الصدقة والإنفاق، وأنّ الزكاةَ الواجبة والمُصطلح عليها في الفقه هي قطعًا مصداق من مصاديق هذه الآية، إلّا أنّها ليست المصداق الوحيد، بل إنّ الآية تشمل مختلف مراتب الإنفاق. وكذلك في بحث الصلاة وتفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾[٤]، كنّا قد ذكرنا أيضًا أنّ هذا البيان لا يختصّ بالصلاة اليوميّة الواجبة، بل يشمل كلّ صلاة. وكذلك الحال أيضًا في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾[٥]، فالقدر المتيقّن والفرد الأعلى في هذه المسألة هو المداومة على الصلوات الواجبة، أي: إنّ المداومة على الصلاة الواجبة، وعدمَ التقصير في أدائها، واجتناب التهاون

(١) سورة **المعارج**، الآية ٢٣.
(٢) سورة **المؤمنون**، الآية ٢.
(٣) سورة **المؤمنون**، الآية ٤.
(٤) سورة **المؤمنون**، الآية ٢.
(٥) سورة **المعارج**، الآية ٢٣.



في الالتزام بها بنحوٍ يؤدّيها تارةً ويتركها أخرى، هو شرط في بلوغ الفلاح. وهذا المقدار هو الحدّ الأدنى الذي ينبغي مراعاته تحت عنوان التكليف الواجب في مسألة الصلاة. ومن الممكن أن نتصوّر معانيَ أدقّ وسطوحًا أعمق لهذه الآية الكريمة، تحوي كلّ مراتب الفضيلة وإن لم تبلغ حدَّ الوجوب؛ فمن المعاني التي يمكن تصوّرها لهذه الآية ـ مثلًا ـ: أنَّ المراد من المداومة على الصلاة أن يُقبل الإنسان على أدائها في أيّ وقت تسنح له الفرصة بذلك، وأن يكون مصداقًا لقول الشاعر: «ما أسعدَ أولئكَ الذين هم في حال الصلاة على الدوام»[1].

بالطّبع، لدى الإنسان أعمال واجبة ووظائف وتكاليف أخرى ينبغي عليه تأديتُها، لذلك لا يتسنّى للمرء أن يختزل كلّ حياته في الصلاة، وأن يشتغل في أدائها طيلة الأربع والعشرين ساعة من يومه، ولكن يمكن لروحه أن تكون على الدوام في حال الصلاة في جميع أحواله وساعاته، ويمكنه أيضًا أن يُسارع إلى الصلاة وأن يؤدّيها بمجرّد أن تُتاح له الفرصة.

ويمكن ملاحظة النموذج الأكمل والأتمّ لهذه الصفة في حياة رسول الله ﷺ والأئمّة عليهم السلام ووجودهم المقدّس. وقد نُقل في هذا المجال مطالب عجيبة وقضايا مُحيّرة من سيرة هؤلاء العظام. فقد كان أساس لذّتهم في الصّلاة، فإذا ما أتعبتهم أعمالهم وأنهكتهم مشاكلهم ومسائلهم الحياتيّة، وأحاطت بهم أشكال الغمّ والغُصص الدنيويّة، كانت الصلاة

---

(١) هذا المقطع من قصيدةٍ للشّاعر الإيرانيّ «بابا طاهر» يقول فيه:

خوشا آنان كه الله يارشان بى — بهشت جاودان مأوايشان بى

خوشا آنان كه دائم در نمازند — به حمد و قل هو الله كارشان بى

التّرجمة:

ما أسعدَ أولئكَ الّذين يكونُ الله رفيقَهم على الدّوام — ومأواهم النّعيم وجنّة الخلد

ما أسعدَ أولئكَ الّذين هم في حال الصّلاة على الدّوام — شُغلُهم «قل هو الله» وسورة الحمد



بهجتَهم ونورَهم ولذّتَهم التي يهدأون بها. وقد وردت هذه العبارة عن رسول الله ﷺ بنحوٍ متواتر، حيث يقول: «قُرَّةُ عيْني فِي الصَّلاةِ»[١].

تأمّل في معنى «المحافظة على الصلاة»

على أيّة حال، فإنّ مسألة المداومة على الصلاة ترتبط بسورة «المعارج»، وهي خارجة عن محلّ بحثنا الفعليّ. أمّا ما ينبغي البحث فيه بمناسبة شرح الآيات الأولى من سورة «المؤمنون»، فهو عنوان المحافظة على الصلاة. ولقد ورد هذا التعبير في آيات عدّة من القرآن الكريم، إحداها هنا في سورة «المؤمنون»، حيث يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٢]. ومنها ما جاء في سورة «المعارج» أيضًا، حيث يقول عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٣]. ومن هذه الآيات أيضًا قوله في سورة «المائدة»: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٤]. وكذلك في سورة «البقرة» حيث قال الله تعالى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾[٥].

وفي بيان معنى المحافظة على الصلاة يمكن لقائل أن يقول: إنّ المراد منه أمر مشخّص ومضبوط، ولكن يمكن أن يقال أيضًا: إنّ هذا الوصف كسائر الأوصاف السابقة، له مراتب ومصاديق مختلفة. وإنّ القدر المتيقّن من عنوان المحافظة على الصلاة هو أن يواظب الإنسان على صلاته، وأن يؤدّيها في وقتها، ويحترز عن أن تصبح قضاءً لا سمح الله.

---

(١) العلّامة المجلسي، **بحارالأنوار**، الجزء ١٦، الرواية ٣٥، الباب ٩.

(٢) سورة **المؤمنون**، الآية ٩.

(٣) سورة **المعارج**، الآية ٣٤.

(٤) سورة **الأنعام**، الآية ٩٢.

(٥) سورة **البقرة**، الآية ٢٣٨.



ومن الممكن أن يُقال: إنّ الآية الشريفة بصدد بيان هذا القدر المتيقّن فقط، فيكون للآية عندئذٍ معنىً مشخّصٌ ومضبوطٌ. وإنّ هذا المقدار من المحافظة على الصلاة واجبٌ ولازمٌ بطبيعة الحال، وهو الحدّ الأقلّ من مراتبها. ولكن على ما يبدو، من الأنسب أن نقول: إنّ للمحافظة على الصلاة معنىً أوسع، وأنّ هذا العنوان يضمّ طيفًا واسعًا من الأوصاف الكماليّة ومراتب الصلاة. وإذا ما التزمنا بوجود هذا المعنى الواسع للمحافظة على الصلاة، فعندئذٍ ـ بالإضافة إلى تأدية الصلاة داخل وقتها والحذر من صيرورتها قضاءً ـ تُصبح الصلاةُ في أوّل وقتها أيضًا ـ وقد وقعت مورد تأكيد كثير من الروايات الشريفة ـ من مصاديق المحافظة على الصلاة.

أهمّيّة الصلاة في أوّل الوقت

كما ذكرنا، إنّ من أهمّ المسائل التي أكّدت عليها الروايات الإسلاميّة في بحث المحافظة على الصلاة، مسألةُ الصلاة في أوّل الوقت؛ فوفق ما ورد في بعض الروايات الشريفة، تختلف قيمة الصلاة التي تؤدّى في أوّل وقتها من السماء إلى الأرض، مُقارنةً بتلك التي تؤدّى في غير أوّل وقتها. ولو دقّقنا وتأمّلنا قليلًا، لأدركنا أنّ القاعدة تقتضي أن يكون الأمرُ كذلك.

إنّ حقيقة الصلاة هي الارتباط بالله تعالى والتوجّه نحو الحضور في ساحته. وهي الحديث مع الله، والنجوى مع مُفيض الوجود الأوحد الذي لا نظير له. فإن عرفنا الله بالعظمة، وتنبّهنا إلى أنّه وليّ نعمتنا، وصاحب كلّ صفات الجمال والكمال، فمن الطبيعيّ عندئذٍ أن نسعى على الدوام في سبيل التقرّب إليه والارتباط بذاته المقدّسة.



إنّنا نرى في حياتنا اليوميّة أنّ كلّ إنسان، بحسب الثقافة والقيم التي يحملها، يعتبر بعضَ الأشخاص في مجتمعه ومحيطه عظماءَ وأجلّاءَ، فيتمنّى لو يستطيع الارتباط بهم والحديث معهم عن قرب. فعلى سبيل المثال، لو تسنّى لك أن تتّصل بسماحة القائد دَامَ ظِلُّهُ هاتفيًّا وتحادثه في أيّ وقت تشاء، فهل ستُفوِّت عليك هذه الفرصة؟! من البَدَهيّ أنّك سوف تعتبر هذا الأمر فخرًا لك، وفي أيّ وقت تُتاح لك الفرصة فإنّك ستسارع نحو الهاتف مباشرةً كي تُحادث القائد دَامَ ظِلُّهُ، ولو احتاجك في أيّ أمر فإنّك سوف تؤدّيه بفخر. أمّا عندما يقع الكلام حول الصلاة، فإنّ ما يُطرح هو الارتباط بالله تعالى، هذا الإله ذو العظمة والكمال والنعم والجمال واللطف والمحبّة غير المتناهية، وإنّ دخول وقت الصلاة يعني حلول وقت الحديث مع هذا الإله والارتباط به. وأهمّ ما في الأمر، أنّ الله نفسه هو من يدعونا إلى الارتباط به، وهو من يحبّ أن نناجيَه ونُحادثَه. فهل يُعقل في مثل هذه الحالة أن يردّ الإنسان دعوة الله، وألّا يبالي بها، وأن ينصرف نحو تناول الطعام أو قراءة الدروس أو الحديث مع الرفاق أو نظير هذه الأمور؟! إنّنا لو تأمّلنا قليلًا لاتّضح لنا ما في هذا الأمر من التوهين بحقّ الله تعالى، وسوء الأدب أمام ساحة الكمال المطلق المقدّسة، والذات التي ليس كمثلها شيء. إنّ الله تعالى مع كلّ هذه العظمة غير المتناهية وفي عين غناه وعدم احتياجه، يدعوني أنا الحقيرَ الضئيلَ إلى محضره، فأردّ دعوته هذه وأُقدّم عليها أمورًا أخرى!

إنّك لو دعاك صديق عاديّ ليس له مقام أو موقعيّة مميّزة، وأعرب لك عن حاجته إلى مساعدتك في أمر معيّن، ولكنّك لم تعتنِ بطلبه وأجبته بأنّ لديك عملًا آخر، فمن حقّه حينئذٍ أن يعاتبك لعدم تأديتك حقّ الصداقة. فكيف بالصلاة وهي دعوة من الله تعالى واهب الوجود لي ولك، ومنشأ كلّ خير وحُسن في هذا العالم، وكلّ ذلك لا لأجل منفعة

له، بل لكي يضاعف من فيض رحمته علينا، وكي نستفيد أكثرَ من مائدة نعمائه غير المحدودة؟! من البَدَهيّ في هذه الحالة أن يكون إعراض الإنسان عن دعوة الله تعالى، وإقباله على أعمال أخرى أمرًا مذمومًا وفي مُنتهى السوء. ولكنّنا نغفل عن قُبح أمثال هذه الأعمال، وإلّا فإنّ كلّ صلاة يؤخّرُها المرء ولو لحظةً واحدةً بعد دخول وقتها، تستحقّ أن يستغفر منها مئات المرّات بل آلاف المرّات، وأن يلتمس العذر من مقام الله تعالى ليغفر له هذا التوهين الذي صدر منه تجاه ساحته المقدّسة، وانشغاله بأمور أخرى حالَ دعوة الله له.

على أيّة حال، فإنّ السعيَ لأداء الصلاة في وقتها والاحتراز عن صيرورتها قضاءً، هو أدنى مراتب المحافظة على الصلاة، وإنّ لهذا العنوان مصاديق أكمل، من أهمّها تأدية الصلاة في أوّل وقتها وإقامتها في وقت فضيلتها.

أمّا آثار تأدية الصلاة في أوّل وقتها، فبالإضافة إلى الروايات الشريفة، تُنقل عن بعض العظماء قصص ومطالب عديدة. ومن جملة هذه المطالب، ما سمعتُه من عالمَين عظيمَين، لا أعلمُ في عصرنا شخصًا ذا فضيلة أكثر منهما؛ نقلا لي مطلبًا عن أستاذٍ لهما يقول فيه: «إذا تعهّدَ الإنسانُ أن يؤدّيَ صلواتِه في أوّل وقتها، فأنا أضمنُ له الوصولَ إلى أعلى الكمالات». ويقولُ أحدُ هذين العظيمَين: إنّ في كلام أستاذهم سرًّا لا يناله الإنسان، إلّا إذا سلك هذا الطريق بنفسه، فإذا ألزم نفسه بتأدية الصلاة في أوّل وقتها، فسوف يرى حجم النعم والمقامات التي سيمنحها الله تعالى له.

المصاديق المختلفة للمحافظة على الصلاة

على أيّة حال، فإنّ من معاني المحافظة على الصلاة تأديتُها في أوّل وقتها. ولكن بالإضافة إلى هذا المصداق، بإمكاننا أن نقف أيضًا على مراتب ومعانٍ أخرى للمحافظة على الصلاة.

بشكلٍ عامّ، ما لم يأتِ المصلّي بكلّ واجبات الصلاة، فإنّ صلاته ستكون باطلةً ولا أثر لها. ومن هنا، فإن تصوّرنا هذه المسألة أمكن لنا أن نقول: إنّ القدر المتيقّن من المحافظة على الصلاة هو تأدية جميع واجباتها ومراعاة كلّ موجبات صحّتها. ولكن للصلاة أيضًا سلسلة آداب تُعتَبر شرطًا في فضيلتها، وموجبًا لازدياد ثوابها، ومنشأً لتضاعف آثارها، ومن جملتها ما تقدّمت الإشارة إليه من تأدية الصلاة في أوّل وقتها. ومن هنا، يمكنُ اعتبار رعاية آداب الصلاة وشروط فضيلتها الموجبة لقرب الإنسان أكثر من الله تعالى، مراتب ومصاديق أخرى لعنوان المحافظة على الصلاة.

وفي الوقت نفسه، يمكن من زاوية أخرى أن نعتبر أصلَ كلّ الأحكام، وروح كلّ آداب الصلاة وواجباتها ومستحبّاتها، هو التوجّه إلى الله تعالى. وعلى هذا الأساس، يصبح المعيارُ والميزانُ في مسألة المواظبة على الصلاة وتحديد مراتبها ومصاديقها، التوجّهَ إلى الله تعالى أثناء أداء الصلاة. ويمكن لهذا النحو من التفسير أن يصبح موردَ تأييدٍ أكبر، إذا ما التفتنا إلى مدى قبح ومذموميّة تأدية الصلاة بغفلة، ومن دون توجّه، ولا حضور قلب. ويكفي التأمّل في هذا المثال من أجل إدراك مدى قبح هذا العمل؛ تصوّر أن يكون شخصٌ ما في حالة حديثٍ وحوارٍ مع صديقٍ من معارفه العاديّين والمُوازين له من حيث الشأنيّة والموقعيّة، ولكنّه أثناء حديثه يُدير له ظهره ويُعرض بوجهه عنه، وعوضًا عن النظر إليه، ينظرُ

إلى اليمين تارةً وإلى اليسار تارةً، ويتأمّل في السماء بُرهةً وفي الأرض بُرهةً! تصوّر الآن لو كان الطرفُ المقابل والشخصُ المخاطَب أستاذَ هذا الإنسان، أو شخصيّةً محترمةً وذات مقام عالٍ، أفلا يتضاعف قبح هذا الفعل ويصبح أشدّ وضوحًا؟!

ومن الحريّ بنا أن نلتفت إلى أنّنا أثناء الصلاة نكون في محضر الحديث مع الله تعالى. فإذا كانت قلوبُنا متوجّهةً إلى الله ومقبلةً عليه، نكون عندئذٍ مُراعين لأدب الحديث معه تعالى. أمّا لو كانت قلوبُنا متوجّهةً إلى أمور أخرى، فهذا نظير أن نُشيح بوجوهنا عن ذات الله المقدّسة، وأن نولّيَه ظهورَنا أثناء حديثنا معه. بالطبع، ليس الله تعالى جسمًا، وليس له جهةٌ نتوجّه إليها؛ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾[١]، بل إنّ التوجّه إلى الله هو توجّه القلوب نحوه تعالى. ومن هنا، فإنّ تأدية الصلاة في حال الغفلة وانشغال الذهن في أمور ومسائل أخرى، هو في الحقيقة إدبار عن الله تعالى أثناء الحديث معه، وهو ما يعتبر غايةَ التوهين وسوء الأدب.

ومع كلّ هذا، ليت المسألةَ تقف عند حدّ تأدية الصلاة بقلوب غافلة عن ذكر الله ونفس غارقة في ما عداه تعالى، ولكن ـ مع الأسف ـ المسألةُ أكبرُ من ذلك. وإنّ عدمَ توجّه الإنسان إلى الله تعالى في أغلب صلواته، وتذكّرَه أنّه في حالة الصلاة بعد التسليم والفراغ منها، هو وحده كارثة عظيمة، وجسارة لا تُغتفر. ولكنّ ما يدعو إلى الأسف أكثر، أنّ كثيرًا منّا لا يُراعي الآداب الظاهريّة للصلاة، فضلًا عن الآداب المعنويّة. إنّنا من أجل الحديث مع صديق لنا، نعمد إلى التكلّم بهدوءٍ وتأنٍّ، ونسعى لتأدية

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١١٥.



الكلمات بسرعة طبيعيّة، إلّا أنّنا ـ مع الأسف الشديد ـ نشاهد نماذج ليست بالقليلة لأفراد يؤدّون صلواتهم بسرعة وعجلة، وينطقون الكلمات في غاية السرعة، ويُتمّون الركوع والسجود والقيام والقعود بسرعة لا توصف. وأحيانًا، يؤدّي بعض الأشخاص صلاتهم بسرعةٍ تؤهّلهم لتسجيل أرقام قياسيّة. فعلى سبيل المثال يُتمّون في ظرف دقيقةٍ واحدة صلاةً مؤلّفةً من أربع ركعات!

هل هذا ما يقتضيه أدب الربوبيّة؟! إنّ صلوات أغلبنا ناقصةٌ ومَعيبةٌ من أنحاء مختلفة، إلى درجة أنّنا لو أدّينا صلاة مع مراعاة جميع الشرائط الفقهيّة ومن دون أيّ إشكال في ظاهرها، يجب علينا مع كلّ هذا أن نستغفر آلاف المرّات من هذه الصلاة، وأن نلتمسَ العذر من الله تعالى على سوء أدبنا غير المتناهي، الذي بدر منّا في هذه الصلاة تجاه ساحة الربوبيّة المقدّسة؛ يقول القرآن الكريم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[1].

بالطبع، يمكن أن يكون لعنوان «السهو عن الصلاة» معنى واسع ومُشكّك؛ يشمل مراتب مختلفة. وواحدة من هذه المراتب، ألّا يلتفت المصلّي إلى معاني الكلمات التي يتلفّظ بها، أو ألّا يلتفت إلى موقعيّته في مقابل الله تعالى، وألّا يستحضر عظمةَ مخاطَبِه أثناء صلاته. وإنّ بين آيات القرآن الكريم آيةً يمكن أن نستنبط منها إشارة دامغة في هذا الصدد، وهي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[2].

---

(١) سورة **الماعون**، الآيات ٤ و٥.

(٢) سورة **النساء**، الآية ٤٣.



إنّه وإن كان شأن نزول هذه الآية وظاهرها مرتبطًا بالسُّكْرِ الحاصل جرّاء شرب الخمر وما شابه، إلّا أنّه من خلال بسط معنى الآية الكريمة يمكن أن نستخلص نتيجة، مفادها أنّ الإنسان إذا لم يكن ملتفتًا لما يقوله حال الصلاة، فهو حينئذٍ كمن يخاطب الله في حالة شبيهة بحالة السكارى؛ فالشخص السكران لا يلتفت إلى محيطه، ولا إلى حركاته وسكناته، ولا يفقه شيئًا ممّا يقوله. وإنّ المصلّي الذي لا يكون في حالة سكر ظاهريّ إلّا أنّه لا يلتفت إلى شيءٍ ممّا يقوله من بداية صلاته إلى نهايتها، وتكون كلّ حواسه في مكان آخر، هو في الحقيقة لا يختلف عن السُّكارى من حيث كونه غافلًا بشكلٍ كاملٍ عن كلّ ما يتفوّه به.

وإنّنا وإن كان كثيرٌ منّا يتفنّن أثناء تأدية صلاته في الالتفات إلى معاني الكلمات بمقدار معيّن، إلّا أنّ مسألةَ السعي في تحصيل التوافق بين حال القلب وما يجري على اللسان هي مسألة نادرة الحدوث، وقليلٌ هم أولئك الذين يؤدّون مثل هذه الصلاة.

وعلى أيّة حال، فإنَّ كلّ هذه المسائل هي من مراتب المحافظة على الصلاة، والتي يمكن أن نعتبر الآيات التي طرحت بحث المحافظة على الصلاة ناظرةً إليها.

أهل البيت عليهم السلام والصلاة

كما أشرنا سابقًا، إنّ القرآن الكريم بعد طرحه لمسألة الخشوع في الصلاة في بداية في سورة «المؤمنون» بوصفها أوّل صفة من صفات المؤمنين المفلحين، تطرّق مرّة ثانية إلى مسألة الصلاة بعد ذكر عدّة صفات أخرى فقال: إنّ المؤمنين المفلحين هم أشخاصٌ يحافظون دائمًا على صلواتهم. وفي توضيح عنوان المحافظة على الصلاة قلنا أيضًا: إنّ لهذه المسألة



مراتب ومصاديق مختلفة، تبدأ من مراعاة وقتها وأحكامها وآدابها الظاهريّة، وصولًا إلى حضور القلب وغيره من المسائل الباعثة على ازدياد فضيلتها.

وبالطبع، ينبغي لأتباع أهل البيت عليهم السلام وأبناء المذهب الجعفريّ أن يكونوا متقدّمين على من عداهم في هذا المجال، وأن تكون صلواتهم أفضل من صلوات سائر الأشخاص الذين عرفوا دين الحقّ من بين الأديان واتّبعوه. وإنّ توقُّعَ أن يكون هؤلاء الأشخاص الذين استقَوا من علوم ومعارف أهل البيت، ونهلوا من مائدة نعمة معرفتهم عليهم السلام، السبّاقين في مسألة المواظبة على الصلاة بسبب اقتدائهم بهم، هو في الحقيقة توقّع مناسبٌ وفي محلّه بشكل كامل. ولكن هل نحن واقعًا هكذا؟! على ما يبدو، إنّ الإجابة «لا». وإنّ كلّ فرد منّا إذا ما نصّب قاضيًا على نفسه، فإنّه سيُذعن أنّ الصلاة في حياته العمليّة لم تنل أهمّيّتها ومكانتها اللازمة التي تستحقّها، وأنّ التقصير في هذا المجال لا حدّ له ولا مقدار.

إنّنا إذا اتّصل بنا أحد أصدقائنا العاديّين، وأعلمنا بقدومه إلى منزلنا في الساعة الكذائيّة، نعمد إلى ترتيب المنزل، وارتداء أنظف الملابس، وتسريح شعرنا، ونسعى أيضًا إلى ترتيب أحوالنا، وتنظيم أوضاعنا. إنّ اقتراب وقت الصلاة يحمل أيضًا مثل هذا المعنى، أي: إنّنا في محضر مُلاقاة أحدهم، ولكنّ الاختلاف يكمن في أنّ اللقاء هذه المرّة ليس مع صديق عاديّ، بل هو موعد مع أعظم العظماء، إله الوجود، خالق العالم. فهل يظهر منّا أيّ استعداد ظاهريّ أو باطنيّ على أعتاب هذه المُلاقاة؟ وهل يطرأ علينا أيّ تغيير ولو في وضعنا الظاهريّ؟ وهل نقوم بأيّ فعل يُظهر استعدادنا لمثل هذه الملاقاة العظيمة والمصيريّة؟ هذا، والحال أنّ الروايات الشريفة ـ بالإضافة إلى تأكيدها على مراعاة المسائل الباطنيّة ـ

أكّدت أشدّ التأكيد على أهمّيّة مراعاة الآداب الظاهريّة للصلاة، من العطر والسّواك وارتداء اللباس النظيف والجميل والتحنّك وغيرها...

فقد جاء في رواية أنّ الإمام الحسن المجتبى عليه السلام كان إذا قامَ إلى الصلاة لبسَ أجودَ ثيابه، فقيلَ له: يا بن رسول الله، لِمَ تلبسُ أجود ثيابك؟ فقال: «إنّ اللهَ تَعالى جميلٌ يحبّ الجمالَ، فأتجمّلُ لربّي، وهو يقولُ ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[١]، فأحبّ أن ألبسَ أجودَ ثيابي»[٢].

وحول التعطّر قبل الصلاة، رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «رَكْعَتَانِ يُصَلِّيهِمَا المُتَعَطِّرُ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِينَ رَكْعَة يُصَلِّيهَا غَيْرُ مُتَعَطِّر»[٣].

وعن أهمّيّة السواك في الصلاة، رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلاَة»[٤].

وجاء أيضًا في رواية أخرى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «رَكْعَتَانِ بِسِوَاكٍ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ سَبْعِينَ رَكْعَةً بِغَيْرِ سِواك»[٥].

كلّ هذه الأحكام والآداب، الغرض منها أن نتوجّه أكثر أثناء أدائنا للصلاة، وأن نهتمّ بها ونقف على المقام الرفيع الّتي تحوزه، كي لا نؤدّيها بغفلة وذهول. وإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام الذين قدّموا لنا هذه الأحكام، كانوا قد وقفوا على عظمةِ هذه الصلاة جيّدًا، حتّى نُقلت عنهم حالاتٌ وأحداثٌ في هذا الصدد، تشهدُ على هذا المدّعى.

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ٣١.

(٢) الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، الجزء ٤، الصفحة ٤٥٥.

(٣) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٨٢، الصفحة ٢١١، الرواية ٢٣، الباب ١.

(٤) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٧٦، الصفحة ١٢٦، الرواية ٣، الباب ١٨.

(٥) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٧٦، الصفحة ١٣٣، الرواية ٣٤، الباب ١٨.



فهذا الإمام الحسن المجتبى عليه السلام كان عندما يتوضّأ ويُهيّئ نفسَه للصلاة يتغيّرُ لونه المبارك، ويرتعدُ وجودُه المقدّس. وقد سُئل عليه السلام عن علّة هذه الحالة فقال: «إنّي أُريدُ القِيامَ بَينَ يَدَي المَلِكِ الجَبّارِ»[(١)]. وقد ورد شبيهٌ لهذه الرواية عن الإمام السجّاد عليه السلام[(٢)]. وقد جاء أيضًا في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام حول صلاة أبيه الإمام السجّاد عليه السلام: «كان عليّ بن الحسين إذا قامَ في الصّلاة كأنّه ساق شجرةٍ لا يتحرّك منه شيءٌ إلاّ ما حرّكت الرّيح منه»[(٣)].

وقد جاء في روايةٍ أخرى أنّ الإمام السجّاد عليه السلام صلّى ذات يومٍ فسقطَ الرداء عن أحد منكبيه، فلم يسوّه حتى فرغ من صلاته، فسأله بعض أصحابه عن ذلك، فقال عليه السلام: «ويحك أتدري بين يدي مَنْ كنت؟ إنّ العبد لا تقبل من صلاته إلا ما أقبل عليه منها بقلبه. فقال الرجل: هلكنا، فقال عليه السلام: كلا؛ إنّ الله عز وجل متمّم ذلك بالنوافل»[(٤)].

وورد أيضًا أنّ أمير المؤمنين عليًّا عليه السلام كان إذا حضر وقتُ الصلاة يتململ ويتزلزل ويتلوّن، فيقال له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول عليه السلام: «جاء وقت الصلاة، وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها»[(٥)].

---

(١) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٤٣، الصفحة ٢٣٩، الرواية ١٣، الباب ١٦.

(٢) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٨٠، الصفحة ٣٤٦، الرواية ٣٠، الباب ٧.

(٣) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٤٦، الصفحة ٦٤، الرواية ٢٢، الباب ٥.

(٤) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٨٤، الصفحة ٢٦٥، الرواية ٦٦، الباب ١٦.

(٥) الفيض الكاشاني، **المحجة البيضاء**، الجزء ١، الصفحة ٣٧٨.

وعن بعض أزواج النبي الأكرم ﷺ: «كان رسول الله ﷺ يحدّثنا ونحدّثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرفه، شغلًا بالله عن كلّ شيء»[1].

نعم، إنّ الصلاة الواقعيّة والمُرافقة للتوّجه، إنّما تُصبح مُيسّرة عندما يوجّه الإنسان قلبَه نحو الصلاة قبل الشروع في أدائها، ويتنبّه إلى عظمة من هو على أعتاب ملاقاته، من خلال غضّ الطَّرف عن من سواه. وبالطبع، ينبغي أن نعلم أنّه وإن كان الحديث عن هذه المسألة سهلًا وبسيطًا، إلّا أنّ تحقيقها عمليًّا أمر صعب وشاقّ؛ فإنّه وإن كانت أمنيتي القلبيّة أن أتمكّن يومًا من تأدية صلواتي بهذه الكيفيّة، ولكنّني في جميع الأحوال، لست مُستثنىً من هذا الأمر، فإنّي ولو تكلّمت في هذه المسألة، فإنّ عملي ليس موافقًا لها، ومع ذلك فإنّني آمل أن تعتبروا أيها الأعزّاء من قلّة توفيقي، وأن تغدوَ صلواتكم ـ إن شاء الله ـ بنحوٍ يقبل الله ببركتها صلوات أمثالي أيضًا. إنّ لله عزّ وجلّ في البرهة بعد البرهة عبادًا هنا وهناك يُحبّهم ويُحبّونه، ومن الممكن أنّ يكون بعض هؤلاء حاضرين بيننا. وإنّ هؤلاء العباد مجهولون وليس لهم شكل ولا صورة ولا هيئة خاصّة، ولكنّ الله ببركتهم يرحم سائر البشر، ويُنزل من رحمته عليهم. فإذا وُجد بين جموعنا في بعض الأحيان أشخاص من أمثالي، ممّن سُلبوا التوفيق، فإنّنا نأمل أن تحدث ثورة وحركة عند هؤلاء الأشخاص ببركة ذكر روايات أهل البيت عليهم السلام والآيات القرآنيّة، فيعقدوا العزم على تأدية صلواتهم بنحوٍ أفضل بعض الشيء من الآن فصاعدًا، فيُوفّقوا لتحصيل حضور القلب والتوجّه في الصلاة، مع مراعاتهم لأدائها في أوّل وقتها، والالتزام بسائر آدابها.

---

(١) الفيض الكاشاني، **المحجة البيضاء**، الجزء ١، الصفحة ٣٥٠.



جنّة الفردوس: أجر المؤمنين المفلحين

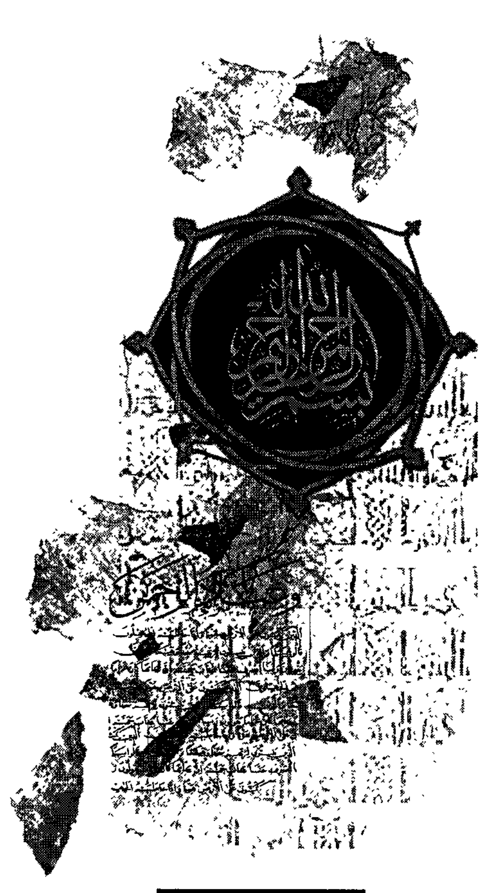
على أيّة حال، فإنّ القرآن الكريم في ذيل هذه الآيات الكريمة، وبعد ذكر جميع الأوصاف التي تقدّم بيانها، يُبشرّ هؤلاء المؤمنين بالجنّة، فيقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

وإنّ للمفسّرين العظام أبحاثًا مُتنوعّةً حول علّة استعمال القرآن الكريم لكلمة «الإرث» في هذه الآية الكريمة، والتي لا مجال لطرحها في بحثنا هذا. ولكن نقول: ربَما تكون إحدى النُّكات في هذا التعبير، أنّ الجنّة ونعمها شبيهة بالإرث من جهةِ أنّها تُمنح للمؤمنين من دون أن يبذلوا كثيرًا من الجهد من أجل الحصول عليها؛ فالنعم والرحمات التي يهبها الله لأهل الجنّة غيرُ متناهية، ولا حدّ لها ولا حصر، وليس لها ذلك التناسب مع أعمال الإنسان الحسنة التي يؤدّيها في هذه الدّنيا؛ فحياة الإنسان في هذه الدنيا محدودة جدًّا، وليست أكثر من لحظات قليلة بمقدار لمح البصر، مقارنةً بالحياة الأخرويّة، وإنّ أعمال الإنسان الصالحة على طول مدّة حياته في هذه الدنيا، أقلُّ بكثير من هذا المقدار. ولكنّ الله تعالى في مقابل الحجم الضئيل لهذه الأعمال، يُسكن المؤمنين في ظلّ لطفه وتفضّله، ويمنحهم نعمًا كبيرةً وكثيرةً وغيرَ قابلة للتصوّر، بل أعدّ لهم ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على بال بشر. أضف إلى هذا، أنّ النعم الأخرويّة لا ينالها المؤمن على نحو الاستعارة أو القرض، بخلاف النعم الدنيويّة التي توضَع في اختياره لأيّام معدودة ثمّ تُسلب منه، فنعم الجنّة أبديّة، وأهل الجنّة هم المالكون لهذه النعم والوارثون لها.

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآيتان ١٠ و١١.

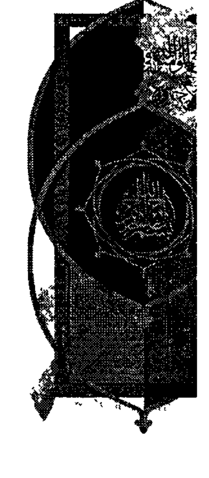
نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا ببركة اتّباع أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام من زمرة المفلحين ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾.



الدرس السابع:

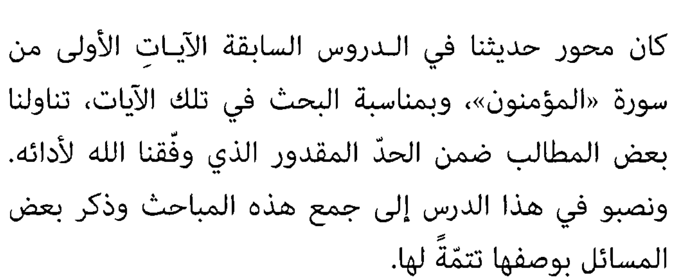
خلاصة المباحث السابقة واستخلاص النتيجة







الدقّة في بعض المفاهيم القرآنيّة المبحوثة



كان محور حديثنا في الـدروس السابقة الآيـاتِ الأولى من سورة «المؤمنون»، وبمناسبة البحث في تلك الآيات، تناولنا بعض المطالب ضمن الحدّ المقدور الذي وفّقنا الله لأدائه. ونصبو في هذا الدرس إلى جمع هذه المباحث وذكر بعض المسائل بوصفها تتمّةً لها.

كنّا قد أشرنا سابقًا إلى أنّ مفهوم «الفلاح» يُعتبر واحدًا من المفاهيم المفتاحيّة والأساسيّة في القرآن الكريم. وفي هذا المجال، ينبغي الالتفات إلى أنّ القرآن الكريم ـ ومن أجل بيان مقام الإنسان وموقعيّته في عالم الوجود، وخاصّةً في علاقته مع الله تعالى ـ قد استفاد من مفاهيم متنوّعة ذات جَنَبَةٍ استعاريّة في الغالب. بمعنى أنّ أصل وضع هذه المفاهيم في اللغة هو للأمور الحسّيّة والمادّيّة، ولكنّ القرآن الكريم استفاد منها في بيانه للمسائل المعنويّة، والعقليّة، والأخرويّة، وغير الحسيّة، عبر إيجاد شيءٍ من التوسعة في معانيها. ولكن مع مرور الزمن، وعلى أثر كثرة الاستعمال، شهدت هذه المفاهيم وضعًا تخصّصيًّا في هذه المعاني الجديدة، وتبدَّلَ استعمالها في هذه المعاني من الاستعارة إلى الحقيقة، حتّى باتت هذه المعاني تُتلقّف بوصفها معانيَ حقيقيّةً

موضوعةً لها هذه المفاهيمُ. وقد أوردنا في سلسلة أبحاثنا التي تقدّم بيانها أمثلةً ونماذج في هذا الصدد، فلا نكرّرها هنا.

ومن الأمثلة على هذا الأمر أيضًا، أنّنا نرى القرآن الكريم أثناء بيانه لموقعيّة الإنسان ومقامه في هذا العالم، وبيانِه لهدف خلقة الإنسان ومقصده النهائيّ، يعتبرُه مسافرًا وفي حالة سير وحركة دائمَين، وأنّه يمضي قُدُمًا في سيره هذا نحو مقصده، ويعبّر عن هذا المقصد بـ«لقاء الله». وأثناء البيان التفصيليّ لهذا المطلب في المباحث التي تقدّمت، كنّا قد أتينا على ذكر الآية الشريفة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾[1].

ومن المفاهيم الأخرى في هذا المجال، والتي ورد استعمالها في القرآن الكريم مع شيءٍ من التشبيه والاستعارة، تلك المفاهيم والأدبيّات المرتبطة بالزراعة والرُّشد والنبات والأشجار، التي استفاد منها القرآن الكريم في بيانه لمسألة خلق الإنسان ومجيئه إلى هذا العالم وتكامله. فمن وجهة نظر القرآن الكريم، يكون الإنسان عند ولادته ووضع أوّل أقدامه في هذا العالم بمنزلة بذرةٍ زُرعت في الأرض. وإنّ هذه البذرة المزروعة يمكن لها من جهةٍ أن تبلغ رشدها، وأن تزدهر استعداداتها الكامنة فيها، وأن تصل إلى وضعها المناسب والمطلوب. ومن جهةٍ أخرى، يمكن لهذه البذرة أن تصل إلى مرحلةٍ، لا أنّها لا تنمو ولا ترشد فحسب، بل إنّها تتآكل وتفسد وتتعفّن، فتخسر قيمتها الأوّليّة أيضًا. وإنّ للإنسان تحديدًا مثل هذا الوضع، وإنّ استفادة القرآن الكريم في هذا المجال من مفاهيم من قبيل: الفلاح والتزكية، يمكن تحليلها والنظر إليها في هذا

---

(١) سورة **الانشقاق**، الآية ٦.



السياق. فكلمة «فلاح» ـ مثلًا ـ تشترك مع كلمة «فلّاح» و«فِلاحة» بجذر لغويّ واحد، وبين هذه الكلمات تناسب مفهوميّ؛ فالإنسان الذي يبلغ الفلاح هو بمنزلة بذرة نمت وخرجت من بين ظلمات التراب، ولم تبق تحت التراب لتفسد وتتلف.

وممّا يؤيّد هذا التفسير، آياتُ سورة «الشمس» المباركة، حيث يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

فمفهوم «التزكية» الوارد في هذه الآيات بلفظ «زكّاها» يُستعمل في أصل الجذر اللغويّ في أمور الزراعة؛ فعندما يعتني المزارع بشجرة فيُشذّبها ويُزيل عنها ما زاد من أغصان وأوراق، يُقال ـ اصطلاحًا ـ: إنّه قام بتزكية هذه الشجرة. وكذلك مفهوم «التدسية» الذي ورد في الآية الكريمة بلفظ «دسّاها»، فإنّه يُستعمل في الجذر اللغويّ في الموارد التي يُخفى فيها شيءٌ تحت التراب ويتلف على أثر بقائه هناك.

من هنا، فإنّ القرآن الكريم في آيات سورة «الشمس» المباركة استفاد أيضًا من هذا النحو من الاستعارة، فشبّه النفس الإنسانيّة بالبذرة والشجرة التي تنمو وترشد وتبلغ كمالها اللائق، إذا ما تمّت رعايتها والاهتمام بها بشكل مناسب. وأمّا في صورة عدم رعايتها، فإنّها تفسد وتفنى. وبالطبع، ثَمّ اختلاف جوهريّ بين الشجرة ومورد الإنسان، وهو أنّ رشد البذرة أو الشجرة وتكاملها هو أمر جبريّ لا اختياريّ، بينما رشد الإنسان إراديّ واختياريّ.

---

(١) سورة **الشمس**، الآيات ٧ إلى ١٠.

إنّ التغيّرات التي تطرأ على البذرة المزروعة في الأرض ـ أعمّ من التغيّرات الإيجابيّة والسلبيّة ـ ليست باختيارها. فإذا هطل من السماء مطر، وتوفّرت ظروف مناسبة في التربة، وتحقّقت بعض المسائل الأخرى، فإنّ هذه البذرة تنمو وتبلغ رشدها وتتحوّل إلى سبعين بذرة. وعلى العكس من ذلك، فإذا لم تتهيّأ الظروف المناسبة، كأن كانت الأرض قاحلة أو ألقيَ عليها موادٌّ سامّةٌ، فعندئذٍ ستفسد وتزول، فضلًا عن أنّها لن تبلغ رشدها.

أمّا الإنسان، فهو بذرة زرعها الله تعالى في عالم الوجود، وبعد ذلك جعل رشدها وترقّيها أو فسادها وتسافلها مرهونًا بفعل الإنسان نفسه واختياره الشخصيّ؛ فالإنسان إن رغب وأراد واستفاد من الظروف المناسبة بنحوٍ صحيح، فإنّه يصل إلى رشده، وتزدهر استعداداته، ويبلغ كماله. وفي المقابل، إذا أراد واختار لنفسه مسيرًا غير مناسب، ولم يستفد بشكل صحيح من الفرص والإمكانات التي وُضعت في اختياره، فإنّه حينئذٍ سيغدو أسفل وأحطّ من الحيوانات، فضلًا عن خسرانه تلك الفضيلة والميزة الأوّليّة؛ يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾[١].

وفي جميع الأحـوال، فـإنّ مفهوم «الفلاح» من المفاهيم ذات المعنى المشابه لمفهوم «التزكية». وكما أوضحنا سابقًا، إنّ هذا المفهوم يُستعمل في الموارد التي تُحيط فيها موانعُ ومصاعبُ بمسير الإنسان،

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٧٩.



فيتمكّن من تخطّيها والعبور بسلامة والوصول إلى مقصده. ومن هنا، فإنّ المفلحين هم أشخاص عبروا الموانع واجتازوا المصاعب، ونجَوا من المخاطر والمهالك، في سبيل الوصول إلى الكمالات اللائقة بهم فأصبحوا «المفلحين».

العلاقة بين التزكية والتقوى والفلاح

وبناءً عليه، فإنّ الله تعالى يريد من استعمال أمثال هذه المفاهيم أن يُفهم الإنسان موقعيّته ومقامه في عالم الوجود، وأن ينبّهه على أنّ مَثَلَهُ كَمَثَلِ البذرة التي تُزرع في باطن الأرض، وأنّه لو أراد لاستطاع إيصال الاستعدادات التي وضعها الله تعالى في باطن بذرته إلى فعليّتها، ولتمكّن من بلوغ رشده ونموّه والوصول إلى كماله. وأنّه في المقابل، لو أراد لأمكنه أن يُضيع نفسه ويُفسدها ويقودها نحو التسافل والفناء.

وعليه، فإنّ أمام الإنسان طريقين:

الطريق الأوّل: طريق الفلاح، الذي يُفضي في نهايته إلى الظَّفَر. وهذا الطريق مشروطٌ بتزكية النفس؛ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[1]. **بتعبيرٍ آخر:** إنّ شرطَ الوصول إلى الفلاح تزكيةُ النفس، وهذه التزكية تحت اختيار الإنسان، وليست تابعة للعوامل الجبريّة؛ فالإنسان نفسه هو من أُوكلتْ إليه مهمّة إيصال هذه الاستعدادات التي وضعها الله تعالى في وجوده إلى مرحلة الفعليّة، وتحقيق ازدهارها، وتوفير شرائط رشده وتكامله.

---

(١) سورة **الشمس**، الآية ٩.

والطريق الثاني: طريق الخسار؛ فإنّ الإنسان أيضًا باختياره هو من يُعيق سيره على درب الفلاح وهو من يُفسد نفسه.

وعلى أيّة حال، فإنّ ما يُمكن استفادته من هذا البيان على وجه الإجمال، أنّ التزكية شرط لازم في بلوغ الفلاح. ولكنّ السؤال الأساسيّ الذي يطرح نفسه هنا: «ما هي التزكية؟ وما معناها؟».

إنّنا لو دقّقنا في آيات سورة «الشمس» المباركة، لأمكن أن نستفيد طرف خيط وإشارة حول إجابة هذا التساؤل؛ حيث يقول الله تعالى في هذه الآيات الكريمة: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[١].

فإذا تصوّرنا مفهومَي «الفجور» و«التقوى» مع المفهومين اللذين جاءا في الآية التالية، أي: «التزكية» و«التدسية»، يمكننا أن نقول: إنّ في هذه الآيات دلالة على وجود رابطة وعلاقة بين «التقوى» و«التزكية» من جهةٍ، وبين «الفجور» و«التدسية» من جهةٍ أخرى. **بتعبير آخر**: يمكن أن نستنتج ـ بالاستفادة من هذه الآيات ـ أنّ عامل الترقّي وبلوغ الفلاح والسعادة ووصول الإنسان إلى كماله هو التزكية، ومصداق هذه التزكية هو التقوى، فمن أراد أن ينال مقام التزكية، فعليه بالتقوى. وفي المحصّلة، ثمّة ارتباط وثيق بين الفلاح والتزكية والتقوى، وإنّ طريق الفلاح يعبر من قناة التقوى. ولتأييد هذا المدّعى، يمكن الاستناد إلى آيات أخرى من آيات القرآن الكريم، ونشير هنا إلى نموذج من هذه الآيات:

---

(١) سورة **الشمس**، الآيات ٧ إلى ١٠.



ففي الآيات الأولى من سورة «البقرة»، يقول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[١].

وإنّ كلّ ما تفيدُه آيات سورة «البقرة» إلى هذه الآية، هو أنّ القرآن الكريمَ كتاب أُنزل من أجل هداية المتقين، ولكن بعد هذه الآية، يشرع الله تعالى في تعداد أوصاف هؤلاء المتّقين، وفي الختام يصف الله المتّقين الذين تمثّلت فيهم هذه الأوصاف بوصف «المفلحين»؛ حيث يقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

فوفقًا للآيات الأولى من سورة البقرة، فإنّ المتقين هم المفلحون، وهو المطلب عينه الذي استفدناه من آيات سورة «الشمس» المتقدّمة.

عنصران مهمّان للتقوى

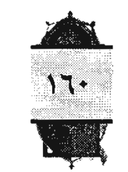
ولكنّ التقوى هي الأخرى مفهوم عامّ، يضمّ في طيّاته أمورًا كثيرة. **بتعبيرٍ آخر**: يمكن أن يُقال: إنّ التقوى من أعمّ المفاهيم القيميّة التي ورد استعمالها في القرآن الكريم، ومن المفاهيم ذات الدائرة الواسعة جدًّا التي يندرج تحتها عناصر متعدّدة؛ ففي الآيات الأولى من سورة «البقرة» نرى القرآن الكريم في مقام بسط مفهوم «المتقين» وبيانه، يذكر له عناصر مختلفة، ويعتبر التقوى عنوانًا واسعًا ومركّبًا من مجموعة عناصر، حيث يقول: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[٣]

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٥.

(٣) سورة **البقرة**، الآيات ٢ إلى ٤.



وإذا ما دقّقنا في هذه الآيات الكريمة، نرى أنّها قد اعتبرت «الإيمان» الركن الأساسيّ للتقوى، وافترضت للإيمان أيضًا محاور ثلاثة:

المحور الأوّل: هو الإيمان بالله تعالى والتوحيد: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

والمحور الثاني: هو الإيمان بالنبوّة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

والمحور الثالث: هو الإيمان بالآخرة والمعاد: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

وبالطبع، ينقسمُ الإيمان بالنبوّة بدوره إلى قسمين: الإيمان بالنبوّة الخاصّة: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، والنبوّة العامّة: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾. فبالإضافة إلى الإيمان برسالة النبيّ محمّد ﷺ ونبوّته، لا بدّ من الإيمان بسائر الأنبياء الإلهيّين عليهم السلام، والاعتقاد بأنّهم مرسلون من قبل الله تعالى، وكما يعبّر القرآن الكريم في آيات أخرى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[1].

ومن خلال التوضيح الذي قدّمناه، يُعلم أنّ قسمًا مهمًّا وأساسيًّا من التقوى يرتبط بالإيمان بأصول الدين، أي: «التوحيد»، و«النبوّة»، و«المعاد».

ولكن بالإضافة إلى هذه المحاور الثلاثة المتعلّقة بالإيمان، يعتبر القرآن الكريم في هذه الآيات الكريمة نوعين من الأعمال من العناصر المُشكّلة للتقوى:

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٣٦.



الأوّل: هو الصلاة: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

والآخر: هو الإنفاق: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وكما أسلفنا سابقًا، إنّ للفظَي الإنفاق والزكاة في الاصطلاح القرآنيّ معنى واحدًا، وينطبق كلٌّ منهما على الآخر، والزكاة المستعملة في القرآن شاملة لمطلق الإنفاق، لا تُخصّص بالزكاة الواجبة.

وعلي أيّة حال، فإنّ ما يمكن استفادتُه من الآيات الأولى من سورة «البقرة»، هو أنّ عنوان التقوى، أو الأمر الموجب للفلاح، مركّب على الأقلّ من ثلاثة محاور إيمانيّة ونوعين من الأعمال:

١ ـ الإيمان بالغيب.

٢ ـ والإيمان بالوحي والنبوّة.

٣ ـ والإيمان بالآخرة.

٤ ـ وإقامة الصلاة.

٥ ـ وإيتاء الزكاة.

وإذا ما دقّقنا أيضًا في هذين النوعين من الأعمال، يمكن أن نقول: إنّ الصلاة ـ في الواقع ـ مظهر ارتباط الإنسان بالله تعالى، والزكاة هي مظهر ارتباطه بعباد الله. ومن هنا، فإنّ الجَنَبَةَ العمليّة للتقوى تقع في بُعدين كلّيّين:

البُعد الأوّل: وظيفة الإنسان تجاه الله تعالى، وهي عبارة عن إظهار العبوديّة له.

والبُعد الثاني: وظيفة الإنسان مقابل خلق الله تعالى، وهي خدمتهم.

وفي المحصّلة، وفقًا لهذه الآيات يمكن القول: إنّ التقوى تتلخّص في كلمتين: «الإيمان» و«العمل الصالح»، والعمل الصالح يقع في محورين كلّيّين:

الأوّل: العمل الصالح في ميدان العلاقة مع الله.

والآخر: العمل الصالح في ميدان العلاقة مع خلق الله.

وإذا فسّرنا التقوى على هذا النحو، فيمكن حينئذٍ أن نطبّق عنوان التقوى بشكل دقيق على الآيات الكثيرة التي اعتبرت مِلاكَ سعادةِ الإنسان والنجاةِ من عذاب جهنّم والشقاء والخسران، هو الإيمانَ والعملَ الصالحَ. وفي الواقع، إنّ واحدةً من المسلّمات القرآنيّة أنّ أهل النجاة والفلاح هم من الذين يحوزون على جوهرتي الإيمان والعمل الصالح. وسنستعرض فيما يلي مجموعة من الآيات الكريمة الحاكية عن هذه الحقيقة، حيث يقول تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾[2].

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3]؛ فإنّ تعبير ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ من التعبيرات المُلفتة، وواضحٌ ما فيه من تأكيد

---

(١) سورة **التين**، الآيات ٤ إلى ٦.

(٢) سورة **الكهف**، الآية ١٠٧.

(٣) سورة **غافر**، الآية ٤٠.

على أنّ العمل الصالح وحدَه ليس ذا فائدة في بلوغ الفلاح، بل إنّ تحقّق تأثيره متوقّف حتمًا على ضميمة عنصر الإيمان إليه.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾[1].

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾[2].

فكما نلاحظ في جميع الآيات المذكورة، إنّ الإيمان والعمل الصالح قد قُرِنَ بعضهما ببعض وذكرا معًا. ومن هنا، يُمكن أن يستفاد من هذه الآيات بشكل واضح حقيقةُ أنّ الإيمان والعمل الصالح شرطان لازمان وضروريّان من أجل بلوغ الفلاح ونيل السعادة. وفي الواقع، إنّ الإيمان والعمل الصالح اللذين أكّدت عليهما آيات القرآن الكريم بوصفهما عنصرين أساسيّين للتقوى، يرتبطان ببُعدَي وجود الإنسان ومضمارَي حياته؛ إذ يمكن بنظرة أوّليّة أن نتصوّر لوجود الإنسان بُعدَين ولحياته ساحتين ومضمارين:

البُعد الأوّل: داخليّ جوانحيّ.

والبُعد الثاني: خارجيّ جوارحيّ.

والساحة الأولى: ترتبط بباطن قلبه وأعماق فكره وذهنه.

---

(١) سورة **مريم**، الآيتان ٥٩ و٦٠.

(٢) سورة **القصص**، الآية ٦٧.

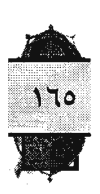
والساحة الثانية: هي ما يُشاهَد في ظاهر أفعاله، ويُرى في لائح تصّرفاته وأعماله.

وبالالتفات إلى هذه الأمر، يتّضح تأكيد القرآن الكريم على أنّ حقيقةَ التقوى عبارةٌ عن رداء يُغطّي ساحتي وجود الإنسان؛ فمن بين مقولتَي التقوى، يرتبط الإيمان بالساحة الداخليّة الجوانحيّة، أي: قلب الإنسان وفكره واعتقاده، ويرتبط العمل الصالح بالساحة الخارجيّة الجوارحيّة، أي: أعمال الإنسان وتصرّفاته وأفعاله.

وقد أشرنا في بعض مباحثنا السابقة وأثناء توضيح وتبيين مفهوم «الإيـمـان»[1]، إلى أنّ الإيمان ليس بالأمر الجبريّ، بل هو أمر إراديّ واختياريّ، وأنّه ليس العلم فقط حتى يُقال: إنّ العلم أحيانًا قد يحصل من دون إرادة أو اختيار؛ فإنّه وإن كان العلم شرطًا حتميًّا في تحقّق الإيمان، إلّا أنّه بالإضافة إلى العلم، يلزم لانعقاد نطفة الإيمان توفّر عنصر آخر. وفي الحقيقة، إنّ شجرة العلم إنّما تنمو وتُثمر إيمانًا في أعماق وجود الإنسان عندما يُصمّم ويعقد العزم على العمل بلوازم علمه، وإنّ هذا التصميم في الواقع أمر إراديّ اختياريّ. وما دام هذا التصميم غيرَ متحقّق، فإنّ يد الإنسان لن تصل أبدًا إلى جوهرة الإيمان. وإنّ كفر فرعون وأتباعه لم يكن ناشئًا من عدم علمهم بحقّانية ما جاء به النبيّ موسى عليه السلام، بل كان سببُ كفرهم تصميمَهم على عدم ترتيب الأثر على علمهم والالتزام بلوازمه؛ يقول الله تعالى في هذا الصدد: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ

---

(١) تقدّم البحثُ حول الإيمان في طيّات بحث «الأمانة والوفاء بالعهد»، وقد بسطَ الشيخ ﷺ البحث حول حقيقة الإيمان أيضًا في المجلّد الثاني من كتاب يحمل عنوان: **كاوشها وچالشها**، حيث أفرد أربع محاضرات بعنوان «الإيمان جوهر دعوة الأنبياء».



ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1]؛ إذ تصرّح الآيات الكريمة بأنّهم أيقنوا بصحّة دعوى النبيّ موسى عليه السلام وصدق مقولته، من خلال الآيات والعلامات والمعجزات التي أظهرها لهم، غير أنّهم ـ وعلى الرغم من علمهم ـ كفروا به وجحدوا بآياته.

فليس الإيمان علمًا فقط، **وبتعبيرٍ آخر**: يمكن اعتبار العلم مجرّد مقدّمة لتحصيل الإيمان، ولكنّ العنصر الأساس في تحقّق الإيمان هو الحركة والعزم، اللّذين يتولّدان في داخل الإنسان فيصمّم على الالتزام بعلمه الذي اكتسبه حول الله تعالى والأنبياء عليهم السلام والمعاد والقيامة، ويعقد العزم على مُراعاة لوازمه.

إلّا أنّ تحصيل التقوى لا يكفي فيه تحقّق الإيمان المرتبط بالساحة الداخليّة في وجود الإنسان، بل من اللازم أيضًا أن يُبرزَ الإنسان ما عُقد عليه قلبُه، وأن يُظهرَ ما آمن به، وأن يُبديَ ما صَمّم على الالتزام به والعمل على وفقه، وأن تتجلّى هذه الحقيقة في أعماله الظاهريّة وسلوكيّاته الخارجيّة، وأن يُشاهَد أثرُها في مقام العمل.

وبالطبع، ينبغي الالتفات إلى أنّ للإيمان والعمل الصالح ارتباطًا وثيقًا فيما بينهما، وعلاقة تأثير وتأثّر متقابل؛ فكلّ مرتبة من أحدهما تشكّل أرضيّة ظهور مرتبة أرفع من الأخرى؛ فإنّه وإن كانت بداية هذه الحركة تتمّ من جهة الإيمان ـ إذ ينبغي في البداية أن يظهر الإيمانُ في قلب المرء كي يتشكّل على ضوئه وتحت تأثيره العملُ الصالحُ ـ ولكن أثناء استمراريّة هذا المسير، يكون العمل الصالح موجبًا لتقوية الإيمان ورشده وازدياده. وعلى أثر رشد الإيمان وتقويته، يزداد صدور الأعمال الصالحة

---

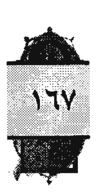
(١) سورة **النمل**، الآيتان ١٣ و١٤.



من الإنسان، الّذي يؤدّي إلى بروز درجة أرفع من الإيمان، وتستمرّ العلاقة بينهما على هذا النحو... وإنّ هذه المسألة ـ في الواقع ـ شبيهة بالعلاقة بين رشدِ الشجرة من جهةٍ، ورشد أوراقها وأغصانها من جهةٍ أخرى؛ فنموّ الأغصان والأوراق الجديدة يبعث على جذب الشجرة لكميّات أكبر من مادّة «الأوكسيجين»، فتنمو الشجرة أكثر. وازديـاد نموّ الشجرة يعني نموّ أوراق جديدة لها، والّذي يؤدّي إلى جذب أكبر للأوكسيجين، الأمر الباعث على رشدٍ أكبر للشجرة، وتستمرّ هذه العلاقة المتبادلة ما سمحت الظروف المحيطة.

وعلى أيّة حال، فبالالتفات إلى ما تقدّم بيانه، من أنّ التقوى شرط في بلوغ الفلاح، وأنّها مركّبة من عنصري الإيمان والعمل الصالح، يمكنُ تصوّر نظام دقيق للأوصاف المختلفة والمتنوعة المرتبطة بالمفلحين، والتي أتت على ذكرها الآيات الكريمة، ويمكن تحليل هذه الصفات وتفسيرها على ضوء هذا النظام. ولكن لو لم نأخذ هذا النظام بعين الاعتبار، فمن الممكن أن نواجه نوعًا من الإبهام والحيرة أثناء بحثنا في هذه الآيات الكريمة؛ إذ نلاحظ بالرجوع إلى آيات القرآن الكريم أنّ الله تعالى يعبّر عن المفلحين في بعض الموارد بأنّهم الخاشعون في صلاتهم، وفي موارد أخرى، يعّبر عنهم بأنّهم المؤمنون بالآخرة، أو مثلًا يذكرُ في مورد معيّن خمس صفات للمفلحين، وفي مورد آخر يذكر أقلّ من ذلك أو أكثر؛ ففي سورة «المعارج» ـ مثلًا ـ من الأوصاف التي يذكرها الله تعالى للمفلحين قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾[1]. هذا، والحال أنّ هذا الوصف لا ذكر له على الإطلاق في سورة «المؤمنون».

(١) سورة **المعارج**، الآية ٢٧.



وفي المقابل، وردت في سورة «المؤمنون» صفة للمفلحين لم ترد في سورة «المعارج»، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾[1].

وبالالتفات إلى ما قدّمناه، يمكن توجيه هذه الاختلافات من خلال القول: إنّ الشرط الأساسيّ للفلاح هو التقوى، والتقوى ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالعمل الصالح، والعمل الصالح هو عنوانٌ ذو مصاديق متعدّدة، وكلّ الموارد التي جاء ذكرها في الآيات القرآنيّة المختلفة ـ بوصفها أوصافًا للمفلحين ـ هي من مصاديق عنوان العمل الصالح.

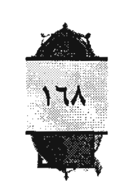
علّة اختلاف تعبير الآيات القرآنيّة في توصيف المفلحين

وإنّ التساؤل الذي يبقى هنا: «لماذا ذكرت الآيات القرآنيّة في بعض موارد أوصافًا للمفلحين لم تذكرها في موارد أخرى؟ أو لماذا نرى بين الموارد التي تشترك في ذكرها لأوصاف المفلحين اختلافًا في عدد الصفات المذكورة، فتذكر بعض الآيات خمس صفات ـ مثلًا ـ وتذكر آيات أخرى ستّ صفات؟».

الإجابة الإجماليّة عن هذا التساؤل: أنّ علّة هذا الأمر ترجع إلى اختلاف مقتضى الحال والمقام، وتغاير الأغراض التي يريدها الله تعالى في كلّ مورد، التي توجب التأكيد على وصف معيّن أو مجموعة أوصاف خاصّة. **بعبارةٍ أخرى**: إنّنا على يقين أنّ اختلاف التعبير القرآنيّ ليس عبثيًّا ولا من باب الصدفة، وأنّ خاصيّة الفصاحة والبلاغة التي تتجلّى إلى حدّ الإعجاز في الكلام القرآنيّ هي التي توجب اختلاف التعبير بين آيات القرآن الكريم. وإنّ فصاحة القرآن وبلاغته تبلغ حدًّا يدفعنا إلى القطع

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ٣.



بأنّ كلّ آية ـ بل كلّ كلمة ـ قد وُضعت في مكانها، بل إنّ انتقاء الحروف واختيار عددها، قد تمّ بناءً على برنامج خاصّ وحسابٍ دقيق. أمّا حقيقة هذه الأغراض وماهيّة هذه الاقتضاءات الخاصّة في كلّ مورد، فهي من الأمور التي لا يتسنّى لنا تشخيصها وإدراكها بشكل دقيق، بل إنّ علمها عند الله تبارك وتعالى ورسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة الأطهار عليهم السلام.

وعلى أيّة حال، فإنّ القدر الجامع والمشترك بين جميع هذه الأوصاف والمفاهيم المذكورة فيما يرتبط بالفلاح، والتي اعتُبرت شرطًا في بلوغه، والمفهوم الأعمّ الذي يمكن إيراده مكان جميع هذه الأوصاف هو «التقوى»؛ إذ لا يعزب شيءٌ من هذه الأوصاف والمفاهيم عن عنوان التقوى. وكما أشرنا سابقًا، إنّ الله تعالى في الآيات الأولى من سورة «البقرة» ـ وبعد توضيح حقيقة أنّ القرآن الكريم هو كتاب هداية للمتّقين ـ يذكر بعض أوصاف هؤلاء المتّقين، وفي الختام يقول: إنّ المفلحين في الواقع هم هؤلاء المتّقون: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[1].

أي: إنّه ما لم تؤدّ الصلاة ولم تؤت الزكاة ولم تُنجز سائر الأفعال الـواردة في هذه الآيات وفي سائر الآيات القرآنيّة، فلا يصدُقُ عنوان «المتّقين» أبدًا. **بعبارةٍ أخرى:** إنّ التقوى تشتمل على جميع هذه الأمور، وإنّ هذه العوامل هي التي توجب تزكية النفس الإنسانيّة، وبلوغ الإنسان رشده، وتطهير روحه من التلوّثات والأدران. فكما أنّ الشجرة تُشذّب

---

(١) سورة **البقرة**، الآيات ٢ إلى ٥.



وتُزال عنها الأوراق الزائدة والأغصان الإضافيّة كي تنمو أكثر، فإنّ هذه العوامل تزيل الزوائد عن صفحة قلب الإنسان وتمحو الإضافات عن وجود الإنسان، وهكذا توجب بلوغ كماله ورشده.

وعليه، فإن سأل سائل عن وجهة النظر القرآنيّة حول موجبات الفلاح، بإمكاننا اختصار إجابتنا في عامل واحد وهو «التقوى». ولو سأل عن ماهيّة التّقوى، فبإمكاننا أن نجيب أيضًا بشكل مختصرٍ وبكلمتين فقط، فنقول: إنّ التقوى هي «الإيمان» و«العمل الصالح». أمّا لو وقع السؤال حول ماهيّة العمل الصالح، فالدائرة هنا تتسّع جدًّا، ولا بدّ حينئذٍ من استعراض أفعال مختلفة ومسائل متعدّدة. وكذلك بالنسبة إلى العنصر الآخر من عناصر التقوى، أي: الإيمان. فلو سأل شخص حول عنصر الإيمان الذي يُعتبر شرطًا في التقوى ومندرجًا تحتها، فينبغي في مقام الإجابة أن نتحدّث عن محاوره الثلاثة: الإيمان بالتوحيد، والإيمان بالنبوّة، والإيمان بالآخرة (بالمعاد). وإنّ كلّ واحد من هذه المحاور الثلاثة، يشتمل على جزئيّات كثيرة؛ إذ تشتمل هذه المحاور على عناوين متعدّدة من قبيل صفات الله المختلفة، ومسألة الإمامة والإيمان بكلّ واحد من الأئمّة الطاهرين عليهم السلام، وكذلك الإيمان بكلّ نبيٍّ من الأنبياء الإلهيّين عليهم السلام وكثير من الأمور الأخرى.

ومن هنا، فإن تصوّرنا للفلاح مراتب عدّة، فإنّ هذه المراتب لا بدّ من أن ترجع إلى درجات الإيمان والعمل الصالح، وكلّما ارتقى الفرد بإيمانه وأعماله الصالحة، فإنّه يبلغ مرتبة أرفع من الفلاح.

اختلاف الإيمان بالأنبياء السابقين عن الإيمان بالإسلام

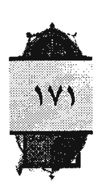
أمّا الإيمان بالأنبياء السابقين عليهم السلام، وقد اعتبر وفق الآيات القرآنيّة شرطًا من شرائط بلوغ الفلاح، فينبغي الالتفات إلى أنّه من اللازم علينا أن نؤمن بنبوّة جميع هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ورسالتهم، وأن نؤمن أيضًا بكلّ ما أُنزل إليهم من الله تعالى، وكما عبّر القرآن الكريم: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[1].

بالطبع، في هذه المسألة نقطة مهمّة، مفادُها أنّ قسمًا من الأحكام التي نزلت على الأنبياء السابقين كانت أحكامًا مؤقّتة، وينحصر اعتبارها في مرحلة زمنيّة خاصّة، وقسمًا آخر منها أحكام ثابتة ودائميّة، ولا تزال ثابتة أيضًا في الشريعة الإسلاميّة.

فعلى سبيل المثال، أصل بعض الأحكام، من قبيل: الصلاة، والصيام، والقصاص، والزكاة، كانت موجودة في الشرائع السابقة، ولا تزال موجودةً أيضًا في الدين الإسلاميّ. وإنّنا كما نؤمن بهذه المجموعة من الأحكام التي جاءت بها الشرائع السماويّة السابقة، كذلك نؤمن بأنّ هذه الشرائع جاءت أيضًا بأحكام مؤقّتة وغير دائميّة، وأنّ هذه الأحكام نُسخت وخرجت عن دائرة الاعتبار مع ظهور الأحكام الإسلاميّة. ولقد كانت هذه الأحكام في زمانها المحدود أحكامًا صحيحة وحقّة. ولكن في جميع الأحوال، نُسخَت جميع الشرائع السابقة مع مجيء الإسلام، ونحن اليوم وإن كنّا نؤمن بأنّ الشريعة اليهوديّة أو المسيحيّة ـ مثلًا ـ قد كانت في

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٨٤.



زمان معيّن مُقرّرة للبشريّة من الله تعالى، ولكنّ مِلاك عملنا اليوم هو تعاليم الإسلام وأحكامه فقط، أمّا الشرائع السابقة فنعتقد بأنّها خرجت عن دائرة الاعتبار.

ومن جهة أخرى، ينبغي أن نلتفت أيضًا إلى أنّ مسألة وجود تاريخ معيّن لصلاحيّة الأحكام، ومسألة نسخ شريعة ما بشكل كلّيّ، إنّما يمكن أن تُطرح في مورد الشرائع السابقة، ولا ينبغي لأحد أن يتصوّر أنّ شريعة الإسلام وأحكامه الآن، وبعد مرور أكثر من ألف وأربعمئة عام على ظهورها، مشمولة لهذه القاعدة أيضًا. لكنّنا ـ مع الأسف ـ نُشاهد في هذه الأيّام أشخاصًا يحملون مثل هذه الرؤية، ويتوهّمون أنّ لأحكام الإسلام تاريخَ صلاحيّة، وأنّها مؤقّتة، حالها حال أحكام الشرائع السابقة التي نزلت في فترة زمنيّة خاصّة، وهي الآن قد تجاوزت تاريخ صلاحيّتها. إنّ هؤلاء ـ في الواقع ـ ينظرون إلى الإسلام في هذا الزمان على أنّه دين منسوخ، نظير اليهوديّة والمسيحيّة وغيرها من الشرائع السماويّة السابقة. ووفق اعتقادهم، فإنّهم وإن كانوا مؤمنين بأنّ نبيّ الإسلام ﷺ قد جاء بهذه الأحكام من الله تعالى، ولكن في هذا الزمن لا حاجة إطلاقًا إلى العمل بها! فمن وجهة نظرهم، إنّ عصرنا الحاضر هو عصر التطوّر والتجدّد والتحضّر والثقافة، فلا معنى بتاتًا للقول بلزوم إقامة حدّ الجلد بالسّوط في حقّ بعض البشر، ولا قطعِ يد السارق تحت عنوان «الحدود الشرعيّة»، ولا إعدام القاتل تحت عنوان «القصاص»؛ لأنّ زمان مثل هذه الأعمال قد مضى، ولا بدّ ـ باعتقادهم ـ من تغييرها والمجيء بقوانين مُعاصرة.

ومن الواضح أنّ من يحمل نظرةً كهذه تجاه الدين الإسلاميّ، فإنّه لن يجد أيّ فرق بين الإسلام واليهوديّة ـ مثلًا ـ، ولن يجد أيّ اختلاف

عمليّ بين أن يكون الإنسان يهوديًّا أو مسلمًا. فلو قلنا بعدم لزوم رعاية الأحكام الإسلاميّة في هذا الزمان، وأنّ التديّن بالإسلام يقتصر على الاعتقاد بوجود بعض التعاليم والأحكام والأوامر التي جاء بها النبيّ محمّد ﷺ من الله تعالى إلى البشر، فأيّ فرق حينئذٍ بين الإسلام واليهوديّة؟ إذ إنّنا فيما يرتبط بالدين اليهوديّ نمتلك هذا الاعتقاد أيضًا، ونؤمن بأنّ ما نزل على النبيّ موسى عليه السلام كان حقًّا من الله تبارك وتعالى، إلّا أنّ زمان العمل بهذه الأحكام يرتبط بتلك المرحلة فقط، وليس لهذه الأحكام اعتبار في زماننا هذا، فلا حاجة إذًا للعمل بهذه الأحكام.

ولو كان الدين الإسلاميّ صالحًا لتلك الحقبة الزمنيّة فقط، أي: قبل ألف وأربعمئة سنة، فماذا عن حال تديّننا في هذا الزمان؟ هل إنّنا اليوم لا ندين بأيّ دين ولا نعتقد ولا نلتزم بأيّة شريعة؟ إنّ أصل قبولنا للدِّين الإسلاميّ، وأساس كوننا مسلمين، لا معنى له سوى أن نلتزم بأحكام الإسلام في هذا الزمان، وأن نعتقد بلزوم العمل بهذه الأحكام. فلا حاجة إلى أن يكون لدينا حتمًا رواية مضمونها: «حَلالُ مُحَمَّدٍ حَلالٌ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ، وَحَرامُهُ حَرامٌ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ»[1]، لنعتبر أحكام الإسلام ساريةً وجاريةً في زماننا هذا أيضًا، بل إنّ أصل الإسلام وتديّن المرء بالدِّين الإسلاميّ في هذا الزمان ليس إلّا الالتزام بالأحكام الإسلاميّة.

ولو لم يكن من اللازم في هذا الزّمان العمل بأحكام الإسلام، فأيّ فرق يميّز الإسلام عن اليهوديّة؟ إنّنا نحمل مثل هذا الاعتقاد تجاه الدِّين اليهوديّ، ونقول: إنّنا ـ وعلى الرغم من أنّ النبيّ موسى عليه السلام كليمُ الله،

(١) ورد هذا المضمون في موارد عدّة نذكر منها: **بحارالانوار**، الجزء ١١، الصفحة ٥٦، الرواية ٥٥، الباب ١، والجزء ١٦، الصفحة ٣٥٣، الرواية ٣٨، الباب ١١، والجزء ٤٧، الصفحة ٣٥، الرواية ٣٣، الباب ١١، والجزء ٦٨، الصفحة ٣٢٦، الرواية ٢، باب ٢٦.



وأنّ شريعته شريعة إلهيّة حقّة ـ نعتقد أنّنا غير ملزمين بالعمل على وفقها. فإذا كان المراد من التديّن بدين الإسلام صِرف الاعتقاد بأنّ الإسلام كان دينَ حقٍّ منذ ألف عام وقد انتهى وزال، فهذا يعني أنّنا ندين بالدِّين اليهوديّ أيضًا؛ لأنّنا نمتلك نظير هذا الاعتقاد تجاه اليهوديّة، ونؤمن بأنّها كانت دينَ حقٍّ أيضًا منذ أكثر من ألفي عام، وهذا يعني أنّنا مسيحيّون أيضًا؛ لاعتقادنا بظهور دين حقٍّ في زمان معيّن يحمل اسم المسيحيّة! وبناءً على هذه الرؤية نكون في زماننا هذا يهودًا ومسيحيّين ومسلمين في آنٍ واحد.

فلا شكّ ـ إذًا ـ في أنّ التديّن بدين الإسلام في هذا الزمان معناه الاعتقاد بثبات الأحكام الإسلاميّة وحقّانيتها في عصرنا هذا أيضًا، وبلزوم تطبيقها حرفيًّا وبشكل دقيق، وبضرورة عدم إنكار أيّ حكم منها؛ يقول القرآن الكريم ـ في مقام تأكيده على هذه المسألة ـ: إنّ أولئك الذين يقبلون بعض ما أنزل الله ويكفرون ببعض، لم يسلكوا ـ في الواقع ـ سوى طريق الشرك؛ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾[1].

ينبغي لإيمان الإنسان أن يكون مطلقًا. وإنّما يمكن اعتبار الإنسان مؤمنًا عندما يُذعن بكلّ ما يقوله الله تعالى من دون حذف أو نقصان، ويُسلّم به تسليمًا. فإذا أنكر حكمًا واحدًا من الأحكام الإلهيّة، فإنّه يخرج حينئذٍ عن دائرة الإيمان. وبالطبع، إنّ هذا النمط من الكفر هو كفر

---

(١) سورة **النساء**، الآيتان ١٥٠ و١٥١.

باطنيّ، ويختلف عن الكفر الظاهريّ؛ إذ يقع الكفر الباطنيّ في مقابل «الإيمان»، بينما يقع الكفر الظّاهريّ في مقابل «الإسلام». والإسلام بمعناه المتعارف هو تلفّظ المرء بالشهادتين فقط، فلو نطق بالشهادتين فإنّه يدخل في زمرة المسلمين، ويخرج عن دائرة الكفر الظاهريّ، فتسري في حقّه أحكام الإسلام الظاهريّ. وإنّ المنافقين الذين يعدهم القرآن بعاقبةٍ يصلون فيها أشدّ نيران جهّنم إحراقًا، حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1]، مع أنّهم كانوا يُحسبون في الظاهر من جماعة المسلمين فيتردّدون إلى مسجد النبيّ ﷺ، ويجوز الزواج منهم، ويُحكم بطهارة أبدانهم، وبشكل عامّ، تجري في حقّهم جميع أحكام الإسلام الظاهريّ، حالهم في ذلك حال سائر المسلمين، إلّا أنّهم ـ على الرغم من ذلك ـ كانوا لا يحملون في قلوبهم أيّ اعتقاد بنبيّ الإسلام ﷺ، ويضمرون في باطنهم الكفر، ولذلك هم من أهل جهنّم؛ فإنّ ما يوجب نجاة الإنسان في الآخرة ليس الإسلام، بل الإيمان، وإنّ غاية ما يمنحه الإسلام الظاهريّ للإنسان هو بعض الامتيازات في هذه الدنيا، كالتي تقدّم ذكرها. وفي جميع الأحوال، فوفق الآية المذكورة أعلاه، إذا أنكر الإنسان حكمًا واحدًا وبسيطًا من الأحكام الإسلاميّة، فهو كافر، ولا يتأتّى له النجاة وبلوغ الفلاح.

وفي هذا السياق أيضًا، نرى القرآن الكريم في آية أخرى يقرّع أمثال هؤلاء أشدّ التقريع، فيعدهم بالذلّة والخزي في هذه الدنيا وبأشدّ العذاب في الآخرة، ويستنكر بشدّة هذا النمط من التفكير؛ ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ

---

(١) سورة **النساء**، الآية ١٤٥.



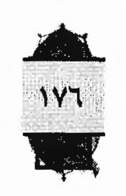
فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[١].

خلاصة البحث

على أيّة حال، فإنّ أوّل شرط لبلوغ الفلاح هو «الإيمان»، والذي يتوزّع بالحدّ الأدنى على محاور ثلاثة: الإيمان بالله، والإيمان بالنبوّة، والإيمان بالآخرة والمعاد. وبعد عبور قناة الإيمان هناك شرط آخر للفلاح، وهو عبارة عن «العمل الصالح»، والذي يتشعّب إلى فروعٍ متعدّدة، ويضمّ ساحات مختلفة؛ فبعض الأعمال الصالحة ناظرة إلى علاقة الإنسان بالله تعالى فقط، وتُعتبرُ الصّلاة من هذا القبيل، فلو لم يكن في هذا العالم إلّا شخص واحد لكان عليه أن يؤدّي صلاته؛ إذ لا ربط للصلاة بوجود باقي البشر أو عدم وجودهم. وإنّ هذا العمل الصالح المتعلّق بميدان ارتباط الإنسان بالله تعالى لا ينبغي تركه بأيّ شكل من الأشكال، بل ينبغي أداؤه ولو على نحو الإشارة. ولكنّ الدين الإسلاميّ، وبخلاف ما تروّج له العلمانيّة، لا تنحصر تعاليمه بتنظيم علاقة الإنسان مع الله فقط، بل يشمل دائرة أوسع بكثير ويضمّ أبعادًا مختلفة من حياة الإنسان؛ ففي الدين الإسلاميّ أحكام وأوامر ينبغي على المسلمين رعايتها في مختلف ميادين الحياة، بدءًا بعلاقة الفرد مع زوجته، وأبيه، وأمّه، وأولاده، وأقاربه، وجيرانه، وأساتذته، وشركائه وحكّامه، وصولًا إلى علاقة المجتمع الإسلاميّ بباقي المجتمعات البشريّة، كأحكام الحرب والسلم، ونظير هذه الأمور. وإنّ العمل الصالح ـ في الواقع ـ يجد طريقًا له في كلّ هذه الميادين، وينبغي على الإنسان في كلّ ميدانٍ منها أن يبادر بعد تشخيص العمل

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٨٥.



الصالح من الفاسد، إلى القيام بالعمل الصالح ليبلغ الفلاح وينال السعادة. والأصل الكلّيّ الحاكم في هذا المجال يقول: إنّ إنجاز العمل الصالح في كلّ الميادين معناه أن يمتثل الإنسان لأمر الله تعالى وحكمه، وإذا خالفه فيكون مرتكبًا للذنب، فيبعد عن بلوغ الفلاح بمقدار تأثير هذا الذنب.

فتحصّل ممّا ذكرنا، أنّ الفلاح وكذلك شرطه، أي: التّقوى، وبطبيعة الحال عناصرها التي تتألّف منها، أي: الإيمان والعمل الصالح، هي من المفاهيم المُشكّكة وذات المراتب والدرجات المختلفة[1]. وكلّ إنسان يبلغ مرتبة أرفع وأكمل من الإيمان والعمل الصالح، فإنّه يبلغ بهذا المقدار مرتبة أرفع وأكمل من السعادة والفلاح. وعلى هذا الأساس، يغدو بلوغ الفلاح والكمال منوطًا ببلوغ الفرد أكمل الإيمان، وجعل جميع أعماله من الصّالحات. وبمقدار ضعف الإنسان في إيمانه، وبمقدار قلّة أعماله الصالحة، تضعف درجة فلاحه، وتدنو مرتبته الكماليّة، وتقلّ سعادته الأخرويّة.

---

(١) من المناسب ههُنا أن نشير إلى جملةٍ من الآيات القرآنيّة الدالّة على كون بعض المفاهيم كالإيمان والكفر والهداية والضلال، مفاهيم مشكّكة وذات مراتب:

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ (سورة **الأنفال**، الآية ٢).

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ (سورة **محمّد**، الآية ١٧).

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ (سورة **نوح**، الآية ٢٤).

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ (سورة **المائدة**، الآية ٦٤).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ (سورة **النساء**، الآية ١٣٧).

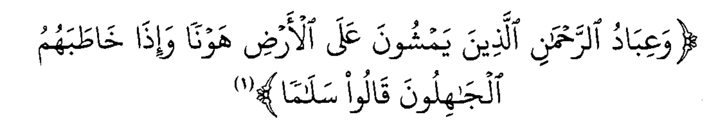
﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ (سورة **الفتح**، الآية ٤).

وكما يُلاحَظ، إنّ في الآيات الكريمة دلالةً على أنّ المفاهيم المذكورة قابلةٌ للزيادة والنقصان، ممّا يعني أنّها ذات مراتب مختلفة.



الدرس الثامن:

عباد الرحمن



﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[1]

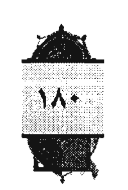
القرآن الكريم والتعريف بالنموذج في قالب بيان الأوصاف

إنّ أحد الأساليب القرآنيّة في بيان المطالب، يعتمد على طرح مجموعة من الصفات الحميدة التي تقع مورد تأكيد الله تعالى وأمره، وبيانِها، تحت عنوان خاصّ بنحوٍ يوجب ترغيب الإنسان في اكتساب هذه الصفات والتحلّي بها. فعلى سبيل المثال، يذكر القرآن الكريم ـ كما أشرنا سابقًا ـ في بداية سورة «البقرة» المباركة عنوان «المتّقين»، ومن ثمّ يشرع في بيان بعض الأوصاف الداخلة تحت هذا العنوان الخاصّ، فيقول: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[2].

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٣.

(٢) سورة **البقرة**، الآيات ١ إلى ٥.



وفي ذيل هذه الآيات الكريمة يضمن القرآن الكريم لمن يتحلّى بمثل هذه الأوصاف أن تناله الهداية الإلهيّة وأن يبلغ الفلاح؛ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[١].

وكما أوضحنا في الدرس السابق، إنّ ما يُستفاد من هذه الآيات الشريفة أنّ «المُفلح» ينبغي أن يكون من أهل التقوى، وأنّ «المتّقي» ينبغي أن يتحلّى بهذه الأوصاف. **بعبارةٍ أخرى**: إنّ القرآن الكريم في هذه الآيات يقول بالوحدة والمساواة بين فئتي «المفلحين» و«المتّقين»، ويعتبرهما فئة واحدة، ثمّ يشرع ـ وفق أسلوبه المعهود الذي تقدّمت الإشارة إليه ـ في تعداد صفات هذه الفئة بغرض التعريف بها.

وقد استفاد القرآن الكريم من هذا الأسلوب في موارد مختلفة. ومن الأمثلة على هذه الموارد يمكن أن نشير إلى آيةٍ أخرى من سورة «البقرة» والتي تقدّم ذكرها سابقًا، حيث يقول تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[٢]؛ إذ يشير صدر الآية الكريمة إلى بعض السنن القوميّة والأعراف القَبَليّة، التي كانت مُتّبعة عند العرب في زمن الجاهليّة، والتي لا أصل لها ولا أساس. ولكنّ هذه الأعراف كانت تُعتبر عندهم من مصاديق «البرّ» والعمل الحسن؛ فقد كانوا ـ على سبيل المثال ـ يعتقدون بحرمة دخول البيوت من أبوابها في أيّام الحجّ،

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٥.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٧٧.



ولذلك كانوا يأتون بيوتهم من أعلى الجدران، وكانوا يُبدون أثناء عباداتهم اهتمامًا كبيرًا بلزوم أن يولّوا وجوههم إلى جهة محدّدة، وأمورٍ أخرى من هذا القبيل، لا أصل لها ولا واقعيّة. فيُفنّد القرآن الكريم مزاعمهم، ويعتبرُ أنّ القيام بمثل هذه الأفعال ليس دليلًا على البرّ والإحسان.

إنّه لمن الطبيعيّ أن يميل كلّ فرد من بني البشر نحو أن يكون إنسانًا جيّدًا، ومن أهل البرّ والإحسان، ولا تجد إنسانًا يقول: إنّه يحبّ أن يكون إنسانًا سيّئًا، حتّى أولئك الذين يرتكبون أسوأ الأعمال، تراهم يسعون على الدوام في سبيل إيجاد توجيه وتسويغ لأعمالهم.

وفي جميع الأحوال، فإنّ جميع البشر يحبّون أن يكونوا أُناسًا جيّدين وأخيارًا ولو بنحوٍ ظاهريّ فقط. وفي هذا الحدّ، لا تجدُ أيّ اختلاف بين إنسانٍ وآخرَ، ولكنّ الأمر الذي يكون منشأً للحيرة ومصدرًا للمتاعب في هذا المجال، هو الاختلاف الكبير في وجهات النظر حول تعيين مصاديق البرّ والعمل الحسن. ويقول القرآن الكريم ـ في هذه الآية ـ: إنّ العمل الحسن ليس في أن تولّوا وجوهكم إلى هذه الجهة أو تلك الجهة، بل إن كنتم تريدون العمل الحسن، وتريدون أن تصبحوا أناسًا جيّدين ومن أهل البرّ، فيجب أن تعلموا أنّ الإنسان الجيّد هو من يكون من أهل هذه الأعمال:

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ



بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[١].

وكما يُلاحَظ، إنّ القرآن الكريم ـ وبالاعتماد على ذلك الأسلوب الكلّيّ الذي أشرنا إليه في مستهلّ البحث ـ يعتمد على ذكر مجموعة من الأوصاف والأفعال، من أجل التعريف بالأخيار وأهل البرّ. ولو قارنّا بين هذه الأوصاف وتلك الواردة في الآيات الأولى من السورة «البقرة» في وصف المتّقين، لوجدنا جهاتِ اشتراكٍ عدّة بين الموردين. ولذلك نرى أنّ الله تبارك وتعالى في ذيل هذه الآية الكريمة، وبعد ذكر مجموعة الأوصاف والأفعال، يُعرّف عن هذه الفئة بعنوان «المتّقين»، حيث يقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[٢].

إلّا أنّه ثمّة بعض الاختلافات بين هذه الآية والآيات الأولى من سورة «البقرة» في توصيف المتّقين. وإنّ بعض هذه الاختلافات يرجع إلى الإجمال والتفصيل؛ ففي كلا الموردين، تناول القرآن بحث الإيمان بأصول الدِّين ـ أي: التوحيد والنبوّة والمعاد ـ، ولكن في الآية المئة والسابعة والسبعين ورد أيضًا بحث الإيمان بالملائكة. ومن الواضح أنّ ذكر الملائكة في هذه الآية يعود ـ في الواقع ـ إلى أنّهم يمثّلون الواسطة في الوحي، ولذلك يُعتبر الإيمان بهم من لوازم وتوابع الإيمان بالنبوّة. فمن الاختلافات الموجودة بين الموردين أنّ الإيمان بالنبوّة قد ورد في هذه الآية بنحوٍ أكثر تفصيلًا. وكذلك يوجد اختلاف في الإجمال والتفصيل بين الموردين يرتبط ببحث الزكاة والإنفاق؛ فإنّه وإن كان في كلا الموردين قد

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٧٧.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٧٧.



ذُكر الإنفاق وإيتاء الزكاة وصفًا من أوصاف المتّقين، إلّا أنّ هذا المطلب قد ورد مجملًا في الآيات الأولى من سورة «البقرة»، والحال أنّه في هذه الآية قد فُصّل بمقدار معيّن؛ فبالإضافة إلى طرح أصل الإنفاق، بيّن القرآن الكريم بعض موارده أيضًا.

فئة تحمل اسم «عباد الرحمن»

وعلى أيّة حال، فإنّ واحدًا من الأساليب القرآنيّة في بيان المطالب يعتمد على ذكر عنوان ما، ثمّ بيان مجموعة من الصفات والأفعال من أجل التعريف بهذا العنوان. وقد بحثنا حتّى الآن بالتفصيل في الدروس السابقة أحد هذه الموارد، وهو ما يرتبط بالآيات الأولى من سورة «المؤمنون». وضمن بحثنا في هذه الآيات تطرّقنا إلى بعض آيات سورة «المعارج»، وإلى الآيات الأولى من سورة «البقرة».

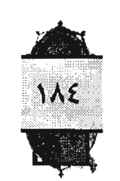
والآن، نحن بصدد البحث في مورد آخر من هذه الموارد ضمن مجموعة دروس، وهذا المورد يرتبط بالآيات الختاميّة من سورة «الفرقان»، وقد جاءت في مقام التعريف بعنوان: «عباد الرحمن».

يستهلّ القرآن الكريم حديثه في هذه الآيات بقول الله جلّ وعلا: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[١].

كان العنوان المحوريّ لبحثنا في الدروس السابقة «المفلحون»، وسيدور الحديث في آيات سورة «الفرقان» حول عنوان جديد وهو «عباد الرحمن». ولكن نرى من المناسب قبل شروع البحث في أوصاف

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٣.



«عباد الرحمن» الواردة في هذه الآيات، أن نتأمّل قليلًا في نفس هذا العنوان؛ «عباد الرحمن».

في موارد متعدّدة يأتي القرآن الكريم على ذكر البشر بعنوان «العباد». وهذه الكلمة:

تارةً: ترد وحدها مجرّدةً عن أيّة إضافة، نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾(١).

وأخرى: ترد مضافةً إلى كلمة أخرى، وهذا المضاف إليه ليس واحدًا في كلّ الموارد، بل يختلف من مورد إلى آخر، ويمكن أن نقف على نماذج كثيرة لهذه الإضافة في الآيات القرآنيّة، نذكر منها: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾(٢)، ﴿عِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾(٣)، ﴿عِبَادِى﴾(٤)، ﴿عِبَادِكَ﴾(٥)، ﴿عِبَادِهِۦ﴾(٦)، ﴿عِبَادِنَا﴾(٧).

ومن جهةٍ أخرى، يصف القرآن الله تبارك وتعالى أيضًا بوصف «المولى» أو «الوليّ» بالنسبة إلى عباده. وإنّ لفظي «المولى» و«الوليّ» يعودان إلى جذر لغويّ واحد، ويحملان نفس المعنى تقريبًا، وإن كان ثمّة اختلافٌ أدبيٌّ يسيرٌ بينهما، وليس المقام محلّ بحث هذا الاختلاف.

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٩٤.

(٢) سورة **الصافات**، الآية ٧٤، وموارد أخرى.

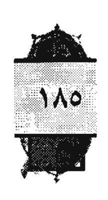
(٣) سورة **الزخرف**، الآية ١٩، وسورة **الفرقان**، الآية ٦٣.

(٤) سورة **البقرة**، الآية ١٨٦، وموارد أخرى.

(٥) سورة **النمل**، الآية ١٩، وموارد أخرى.

(٦) سورة **الأنعام**، الآية ١٨، وموارد أخرى.

(٧) سورة **يوسف**، الآية ٢٤، وموارد أخرى.

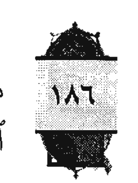


ولكن على أيّة حال، فبشكل عامّ، إنّ مجرّد قولنا «البشر عباد الله، والله مولاهم» ليس له في حدّ ذاته ثقل قيميّ خاصّ، بل هو نظير قولنا «البشر خلقُ الله والله خالقهم». ولكنّ بعض الموارد تكتسب ثقلًا قيميًّا خاصًّا، وتُلحظ فيها نُكتة معيّنة، وخاصّةً تلك الموارد التي تضاف فيها كلمة «عباد» إلى ياء المتكلّم، أو إلى وصف من أوصاف الله تعالى فيُقال ـ مثلًا ـ: ﴿عِبَادِى﴾ أو ﴿عِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾. وبملاحظة هذه النُّكتة الخاصّة، وبغرض تحقيق اللطافة المُبتغاة، نرى القرآن الكريم في مثل هذه الموارد يستعيض عن استعمال تعابير من قبيل «الناس» أو «بني آدم» وأمثالها، بذكر تعابير من قبيل ﴿عِبَادِى﴾ أو ﴿عِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾؛ فيقول في سورة «البقرة» ـ مثلًا ـ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِى وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾[1].

ففي الآية الكريمة لم يقل الله تعالى: « وَإِذا سَأَلَكَ النَّاسُ عَنِّي»، بل استعمل تعبير ﴿عِبَادِى﴾ لما فيه من لطافة وعاطفة وترغيب. فالله تعالى هنا ـ من خلال استعماله تعبير ﴿عِبَادِى﴾ ـ يُحادث البشر بكلام ملؤه المحبّة والرحمة، وكأنّه تعالى ـ ومن خلال نسبة العباد إليه ـ يلقي في أذهانهم حقيقة أنّهم عباده، وألّا ملجأ لهم سواه، كي يطلبوا حوائجهم، ويُفصحوا عن آلام قلوبهم. وفي تكملة الآية أيضًا ـ ومن خلال التأكيد على قربه تعالى الشديد من عباده ـ يُرغّبهم ويشجّعهم على أن يأملوا إجابته، وأن يرفعوا أيديَهم بالدعاء له، وأن يسألوا حاجاتهم على أعتابه.

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٨٦.



ويمكن أن نشاهد نموذجًا آخر لهذا الاستعمال في الآيات الأخيرة من سورة «الفجر» المباركة، حيث يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾[1].

إنّ من يصل إلى مقام «النّفس المطمئنّة»، هو بطبيعة الحال من عباد الله الخاصّين، والذين طوَوا أعلى مراتب العبوديّة، فلماذا إذًا يدعوه الله تعالى إلى الدخول في سلك عباد الله؟ أضف إلى ذلك أنّ جميع البشر بشكل طبيعيّ هم مخلوقات الله تعالى وعباده، شاؤوا أم أبَوا، فلا حاجة إلى إصدار أمر أو حكم يدعوهم إلى الدخول في عباد الله!

إنّ حلّ هذا الإشكال، يتوقّف على بيان أنّ لقوله تعالى: ﴿عِبَادِى﴾ معنىً آخر غير المعنى الأوّليّ المتداول لهذه الكلمة، وأنّ هذا المعنى الثانويّ قد لُحظت فيه نُكتة خاصّة.

نحوان من الاستعمال القرآني للكلمات

بشكلٍ عامّ، إنّ كثيرًا من الكلمات القرآنيّة قد ورد استعمالها في القرآن الكريم على نحوين اثنين:

النحو الأوّل: الاستعمال العامّ.

والنحو الثاني: الاستعمال الخاصّ.

إذ نجد في بعض الأحيان كلمات تكون بلحاظ معناها الأوّليّ واللغويّ عامّة، تشمل جميع البشر، ولكنّ القرآن الكريم، مع أنّه يستعملها

---

(١) سورة **الفجر**، الآيات ٢٧ إلى ٣٠.



في بعض الموارد بهذا المعنى العامّ، يريد منها في موارد أخرى معنىً خاصًّا يصدق على فئة معيّنة من البشر فقط، ويشمل مجموعة محدّدة منهم. فعلى سبيل المثال، كلمة «الولاية» في القرآن الكريم من جملة هذه الموارد؛ إذ تُستعمل تارةً بنحوٍ عامّ، وطورًا بنحوٍ خاصّ:

فمن جهةٍ أولى، ولاية الله تعالى ثابتة على جميع مخلوقاته، والله تعالى مولاهم ووليّهم وصاحب الاختيار، وليس لأيّ موجود في هذا العالم اختيارٌ من نفسه. ويمثّل يومُ القيامة أظهرَ تجلٍّ وبروزٍ لهذه الولاية، حيث يرى الجميع رأيَ العين أنّ صاحب الاختيار الوحيد هو الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[1].

ولكن من جهةٍ أخرى، نرى أنّ الولاية قد استُعملت في القرآن أحيانًا أخرى بمعناها الخاصّ، ووفقًا لهذا المعنى، يكون الله تعالى وليَّ المؤمنين فقط، ومولى أفراد خاصّين ومجموعات خاصّة من البشر. أمّا غيرهم فهم خارج دائرة الولاية الإلهيّة بهذا المعنى، وعوضًا عن ذلك يرضخون تحت ولاية الشيطان والطاغوت وأمثالهم؛ يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2].

ومن هذا الباب قولُ القرآن الكريم: إنّ المؤمنين لهم مولىً، وأمّا الكافرين فلا مولى لهم؛ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ

---

(١) سورة **الكهف**، الآية ٤٤.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٧.

عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ۝١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾[1].

فإذا ما لاحظنا الولاية بمعناها العامّ، نراها ثابتة لله تعالى على جميع البشر؛ إذ كلّهم عباده تعالى، ولكن بلحاظ الولاية بمعناها الخاصّ يقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾؛ فهذه الولاية التي لازمها عناية وتربية خاصّتان، ويتبعها نِعَمٌ خاصّة، مختصّةٌ بالمؤمنين، ولا حظّ للكافرين منها.

مثال آخر: يمكنُ أن نجد نظير هذه المسألة من خلال ملاحظة موارد استعمال كلمة «الهداية» في القرآن الكريم؛ إذ يستعملها القرآن بمعنيين، معنىً عامّ ومعنىً خاصّ. والمقصود من الهداية العامّة ما يُعرف اصطلاحًا بـــ«إراءة الطريق»، وهذه الهداية لا تختصّ بفرد أو جماعة معيّنة، بل يستفيد منها كلّ البّشر. وعلى أساس هذه الهداية العامّة، يُري الله تعالى كلّ البشر طريق السعادة، ويوصيهم بسلوكه، ويُظهر لهم في المقابل طريق الضلال والشقاء، ويحذّرهم من عبوره. يمكن الإشارة إلى جملة من الآيات نماذج على استعمال لفظ الهداية بهذا المعنى:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾[2].

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾[3].

---

(١) سورة **محمّد**، الآيتان ١٠ و١١.

(٢) سورة **فصّلت**، الآية ١٧.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ١٨٥.



﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[١].

ولكن في بعض الأحيان، قد يكون المراد من الهداية في القرآن هداية خاصّة يُعبّر عنها اصطلاحا بـ«الإيصال إلى المطلوب». وفي هذا النحو من الهداية، بالإضافة إلى إراءة الطريق، يأخذ الله تعالى بيد عبده ويوصله إلى المقصد بعناية ومدد خاصّين. ومن النماذج القرآنيّة على استعمال الهداية بالمعنى الخاصّ:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣].

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٤].

وفي جميع الأحوال، فإنّ ما نريد أن نصل إليه هو أنّ كلمة «العباد» الواردة في بحثنا الفعليّ لها أيضًا في الاستعمال القرآنيّ إطلاق عامّ وإطلاق خاصّ. فأحيانًا يُقصد من كلمة العباد عند إطلاقها كلّ عباد الله فتشمل البشر جميعًا، كقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[٦].

---

(١) سورة **الإنسان**، الآية ٣.

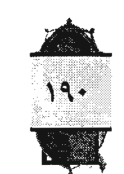
(٢) سورة **القصص**، الآية ٥٦.

(٣) سورة **المائدة**، الآية ٥١.

(٤) سورة **البقرة**، الآية ٢١٣.

(٥) سورة **الإسراء**، الآية ١٧.

(٦) سورة **آل عمران**، الآية ٢٠.



ولكن قد تستعمل كلمة «عباد» بمعنى خاصّ، فتشمل فئةً خاصّة من البشر، ومن الأمثلة على هذا الاستعمال الآية الكريمة التي أشرنا إليها من سورة «الفجر» المباركة: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾[1].

وبالعودة إلى محلّ بحثنا، نقول: إنّ تعبير «عباد الرحمن» الوارد في سورة «الفرقان» هو أيضًا من موارد استعمال كلمة «العباد» في معناها الخاصّ. فمن جهةٍ، يُعتبر جميع البشر عباد الله الرحمن، ولا اختلاف بينهم من هذه الحيثيّة، ولكن بقرينة الأوصاف التي أوردها القرآن الكريم في تكملة الآية الكريمة وفي الآيات التي تليها، يُعلم أنّ المراد هنا من عنوان «عباد الرحمن» ليس كلّ البشر، بل المراد معنى خاصّ من هذا التعبير.

أمّا لماذا وقع الاختيار من بين كلّ أسماء الله وصفاته على صفة الرحمانيّة؟ فلعلّ النُّكتة في ذلك أنّ الكلام يدور هنا حول العباد الذين تشملهم الرحمة الإلهيّة الخاصّة والذين يحوزون على لياقة إدراك الرحمة الخاصّة ونيلها. وعلى أيّة حال، فإنّ القدر المسلّم من سياق الكلام أنّ المقصود من «عباد الرحمن» في الآية الشريفة ليس جميع الخلائق والعباد، بل المقصود فئة خاصّة يأتي القرآن الكريم على ذكر أوصافها في تكملة كلامه.

وفي الحقيقة، إنّ إضافة لفظ «عباد» إلى صفة «الرحمن» قد تمّ بناءً على نُكتة وعناية خاصّتين، وهو ما يُعرف اصطلاحًا بـ«الإضافة التشريفيّة». والمُراد من الإضافة التشريفيّة، تلك الإضافة التي تُضفي على المضاف شرفًا وحُرمةً من المضاف إليه. ونشاهد في الآيات

---

(١) سورة **الفجر**، الآية ٢٩.



القرآنيّة موارد متعدّدة لمثل هذه الإضافة. فإطلاق اسم «بيت الله» على الكعبة المشرّفة ـ مثلًا ـ من هذا الباب أيضًا. فمن اللحاظ التكوينيّ كلّ الأماكن مخلوقة لله تعالى ومنسوبة إليه، ولكنّ تسمية القرآن الكريم لمكان خاصّ بـ«بيت الله» هي تسمية بلحاظ الشرف والعظمة والحرمة التي تحظى بها الكعبة المشرّفة. أو عندما يُعبّر الله تعالى في القرآن الكريم حول خلقة الإنسان ونفخ الروح فيه بتعبير: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾[1]، ويعتبر روح الإنسان من روحه تعالى، فهذه الإضافة هي أيضًا من الإضافة التشريفيّة، وإلّا فإنّ جميع المخلوقات قد أخذت وجودها من الله تعالى. وفي محلّ بحثنا أيضًا، حيث استعمل الله تعالى تعبير «عباد الرحمن» ونسب إلى نفسه فئةً خاصّة من البشر اعتبرها «عباده»، فهذا من أجل إضفاء رداء الشرف والفضيلة على هذه الفئة، وبيان مقامها وعظمتها.

العبوديّة التكوينيّة والعبوديّة الاختياريّة

كلمة «عباد» جمع «عبد»، ومعنى كلمة «عبد» مرادف تقريبًا للمملوك المطلق. في الأزمنة السابقة، كان رائجًا عند العرب ما يعرف في اصطلاحهم بمسألة «العبيد» و«الإماء»، فكان يُطلق على بعض الأشخاص لفظ «العبيد»، بلحاظ أنّهم كانوا مملوكين لغيرهم بنحوٍ مطلق، وليس لهم أيّ اختيار من أنفسهم، بل إنّ مالكيهم يتّخذون كلّ قرار يرتبط بهم، وينبغي على هذه الفئة أن تسلّم بما يقرّره المالكون.

أمّا عبوديّة البشر لله تعالى، فقد تُلحظ بلحاظين:

---

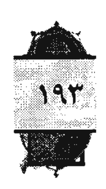
(١) سورة **الحجر**، الآية ٢٩.

اللحاظ الأوّل: الجَنَبَة التكوينيّة. وبهذا اللحاظ يكون الإنسان من حيث تكوينه ووجوده عبدًا ومملوكًا لله، شاء أم أبى، وكلّ وجوده منه تعالى، ولا يتسنّى لأيّ إنسان أو أيّ مخلوق أن يُغيّر في هذه الرابطة؛ لأنّها رابطة حقيقيّة تكوينيّة، لا وضعيّة اعتباريّة، حتى تقبل التغيير. وفي هذا المجال، يطرح بعض الأشخاص مجموعةً من مسائل المُعقّدة في الظاهر، والتساؤلات التي توهمُ بوجود تناقضٍ ما، فيتساءلون ـ مثلًا ـ: «هل يمكن لله أن يُخرج إنسانًا عن دائرة العبوديّة والمملوكية؟ فإذا كانت الإجابة «لا»، قالوا: هذا يعني أنّ في قدرة الله نقصًا، وإذا كانت الإجابة «نعم»، أشكلوا بقولهم: إذًا كيف تقولون: إنّ رابطة العبوديّة بين الإنسان والله تعالى رابطة تكوينيّة لا تقبل التغيير، وأنّ كلّ البشر بلحاظ تكوينهم هم عباد الله؟».

وطريق حلّ هذا التناقض الظاهريّ أن نقول: إنّه ـ في الأساس ـ من المُحال أن يُخلق إنسان لا يكون عبدًا ومُلكًا لله تعالى.

وبتعبيرٍ آخر: قدرة الله تعالى إنّما تتعلّق بالأمور التي تمتلك لذاتها إمكان ارتداء حلّة الوجود، والأمر المُحال ليس له لذاته قابليّة الوجود والتحقّق.

وبتعبيرٍ فلسفيّ: في مثل هذه الموارد، لا يكون القصور في فاعليّة الفاعل، إنّما النقص في قابليّة القابل؛ فكلّ إنسان يُمكن افتراض كونه موجودًا، سوف يكون وجوده بالضرورة عين عبوديّته ومملوكيّته، ولا يمكن أن يُتصوّر له أيّ طريق للوجود غير هذا الطريق. ومن هنا، فإنّ تحقّق إنسان من دون أن يكون مُلكًا لله، أمر مُحال وغير ممكن. وقدرة الله تعالى لا تتعلّق بالمُحال.



وفي جميع الأحوال، فإنّ الوجهة الأولى واللحاظ الأوّل لعبوديّة الإنسان هو «اللحاظ التكوينيّ». فالإنسان تكوينًا كلّ وجوده من الله تعالى، وليس له أيّ شيء من نفسه بكلّ ما للكلمة من معنًى، بل إنّ كلّ ما لديه قد منحه الله تبارك وتعالى إيّاه، وكلّ وجود الإنسان مُلك لله، وهذه الملكيّة والعبوديّة لا تقبل الانفصال ولا السلب بأيّ شكل من الأشكال، وإذا أراد أيّ موجود أن يخرج عن دائرة ملكيّة الله تعالى فطريقه الوحيد هو العدم.

واللحاظ الثاني: الجَنَبَة الاختياريّة. فعندما يُقال: إنّ الإنسان عبد الله، يكون المراد أنّه قد اختار مسبقًا بإرادةٍ واختيارٍ، طريق العبوديّة والتزم بلوازم اختياره هذا. وعلامة هذه العبوديّة أن يُظهرها في أفعاله الخارجيّة، وأن يوصل عبوديّته إلى مرحلة الإثبات والفعليّة.

في هذا المعنى الخاصّ من العبوديّة لا يكون جميع البشر على حدّ سواء، بل قد تختلف أحوالهم وأوضاعهم اختلافًا شاسعًا، بخلاف العبوديّة التكوينيّة التي هم فيها على حدّ سواء. وفي هذا المقام، يقتصر وصف عبوديّة الله على فئة خاصّة من البشر، وهم الذين يُسلّمون لأحكامه وأوامره تعالى، أمّا الباقون فيختارون غير الله تعالى، ويُقيّدون أنفسهم بطوق عبوديّة الشيطان وهوى النفس وأمثال هذه الأمور. وإنّ القرآن الكريم نفسه قد استعمل هذا التعبير، وصرّح أنّ عدّةً من البشر قد اشتغلوا في طاعة الشيطان وأصبحوا عباده: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[1].

---

(١) سورة **يس**، الآيتان ٦٠ و٦١.



إنّ أمام الإنسان في حياته الاختياريّة طريقين اثنين:

الأوّل: أن يعترف بمملوكيّته في مقابل الله تعالى، وأن يلتزم بلوازمها، ويسلّم بها، ويلاحظ في كلّ عمل يريد القيام به ما إذا كان مولاه راضيًا ومجيزًا له أم لا.

والآخـر: طريق الطغيان الـذي يقوده إبليس. فمن بين جميع المخلوقات التي نعرفها، والتي عرّفتنا عليها آيات القرآن الكريم والروايات الشريفة، أوّل من بنى بنيان الطغيان كان إبليس اللعين؛ يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[1].

وإنّ الآيات القرآن الكريم تشير إلى أنّ من يخالف طريق الله تعالى يكون تابعًا للشيطان؛ ﴿وإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾[2].

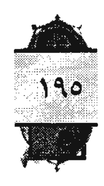
أمّا كيفيّة تصرّف الشيطان بالإنسان وخداعه عبر وساوسه، وكيفيّة اتّباع الإنسان له، وأمثال هذه مسائل، فهي مطالب ينبغي بحثها في محلّها. ولكن في جميع الأحـوال، فإنّ آيات القرآن تحكي في بعض الموارد أنّ الإنسان إذا خالف أمر الله تعالى، ولم يكن عبدًا له، فهو عبد للشيطان لا مَحالة، وتحت سلطته وسلطانه: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾[3]، وفي موارد أخرى، تفيد تعابير القرآن الكريم، أنّ هؤلاء

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٣٤.

(٢) سورة **محمّد**، الآية ٢٥.

(٣) سورة **المجادلة**، الآية ١٩.



الأشخاص ـ في الواقع ـ عبيد هوى النفس، وأنّهم اتّخذوا هوى النفس إلهًا ومعبودًا لهم: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[١].

الشيطان غير هوى النفس

وقد حاول بعضٌ أن يستنتج من خلال المقارنة بين هاتين المجموعتين من الآيات الكريمة، أنّ الشيطان ـ في الواقع ـ ليس إلّا هوى النفس، ولكنّ هذا الرأي ـ بالطبع ـ غير قابل للقبول، بل إنّ حقيقة المسألة أنّ الشيطان وهوى النفس أمران مختلفان، وأنّ الشيطان عن طريق الوسوسة يوظّف ويستخدم هوى النفس في تحقيق أهدافه. ودليل هذا المدّعى:

أوّلًا: أنّه وفقًا لآيات القرآن الكريم، الشيطان من الجنّ لا من البشر؛ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[٢].

وثانيًا: أنّه وفقًا للروايات الشريفة، كان إبليس قد خُلق قبل ستّة آلاف سنة بالحدّ الأدنى قبل خلق آدم عليه السلام، ولا علاقة له بالنفس الإنسانيّة ولا بهوى النفس؛ يقول أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الصّدد: «وَكانَ قَدْ عَبَدَ اللهَ سِتَّةَ آلافِ سَنَةٍ، لا يُدْرى أَمِنْ سِنِيِّ الدُّنْيا أَمْ مِنْ سِنِيِّ الآخِرَة»[٣].

إلّا أن يُقال: إنّ للشيطان معنى عامًّا لا يراد منه خصوص إبليس، بل كلّ موجود يلوّث الإنسان، ففي هذه الصورة، يشمل مفهوم «الشيطان» هوى النفس أيضًا. وعلى أيّة حال، فإذا تجاوزنا هذه الأبحاث، نقول: إنّ

---

(١) سورة **الجاثية**، الآية ٢٣.

(٢) سورة **الكهف**، الآية ٥٠.

(٣) الشريف الرضي، **نهج البلاغة**، الخطبة ٢٣٤.

القرآن الكريم قد عبّر إجمالًا في آياته عن البشر الذين يعبدون غير الله تعالى أنّهم عبدوا الشيطان أو هوى النفس دون الله تعالى. ومن جملة هذه الآيات ما ورد أيضًا في سورة «الفرقان» المباركة، حيث يقول الله تعالى في بعض آيات هذه السورة: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1]؛ فالله تبارك وتعالى يقول ـ في هذه الآية ـ: إنّ أولئك الذين عبدوا أهواء أنفسهم واتّبعوها، قد تظّنهم يمتلكون إدراك الإنسان وعقله، إلّا أنهم ـ في الحقيقة ـ يفتقرون إلى الفهم والإدراك الإنسانيّ، وهم ـ في الواقع ـ كالأنعام، بل أسفل وأحطّ من الأنعام.

ويقول تبارك وتعالى في سورة «الجاثية»: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2]؛ فأولئك الذين اتّخذوا هوى النفس معبودًا لهم، يُسدِلُ الله تعالى على أسماعهم وأبصارهم حُجُبًا تحول دون رؤيتهم للحقيقة وسماعهم للكلام الحقّ؛ إذ إنّهم غرقوا في شهواتهم وأهوائهم النفسيّة حتّى باتوا كالأنعام، لا يفقهون شيئًا سوى الأكل والنوم وإرضاء الشهوات؛ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾[3]، بل أكثر من ذلك، هم أسفل وأحطّ من الحيوانات؛ ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[4]. ولا ينبغي لأحدٍ أن يتوهّم أنّ سبب تسافلهم وانحطاطهم هو جهلهم

---

(١) سورة **الفرقان**، الآيتان ٤٣ و٤٤.
(٢) سورة **الجاثية**، الآية ٢٣.
(٣) سورة **الفرقان**، الآية ٤٤.
(٤) سورة **الفرقان**، الآية ٤٤.



وافتقارهم إلى العلم والتحصيل، بل إنّهم وصلوا إلى مثل هذه الحالة الوخيمة على الرغم من علمهم ومعرفتهم؛ ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[1].

إمّا عبوديّة الله وإمّا عبوديّة الشيطان

وفي جميع الأحوال، فإنّ الإنسان في مسير حياته إمّا أن يكون عبدًا لله، وإمّا أن يكون عبدًا لهوى النفس والشيطان، وليس أمامه طريق ثالث. وإنّ الذين يعتقدون أنّهم أحرار من كلّ قيود العبوديّة، وأنّهم غير منقادين لأيّ أحد، وأنّهم يتّخذون قراراتهم ويخطّطون لحياتهم بأنفسهم، قد سلكوا في الحقيقة طريق الباطل، وهم ليسوا سوى عبيد هوى النفس، الذين جعلوا من أهوائهم معبودًا لهم، وهذه الأهواء هي التي تُخطّط مسير حياتهم، وتُلقي بهم في حفر الضلال. فعندما يقول أحدهم «أنا»، فهذه الـ«أنا» ـ في الواقع ـ هي هوى النفس، والشيطان الذي أمسك بزمامه وأحكم قبضته عليه. وهذا البائس يُخيّل إليه أنّه بنفسه من يختار ويتصرّف. وإنّ هؤلاء الأفراد قد كبّلتهم قيود شهواتهم، وباتت الشهوات الشيطانيّة والأهواء النفسانيّة صاحبة اختيارهم، تسوقهم حيث تريد. ويتوهّم هؤلاء أنّهم أُناس أحرار من كلّ قيد ووثاق، وأنّهم غير محكومين لأيّ أحد، والحال أنّ الحريّة الواقعيّة لا يمكن أن تُنال إلّا في ظلّ العبوديّة. وإنّ توضيح هذه المسألة يحتاج إلى بحث عميق ومبسوط، وليس هنا محلّ طرحه.

إجمالًا، يقول القرآن الكريم: إنّ الإنسان أمام خيارين، إمّا أن يكون عبدًا لله أو أن يكون عبدًا للشيطان. وهو في مسيره يواجه طريقين؛ فإمّا أن يسلك صراط طاعة الله وعبادته، ويُنظّم برنامج حياته العمليّ ويجري

---

(١) سورة **الجاثية**، الآية ٢٣.

وفق ما يُطابق الأحكام الإلهيّة، وإمّا أن يخرج عن طاعة الله ويسلك سُبُل التمرّد والطغيان. وبالطبع، إنّ الشخص الذي لا يولي أيّ اهتمام في حياته بالله تعالى والأحكام الإلهيّة، من الممكن في بعض الأحيان ـ ومن باب الصدفة ـ أن تتطابق رغباته مع إرادة الله تعالى في مكان ما، ولكنّ هذا التلاقي لا يعدو كونه مُصادفةً، لا أنّ إرادته ورغبته هذه قد تولّدت بسبب الأمر الإلهيّ. إنّ مُفاد العبوديّة لله تعالى أن يقوم الإنسان بأعماله لأنّ الله يريدها، لا لأنّ قلبه يرغب بها.

وبالطبع، إنّ مسألة أن يجعل الإنسان لنفسه معبودًا سواء أكان الله تعالى أو غيره، تختلف وتتفاوت من حيث كونُها حركةً واعيةً أو شبهَ واعيةٍ، وهي ذات مراتب متعدّدة؛ فأمّا نحن المسلمين والمعتقدين بالله تعالى، فيمكن تصوير الحالة على الشكل التالي:

إنّنا عندما نؤدّي صلاتنا ـ مثلًا ـ يرتسم في أذهاننا بصورة واعية تصوّرًا حول أنّنا نعبد موجودًا في منتهى الكمال والشرف، وأنّ كلّ وجودنا منه، ونحن ـ في المقابل ـ نـؤدّي نهاية الاحترام والخضوع له. وفي الأساس، لو لم يكن هذا الاعتقاد موجودًا لما تحقّقت العبادة.

وأمّا عبادة الشيطان وهوى النفس، فليست دائما على هذا المنوال، بحيث إنّ الإنسان يقول: «إنّ الشيطان موجود في منتهى الكمال والشرف، وهو معبودي، ولذلك ينبغي عليّ ـ في المقابل ـ أن أؤديَ له الخضوع والاحترام». بل إنّ الإنسان في كثيرٍ من هذه الموارد، يؤدّي عبادته للشيطان بنحو نصف واعٍ، ولا يلتفت إلى أنّه ـ في الواقع ـ يحني رأسه للشيطان، ويؤدّي له أشكال العبادة والخضوع، وخاصّة أنّ الإنسان في مثل هذه الموارد لا ينسب إلى الشيطان قداسة أو احترام، ثمّ يعبده ويخضع له بسبب هذه القداسة، بل إنّ المذنبين ـ بل المنافقين ـ عندما



يرتكبون المعاصي لا يقولون: إنّهم يقومون بهذه الأعمال لأنّ إبليس أمر بها، ولا يعقدون في قلوبهم نيّة «قربة إلى إبليس». ومع ذلك، نرى القرآن الكريم ينعتهم بعبدة الشيطان وهوى النفس، ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ هذا التعبير القرآنيّ لا يعني أنّ هؤلاء الأشخاص يؤدّون عبادتهم للنفس والشيطان بصورة واعية، كما نؤدّي نحن عبادتنا لله.

ولكن، تجدر الإشارة إلى أنّ بعض الأشخاص الذين يُطلق عليهم اسم «عبدة الشيطان»، يعبدون الشيطان واقعًا، ويُقرّون له بالتعظيم والاحترام، إلّا أنّنا لو تجاوزنا هذه الفئة القليلة، نرى أنّ بقية الأشخاص الذين يعتبرهم القرآن عبادًا للشيطان أو هوى النفس، ليسوا من الذين يؤدّون الاحترام للشيطان، أو يرتكبون المعاصي بدافع إظهار الخضوع له، بل ـ باعتقادهم ـ إنّ هذه الأعمال هي رغباتهم الشخصيّة، وهم يُقدمون عليها لأنّ قلوبهم تريدها، وهم غافلون عن أنّهم ـ في الواقع ـ قد باتوا تحت سيطرة الشيطان، وأنّ الشيطان هو من يدفعهم نحو هذه الأعمال. وعلى أيّة حال، فإنّ هذا المقدار من الخضوع وفق الاصطلاح القرآنيّ وإن كان نصف واعٍ، فإنّه كافٍ في اعتباره مصداقًا من مصاديق العبادة، واعتبارِ هؤلاء الأشخاص من مصافّ عباد الشيطان وهوى النفس، ومن الزمرة التي يقول في حقّها القرآن: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1].

فتحصّل من البحث في هذا الدرس أنّ العبوديّة التكوينيّة هي أمر مرتبط بجميع المخلوقات، ولا تختصّ بفئة معيّنة من البشر، ولكن ليس المقصود من قوله تعالى «عباد الرحمن» هذا النوع من العبوديّة. بل إنّ «عباد الرحمن» هم أشخاص توجّهوا بملء إرادتهم نحو عبادة الله تعالى،

---

(١) سورة الجاثية، الآية ٢٣.

وعوضًا عن الوقوع في أسر النفس والدخول في زمرة ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[١]، اتّخذوا الله جلّ وعلا معبودًا لهم وأحنَوا رؤوسهم تسليمًا لأمره.

وفي المقابل، فإنّ مولويّة الله تعالى للبشر وسائر المخلوقات هي أيضًا على نحوين: مولويّة تكوينيّة، ومولويّة تشريعيّة؛ فبلحاظ التكوين وأصل الوجود، الله مولى جميع الموجودات والبشر وهو صاحب اختيارها. أمّا مولويّة الله الخاصّة، فهي لا تصدُق إلّا في حقّ الأشخاص الذي قبلوا مولويّته عن إرادة واختيار، وامتثلوا لأحكامه ونظّموا مسير حياتهم على أساس الأمر والنهي الإلهيّين. ومن هنا، فإنّ الكافرين الذي نهضوا في مخالفة الأحكام الإلهيّة، ليست لهم أيّة استفادة من هذه المولويّة التشريعيّة، وبتعبير القرآن الكريم: ﴿أَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[٢].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من «عباد الرحمن»، وأن يرزقنا توفيق العبوديّة والعمل بالأحكام الإلهيّة.

---

(١) سورة **الجاثية**، الآية ٢٣.

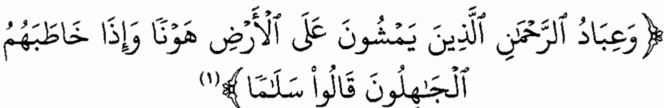
(٢) سورة **محمّد**، الآية ١١.



الدرس التاسع:

عباد الرحمن، أهل التواضع والحلم (١)




﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[1]

وصفان لعباد الرحمن: التواضع، والتعامل الرزين مع الجاهلين

كما بيّنا في الدرس السابق، إنّ أحد أساليب بيان المطالب في القرآن الكريم يقوم على ذكر عنوان خاصّ، ثمّ استعراض مجموعة صفات ممدوحة ومطلوبة في مقام التعريف بهذا العنوان. وقد أشرنا في الدروس السابقة إلى عدّة نماذج لهذا الأسلوب. وأحد هذه النماذج ما جاء في الآيات الأولى من سورة «المؤمنون»، حيث ذُكرت مجموعة صفات في توصيف «المؤمنين المفلحين». ومن النماذج أيضًا، ما ورد في الآيات الأولى من سورة «البقرة» من توضيح لعنوان «المتّقين» في قالب من الأوصاف، وفي ذيل هذه الآيات أيضًا عُبّر عن «المتّقين» بعنوان «المفلحين»، بوصفه موائمةً بين هذين العنوانين.

وقد شرعنا في الدرس السابق في بحث نموذج آخر لهذا الأسلوب القرآنيّ، وهو ما جاء في بعض آيات سورة «الفرقان»، في مقام التعريف

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٣.

بعنوان: «عباد الرحمن». وتطرّقنا إلى البحث بمقدار معيّن في نفس عنوان: «عباد الرحمن»، وطرحنا مجموعة من المطالب في هذا السياق.

فلنتوجّه ـ تكملةً لحديثنا ـ إلى البحث في الصفات التي ذكرتها *الآيات الكريمة في توصيفها لفئة «عباد الرحمن».* **في مُستهلّ هذه الآيات** تستعرض الآية الأولى صفتين من صفات هذه الفئة من الناس، فتقول: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[1].

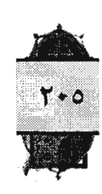
فوفق ما تفيده هذه الآية، إنّ أحد أوصاف «عباد الرحمن» أنّهم يمشون على الأرض بهدوء وأناة وتواضع بلا أيّ تكلّف أو تكبّر. والوصف الآخر لهؤلاء الناس أنّهم يتعاملون برزانة وهدوء ورحابة صدر، ومن دون أيّة حدّة وفظاظة، في مقابل الجاهلين الذين يُقدمون أحيانًا ـ لغرض أو من دون غرض ـ على مواجهتهم بالغلظة والقسوة، ويعمدون إلى تحقيرهم والاستهزاء بهم، وإلصاق شتّى التهم بحقّهم. وبحسب الظاهر، ليس المُراد في الآية الكريمة من قوله تعالى ﴿سَلَٰمٗا﴾ خصوص لفظ «سلام»، بل المُراد الكلام الهادئ والبعيد عن الحدّة، الذي يُواجه به «عبادُ الرحمن» الجاهلين وحدّتَهم وحُمقَهم.

فلسفة تقديم الوصفين

وعلى أيّة حال، فإنّ أوّل سؤال من الممكن أن يخطر في الأذهان هنا هو: «أيّة خصوصيّة موجودة في هذين الوصفين جعلتهما يتصدّران أوصاف «عباد الرحمن» ويُذكران قبل سائر الصفات الأخرى؟ وأيّة أهمّيّة خاصّة

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٣.

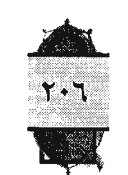


يحوزها وصفا «المشي بتواضع وهـدوء ومن دون تكبّر ولا تكلّف» و«التعامل بتواضع مع الجميع حتّى الجاهلين وسيّئي الأدب»، حتّى يقعا مورد تأكيد الله عزّ وجلّ في بداية التعريف بعباد الرحمن؟».

وفي الجهة المُقابلة، قد يُطرح هذا السؤال أيضًا: «إنّ عبادَ الرحمن هم بالطبع أولئك المفلحون الذين تقدّم الحديث عنهم، وبالالتفات إلى الموارد الأخرى التي عرّفت المفلحين، نرى أنّ القرآن الكريم قد اعتمد فيها بشكل أساسيّ على أبحاث الصلاة والإيمان والعبادة، فلماذا في هذا المورد تغيّر المسار القرآنيّ المعتاد وجاء البيان بنحوٍ مغايرٍ لسائر الموارد؟ فلماذا لم يستهلّ القرآن بيانه في هذا المورد كما استهلّه في سورة «البقرة» و«المؤمنون» و«المعارج»، ولم يبتدأ بتعريف «عباد الرحمن» بإيمانهم بالغيب ولا بمحافظتهم على الصلاة ولا بتأديتها بخشوع؟».

وقبل الإجابة عن هذا التساؤل، من اللازم التنبيه إلى أنّ الإجابة على عن مثل هذه الأسئلة ليست من الأمور التي يتسنّى لأمثالي أن يُقدّموا بيانًا حتميًّا وقطعيًّا حولها؛ فإنّ أمثالي أدنى وأصغر من أن يقدروا على فهم الحكمة الحقيقيّة والسبب الواقعيّ الذي أوجب أن يُلقي الله تعالى مطلبًا ما بصورة خاصّة. وإنّ أقصى ما تصل إليه أيدينا في مثل هذه الموارد، هو أن نتمكّن من تقديم بيانٍ على صورة احتمال، بالاعتماد على بعض القرائن الظنّيّة، أمّا الإجابة القطعيّة والعلم اليقينيّ الذي يورث كمال الاطمئنان، فهو عند الله تعالى وأوليائه الذين أوتوا علمًا إلهيًّا.

وبالالتفات إلى التنبيه المذكور، يمكن أن نقول ـ في مقام الإجابة عن السؤال المتقدّم ـ: أنّ العنوان الذي تختصّ هذه الآيات بتوصيفه والتعريف به يختلف عن العناوين المطروحة والمبحوث عنها في سائر



الموارد؛ فالعناوين التي وقعت مورد التوصيف في سُوَر «المؤمنون»، و«البقرة»، و«المعارج»، وغيرها، هي عناوين من قبيل: «المتّقين»، و«المفلحين»، و«المؤمنين» و«المصلّين». أمّا موردنا هذا، فالعنوان المطروح هو «عباد الرحمن». ومن هنا، كان من المناسب أن يؤتى بالأوصاف الأكثر انسجامًا وتناسبًا مع مقام العبوديّة. وإنّ أكثر ما ينسجم مع العبوديّة هو التواضع وعدم رؤية الذات وعدم حساب أيّ حساب لها في مقابل مولاها؛ لأنّ معنى «العبد» ـ في الأصل ـ من لا ملكيّةَ له ولا اختيار من نفسه، والعاجز عن القيام بأيّ فعلٍ وحدَه: ﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾[1].

فالتواضع ـ إذًا ـ أكثر الأوصاف تناسبًا مع العبوديّة، والتكبّر وتعظيم الذات أكثر ما يُعارضها. وإنّ من أبرز الصفات الرذيلة التي توجب سقوط كثيرٍ من النّاس، وتؤدّي إلى طردهم من محضر الربوبيّة هي صفة التكبّر هذه. وإنّ إبليس اللعين الذي يُعتبر زعيم المطرودين من مقام الرحمة الإلهيّة، قد وصل إلى مثل هذا الشقاء على أثر صفة التكبّر وتعظيم الذات؛ يقولُ الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2].

وبناءً عليه، فلأنّ المقام في هذه الآيات الشريفة مقام البحث في أوصاف «عباد الرحمن»، فلعلّ الحكمة من تقديم طرح صفة المشي بأناةٍ وهَوْنٍ ومن دون تكبّر، على سائر الصفات، هي اقتضاء «العبوديّة» للتواضع والاستكانة.

---

(١) سورة **النحل**، الآية ٧٥.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٣٤.



وقد صرّح بعض أهل التفسير أنّ تعبير ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ هو تعبير كنائيّ، وأنّ المراد الأصليّ منه أنّ «عباد الرحمن» هم أشخاص يعيشون حياةً متواضعةً في جميع شؤونها. **بعبارةٍ أخرى:** إنّ في هذه الجملة جنبةً رمزيّةً، وهي كناية عن طريقة عيشهم وسير حياتهم المتميّز بالتواضع، وإلّا فلا خصوصيّة في البين لصِرف «المشي هَوْنًا». **بعبارةٍ ثالثة:** يمكن القول: إنّ سبب ذكر هذه الجملة هو أنّ من الصفات البارزة في الأشخاص المتكبّرين، والتي تظهر بمرأى عموم النّاس هي أنّهم يمشون بطريقة ملؤها التبختر والخُيَلاء، فترى المتكبّر نافخًا صدرَه، شادًّا قامتَه، رافعًا أكتافَه، وبتعبير القرآن الكريم: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾؛ يقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1].

وإنّنا عندما نُشاهد في الشوارع والأزقّة إنسانًا يمشي بمثل هذه الطريقة، نحكم مباشرةً أنّ هذا الشخص في جميع ميادين حياته مغرور ومتكبّر. فيكون مشيُه بتبختر وتكبّر علامةً لشخصيّته الكلّيّة، وإشارةً إلى أنّه إنسان متكبّر في الأساس. وفي المقابل، إنّ الإنسان الذي يمتلك شخصيّة متواضعة، والذي يكون التواضع أسلوب حياته الكلّيّ، تنعكس هذه المسألة في طريقة مشيه وتُشاهَد أمام الملأ. ومن هنا، فإنّ المشي بهَوْن وأناة وتواضع هو في الحقيقة علامة ورمز لشخصيّة الفرد الكلّيّة، وحكاية عن أنّه إنسان متواضع.

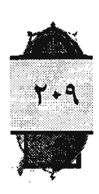
---

(١) سورة **الحج**، الآيتان ٨ و٩.

ومن الأبحاث المهمّة والجديرة بالطرح هنا بمناسبة تفسير هذه الآية الكريمة، أنّه: «في الأصل لماذا ثمّة قيمة أخلاقيّة لمثل هذه الأفعال؟ إنّنا نقرأ في الكتب الأخلاقيّة أنّ صفات من قبيل الصدق والأمانة والتواضع هي من الفضائل الإنسانيّة والصفات الحسنة والحميدة. وفي المقابل، يُعتبر الكذب وخيانة الأمانة والتكبّر من الرذائل الإنسانيّة والصفات القبيحة والذميمة. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما هو أصل ومبدأ هذه الفضيلة والرذيلة؟ **بعبارةٍ أخرى**: ما هو المِلاك في تحديد «القيمة» و«ضدّ القيمة»؟».

في كثيرٍ من الكتب الأخلاقيّة، عندما يدور الكلام حول تحليل علّة كون التواضع ـ مثلًا ـ حسنًا وممدوحًا، يُقال: إنّ العلّة في ذلك أنّ الإنسان المتواضع يكون محبوبًا في مجتمعه، وأنّ أفراد المجتمع يكنّون له حبًّا وودًّا، فيحترمونه ويلتفتون إليه إذا ما احتاجهم في أمر. وعلى العكس، فإنّ المتكبّر لا يحبّه أحد في مجتمعه، ويتجنّب الناس معاشرته والتعامل معه، ويفرّ الجميع منه.

إنّ روح هذا التحليل تقوم على أنّ مِلاك «القيمة» و«ضدّ القيمة» هو استحسان الناس وعدم استحسانهم. وعلى هذا الأساس، يغدو الحَسن ما أعجب الناس ونال استحسان أفراد المجتمع فمدحوه ومجدّوه، والقبيح ما لم يعجب الناس ولم ينل استحسانهم. ووفق هذا المبنى، يصبح التواضع «قيمةً» من جهة حبّ الناس له، والتكبّر «ضدّ القيمة» من جهة كراهة الناس له. وعليه، فإن كنت تريد نيل حبّ الآخرين واحترامهم فعليك بالتواضع، وإذا تكبّرت فلن تنال حبّ الآخرين، وستبقى منزويًا.



ويُعبّر المناطقة اصطلاحًا عن مثل هذه القضايا بـ«الآراء المحمودة»، ويعتبرونها في بحث «القياس» نوعًا من أنـواع القضايا التي يمكن الاستفادة منها في صناعة «الجدل» و«الخطابة». وإطلاق اصطلاح «الآراء المحمودة» على هذه القضايا بمعنى أنّها مسائل ممدوحة ومُستحسنة عند العقلاء. وتقع في مقابلها «الآراء المذمومة»، وهي المسائل المذمومة المُستقبحة عند العقلاء. فيُقال ـ مثلًا ـ: إنّ الصدق حسن لاستحسان العقلاء له واعتبارهم إيّاه حسنًا، بينما الكذب قبيح لاستقباح العقلاء له ومذموميّته عندهم. وإنّ هذا التحليل والمبنى له واقعيّة إلى حدّ ما، وإنّ بعض المسائل التي نعتبرها حسنة أو قبيحة ليس لها أيّ أساس سوى كونها ممدوحةً أو مذمومةً عند العقلاء.

وبناءً عليه، فإنّ المبنى المذكور ليس مجرّد ثقافة عرفيّة عامّة، بل إنّ له اعتبارًا أيضًا عند علماء المنطق، ويقع موردًا للاستفادة في بعض أنواع القياس عندهم. وإنّ هذا التحليل للحُسن والقُبح يلقى في هذه الأيّام رواجًا كبيرًا في مختلف المجتمعات، وله كثيرٌ من المؤيّدين بين أصحاب النظريّات الأخلاقيّة، ويُعبَّر عن هذا المبنى في اصطلاح «فلسفة الأخلاق» بتعبير: «ارتكاز القيمة على ما يريده الناس»؛ فليس للحُسن والقُبح أيّ مبنىً غير هذا. وعلى هذا الأساس، فلو فرضنا ـ مثلًا ـ أنّ الناس والعقلاء قد حسّنوا الكذب والتكبّر، وقبّحوا الصدق والتواضع، فحينئذٍ يغدو التكبّر والكذب حسنًا، والتواضع والصدق قبيحًا.

فينبغي أن ننظر إلى أيّ حدّ تنسجم هذه النظريّة مع وجهة النظر الإسلاميّة والنظام القيميّ في الإسلام. فلو صحّت هذه النظريّة، لكان

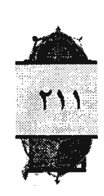
عندئذٍ منشأ قول القرآن الكريم: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[1] أنّ النّاس يحبّون هذا الفعل ويُعجبون به.

ولكن، هل ـ حقًّا ـ تكمن روح انتساب الإنسان إلى «عباد الرحمن» وحقيقته، في أن يكون باحثًا عن جلب إعجاب الآخرين والقيام بالأفعال التي تنال رضاهم؟ هل مثل هذا الشخص من «عباد الرحمن» واقعًا، أم من الأجدر اعتباره في زمرة «عباد الناس»؟ فلو كان البناء ألّا يكون سعيُ الإنسان إلّا في أداء العمل الذي يُعجب الناس، وينال مدحهم وتمجيدهم، ويحوز على إكرامهم وتحسينهم، ففي هذه الصورة، أليس من الأحرى تسمية هذا العمل بـ«عبادة الناس» عوضًا عن «عبادة الرحمن»؟ هل ـ حقًّا ـ تكون هذه عبادة لله أو عبادة للناس؟ أليس من العجيب أن نقول: إنّ القرآن الكريم يُعرّف «عباد الرحمن» بأنّهم الأشخاص الذين يؤدّون الأعمال التي يحبّها الناس؟!

في الحقيقة، إنّ تحديد «الحُسن» و«القُبح» و«القيمة» و«ضدّ القيمة» في النظام القيميّ في الإسلام، ليس تابعًا لاستحسان الناس ورغباتهم، بل إنّ تحديد الحُسن والقبح وتشخيص القيمة وضدّ القيمة، يتمّ في النظام الإسلاميّ من خلال ملاحظة تأثير الأفعال في سعادة الإنسان وشقائه الحقيقيّين. وإنّ مِلاك سعادة الإنسان من وجهة نظر الإسلام هو قربه من الله تعالى. ومن هنا، فإنّ الشيء يكتسب حُسنه وقيمته من تأثيره الإيجابيّ في قرب الإنسان من الله، وإنّ كلّ شيء يُبعد الإنسان عن الله يُعتبر قبيحًا ومنافيًا للقيمة.

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٣.



ولكنّ الله تعالى، بحكم فضله وكرمه وعنايته، ولأنّه يريد إلى حدّ الإمكان، أن يهتديَ جميع البشر إلى الصراط المستقيم، يستفيد في بعض الأحيان من المنطق العرفيّ، كالجدل والخطابة، من أجل حثّ الناس على تأدية الأعمال الحسنة وسلوك طريق السعادة؛ فعندما يُخاطب القرآن الكريم «أولي الألباب» أي: أصحاب العقول، فإنّه حينئذٍ يتحدّث بلسان «البرهان»، بينما عندما يتوجّه بالخطاب إلى عموم الناس الذين يتمتّعون بمرتبة متوسّطة من القوّة العقليّة، يتحدّث بلسان آخر يكون أكثر جاذبيّة لهم، لأنّهم ـ في النهاية ـ بشر، ولا بدّ لهم من سلوك طريق النجاة. ويمكن التمثيل حول هذا الموضوع بمسألة الجهاد في سبيل الله؛ فإنّ القرآن الكريم من أجل حثّ المسلمين وترغيبهم على الحضور في المعارك والجبهات، يطرح أحيانًا موضوع الثواب الأخرويّ، فيقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[1].

وفي بعض الأحيان، يُذكّر الناس بالنتائج والآثار الدنيويّة المعنويّة، لا المادّيّة، للحضور في ساحات المعركة، كانتصار الحقّ على الباطل، فيقول لهم: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾[2].

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ١١١.

(٢) سورة **التوبة**، الآيات ١٣ إلى ١٥.



ولكنّه في بعض الاحيان، يؤكّد أيضًا على مسألة التنعّم بغنائم الحرب من أجل تحفيز مجاهدي الجيش الإسلاميّ؛ ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾[1].

إنّ هذا النمط من التربية والبيان والتعامل، الذي قد يلجأ فيه القرآن الكريم إلى طرح مسألة الوعد بغنيمة الحرب من أجل الترغيب بالجهاد، الغرض منه في الحقيقة مراعاة الأفراد الضعاف من المؤمنين، والذين لم يبلغوا بإيمانهم ـ حتّى الآن ـ مرتبةً قويّةً، فمن أجل ألّا يحرمهم الله تعالى من ألطافه الإلهيّة، يخاطبهم بمثل هذا الأسلوب، وإلّا فإنّ المؤمنين المُخلصين لا يمكن أن يجاهدوا أبدًا ونيّتهم الحصول على الغنائم.

وعلى أيّة حال، فإنّنا ـ في الحقيقة ـ إذا قلنا بوجود قيمة للتواضع، وإذا اعتبرنا التكبّر منافيًا للقيَم، فإن ذلك بسبب حقيقة قائمة وراء هذين الوصفين. فالإسلام يعتبر أحدهما «قيمة» ويعتبر الآخر «ضد القيمة»؛ لأنّ لهما ـ في الواقع ـ تأثيرًا في سعادة الإنسان وشقائه، وفي قربه إلى الله وإعاقته عن مسير القرب منه. ووفق الرؤية الإسلاميّة، لا ينشأ حُسن التواضع وسائر القيم الأخرى بسبب استحسان العقلاء لهذه الأفعال ومدحهم لفاعلها، بل ينشأ بلحاظ تأثيرها في تحقّق الكمال الإنسانيّ.

سرّ الأمر بالتواضع والنهي عن التكبّر

ولكنّ السؤال الذي يُطرح الآن: «ما هو الدور الذي يؤدّيه التواضع في وصول الإنسان إلى السعادة والقرب الإلهيّ؟ وما هو الضرر الذي يعود به

---

(١) سورة **الفتح**، الآية ٢٠.



التكبّر والزهوّ والتفاخر على سعادة الإنسان، وكيف يُوجِد مانعًا في مسير القرب الإلهي؟».

فلو أقامَ الإنسان صلاته وأدّى صيامه وأتـمّ حجّه وقضى جهاده وآتى زكاته، وكان في نفس الوقت متكبّرًا، فأيّ ضرر يمكن أن يلحق به بسبب هذا الأمر، وأيّ مانع يمكن له أن يُشكّل في طريق سعادته؟ وفي الحقيقة، ما هي النُّكتة التي دعت إلى التأكيد على مسألة التواضع بوصفه أوّل وصف من أوصاف «عباد الرحمن»؟

إذا أردنا أن نفهم هذا المطلب جيّدًا، فمن اللازم أن نرجع إلى الأمر الذي يعتبره الإسلام مِلاك تحديد القيمة. وإنّ هذا البحث من الأبحاث العميقة والمهمّة، التي ينبغي بحثها في محلّها بشكل تفصيليّ، ومع الأسف، فإنّ الفرصة لا تسنح هنا لبسط البحث. ولكن ما يمكن أن يُقال هنا ـ إجمالًا ـ: إنّ الإسلام قد جاء كي يصل البشر إلى كمالهم اللائق بهم؛ فكل الأحكام الإسلاميّة، بل كلّ تعاليم وإرشادات الأنبياء عليهم السلام، إنّما هي لمنع فساد نطفة استعدادات الإنسان، ومن أجل فتح الطريق أمام هذه النبتة لئلّا تذبل وتجفّ، بل لترشد وتُنتج وتبلغ كمالها المطلوب. أمّا ما هي طبيعة هذا الكمال، وإلى أين يصل الإنسان عندما يصبح «كاملًا»؟ فهي مسائل لا يتسنّى لنا إدراكها في البداية، وحالنا فيها شبيه بحال الأطفال الصغار. جميعنا قد مرّ بمرحلة الطفولة، ويعلم حال الطفل في هذه المرحلة؛ إذ لا يمكن إفهامه عظمة المقامات العلميّة والمعنويّة. وإنّ الطفل في عالمه الخاصّ، لا يستبدل واحدةً من ألعابه بجميع مقامات الدنيا ومناصبها، ولو انتابه السرور ـ مثلًا ـ عند سماع اسم «الملك» و«السلطان»، فلوجود أمثال هذه الشخصيّات في ألعابه، وإلّا فإنّ الطفل لا يدرك شيئًا عن حقيقة السلطان والمُلك والمناصب

الرفيعة. إنّ حالنا في إدراك المقامات المعنويّة أيضًا شبيه بحالة الأطفال هذه، وإنّ أمثالنا ـ في الواقع ـ هم أطفال صغار بالنسبة إلى الكمالات اللائقة بمقام الإنسان الحقيقيّ، ونحن عاجزون عن إدراك كُنْهِ هذه العوالم. وليس في هذا الكلام مجاملةٌ ولا تواضعٌ على الإطلاق، بل هو عين الواقع. والحقيقة أنّنا غير قادرين على فهم معنى «الإنسان الكامل» وإدراك طبيعة العوالم والخيرات واللذّات التي يتمتّع بها من يبلغ هذا المقام. إنّ المصداق البارز للإنسان الكامل شخصٌ كأمير المؤمنين عليه السلام، مهما أعملنا عقولنا وتأمّلنا، ومهما قرأنا من الكتب وبحثنا، فإنّ حقيقة وجوده المقدّس لن تصبح ملموسة بالنسبة إلينا، بل سوف تبقى عصيّةً على الإدراك. وإنّنا لا نمتلك معرفةً بهذا المصداق البارز ولو بمقدار واحدٍ من الألف، بل أقلّ من ذلك، ولا ينبغي إطلاقًا أن نطمع أن ننال مثل هذه المعرفة.

والآن، إذا كنّا على مثل هذه الحال، فما الذي ينبغي أن يُقال لنا إذا دار الحديث حول الكمال الإنسانيّ؟ أوّل ما ينبغي أن يُقال لنا: «امتثلوا للأوامر الإلهيّة كي تصبحوا كاملين». ولكن أيّ تغيير هذا الذي يطرأ على نفس الإنسان إذا أصبح كاملًا، وأيّ أمرٍ يتغيّر في وجوده؟

في الإجابة عن هذا السؤال، يُستفاد من التعبير المُستعمل في المعارف الإسلاميّة، وهو أنّ الكمال الإنسانيّ يعني القرب من الله؛ فكلّما أصبح الإنسان أكمل، أصبح من الله تعالى أقرب. وبالطبع، إنّ هذا التعبير لا يختصّ بالثقافة الإسلاميّة أو الشيعيّة، بل هو تعبير رائج لدى جميع الأديان. ومن هنا، ينبغي اعتبار هذا التعبير جزءًا من الثقافة الدينيّة؛ فكلّ الأديان ـ ضمن دائرة معرفتنا بثقافتها ـ تعتبر «القرب من الله» أسمى المفاهيم التي تصبو إليها وأعلاها، وأشرف القيم وأرقاها. بل المشركون



أيضًا ـ وفق صريح القرآن الكريم ـ كانوا يقولون ـ في مقام تسويغ عبادتهم للأصنام ـ: إنّ عبادتهم هذه سببٌ في قربهم إلى الله؛ ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾(١).

ومن هنا، فإنّ «القرب من الله» يمثّل أسمى القيم المطروحة في الأديان المختلفة. وعلى أساس هذه القيمة، يمكن للإنسان أن يبلغ مقامًا يتقرّب فيه من الكمال المطلق والوجود غير المتناهي، أي: الله تعالى، فهل بالإمكان أن يُتصوّر للإنسان ترقٍّ أعظم ومقام أرفع من هذا؟

ولكن ينبغي التنبّه إلى أنّ التقرّب أمر نسبيّ، فمن الممكن أن يصعد شخص درجةً واحدة في هذا المسير، وأن يصعد آخر مئة درجة، وآخر ألف درجة. ولمّا كانت مراتب القرب تميل إلى عدم التناهي، يمكن أن نتصوّر للأفراد درجات مختلفة من القرب الإلهيّ.

والسؤال الذي قد يُطرح هنا: «ما هو الطريق الكلّيّ للقرب من الله؟ وما الذي ينبغي على الإنسان فعله كي يتقرّب من الله تعالى؟».

إنّ الطريق الكلّيّ والمقبول لدى جميع الأديان بنحوٍ متكافئٍ تقريبًا هو طريق «العبوديّة». فجميع الأديان تقول: «إذا أردتَ سلوكَ طريق القرب من الله فعليك بالعبادة»، وإنّ مسألة العبادة هذه مطروحة عند عبدة الأصنام أيضًا. وكما أشرنا، كانوا يعتقدون بلزوم العبادة من أجل تقرّب الإنسان من الله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾(٢)، وتُشير عموميّة هذه المسألة واشتراك الأديان المختلفة فيها، إلى أنّ جذور هذه المفاهيم ـ حتّى عبادة الأصنام ـ ترجع إلى تعاليم الأنبياء،

(١) سورة **الزمر**، الآية ٣.
(٢) سورة **الزمر**، الآية ٣.



وهي وإن تعرّضت لأشكال الانحرافات مع مرور الزمان، حتّى بلغ الأمر حدّ عبادة الأصنام، فإنّها في جميع الأحوال قد نشأت من منبع واحد. ويؤكّد القرآن الكريم في موارد مختلفة على مسألة إرسال الرسل وبعث الأنبياء في جميع الأقوام والملل المختلفة، حيث يقول: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[١].

وعلى أيّة حال، فقد تحصّل أنّ القيمة الأسمى والكمال الإنسانيّ هو القرب إلى الله، وأنّ هذه القيمة ذات مراتب مختلفة، وأنّ الطريق الكلّيّ لهذا القرب هو طريق العبوديّة. والآن، ينبغي الالتفات إلى أنّ أكثر ما يتناسب مع روح العبوديّة هو التواضع والخضوع. وفي المقابل، فإنّ أكثر ما يخالف هذه الروح هو التكبّر وتعظيم الذات، وهذا هو السرّ في ذكر مسألة التواضع واجتناب التكبّر بوصفه أوّل وصفٍ من أوصاف «عباد الرحمن»؛ إذ لا يمكن للعبد أن يتكبّر أمام سيّده ومولاه؛ لما في هذا الأمر من تناقض وتضادّ مع أصل العبوديّة؛ إذ ليس للعبد في الأساس أيّ شيء من نفسه، وهو غير قادر على القيام بأيّ فعل من تلقاء نفسه، وكما يقول الله تعالى: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾[٢].

فإذا أراد الإنسان بلوغ الكمال ونيل القرب الإلهيّ، فلا طريق أمامه سوى العبوديّة؛ أن يكون عبدًا لله تعالى. وعلامة العبوديّة نفيُ الإنسان كلّ شيء عن نفسه، واستشعاره ـ حقًّا ـ أنّه لا يملك شيئًا في مقابل الله تعالى؛ فالعبد هو من يعيش على الدوام هذه الحالة النفسيّة والإحساس الداخليّ، فيشعر بضآلته وصغره وحقارته أمام إلهه العظيم، فلا يعرف

---

(١) سورة **فاطر**، الآية ٢٤.

(٢) سورة **النحل**، الآية ٧٥.



عملًا يؤدّيه، ولا يرى فعلًا يصنعه، سوى التذلّل والخشوع أمام ساحة معبوده.

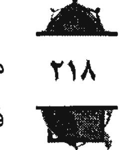
وكما أشرنا سابقًا، إنّ مسألة اعتبار العبادة فضيلة ليست من مختصّات الدين الإسلاميّ، بل يمكن الوقوف على مرتبة من العبادة عند جميع الأديـان؛ إذ تُعتبر العبادة عندهم شرطًا لازمًا في بلوغ الإنسان كماله، وأمـرًا حتميًّا لا بديل عنه. وتتصدّر هذه المسألة دعوة جميع الأنبياء وتشكّل القدر المشترك بين جميع الأديان؛ فليس هناك طريق سواها؛ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[1].

فقد جاء جميع الأنبياء وفي صدر تعاليمهم إلى البشر: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، وإنّ عبادة الله هذه التي تتصدّر دعوة الأنبياء لا تتّفق على الإطلاق مع التكبّر والإنّيّة، بل إنّ سلوك هذا الوادي يحتاج إلى التذلّل، ويتطلّب الخضوع، وعدم رؤية النفس، واسشعار ضآلتها وصغرها وحقارتها أمام الله تعالى. ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ استصغارَ النفس هذا أمرٌ مغاير لـ«عقدة الحقارة» المطروحة في علم النفس، والتي تُعتبر من جملة الأمراض النفسيّة. وإنّ المراد هنا أن يرى الإنسان نفسَه «لا شيء» في مقابل الله تعالى، وألّا يُثبت لنفسه أيّة موجوديّة أو مالكيّة أو اختيار أمام الله.

وبالإضافة إلى هذا، فلا معنى أيضًا للتكبّر والافتخار في مقابل عباد الله؛ ذلك لأنّهم عبادٌ لله تعالى مثلنا، فجميعنا نشترك في هذه الحيثيّة، وإنّ كلّ ما لدى أيّ إنسانٍ هو من الله، وليس لأحد أيّ شيء من نفسه حتى يفتخر ويتكبّر على الآخرين بسببه.

---

(١) سورة **النحل**، الآية ٣٦.



وبناءً عليه، فإنّ التواضع إنّما يُطرح بعنوان قيمة عامّة وصفة ممدوحة، بالاتّكاء على هذا المُرتكز، وبالاعتماد على هذا المِلاك؛ فالتواضع والخضوع حـالات نفسانيّة وصفات تنسجم وتتناسب مع العبوديّة، وتسوق الإنسان نحوها. أمّا إذا كانت روحيّة الإنسان بنحوٍ يظلّ فيه على الدوام ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾، يلهج لسانه بقول: «أنا»، يرى نفسه أرفع من الجميع، ويريد باستمرار أن يجعل الآخرين في مرتبة أسفل منه، فإنّ هذه الروحيّة لا تنسجم أبدًا مع العبوديّة، ولا يمكنُ لصاحبها أن يصبح «عبدًا لله».

استحسان الناس ودوره في إضفاء القيمة

وفي الختام، نؤكّد مرّةً أخرى على ضرورة الالتفات في بحث «القيم الأخلاقيّة» إلى منشأ القيمة ومِلاكها ومبدئها. فمن وجهة نظرنا، إنّ مبدأ القيمة وركيزتها ليس ما يستحسنه الناس، أو العقلاء ـ في اصطلاح المناطقة ـ، وليس ما ينال إعجاب أفراد المجتمع. وإنّ استحسان الناس هذا، إن لم نقل: إنّه منافٍ للقيمة، فهو قطعًا لا يستطيع أن يكون مِلاكها الحقيقيّ ومبدأها الواقعيّ. وكما أشرنا أيضًا، فإنّه لو شغل فكر الإنسان أمرُ القيام بالأعمال التي تعجب الناس وتجلب رضاهم على الدوام، فقد جعل من الناس إلهًا له. وإنّ المؤمن هو ذلك الإنسان الذي يكون كلّ همّه في تأدية الأعمال التي تنال رضا الله تعالى، وإن لم تُعجب الناس، وإن امتعضوا منها. ولو تأمّلنا في حياة الأنبياء الإلهيّين لوجدناها على هذا النحو. فلقد كانوا عليهم السلام أثناء تأدية رسالتهم وتبليغ الدين الإلهيّ، يتحدّثون في أمور ويبيّنون مطالب لا تنال استحسان الناس، ولذلك كان الناس يتّخذون مواقف سلبيّة حيال دعوة الأنبياء عليهم السلام، فيتّهمونهم بالسفاهة والحماقة والجنون وأمثال هذه الأمور. فعندما كان الأنبياء



يدعون أقوامهم نحو عبادة الله الواحد، كان الناس يواجهونهم بكلام من قبيل: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[1]، فسلبوا عقلَك حتّى غدوت تتفوّه بمثل هذا الكلام. وإنّ مخالفي الأنبياء كانوا في كثيرٍ من الموارد لا يكتفون بالاستهزاء والتوهين والتكذيب، بل يُقدمون على إجراءات عمليّة، نظير: القتل، والسجن، والطرد من القُرى. ومن البَدَهيّ أنّه لو كان من المقرّر أن يسير الأنبياء وفق ما تقتضيه رغبات الناس، لما سلكوا منهجهم هذا، ولتصرّفوا بنحوٍ مختلف كلّيًّا. فالمؤمن الموحّد ـ إذًا ـ هو ذلك الشخص الذي يسمو إلى تأدية الفعل الذي يُرضي الله، ولا يعتني بأحكام الآخرين وردات فعلهم. فملاك القيمة في نظرنا، ينبغي ألّا يكون السعي في إنجاز ما يحبّبُ النّاسَ بنا، ولا ما يعودُ علينا باحترامهم، ويجعلُ منّا أحبّاء قلوبهم. إنّ هذا المنطق طفوليّ، والإنسان الذي وصل إلى حدّ النضج، والذي يتمتّع بالرشد العقليّ والمعرفة الكافية لا يتبنّى مثل هذا المنطق. فإذا حصّلنا الاطمئنان بأنّ عملًا ما ينال استحسان الله تعالى ويجلب رضاه، فلا بدّ من تأديته، سواءٌ أأعجب الناس أم لم يعجبهم.

وفي المحصّلة، لا ينبغي أن نجعلَ من ثناء الناس ومديحهم مِلاكًا في تحديد القيمة، بل إنّ ملاك القيمة يكمن فيما إذا كانت روح العبوديّة تظهر في وجود الإنسان وتقوى بفعل مبادرته على هذا الأمر أم لا؛ فكلّ أمر يوجب ظهور روح العبوديّة الإلهيّة في وجود الإنسان وتقويتها، وكلّ أمر يسوق الإنسان نحو «عبادة الرحمن»، فإنّه سوف يحوز على قيمة. ومن جملة هذه الأمور التواضع والخضوع، ويقع في النقطة المقابلة له التكبّرُ، الذي بوجوده لا يكونُ مثل هذا الأمر ميسّرًا للإنسان.

---

(١) سورة **هود**، الآية ٥٤.



الدرس العاشر:

عباد الرحمن، أهل التواضع والحلم (٢)

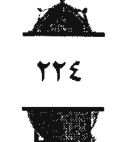
﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾[1]

حقيقة العبوديّة: نفي الاستقلال

في الدرسين السابقين، كان محور حديثنا بعض آيات سورة «الفرقان» المباركة، التي تستعرض بعض أوصاف «عباد الرحمن». وقد بيّنا مجموعة من المطالب في هذا الصدد. وكما لاحظنا، إنّ أوّل صفات «عباد الرحمن» المذكورة في هذه الآيات هي صفة التواضع. وبهذه المناسبة طرحنا سؤالًا مفاده: «لماذا يحوز التواضع على هذا الحدّ من الأهمّيّة، التي جعلت منه أوّل أوصاف «عباد الرحمن» المطروحة في هذه الآيات؟». وأشرنا في مقام الإجابة عن هذا السؤال إلى أنّه من المحتمل أن يكون هذا الأمر بسبب كون محور البحث هو عنوان «عباد الرحمن»، فمن المناسب أن تُطرح أكثر الأوصاف انسجامًا وتناسبًا مع «العبوديّة»، وإنّ الخصوصيّة البارزة في العبوديّة، التي بها يتحقّق التمايز بين العبد وغيره هي التواضع والخضوع؛ فإنّ العبد يرى

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٣.

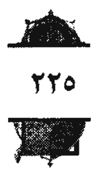


نفسه في مقابل مولاه صغيرًا وحقيرًا وضئيلًا. ثمّ أضفنا أنّ طريق التكامل ـ في الأساس ـ هو العبوديّة لله تعالى، ولا طريقَ للتكامل أمام الإنسان سوى هذا الطريق. وقد بيّنا في هذا الشأن مجموعة من التوضيحات، ونرمي في هذا الدرس إلى استكمال ما بدأناه.

إنّ حقيقة العبوديّة أن يعيش الإنسان في وجوده حقيقة كونه مملوكًا لله تعالى، وأنّه لا يملك أيّ شيء من نفسه، بل كلّ ما لديه من الله؛ إذ لا مالك ولا مدبّر ولا صاحب اختيار غيره تعالى، وأن يذعن بهذه الحقيقة، ويوصلها عمليًّا إلى مرحلة الإثبات. وإنّ سير الإنسان التكامليّ ـ في الواقع ـ ليس سوى هذا السير في مدارج العبوديّة؛ فكلّما طوى الإنسان مراحل ومنازل أكثر من العبوديّة، ازدادت درجة تكامله بهذا المقدار، وتصبح أعلى.

بعبارةٍ فلسفيّة: العبوديّة عبارة عن نفي الإنسان عن نفسه أيّ شكل من أشكال الاستقلال، الأمر الذي لا يتمّ بواسطة التلفّظ به وإخطار مفاهيمه الذهنيّة فقط، بل ينبغي أن يجد الإنسان هذه الحقيقة في أعماق وجوده، وأن يستشعر حقيقة أنّه لا يملك ذرّة من الاستقلال في أيّ ميدان من ميادين حياته.

وأوّل مرحلة ينبغي على المرء طيّها في مسير نفي الاستقلال هي «نفي الاستقلال في الإرادة»؛ فإنّ قولنا «قلبي يريد» أو «أنا أريد» لا ينسجم إطلاقًا مع حقيقة العبوديّة. فالعبد هو من يقول: «ما يريده مولاي أريده أنا أيضًا». ولكن بطبيعة الحال، لا يمكن لمثل هذه المرحلة أن تتحقّق دفعةً واحدة أو في وقت قصير، بل تحتاج إلى كثيرٍ من التمرين والممارسة ليتمكّن الإنسان من بلوغها. ومن أجل الظفر بهذا المقام، والوصول إلى هذه المرحلة، ينبغي على السالك أن يمرّن نفسه



على امتثال كلّ أمر يصدر من مولاه، وأن يواظب على هذه الحالة، إلى أن يبلغ حدًّا تغدو معه إرادة الإنسان فانية في إرادة الله. ومن هنا، ينبغي على الإنسان في أيّ وقت يهمّ فيه باتّخاذ القرار والتصميم على القيام بعمل ما، أن يُفكّر قبلُ في إرادة الله تعالى، وأن يتصوّر الأمر الذي يريده الله منه. وهذا هو مسير التقوى الذي ينبغي على الإنسان أن يسلكه طوال حياته، من خلال المراقبة الدائمة لما يريده الله منه، والالتفات لإرادته تعالى كي لا يتخلّف عنها أبدًا. وإنّ للتقوى بالطبع مراحل عدّة، وأولى مراتبها تجنّب المحرّمات، وفي المراحل المتقدّمة تبرز أمور، من قبيل: أداء المستحبّات والامتناع عن المكروهات وأمثالها. وفي جميع الأحوال، فإنّ أولى مراحل نفي الاستقلال أن يجعل الإنسان إرادته تابعةً للإرادة الإلهيّة، وأعلى مراتب هذه المرحلة فناءُ إرادة المرء في إرادة الله، وهذا يعني ألّا يرى الإنسان ـ في الحقيقة ـ أيّة إرادة سوى إرادة الله تعالى.

ولكن لا بدّ من الالتفات إلى أنّ نفي الاستقلال في الإرادة ـ مع كلّ المصاعب المحيطة به ـ ليس نهاية الطريق، بل يوجد من بعده مراحل أخرى من الاستقلال، ينبغي للإنسان أن ينفيَها عن نفسه؛ فعندما يجتاز الإنسان هذه المرحلة، ويبحث في أعماق نفسه، يجد أنّه وإن كان قد نفى الإرادة عن نفسه، فإنّه لا يزال ـ حتى الآن ـ يُثبت لنفسه كثيرًا من الأمور، ويعتبر نفسه مصدرًا لها. فإنّنا ـ مثلًا ـ ننسب إلى أنفسنا العلم، والقدرة، والعزّة، والمقام، والرئاسة، وكثيرًا من الأمور، التي نعتبر أنفسنا المالك الحقيقيّ لها، بل لو تجاوزنا كلّ هذه الأمور، فإنّ أقلّ ما يمكن ذكره أنّنا نثبت لأنفسنا السمعة وماء الوجه، ونسعى على الدوام في سبيل حفظ سمعتنا وماء وجهنا.

من هنا، فبعد نفي الإرادة عن النّفس، تصل النوبة إلى نفي الإنسان لسائر المملوكات التي ينسبها إلى نفسه (أعمّ من الصفات والأشياء والأشخاص)، وإرجاع جميع هذه الممتلكات إلى صاحبها الحقيقيّ، وأن يتذكّر الإنسان آنًا فآنًا، أنّ هذه الأمور ليست متعلّقة به، بل إنّ لها مالكًا حقيقيًّا آخر.

وقد جاء في بعض الروايات تعبيرٌ عظيم المعنى عن الله سبحانه وتعالى يقول فيه: «الْكِبْرياءُ رِدائي وَالْعَظَمَةُ إزاري، فَمَنْ نازَعَني فى شَيءٍ مِنْهُما قَصَمْتُهُ»[1]. وجاء في بعض الروايات أيضًا عن الإمام الصادق عليه السلام: «الكِبْرياءُ رَداُؤهُ، فَمَنْ نازَعَهُ شَيْئًا مِنْ ذلِكَ أَكَبَّهَ اللهُ فى النّارِ»[2]، والسبب: أنّ الإنسان الذي يضع قدمَه في وادي الكبرياء يدخل ـ في الواقع ـ في مصافّ مدّعي الألوهيّة، وينصّب نفسه شريكًا لله تعالى.

بالطبع، ليس لله تعالى رداءٌ ولا إزار ولا ساحة ينازعه عليها أحد، بل هو منزّه عن المادّة والمادّيّات، ولكنّ الروايات الشريفة تستفيد أحيانًا من مثل هذه التعابير، بغرض جعل بعض المطالب قابلًا للفهم عندنا.

وفي جميع الأحوال، فإنّ على الإنسان في الخطوة الأولى أن يُبعد عن نفسه كلّ ما ينافي أساس العبوديّة، التي تُعتبر مسير التكامل الإنسانيّ، ومن جملة هذه الأمور التكبّر، الذي كان السبب في شقاء إبليس وطرده من المحضر الإلهيّ، حيث يقول الله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ

(١) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٧٣، الصفحة ١٩٢، الرواية ١، الباب ١٣٠.

(٢) المصدر نفسه، الجزء ٩٣، الصفحة ٢٢٢، الرواية ٥، الباب ١٠.



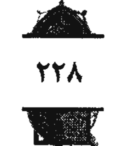
ٱلْعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[1].

وينبغي على الإنسان أن يتحلّى بالتواضع مهما أمكن، فضلًا عن تخلّيه عن التكبّر، وأن يُظهر في أعماله أنّه لا ينسب أيّ شيء لنفسه في مقابل عظمة الله وكبريائه، بل كلّ ما يملكه منه تعالى، وإلّا فهو صفرٌ ليس أكثر. فهل للإنسان حقيقة غير هذه؟ هل يمتلك أيّ إنسان شيئًا من نفسه؟ وبغضّ النظر عنّا وعن أمثالنا؛ لأنّ حالَنا معلوم، فالأنبياء الإلهيّون عليهم السلام، مع كلّ ما لديهم من عظمة وكمال، هل يملكون شيئًا من أنفسهم؟ إنّ كلّ ما لدى الإنسان ـ كلّ إنسان ـ هو من الله، وكلّ من سوى الله لا يمتلك ذرّةً من نفسه.

ومن المناسب التأكيد أيضًا على أنّ العبوديّة الواقعيّة إنّما تتحقّق عندما يستشعر الإنسان في أعماق وجوده فقرَه وفاقتَه وعدمَ استقلاله، لا أن يتلفّظ بهذا الأمر ويعترف به بلسانه فقط. فمن الممكن أحيانًا أن نشكّل لهذه القضيّة مفهومًا في أذهاننا، وأن نُثبت صحّتها بمختلف البراهين والاستدلالات، ولكنّ هذا أمر مختلف عن التصديق القلبيّ بهذا المعنى، واستشعاره في أعماق النفس، والإحساس حقيقةً أنّنا لا نملك شيئًا من أنفسنا، وأنّ كلّ ما لدينا وديعة من الله. فعندما يكون أصل حياتنا وأساس وجودنا وديعةً عندنا ليس أكثر، فمن الواضح أنّ لوازمها من قبيل العلم والقدرة وغيرها هي الأخرى وديعة بطريقٍ أولى.

وبناء عليه، فإنّ حقيقة العبوديّة هي سلب جميع أشكال الاستقلال عن النفس. وهذه المقولة لا تنسجم إطلاقًا مع التكبّر، ولا يمكن أن

(١) سورة ص، الآيات ٧٤ إلى ٧٨.



تجتمع مع هذه الصفة؛ لأنّ التكبّر يعني «أنـا»، وهذه الـ«أنا» تعني الاستقلال وامتلاك الإنسان شيئًا من نفسه. ومن هنا، فمن الضروريّ أن تزول وتُهشّم هذه الـ«أنا». وإنّ الإنسان الذي يرمي إلى الدخول في سلك «عباد الرحمن» وارتداء رداء العبوديّة والظفر بحقيقتها في نفسه وإدراكها وشهودها، فعليه أوّلا أن يزيح أنانيّته جانبًا، وأن يتواضع في مقابل الله تعالى أوّلًا، ثمّ يتواضع في مقابل عباد الله، الذين لا يملكون شيئًا من أنفسهم، بل كلّ ما لديهم من الله.

التواضع المذموم

ولكن الأمر الذي ينبغي ألّا نغفل عنه، هو أنّنا من خلال مُراعاة التواضع ونفي التكبّر عن أنفسنا، نقوم ـ في الواقع ـ بإظهار عظمة الله تعالى. ومن هنا، فعندما يتنافى التواضع مع إظهار العظمة الإلهيّة، يُصبح مذمومًا، وعندئذٍ لا ينبغي لنا أن نتواضع. وتوضيح ذلك أن نقول:

إنّ هدفنا من إظهار حقارتنا وضآلتنا في مقابل الله تعالى، هو أن نُظهر العظمة الإلهيّة، وأن نقول: إنّ العظمة والكبرياء لا تليق سوى بالذات الإلهيّة المقدّسة. إلّا أنّنا قد نُصادف بعض الموارد التي لا يؤدّي إظهار التواضع فيها إلى إظهار العظمة الإلهيّة. كلا، بل يسيء إليها ويُصيّرها باهتة اللون وخافتة النور. ومن الواضح أنّ مثل هذا التواضع منافٍ للقيمة، وينبغي اجتنابه بلحاظ كونه عامل إبعاد عن الهدف الأساسيّ من التواضع. ومن مصاديقه البارزة: التواضع في مقابل أعداء الله تعالى؛ فعندما يتواضع الإنسان أمام أعداء الله يكون ـ بطبيعة الحال ـ مُعظّمًا لهم، شاء أم أبى، والحال أنّ تعظيم أعداء الله يُلازمه استصغار الله تعالى؛ إذ من غير الممكن تعظيم الله وتعظيم عدوّه، بل إنّ تعظيم أحدهما يعني استصغار الآخر واستحقاره. وعندما يرى الإنسان نفسه



صغيرًا أمام عدوّ الله، فمعنى هذا أنّه يرى عدوّ الله كبيرًا وعظيمًا، وهذا التعظيم يعني استصغار الله تعالى والتقليل من عظمته. ومن هنا، ينبغي استحقار عدوّ الله وعدم إعطائه أيّة قيمة أو احترام. أمّا الإنسان المؤمن فبلحاظ ارتباطه بالله تعالى، يكون التواضع له في الواقع إظهارًا للعظمة الإلهيّة. فعندما نرى أنفسنا صغارًا أمام إنسانٍ من جهة كونه مؤمنًا بالله فهذا ـ في الواقع ـ يعني أنّنا نرى أنفسنا صغارًا أمام الله. ولو احترمنا إنسانًا بسبب إيمانه بالله فهذا ـ في الحقيقة ـ احترامٌ لله، ولو تواضعنا أمامه فهذا ـ في الواقع ـ تواضعٌ لله. وعلى العكس تمامًا، فلو تواضعنا لعدوّ الله، وصغّرنا أنفسنا أمامه، وتملّقنا له، ووضعنا أيدينا على صدورنا احترامًا له، وأحنينا رؤوسنا تبجيلًا له، فإنّنا بعملنا هذا نكون مُعظّمين لعدوّ الله مُستصغرين لله تعالى. ومن هنا، فإنّ هذا النحو من التواضع غير مطلوب على الإطلاق.

ينبغي للتواضع أن يكون لله تعالى، وعلامة هذا التواضع تعظيم الله واستصغار النفس وكلّ من سوى الله. وإذا لزم من التواضع تعظيم أعداء الله، فبالطبع لن يكون مطلوبًا.

ومن أجل معالجة هذه المسألة، يمكن في الحقيقة أن نستعين بالمبنى الإسلاميّ الذي استعرضناه في الدرس السابق حول مِلاك القيمة في الرؤية الإسلاميّة، حيث ذكرنا أنّ مبدأ القيمة في المدرسة الإسلاميّة يختلف عن مبدأ القيمة عند سائر المدارس الأخلاقيّة والمذاهب الإنسانيّة؛ فقد طرح كبار فلاسفة الأخلاق أبحاثًا عديدة في هذا المجال، وكان من أشهر نظريّاتهم وأكثرها تميّزًا، تلك التي تُخاطب الإنسان قائلةً: «تواضَع حتّى تكسب حبّ الناس، وتنال احترامهم، وتصبح عزيزًا عندهم، فإذا احتجتهم يومًا وجدتهم يسارعون إلى تلبية حاجتك». وقد شهد هذا

المبنى تأكيدًا في بعض كتبنا الأخلاقيّة، والحال أنّ مبدأ جميع القيم في النظرة الإسلاميّة يرجع إلى مبدأ واحد، هو الله تعالى.

فإنّ روح جميع القيم ـ وفق الرؤية الإسلاميّة ـ تكمن في إظهار هذه القيم لعظمة الله وخالقيّته وربوبيّته ومولويّته من جهةٍ، وفقر جميع مخلوقاته وحاجتهم ومعلوليّتهم وعبوديّتهم من جهةٍ أخرى. وهنا، فإنّ قيمة الفعل في الثقافة الإسلاميّة تتوقّف على ظهور روح العبوديّة لله تعالى فيه. وقد بيّن لنا القرآن الكريم هذه الحقيقة في آيةٍ من آياته الكريمة، وبجملة قصيرة في غاية الصراحة. وإنّنا لا نستطيع أبدًا أن نؤدّي حقّ هذه الآية من التفسير والإيضاح، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

وقد استفاد القرآن في بيانه لمُفاد هذه الآية من أداة النفي «ما» وأداة الاستثناء «إلّا»، وهو ما يفيد في الاصطلاح الأدبيّ «الحصر». إنّ الموجودات المُختارة والمُكلّفة التي نعرفها هي الجن والإنس، فالمراد من الجن والإنس ـ إذًا ـ جميع الموجودات المُختارة والمُكلّفة. فالله سبحانه وتعالى يقول ـ صراحةً في هذه الآية ـ: إنّ هدفي من خلق كلّ الموجودات المُختارة والمُكلّفة التي خلقتها هو العبادة فقط، ولا يوجد أيّ هدف آخر في البين. وليس في هذا الكلام الإلهيّ أيّة مُجاملة أو مُزاح، بل هو بيانٌ في غاية الصراحة، ويوضح المسألة للجميع؛ فطريق التكامل الوحيد لأيّ موجود مُختار ـ وفقًا لهذه الآية ـ هو طريق عبوديّة الله فقط، ولا وجود لأيّ طريق آخر. وكلّ ما سوى هذا الطريق من الأمور التي يعتبرها الآخرون كمالًا وقيمةً هي محض اعتباريّات، لا يمكن أن نجد لها

---

(١) سورة **الذاريات**، الآية ٥٦.



مبدأً وأساسًا في الواقعيّات، بينما تمتلك جميع القيم الإلهيّة والإسلاميّة جذورًا في الواقع؛ لأنّها كما ذكرنا، قد بُنِيَت على ضوء العلاقة القائمة بين الأفعال والكمال الواقعيّ للإنسان. والإنسان ـ وفق النظرة الإسلاميّة ـ موجودٌ ينبغي عليه أن يسلب باختياره كافّة أشكال الاستقلال عن نفسه، وأن يصل إلى مقامٍ يكون فيه بجوار الله تعالى، وفي منزلة القرب الإلهيّ، وأن يتّخذ لنفسه مقامًا عند الله تعالى، كآسيا زوج فرعون التي سألت الله قائلةً: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾[1].

وطريق مجاورة الله تعالى والتقرّب إليه هو العبوديّة له والتسليم لأمره تعالى. فما دام الإنسان يرى نفسه شريكًا لله تعالى وموجودًا في عرض الوجود الإلهيّ، وما دام يقول لله تعالى: «أنت موجود وأنا موجود»، فإنّه لن يبلغ أيّ مقام أبدًا، وسُتغلّق في وجهه أبواب سماء الكمال؛ إذ لا تجتمع العبوديّة إطلاقًا مع رؤية الإنسان لنفسه أيّة شأنيّة أو اعتبار في مقابل الله تعالى، ومع قوله لله: «أنت تريد وأنا أريد»، «لك عزّتك ولي عزّتي»، «لك شرفك ولي شرفي»، «لك إرادتك ولي إرادتي». فمن وجهة نظر الإسلام، إنّ الإنسان الذي يسلك مثل هذا المسير، ويحمل مثل هذا المرام، لن يبلغ أيّ مقامٍ، وليس له أيّة قيمةٍ، ولو سجدت له جميع الخلائق، ولو ناداه جميع من على الأرض: «أنت الربّ الأعلى». فخلاصة جميع القيم في الإسلام العبوديّة لله، وكلّ فعل إنّما يكتسب قيمته عندما يُطرح في مسير العبوديّة. ومن هنا، ففي بحثنا الفعليّ، ما دام التواضع مَظهرًا لعظمة الله ولعبوديّتنا له، فهو قيمة بين مجموعة القيم. أمّا إذا أصبح في مكانٍ ما منافيًا لهدفه الأساسيّ، فإنّه يسقط مباشرة عن دائرة القيمة، ويخرج من بين مجموعة القيم. والتواضع في مقابل الجبابرة

---

(١) سورة **التحريم**، الآية ١١.

والظالمين نموذج لمثل هذا التواضع المذموم. نعم، قد يُقدم الإنسان على التواضع أمام الجبابرة بدافع التقيّة وحفظ روحه، وفي هذا الحالة ـ وكما يستفاد من الآيات والروايات ـ لا حرج على الإنسان: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[١].

وفي المحصّلة، إنّ اعتبار التواضع قيمةً متوقّف على أن يكون ضمن دائرة العبوديّة لله تعالى، وموجبًا لتقرّب الإنسان من الله جلّ وعلا.

تعامل عباد الرحمن مع الأمور اللغْويّة

وإنّ من الصفات التي ذُكرت لعباد الرحمن في مجموعة الآيات الكريمة هذه، ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[٢].

وبسبب التناسب والتقارب الكبيرين بين هذا الوصف والوصفين الواردين في الآية (محلّ البحث) ـأي: الآية الثالثة والستين من سورة «الفرقان»ـ نرى من المناسب تقديم البحث في هذه الآيـة ـأي: الآية الثانية والسبعين من سورة «الفرقان»ـ، على أن نترك مزيدًا من التوضيحات التكميليّة حول هذه الآية، ونطرحها في محلّها لاحقًا.

وإنّ هذا المضمون الوارد في الآية الكريمة كان قد مرّ ما يشبهه في سورة «المؤمنون» أيضًا، حيث قال تعالى ـ في مقام توصيف الأشخاص الذين يبلغون الفلاح، ويصلون إلى كمال الإيمان ـ: إنّهم يُعرضون عن الأمور اللغويّة ويجتنبونها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[٣].

---

(١) سورة **النحل**، الآية ١٠٦.

(٢) سورة **الفرقان**، الآية ٧٢.

(٣) سورة **المؤمنون**، الآية ٣.



وقد بحثنا هناك في معنى «اللغو»، فلا نكرّر هنا. ولكن نقول ـ على نحو الإجمال ـ: إنّ كلّ فعل لا تُرتجى منه أيّة نتيجة في تحقيق سعادة الإنسان، فهو داخل في دائرة الأفعال اللغويّة. ووفقًا لهذا المعنى، فإنّ كثيرًا من الأفعال المباحة ـ مع أنّ ارتكابها لا يُعدّ حرامًا ـ تعتبر من مصاديق اللغو، بلحاظ كونها غير ذات تأثير في تكامل الإنسان. ويمكن تصوير معنى أوسع للّغو، يشمل في طيّاته المكروهات والمحرّمات أيضًا؛ ذلك لأنّ القدر المشترك بين جميع هذه الأمور هو عدم إيصال نفع للإنسان، أعمّ من كونها ذات ضرر أو لا. ولكن في جميع الأحوال، فإنّ اللغو بالمعنى الخاصّ، يُطلق على الفعل الذي لا يحمل للإنسان أيّة فائدة ولا ضرر.

في سورة «المؤمنون» كان التعبير على الشكل التالي: «إنّ المؤمنين الذي يبلغون الفلاح يُعرضون عن الأفعال اللغويّة، التي لا تعود عليهم بالفائدة». ولكن في سورة «الفرقان» ـ وبحكم المناسبة مع سياق الآيات الكريمة ـ ورد التعبير بنحوٍ مغاير لتعبير سورة «المؤمنون»، وهو تعبير يحتوي على لطافة خاصّة. ففي هذا المورد، لم يقل الله تبارك وتعالى: إنّ المؤمنين ليسوا من أهل اللغو والأفعال غير النافعة، بل إنّ محور البحث هنا هم «عباد الرحمن»، وإنّ اجتنابهم للأفعال اللغويّة هو أمر مفروغ عنه من الأساس؛ إذ إنّ من يدخل في مصافّ «عباد الرحمن»، ومن يبتغي أن يكون عبدًا لله تعالى، من الطبيعيّ أن يجعل تمام همّه منصبًّا على تأدية العبوديّة لله، ومن الطبيعيّ ألّا يجعل في برنامج أعماله أيّ فعل لا يكون عاملًا مُساعدًا في طيّ هذا المسير، وأيّ عمل من شأنه أن يهدر شيئًا من عمره. ولكن في بعض الأحيان، لا يكون الإنسان نفسه من أهل اللغو، ولكن ـ بحكم الحياة الاجتماعيّة والتعامل مع الآخرين ـ يتّفق أن يمرّ بأناس من أهل اللغو، ويضطرّ إلى التعامل معهم. ومن أجل بيان

التصرّف الذي ينبغي القيام به في مثل هذه الموارد، لم يقل القرآن الكريم: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾[١]، بل عمد إلى الاستفادة من تعبير آخر، وهو: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾[٢].

إنّ «عباد الرحمن» لا يذهبون باختيارهم نحو الأمور اللغويّة، بل إنّ شأنهم ومقامهم أجلّ من هذه الأمور. وإنّ محطّ أنظار هؤلاء الأشخاص ما يقوله سيّدهم ومولاهم فقط، ولا يُقدمون على أيّ فعل خارج هذه الدائرة، ولكن ـ بحكم حياتهم الاجتماعيّة ـ من الممكن أن يواجهوا ظروفًا تُملي عليهم أن يواجهوا أشخاصًا من أهل اللغو. وهنا يُطرح السؤال التالي: «ما هي ردّة الفعل التي ينبغي أن يُظهرها «عباد الرحمن» في مثل هذه الظروف، والتي تكون مورد رضا الله تعالى؟». فعلى سبيل المثال، قد يواجه المؤمن في بعض الأحيان ـ لا سمح الله ـ أُناسًا يسخرون منه، أو ينهالون عليه بالشتائم والتشهير، أو يتعرّضون له بالأذيّة والإزعاج، فما الذي ينبغي فعله في مثل هذه الظروف؟

وتحوي هذه الآية الكريمة أيضًا نُكتةً أدبيّةً، وهي أنّه هل يوجد في الكلام مضاف محذوف أم لا؟ فوفق واحد من المعاني المُتصوّرة للآية، يُمكن القول: إنّ المراد من تعبير ﴿مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ﴾ هو في الواقع «مَرُّوا بِأهلِ اللَّغْو»، فنُقدّر كلمة «أهل» ونعتبرها مضافًا محذوفًا. وعلى هذا الأساس، يصبح معنى الآية أنّ «عباد الرحمن» عندما يواجهون أهل اللغو يمرّون مرور الكرام. وهناك احتمال آخر، وهو أن نقول بعدم وجود حذف في الآية، فيكون معناها حينئذٍ أنّ «عباد الرحمن» إذا مرّوا بنفس الأمور اللغويّة يمرّون مرور الكرام.

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ٣.

(٢) سورة **الفرقان**، الآية ٧٢.



وعلى أيّة حال، فإنّ السؤال هنا: «ما الذي ينبغي على «عباد الرحمن» فعله فيما لو اضطرّوا إلى التعامل مع أشخاص يُقدمون على تصرّفات طفوليّة وأفعال صبيانيّة وسلوكيّات غير عقلانيّة؟ كيف يتصرّفون؟ وأيّة ردّة فعل يُبدون؟».

إنّ الإنسان إذا أساء إليه أحد، أو تعرّض له بالشتم، أو قلّل من احترامه، أو عمد إلى السخرية منه، فمن الطبيعيّ أن يُسبّب هذا الأمر استياءً عنده، وبشكل طبيعيّ قد تكون ردّة الفعل التي سيظهرها هي المقابلة بالمثل، ففي مقام الردّ على الإساءة يقول لمن أساء إليه ـ مثلًا ـ: «إنّ ما قلته مردود عليك ويليق بحالك أكثر ممّا يليق بي»، قد يغضب أيضًا ويخرج عن طوره، فينهال على الطرف المقابل بعشرات الإهانات الإضافيّة ردًّا على الإهانة التي بدرت منه، وإذا ما برز من الطرف المقابل أيّ تصرّف غير لائق، فإنّ ردّة الفعل سوف تكون تصرّفات أشدّ وأسوأ، وسوف يعتبرها الإنسان جائزة في حقّ من أهانه وأساء الأدب معه.

أمّا «عباد الرحمن»، فلأنّهم من أهل المراقبة الدائمة والحذر المستمرّ من صدور أيّ فعل منهم لا يُرضي الله، فلا بدّ عليهم ـ في مثل هذه الظروف ـ من التحلّي بروحيّة عالية يستطيعون معها التحكّم بأنفسهم، وإظهار ردّة فعل مغايرة لتلك التي تصدر من الناس العاديّين. ومن هنا، تراهم في مقابل ذوي الأفعال الصبيانيّة، يُبدون سعة صدر وتكرّمًا، حتى كأنّهم لم يسمعوا ولم يروا شيئًا.

وينبغي أن نلتفت إلى أنّ المرور في تعبير: ﴿مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ﴾، أعمّ من المرور الفيزيائيّ وغيره. ومثال المرور الفيزيائيّ: أنّ يمرّ الإنسان في شارع أو زقاق، فيتعرّض لشتائم شخص آخر أو إهاناته، أو أن يقوم ذلك الشخص بفعل غير لائق بحقّه. ولكن ليس من الضروريّ دائمًا أن يحدث

هذا المرور عبر الالتقاء البدنيّ والمواجهة المباشرة وجهًا لوجه، بل قد تقع المسألة أحيانًا من خلال إهانة يكتبها شخص لآخر في مقال ما، أو من خلال صورة ينشرها في مجلة أو صحيفة.

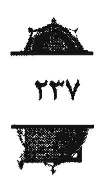
وإنّ «عباد الرحمن» في جميع هذه الموارد يتّسم تعاملهم مع هؤلاء الأشخاص بسعة الصدر، ومرورهم بهم بالكرم، وعبورهم عن هذه المسألة بالهدوء والارتياح، فلا يستاءون ولا ينزعجون. وعندهم ليس هذا المقام مقامَ ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[1]؛ لأنّ المعاملة بالمثل في مقابل قلّة العقل والسلوك الطفوليّ والتصرّف الصبيانيّ قد تنمّ عن مُشابهة ومُشاكلة بين «عباد الرحمن» والطرف المقابل لهم، والحال أنّ أصحاب هذه السلوكيّات قد يكونون على حدّ تعبير القرآن الكريم كالحيوانات، بل أضلّ وأسفل من الحيوانات! يقول الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2].

من هنا، فمن الجدير بالإنسان العاقل، الذي اختار سلوك طريق عبوديّة الله تعالى أن يتصرّفَ بكرم، ويبديَ سعة صدر في مقابل أمثال هؤلاء الأشخاص؛ إذ إنّهم ـ في الأساس ـ لا يستحقّون أن يصرف من أجلهم وقتٌ وتفكير. ويكفي عند «عباد الرحمن» أن يصونوا أنفسهم من شرّ أمثال هؤلاء، وأن يُخلّصوا أنفسهم من نيران فتنتهم بأسرع الطرق وأكثرها احترامًا.

---

(١) سورة **النحل**، الآية ١٢٦.

(٢) سورة **الفرقان**، الآيتان ٤٣ و٤٤.



وينبغي أن نعترف بأنّ مثل هذا التصرّف ليس سهلًا أو بسيطًا على الإطلاق، وليتمكّن الإنسان من القيام بمثل هذا الأمر، عليه العمل مسبقًا على تقوية مَلَكة الحلم في نفسه، كي يستطيع السيطرة على أعصابه، والتحكّم بها في مثل هذه الموارد؛ فإنّ طبيعة الإنسان قد خُلقت بنحوٍ يجعله في مثل هذه الظروف في معرض الغضب والاستياء، ولذلك من المحتمل كثيرًا أن يُقدم على تصرّفات غير محسوبة وغير عقلانيّة. من هنا، ينبغي على الإنسان أن يُهيّئ نفسه مسبقًا، ليتمكّن في مثل هذه الظروف من إظهار ردّة فعل مصاحبة للحلم والسكينة والوقار. وبطبيعة الحال، إنّ التعامل بكرم ورحابة صدر في مثل هذه الموارد هو في الحقيقة أثر ولازم لوجود هذه الصفة عند الإنسان، وإنّ الآية الكريمة لم تذكر بشكل مباشر أنّ «عباد الرحمن» أناس يتحلّون بصفات الحلم والسكينة والوقار، إلّا أنها ذكرت أثرًا وسلوكًا يحكي عن هذه الصفات؛ فالشخص الذي يتحلّى بصفات الحلم والسكينة والوقار إذا قابل أهل اللغو وواجه تصرّفاتهم غير اللائقة، لا يقع تحت تأثير عواطفه وأحاسيسه العابرة، بل يتصرّف بكرم، ويُظهر سعة صدر.

نوعان مختلفان من ردّة الفعل في مقابل أهل اللغو

ومن الأمور التي يجدر ألّا تغيب عن أذهاننا في هذا المجال، أنّ أكثر المسائل الأخلاقيّة والتربويّة، تحمل في طيّاتها نُكاتٍ ظريفةً، غالبًا ما يُغفل عنها. ومن الأمثلة على هذه النُّكات، ما أشرنا إليه في بحث التواضع، حيث نبّهنا على ضرورة ألّا نتوهّم أنّ التواضع دائمًا وفي جميع موارده أمر قيّم وممدوح، بل إنّه في بعض موارده ـ بالإضافة إلى افتقاده للقيمة الحسنة ـ قد يكون مذمومًا ومنافيًا للقيمة.



وفي بحثنا الحالي أيضًا، ينبغي الالتفات إلى أنّه لا ينبغي للإنسان المؤمن أن يتصرّف دائمًا بحلم وسعة صدر في مقابل الأفعال غير اللائقة التي تصدر من الآخرين، وأن يمرّ دائمًا مرور الكرام من دون أيّة مبالاة أو اعتناء بالموضوع. بل على أساس تلك القاعدة الكلّيّة التي بيّناها في بحث التواضع، إنّما يكون التزام السكوت وعدم المبالاة في مقابل سلوكيّات الآخرين السيئة أمرًا مطلوبًا وممدوحًا، عندما يكون في مسير عبوديّة الله تعالى وطاعته. أمّا الموارد التي يكون فيها موجبًا لتضييع الحقّ الإلهيّ، فإنّه لا يبقى حينئذٍ أمرًا قيّمًا؛ ممدوحًا ومطلوبًا.

فإذا كان التصرّف القبيح والسلوك السيّئ الصادر من الآخرين موجبًا لتضييع الحقّ الشخصيّ فقط، فهُنا ينبغي للعبد أن يقول: «إنّي وكلّ ما أملك فداءً لعبوديّة الله تعالى، فكلّ هذا العالم قد ارتدى حلّة الوجود بإرادة واحدة منه تعالى، ويفنى ويزول بإرادة واحدة منه أيضًا، لذلك فإنّ هذا العالم الموجود برمّته، لا يستحقّ أن أستاء لحظة بسببه أو أن أتصادم مع السُذّج وأصحاب الأفعال اللغويّة وغير النافعة». ولكن في بعض الموارد، قد يكون هذا التصرّف الصبيانيّ الجاهل باعثًا على الإساءة إلى العظمة الإلهيّة وتضييع حقّ الله تعالى والتعرّض لساحته القدسيّة، وهنا، ينبغي على المؤمن ألّا يسكت عن هذه الأفعال، وألّا يعبر عنها بهدوء وارتياح، بل ينبغي في مثل هذه الموارد، أن يُظهر المرء غضبه وأن يثور وينهض، للذّود عن الحقّ الإلهيّ، والدفاع عن العظمة الإلهيّة. وإنّه لو كان من المقرّر ألّا يغضب الإنسان من الأساس في أيّ موضع، فلماذا إذًا خلق الله تعالى القوّة الغضبيّة وزرعها في باطن الإنسان؟! وفي هذا السياق، وردت في كتبنا الحديثيّة رواية تضمّ تعبيرًا عجيبًا، حيث تقول: إنّ الشخص الذي لا يكفهرّ وجهه ولا يغضب لله عزّ وجلّ فإنّ جزاءه أن تجذبه نار جهنّم إليها!



ومن هنا، فإن واجهنا موقفًا وكان السكوت عليه وعدم إبداء الاهتمام به موجبًا لتضييع الحقّ الإلهيّ، أو توهين الدِّين الإسلاميّ، أو إهانة المقدّسات الدينيّة، أو التعرّض للعظمة الإلهيّة، فيلزم عدم السكوت في مقابله أبدًا. ولكن ممّا يدعو إلى الأسف، أنّ بعضًا يقول بلزوم السكوت وعدم المواجهة في مثل هذه الموارد أيضًا. ومن خلال طرحهم لشعارات من قبيل: «الباطل يموت بموت أهله»، و«الباطل يموت بترك ذكره»، يوجّهون أفعالهم ويسوّغون توجّهاتهم، فيعتبرون القيام بردّة فعل تجاه هذه السلوكيّات، والنهوض في مواجهة هذه التصرّفات، نوعًا من التبليغ والترويج لهؤلاء الأشخاص ولأعمالهم الباطلة. ومن هنا، يرون أنّ أفضل سياسة يمكن اتّباعها في التعامل مع هذه الفئات، هي عدمُ إظهار أيّة ردّة فعل في مقابل أفعالهم، وتركُهم بحالهم كي ينطفأ ذكرهم، ويُنسى بمرور الزمان.

ولكن، هل ـ حقًّا ـ يمكن أن نلتزم الصمت في مقابل إهانة مقدّسات الإسلام؟ وهل يُعقل ألّا نبديَ أيّ اهتمام بهذه الأمور، وأن نتجاوزها بهدوء تام؟! وهل يمكن أن نُطلق اسم «الفعل الكريم» على تقصيرنا في مواجهة من يُضيع الحقّ الإلهيّ، ويتعرّض للعظمة الإلهيّة، ويُهين القيم الإلهيّة، والتزامِنا الصمت في مقابل هذه الأمور؟! أم أنّه ـ في الواقع ـ محض تقاعس وتقصير وتهاون في أداء التكليف الإلهيّ؟

إنّنا من الممكن أن نتجاوز ونصفح فيما يرتبط بحقّنا الشخصيّ، أمّا حقّ الله تعالى، وحقّ العزّة والعظمة الإلهيّتين، وحقّ الإسلام والقرآن الكريم، فلا مجال أبدًا لغضّ الطرف عنه والصفح عن تضييعه؛ فعزّة الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين ينبغي أن تراعى حرمتها، وأن تبقى محفوظة ومصونة. وهذه المسألة لا يمكن لأحد أن يتهاون فيها؛ ﴿وَلِلَّهِ

ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[١]، وإنّ كلام الله تعالى ينبغي أن يُجعل أعلى مكانةً، وأرفع مقامًا من كلّ كلام في العالم؛ ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾[٢]، وبما أنّ «الإِسْلام يَعْلُو وَلا يُعْلى عَلَيْه»[٣]، ينبغي أن نجعل دين الإسلام أعظم وأسمى من كلّ ما سواه. وعلى هذا الأساس، إذا تعرّض الإسلام والأحكام الإلهيّة والمقدّسات الدينيّة للتوهين في مكان ما، فلا يكون المورد مورد سكوت ولا المقام مقام ﴿مَرُّواْ كِرَامٗا﴾، بل إنّ ذلك اللغو الذي يجدر بالإنسان أن يتجاهله، وأن يسلك طريق الهدوء في التعامل معه، مصداقه تلك الموارد التي يتعرّض فيها حقّ الإنسان نفسه للتضييع، والموارد التي يُجعل فيها الإنسانُ نفسُه موردًا للتوهين والسخرية والتجاسر، وتكون نتيجة العفو والتصرّف الكريم في مثل هذه الموارد أن ينال الإنسان محبّة أكبر من الله تعالى. ولكن عندما يوجّه أولئك الناس تجاسرهم نحو الله تعالى ودينه وأحكامه، وعندما يعمدون إلى إدخال البدع في الدِّين، وترويجها بين الناس، فحينئذٍ ينبغي عدم الجلوس والتزام الصمت، بل إنّ من شأن السكوت في مثل هذه الموارد أن يوجب حلول اللعنة الإلهيّة على الإنسان وأن يكون مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[٤]

وإنّ العلماء الذين يلتزمون الصمت حيال ظهور البدع في الدِّين، ولا تثور حميّتهم في مقابلها، تنالهم لعنة الله تعالى وجميع اللاعنين.

---

(١) سورة **المنافقون**، الآية ٨.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ٤٠.

(٣) العلامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٦٥، الصفحة ٢٣٥، الرواية ١٥، الباب ٥.

(٤) سورة **البقرة**، الآية ١٥٩.



وفي هذا السياق، يقول رسول الله ﷺ في إحدى الروايات الشريفة: «إِذا ظَهَرَتِ الْبِدَعُ فى أُمَّتى فَلْيُظْهِرِ الْعالِمُ عِلْمَهُ، وَإِلاّ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلائِكَةِ وَالنّاسِ أَجْمَعين»[1].

ومن هنا، فمن غير الجائز على الإطلاق، التزام الصمت في مقابل الذين يُقدمون على إهانة الدِّين والمقدّسات والتجاسر عليها بالقول والفعل، والاستهزاء بالأحكام والحقوق الإلهيّة. في مثل هذه الموارد، لا معنى للحلم والوقار، ولا للتصرّف الكريم.

ملاحظة النفس أم ملاحظة الله؟

إنّ بعضنا إذا تأمّل في أعماق نفسه، يجد أنّه يتأذّى ويستاء عندما تتعلّق المسألة بشخصه، وتتوجّه الإهانة إليه، وتكون حقوقه الشخصيّة في معرض التضييع. أمّا عندما يتعلّق التوهين بالإسلام والمقدّسات، فإنّه يتقبّلها بأريحيّة، ويعفو عن مرتكبها بكرم وحلم! فإذا كان الأمر على هذا النحو، فيصبح من المعلوم حينئذٍ أنّنا ـ في الواقع ـ نعبد أنفسنا عوضًا عن عبادة الله تعالى، وأنّ معبودنا الحقيقيّ أصنام النفس وأوثانها.

ونذكر في هذا الصدد خاطرةً لا تخلو من لطافة وفائدة. إنّ الذين أدركوا زمان الحكم البهلويّ، فترة ما قبل الثورة الإسلاميّة المباركة، يتذكّرون إلى أيّ حدّ كانت الموسيقى في ذلك الزمان رائجة ومنتشرة في الأزقّة والأحياء، وقد كان بعضهم يرفع صوت الموسيقى إلى درجةٍ توجب أذيّة جيرانه وإزعاج القاطنين في محيطه، وكان هذا الأمر على كلّ حال يسبّب كثيرًا من المشاكل والمتاعب للأفراد المتديّنين. وقد اتّفق

---

(١) العلامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٥٧، الصفحة ٢٣٤، الرواية ١٨٨، الباب ١.

في بعض الأيّام أن كنت مسافرًا برفقة أحد المتديّنين، وكنّا نجلس على مقعد مشترك، فبدأ هذا الشخص بالتذمّر والشكوى قائلًا: «إنّ أوضاع مجتمعنا في هذه الأيام باتت مليئة بالفساد، وإنّ زماننا هذا بات زمان المعاصي والذنوب، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يرتاح بسبب سلوكيّات أهل المعصية».

فبادرته بالسؤال: «لماذا؟ ما الذي يُزعجك ويُقلقك إلى هذا الحدّ؟».

فأجابني: «لقد حيّرتني مسألة الموسيقى هذه، فلقد انعدم الحياء عند الناس إلى درجة أنّهم باتوا لا يعيرون أيّ اهتمام في الأساس للأحكام الإلهيّة، ومهما قدّمتَ لهم من نصائح ومواعظ فلا أثر لها على الإطلاق».

فسألته ثانيًا: «من وجهة نظركم، هل ذنب الغناء والموسيقى التي تتحدّث عنها أشدّ أم ذنب الغيبة؟». ولمّا كان هذا الشخص من طلبة العلوم الدينيّة وعلى معرفة واطّلاع بالمعارف الإسلاميّة، أجابني: «بالطبع، ذنب الغيبة أشدّ وأعظم؛ إذ إنّ الروايات الشريفة التي وردت في شأن الغيبة عجيبة جدًّا، ويظهر منها أنّ ذنب الغيبة أكبر وأسوأ بمراتب من ذنب الغناء والموسيقى».

فقلت له: «وهناك كثير من الذنوب الأخرى هي أيضًا أسوأ وأشدّ بالمقايسة إلى ذنب الموسيقى، فالرِّبا ـ مثلًا ـ من جملة هذه الذنوب، حتّى جاء في بعض الروايات الشريفة عن رسول الله ﷺ أنّه قال: درهم ربا أعظم من سبعين زنية كلّها بذات محرم في بيت الله الحرام»[1]، وأردفت قائلًا: «لو تجاهر شخصٌ أمامك بأكله الرِّبا، فهل سينتابك الاستياء بهذا الحدّ الذي ولّده فيك صوت الموسيقى؟! ولو اغتاب أحد شخصًا

---

(١) العلامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ١٠٣، الصفحة ١١٦، الرواية ٦، الباب ٥.



مؤمنًا في مجلس أمامك، فهل سوف تتأذّى بنفس المقدار الذي آذاك فيه صوت الموسيقى؟!».

لقد أردت ـ في الواقع ـ أن أُفهم هذا الشخص وأقول له: إنّه إذا كان قد انزعج من صوت الموسيقى المُرتفع، فإنّ مقدارًا من هذا الانزعاج يرجع إلى أنّ من رفع صوت الموسيقى لم يراعِ احترامك، وقد توجّه بالإهانة إلى شخصك، وأراد أن يسيء إليك، وأن يتهجّم عليك بسبب ارتدائك زيّ علماء الدين. ومن هنا، فإن لم نقل: إنّ كلّ هذا الاستياء أو القسم الأعظم منه، فعلى الأقلّ إنّ مقدارًا منه يرجع إلى أنّ هذا الشخص قد اعتبر نفسه طرفًا في هذا المسألة، ورأى في هذا العمل توهينًا لشخصه. أمّا لو ارتكب أحد ذنب الغيبة أمامه أو تجاهر بأكل الرِّبا، فلأنّ هذه الذنوب لا تستهدف شخصه، ولا تنال من شأنه ومقامه، لا يستاء ولا ينزعج.

ولو كان منشأ استياء الإنسان هو ارتكاب الذنب، فهل يفرق ذنب عن ذنب؟! فكيف للإنسان أن يُظهر ردّة فعل إذا ارتكب أحد ذنبًا لازمه إهانة حرمته والإساءة إلى شخصه، ولا يبدي أيّ تفاعل إذا تجاسر أحد على الدِّين والمقدّسات وأهان الأحكام الإلهيّة، بل يقول حينئذٍ بلزوم الصبر والتريّث؟!

إنّ هذه الأمور ـ في الواقع ـ من مكائد الشيطان، وهو استياء للنّفس، لا لله تعالى، إلّا أنّ تسويلات الشيطات توهم الإنسان أنّ سبب استيائه هو ارتكاب الآخرين لهذه الذنوب. إنّ كثيرًا منّا يخصّص آية: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[1]، بذلك اللغو الذي لا يتمّ التعرّض فيه

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٢.

لشخصه وشخصيّته وحقّه. والحال أنّه ـ وفق الآيات الكريمة والروايات الشريفة ـ إذا سكت الإنسان في مقابل تضييع الحقّ الإلهيّ، فإنّه سيغدو مشمولًا في لعنة الأوّلين والآخرين؛ فإنّ هذه الموارد ليست موارد ابتسام وصفح ومداراة، وأقلّ ما ينبغي على المسلم القيام به في مثل هذه الموارد، أن يُظهر غضبه ويُقطّب وجهه، وإلّا فإنّ نار جهنّم سوف تجذبه إليها.

ومن جهةٍ أخرى، فإنّ من الأمور التي ينبغي عدم الغفلة عنها، أنّ الإنسان المؤمن ـ على أساس تقسيم من التقسيمات ـ يمكن أن يُتصوّر له وجهان اثنان؛ فالمؤمن من جهةٍ أولى ولحاظ أوّل يُمثّل «شخصيّةً وأنا»، ومن جهةٍ ثانية ولحاظ ثانٍ يُمثّل «مؤمنًا». وإنّ هذه الصفات التي تُذكر لعباد الرحمن، الغرض منها ـ في الواقع ـ أن يُصغّر الإنسان جهة الـ«أنا» في مقابل الله عزّ وجلّ، ومن خلال استصغار هذه الـ«أنا» يساهم الإنسان في إيصال عظمة الله وكبريائه تعالى إلى منصّة الظهور.

وإنّ جملة المباحث التي تطرّقنا إليها حتى الآن ـ فيما يرتبط بالمرور الكريم باللغو، والسكوت في مقابل تصرّفات الجاهلين الصبيانيّة، وعدم إبداء أيّ اهتمام بها ـ ترتبط بالموارد التي توجّه فيها الإهانة إلى الـ«أنا»، وتستهدف هذه الأفعال الصبيانيّة تضييع الحقّ الشخصيّ. فهنا نقول: ينبغي أن نتصرّف بكرم، وأنّ نمرّ أمام الإهانة والتجاسر وأذيّة الجاهلين بحلم وسعة صدر. أمّا لو لم تكن هذه التصرّفات موجبةً لإهانة الـ«أنا» وتضييع الحقّ الشخصيّ، بل كانت سببًا في تحقير المؤمن وهتك حرمته، فهنا لا يُجيز الله تعالى كسر حرمة المؤمن وتحقيره. بل إنّ أمثال هذه الموارد في الواقع هي مصاديق للآية الشريفة: ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ



لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾[١]، بل إنّ إرادة الله تعالى تقضي بأن يكون المؤمن ـ من جهة كونه مؤمنًا ـ عزيزًا دائمًا، والله تعالى لا يسمح بتاتًا بأن يُسيءَ أحدٌ الاحترام بحقّ الإنسان المؤمن؛ ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢].

ولكن في جميع الأحوال، ينبغي على الإنسان في مثل هذه الموارد، أن يكون على حذر تامّ ودقّة عالية في تحديد ما إذا كان استياؤه من جهة كونه مؤمنًا ناله التحقير وتوهين، أم من جهة أنّ الـ«أنا» قد تعرّضت للإهانة، ولم يُـراعَ احترامها فاستاءت. وفي الأسـاس، فإنّ واحـدة من مميزّات النظام القيميّ الإسلاميّ تكمن في هذه اللطافة والنُّكات الظريفة والدقيقة التي لا نظير لها في سائر المدارس، والتي يُظهرها الإسلام في مختلف المسائل. فكم من أفعال وسلوكيّات يراها الناس متساوية، ويتوهّمون أنّها واحدة، ولكنّ الاختلاف بينها ـ في الواقع ـ كما بين السماء والأرض. فمثلًا، قد يؤدّي شخصان صلاتهما في المسجد، بل في الصفّ الأوّل من صلاة الجماعة بلحن عذب وجميل، ولكنّ الروايات الشريفة تؤكّد على أنّه مع كلّ هذا التشابه بين الصلاتين، صلاة أحدهما قد تُدخله إلى الجنّة، وصلاة الآخر قد ترديه في نار جهنّم!

فإنّ الأعمال وإن تشابهت ظواهرها واتّحدت قشورها، ليست سواءً. وإنّ هذه الروايات وأمثالها تريد لفت انتباهنا نحو التدقيق في باطن العمل وقلب صاحبه ونيّته؛ فإنّ الإنسان قد يؤدّي صلاته ونيّته منها أن يُظهر نفسه وصلاته أمام الناس، وقد يؤدّيها بنيّة سليمة، فيحصل بسببها

---

(١) سورة **النساء**، الآية ١٤١.

(٢) سورة **المنافقون**، الآية ٨.

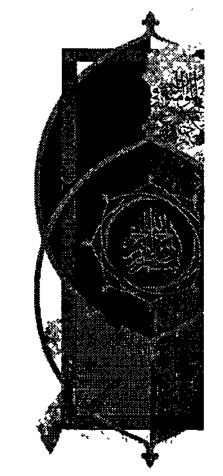


على حالة من التوبة والانكسار، فيعقد عهدًا وميثاقًا مع الله على عدم ارتكاب الذنوب مرّة أخـرى. إنّ الصلاة الأولـى توجب هلاك الإنسان وابتعاده أكثر ما يمكن عن الله تعالى، وتنتهي به إنسانًا جهنّميًا. أمّا الصلاة الثانية، فإنّها تجعل الإنسان محبوبًا عند الله تعالى، وتقوده نحو جنّة الفردوس ومجاورة الأخيار والصالحين. من هنا، فإنّ بحث النيّة والدافع من أهمّ الأبحاث في النظام القيميّ الإسلاميّ، ومن الضروريّ أن نجعله موردًا للتأمّل والتدقيق أكثر ممّا سبق.



الدرس الحادي عشر:

عباد الرحمن والصلاة



﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ۝٦٣ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾[1]

مع الصلاة من الليل حتى الصباح

أثناء متابعة سيرنا في بحث أوصاف «عباد الرحمن» الواردة في الآيات الأخيرة من سورة «الفرقان»، وصل بنا الكلام إلى استعراض صفةٍ أشارت إليها الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾[2].

وكما أشرنا سابقًا، إنّ القرآن الكريم زاخرٌ بمجموعات مختلفة من الآيات الكريمة التي يتمحور حديثها حول فئاتٍ خاصّة من البشر نظير «الصالحين»، و«المؤمنين»، و«المتقين»، و«المحسنين» وغيرها من الفئات، بحيث تطرح عنوانها وتذكر أوصافًا لأفرادها. وإنّ من المسائل التي ذُكرت في جميع هذه الموارد تقريبًا، ووقعت مورد تأكيد جميع هذه الآيات، مسألة «الصلاة»، وإن لم تكن طريقة التعبير واحدة في

---

(١) سورة **الفرقان**، الآيات ٦٣ و٦٤.

(٢) سورة **الفرقان**، الآية ٦٤.

جميع الموارد، بل اختلفت نوعًا ما بحسب ما يقتضيه المقام، وما تتطلّبه البلاغة والفصاحة التي تُلحظ في الكلام الإلهيّ. بَيْدَ أنّنا لا نلاحظ هنا أيّ ذكرٍ لعنوان «الصلاة» أثناء طرح الآيات الكريمة لأوصاف «عباد الرحمن». ولكن، ذكرت هذه الآيات تعبيرًا آخر في مقام التأكيد على مسألة الصلاة، وهذا التعبير يفوق سائر التعابير ثقلًا وغنىً، وهو تعبير لا يتناسب على الإطلاق مع حال أمثالنا، لذا فإنّ بحثه ودراسته يعدّ أمرًا مُشكلًا ومُتعذّرًا بالنسبة إلى أمثالنا. وممّا يُضاعف من صعوبة الحديث عن هذا التعبير، عدم وجود أيّ انسجام بين ثقافتنا في هذا الزمان، وبين ما يفيده هذا التعبير. وبالطبع، لا تختصّ مسألة عدم الانسجام هذه بالمورد الذي نحن بصدد بحثه، بل ثمّة موارد عديدة في آيات القرآن الكريم تتضمّن مطالب ننظر إليها في أيّامنا هذه بعين التعجّب والدهشة، ويصعب علينا التصديق بها، بل تصوّرها أيضًا! ومن الواضح والمعلوم، أنّ القرآن الكريم في هذه الآيات لا يتحدّث جزافًا ـ والعياذ بالله ـ بل إنّ جميع المطالب التي يطرحها هي أمور عمليّة، ممكنة وقابلة للتحقّق.

وعلى أيّة حال، فإنّ الله تعالى يقول في هذه الآيـة: «إنّ عباد الرحمن هم أشخاصٌ يصِلون ليلَهم بنهارهم وهم في حالة قيام وسجود. وإنّ تعبير: ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾[1]، إنّما يُمكن استعماله في الموارد التي يُصرف قسمٌ كبيرٌ من الليل في أداء الصلاة بسجداتٍ طوال. هذا، والحال أنّ صلواتنا الواجبة، والتي نصلّيها بنحو متفرّق وموزّع على طول اليوم، ولا نخصّص لكلّ منها أكثر من دقائق معدودة، لا نؤدّيها إلّا ونحن كُسالى، وسرعان ما ينتابنا التعب والإرهاق بسببها! حتى إنّ بعضنا إذا شارك في صلاة الجماعة واتّفق أن كانت صلاة الإمام طويلة نوعًا ما،

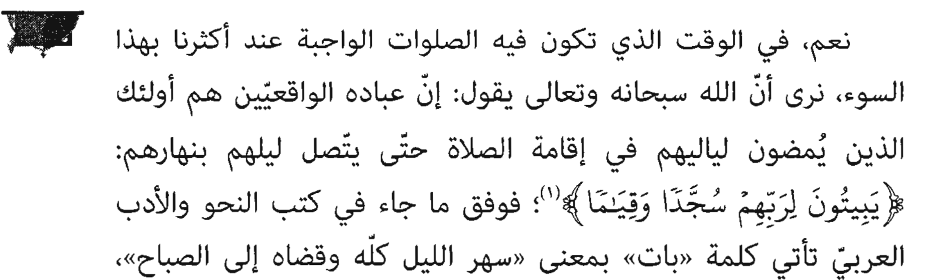
---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٤.





عال صبره، فيبدأ في عدّ لحظات الصلاة لتنتهيَ بأسرع ما يمكن، ويرتاح من همّه.



نعم، في الوقت الذي تكون فيه الصلوات الواجبة عند أكثرنا بهذا السوء، نرى أنّ الله سبحانه وتعالى يقول: إنّ عباده الواقعيّين هم أولئك الذين يُمضون لياليهم في إقامة الصلاة حتّى يتّصل ليلهم بنهارهم: ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾[1]؛ فوفق ما جاء في كتب النحو والأدب العربيّ تأتي كلمة «بات» بمعنى «سهر الليل كلّه وقضاه إلى الصباح»، في مقابل كلمة «ظَلَّ»، التي تعني «قضا نهاره إلى الليل».

وفي جميع الأحوال، فإن لم نَقُلْ: تمام الليل، فعلى الأقلّ ينبغي على الإنسان أن يقضيَ شطرًا كبيرًا من ليله في عملٍ حتّى يُقال في حقّه: «بات على كذا» أو «يبيت على كذا». ومن البعيد جدًّا، أن يصحّ استعمال هذا التعبير في الموارد التي يقضي فيها الإنسان بضع دقائق أو نصف ساعة أو ما شابه، منشغلًا في عمل.

ومن هنا، فإنّ تعبير: ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾[2]، إنّما يصدق حينما يقضي الإنسان تمام ليله، أو قسمًا كبيرًا منه، في العبادة، وأداء الصلاة والقيام والسجود. ويذكّرنا هذا التعبير بما ورد في الآيات الأولى من سورة «المزّمل»، حيث يقول الله تعالى لنبيّه الكريم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[3]. إنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هو ذلك الإنسان الذي نزل القرآن على قلبه المقدّس، حتّى غدا وجوده تجسّمًا للقرآن

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٤.

(٢) سورة **الفرقان**، الآية ٦٤.

(٣) سورة **المزّمل**، الآيات ١ إلى ٤.



الكريم. ومع كلّ هذا، يأمره الله تبارك وتعالى أن يقضيَ على الأقلّ نصف ليله، أو أنقص بقليل أو أزيد، مُشتغلًا بالعبادة، وأن يتلوَ آيات القرآن الكريم بتأنٍّ وترتيل.

أسطورة أم حقيقة!

لا أدري ما إذا كان الآخرون يشاطرونني الرأي، ولكنّني عن نفسي أقول: إنّني ـ في الواقع ـ عندما أواجه أمثال هذه المفاهيم والتعابير القرآنيّة ينتابني كثيرٌ من التعجّب والحيرة. فنحن الذين نحسب أنفسنا من أتباع القرآن الكريم، وخاصّةً أمثالي الذين أخذوا على عاتقهم مهمّة تبليغ الدين وارتدوا زيّ خدمة صاحب الزمان عليه السلام ورداء جنوده، إلى أيّ حدّ يمكن لأمثال هذه الآيات أن تكون قابلة للتطبيق في أفعالنا وحياتنا العمليّة؟

إنّ الآية التي تشكّل محلّ بحثنا الفعليّ تقول: إنّ «عباد الرحمن» هم أشخاص يُمضون ليلهم بالصلاة والعبادة والسجود وقراءة القرآن، حتّى يطلع الصباح عليهم. والآن، فلنقارن مضمون هذه الآية مع حال أمثالنا الذين يستغرقون كلَّ ليلهم أو أكثره غارقين في الفراش، ويصلون الليل بالنهار بالنوم والرقاد.

إنّ هذه المطالب، وإن كان من الممكن أن تبدو لنا محض أساطير، إلّا أنّنا نعرف عددًا من العظماء الذين عاشوا مثل هذه الحالات واقعًا؛ حيث يقول أحد العظماء ـ ولم أسمعه يومًا يتحدّث عن نفسه وأعماله وحالاته ـ: «في أيّام شبابي كنت أؤدّي الصلاة في مسجد السهلة ومقام إبراهيم عليه السلام، فأقرأ في الركعة الأولى سورة البقرة، وفي الركعة الثانية سورة آل عمران». فمن المؤكّد أن مثل هذه الحالات لن تكون غريبةً





وخياليّةً، عند شخصٍ يقرأ في صلاة واحدة فقط سورتي البقرة وآل عمران، أي: ما يُقارب أربعة أجزاء من القرآن.

وقد نقلوا عن حالات الشيخ الأنصاريّ أنّه أيّام دراسته في النجف الأشرف، دخل إلى منزله في يومٍ من أيّام الصيف الحارّة، وكان في غاية العطش والظمأ، فطلب من أهلِ بيته أن يُحضروا له شيئًا من الماء ليشرب ـ وإنّ من شهد يومًا من أيّام الصيف في النجف الأشرف يعلم إلى أيّ حدّ هو حارّ، فماء النجف وهواؤه شبيه تقريبًا بما هو موجود في مناطق إيران الجنوبيّة كـ«الأهواز» و«دزفول». وفي ذلك الزمان، لم يكن في النجف وجود للثلج والثلّاجات، فكانوا يعمدون إلى إنشاء سراديب عميقة لحفظ المواد الغذائيّة وتبريد المياه في فصل الصيف، فيضعون جرّات المياه في السرداب كي تصبح باردة إلى حدّ ما، وعندما يحتاجون إلى الماء يأخذون مقدار حاجتهم من هذه السراديب ـ، وبعدما طلب الشيخ الأنصاريّ الماء، قرّر أن يغتنم الفرصة ويصلّي ركعتين؛ لأنّ الذهاب إلى السرداب وإخراج الماء من داخله يتطلّب وقتًا، فكبّر فورًا وشرع بالصلاة. تصوّروا أنّ الشيخ في ظهر يومٍ حار من أيّام الصيف التي تبلغ فيها درجة الحرارة في النجف الخمسين درجة، يرجع مُرهقًا من درسه فيطلب الماء كي يشرب، فيغتنم الفرصة في هذه المدّة ليؤدّي صلاةً لئلّا يجلس دون أيّ عمل! على أيّة حال، بعد أن شرع الشيخ بصلاته صادفَ أن ظهرت له حالة معنويّة جيّدة، فبدأ بقراءة السور الطوال كي يلتذّ أكثر بلقاء المحبوب والحديث معه، ممّا أدّى إلى أن تطول مدّة صلاته. وفي النتيجة، عندما انتهى من صلاته، همّ بشرب الماء، فوجده قد أصبح حارًّا، فشرب مقدارًا منه وشكر الله، وعاد إلى برنامجه وأعماله!

نعم، ها هم «عباد الرحمن» الذين يحذون حذو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيقولون: «قُرّةُ عَيْني فِي الصَّلاةِ»[١]. بالطبع، إنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام يُمثّلون المصداق الأبرز لمثل هذه الآيات، ولا شكّ في ذلك، ولكن بالإضافة إلى هؤلاء المعصومين عليهم السلام، يُمكن أن نشاهد بين أتباعهم وتلامذتهم الحقيقيّين نماذج عظيمة لهذه الآيات، وبين أيدينا قصص وحوادث قد نُقلت عنهم يَطمئنّ الإنسان بصدقها وصحّتها، بل يكاد يُقسم بذلك.

أمّا اليوم، فمع أنّنا نعيش في مجتمع ونظام إسلاميّين، إلّا أنّنا ـ مع الأسف ـ نمتلك نظرةً ورؤيةً حول الحياة ومسائلها تبعث على أن تكون أمثال هذه الآيات والروايات غريبةً وغير مأنوسة عندنا؛ فنحن الذين نعتبر أنفسنا أتباع هذا الكتاب، وأبناء هذا الدِّين، والذين ندّعي أنّنا تربّينا في هذا المذهب، عندما نتأمّل في أسلوب حياتنا، نرى أنّ أفعالنا وأحوالنا لا تُشبه أبدًا مضمون هذه الآيات. فنجد في هذا المجال، أنّ بعض المطالب المطروحة في هذه الآيات لا يكون لها في بعض الأحيان أيّ ظهور عينيّ أو تحقّق محسوس عندنا. ومن هنا، يصعب علينا إدراكها وتطبيقها في مقام الذهن والتصوّر، فضلًا عن التحقّق بها خارجًا. ولكنّ مضمون الآية التي نبحثها الآن، يعدّ من جملة المسائل المحسوسة والقابلة للتصوّر بشكل كامل عندنا؛ فجميعنا يعلم حقّ العلم أنّ الاشتغال في أداء الصلاة من الليل إلى الصباح ليس دُعابةً ولا بالعمل السهل والبسيط؛ إذ إنّنا من أجل أن نبقى مُستيقظين في ليلة قدر واحدة على طول السنة نتوسّل بعشرات الخُطط كي نُوفّق ـ في النهاية ـ لقيامها. وفي هذه الليلة، نتوضّأ عدّة مرّات، ونغتسل، ونصبّ الماء على وجوهنا،

---

(١) العلّامة المجلسي، **بحارالانوار**، الجزء ٧٦، الصفحة ١٤١، الرواية ٨، الباب ١٩.



ونقرأ دعاء الافتتاح، ودعاء الجوشن الكبير، ومقدارًا من دعاء أبي حمزة الثماليّ، ونصلّي عدّة ركعات، ونجلس تحت المنبر ونستمع الرّثاء، ونؤدّي مراسم تلاوة القرآن. وفي المحصّلة، فإنّنا نُوفّق ـ في النهاية ـ من خلال إشغال أنفسنا بمختلف الأعمال، لئلّا يغلبنا النعاس في هذه الليلة، فنُكمل إحياءها حتّى مطلع الفجر. ولكنّ القرآن الكريم يقول: إنّ «عباد الرحمن» هم أشخاصٌ يُحيون كلّ ليلة من لياليهم، لا ليلة واحدة فقط، فيبيتون ليلهم حتّى الصباح، مُشتغلين بالصلاة والسجود وعبادة الله.

وإنّ نقل قصص العلماء العظام وأولياء الله، يُساعدنا في هذا المجال على ألّا نتوهّم أنّ حقيقة التديّن هو هذا الشيء الموجود عندنا، ولكيلا نتصوّر أنّ مُراد القرآن الكريم من المؤمنين والعباد الصالحين هم هؤلاء المسلمون العاديّون من أمثالنا؛ إذ إنّ أمثالنا عندما يُوفّقون ـ أحيانًا ـ لصلاة ركعتين، وقراءة زيارة عاشوراء، وتلاوة شيء من القرآن، أو تأدية عمل مستحبّ، يتوهّمون مباشرةً أنّهم دائنون لله تعالى، وأنّ الله مدينٌ لهم، ويتصوّرون أنّ أقلّ ما ينبغي على الله فعله في مقابل أعمالهم هذه أن يُنزّل عليهم ملائكته لإبلاغهم الوحي الإلهيّ! ويحضرني الآن أنّ أحد الأشخاص كان يقول لي: «يقولون: إنّ الإنسان عندما يؤدّي العبادات ويتجاوز بعض العقبات والصعاب، يُصبح من أهل الكشف والكرامة والمقامات المعنويّة، ولكنّني أدّيت صلاة الليل مرارًا وتكرارًا ولم يحصل معي حتى الآن أيّ شيءٍ من هذه الأمور ولم يحدث معي أيّ كشف أو كرامة»!

بالطبع، إنّ هذا الإنسان قال ما قاله، وأعرب عن هذا الأمر بسبب بساطته، ولكنّ هناك كثيرًا من النّاس الذين وإن لم يُظهروا هذه الأمور بألسنتهم، فإنّ قلوبهم تأمل وتنتظر أن يحصل معهم كشف أو كرامة وأن

تظهر لهم في هذه الدنيا مقامات معنويّة، بعد أن يؤدّوا صلاة الليل عدّة مرّات! إنّ هؤلاء العباد لا يقنعون بثواب الآخرة، بل ينتظرون أن يرَوا في هذه الدنيا ـ وبشكل سريع ـ آثار أصغر الأعمال التي يقومون بها.

ولكن في المقابل، يُشاهد الإنسان عبادًا حقيقيّين لله تعالى، فيُصاب بالدهشة حقًّا من عِظَم حالاتهم وعبادتهم، فيصعب عليه أن يصدّق بوجود أناسٍ يمتلكون مثل هذه الحالات. فعندما نُطالع في أحوال السابقين من أولياء الله، نُصادف أشخاصًا كانوا يتألّمون ويحزنون كمن فقد عزيزًا إذا فاتتهم صلاة ليل واحدة، فلا يشتهون الطعام في ذلك اليوم، ولا يتوقّف بكاؤهم وأنينهم وهم يُحاسبون أنفسَهم ويتفكّرون في الذنب الذي بدر منهم، حتّى سُلبوا توفيق أداء صلاة الليل! وإنّ هؤلاء الأشخاص في آخر الليل ـ وبعد كلّ العبادات التي يؤدّونها ـ يسجدون لله تعالى سجدة شكر طويلة ويُخاطبونه قائلين: «كيف لنا أن نؤدّي شكر هذه النعمة، إن كنّا غير لائقين بتوفيق العبادة هذا، ولكنّك بلطفك الكبير أجزت لنا نحن المقصّرين أن نقف في محضرك ونشتغل في عبادتك!».

نعم، «عباد الرحمن» هؤلاء يستشعرون آلاف المرّات أنّهم مدينون له تعالى بسبب التوفيق الذي منحهم إيّاه، عندما جعل شرف العبادة والخضوع له من نصيبهم، وأجاز لهم السجود على أعتابه، مع كلّ ما يحملونه من تقصير، ومع أنّهم غير لائقين بهذا المقام، فضلًا عن أنّهم لا يعتبرون أنفسهم دائنين لله تعالى.

لله لا للنفس

نجد في الآية (محلّ البحث) نكتة لطيفة وجديرة بالملاحظة. وهي أنّه لو كانت الآية الكريمة على هذا النحو: «الَّذِينَ يَبِيتُونَ سُجَّدًا وَقِيامًا»، لكانت

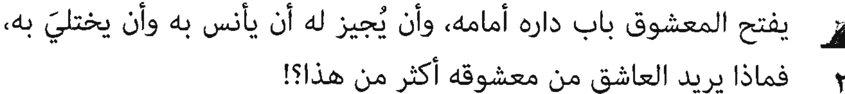


أدّت ذلك المعنى الذي بيّناه أعلاه فقط، ولكنّ التعبير الوارد في الآية هو: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾[1]، والنكتة اللطيفة في الآية ترتبط بكلمة: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾؛ فالآية الكريمة تقول: إنّ «عباد الرحمن» ليس لديهم أيّ هدف أو دافع من إحياء ليلهم بالصلاة والسجود سوى ﴿لِرَبِّهِمْ﴾، فالمحرّك الوحيد لهم نحو قيام الليل وإحيائه بالسجود والقيام، هو الله تعالى ومحبّته ورضاه. هذا، والحال أنّ كثيرًا من النّاس قد يؤدّون صلاة الليل بدوافع مختلفة؛ فمثلًا، جاء في بعض الروايات أنّ صلاة الليل تبعث على نورانيّة الوجه وجماله. ومن هنا، سمعنا ببعض النّاس الذين كانوا يؤدّون صلاة الليل طمعًا بالجمال ونورانيّة الوجه. أو مثلًا، أشارت بعض الروايات إلى أنّ صلاة الليل توجب السّعة في الرزق، ولذلك نجد بعضهم يُقدم على أدائها وأحد دوافعه، على الأقلّ، أن يحصل على حياة مزدهرة من حيث الرزق والمعيشة. وكذلك أيضًا ذُكرت آثار أخرى ومختلفة لصلاة الليل، قد تُشكّل إلى حدّ ما دافعًا ومحرّكًا لبعضهم نحو أداء صلاة الليل.

من الواضح أنّ الإنسان إذا قام الليل وأدّى صلاة الليل حاملًا مثل هذه الدوافع، فإنّ عبادته ـ في الواقع ـ تحمل لون «لِأنفُسِهِمْ» لا «لِرَبِّهِمْ»، والحال أنّ «عباد الرحمن» ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ لا «يَبِيتُونَ لِأنفُسِهِمْ». «عباد الرحمن» لا يشتغلون ساعاتٍ طويلة في العبادة، ولا يبيتون سُجّدًا وقيامًا على الأعتاب الإلهيّة، طمعًا بالآثار الدنيويّة، ولا لرفع حاجاتهم، ولا لنيل الثواب الأخرويّ أيضًا. فهل يُعقل أن يُقبل العاشق على دار معشوقه طلبًا للأُنس، ثمّ يطلب منه أجرًا بعد أن جالسه واختلى وأنس به؟! بالطبع لا؛ إذ لا هدف للعاشق من الوصول إلى معشوقه ـ في الأساس ـ سوى هذا الأنس والوئام والحديث معه. فأعظم شرفٍ عنده أن

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٤.



يفتح المعشوق باب داره أمامه، وأن يُجيز له أن يأنس به وأن يختليَ به، فماذا يريد العاشق من معشوقه أكثر من هذا؟!

ومن هنا، فإنّ «عباد الرحمن» والعاشقين لله تعالى، لا يطلبون أيّ أجر منه في مقابل عبادتهم. وإذا حازوا توفيق العبادة، فإنّهم يشعرون أنّهم هم المدينون له تعالى، فضلًا عن أنّهم لا يشعرون بأنّهم دائنون لله وأنّه مدين لهم، فيصبح جلّ همّهم في تأدية شكر هذه النعمة. فهل توفيق الحديث مع الله والأنس به، وأن يكون كلّ هذا في حال الخلوة وفي جوف الليل، نعمة قليلة، حتى يستنكفَ الإنسان عن شكرها بهذه البساطة؟! بالطبع، إنّ حقيقة هذه المسألة لا يدركها سوى العظماء والأولياء الإلهيّين فقط. أمّا أمثالنا، فمن صنف الذين إذا وُفّقوا لقيام الليل وأداء صلاة الليل، فيستحوذ عليهم الشعور بالمنّة على الله، فيتصوّرون أنّ لهم حقًّا عليه، وأنّ من اللازم على الله أن يُعوّض لهم هذه الخدمة التي أسدَوها له تعالى!

خاطرة عن الشيخ محمّد حسين الأصفهانيّ

إنّ كثيرًا منّا إذا قارنوا بين حياتهم وحالاتهم من جهةٍ، وحياة بعض العظماء والأولياء الإلهيّين من جهةٍ أخرى، فإنّهم حتمًا سوف يشعرون بالخجل، وسوف يُطأطئون رؤوسهم، ويتفكّرون في حالهم، ويمكن لهذا الأمر أنّ يكون سببًا في تذكّرهم وأخذهم للعبر. ومن هنا، نرى من المناسب أن نذكر بعض المطالب التي نعرفها حول حالات بعض هؤلاء العظام، على أمل أن نستفيد جميعنا من أنفاسهم القدسيّة والملكوتيّة.



كان أحد أساتذتنا حفظه الله ينقل لنا أحياناً بعض المطالب حول أستاذه المرحوم الشيخ محمّد حسين الأصفهانيّ ـ المعروف بالشيخ الكُمبانيّ ـ، ومن جملة المطالب التي نقلها لنا:

«كان أستاذنا الشيخ الأصفهانيّ قدس سره مُجِدًّا في المسائل العلميّة، إلى درجة أنّ من كان يرى نتاجه العلميّ كان يعتقد أنّ الشيخ يشتغل بالمطالعة والبحث والكتابة طوال الأربع والعشرين ساعة من يومه. ولقد كان الشيخ يولي أهمّيّة كبيرة للدرس والبحث والتحقيق والمطالعة، وقد نُقل عنه قصص ومطالب عجيبة في هذا المجال. وإنّ قوّته العلميّة وذهنه الوقّاد مشهودان بشكل كامل في كتاباته ومؤلّفاته، حتّى إنّ كُتبه في أيّامنا هذه تُعتبر من جملة أثقل الكتب الموجودة بين أيدينا، فحاشية الشيخ الأصفهانيّ على كتاب «كفاية الأصول» تُظهر أوج القوّة الفكريّة والعظمة العلميّة لهذا العالم الكبير. وإنصافًا، إذا تمكّن أحد من فهم مطالب هذا الكتاب جيّدًا، فليس من البعيد أن نقول: إنّ من حقّه أن يُمنح إجازة اجتهاد.

وعلى أيّة حال، فإنّ الشيخ الأصفهانيّ، مع كلّ هذا الجدّ العلمي والاجتهاد الذي لا نظير له، كان من جهةٍ أخرى من أهل العبادة، بحيث إنّ عباداته كانت بنحوٍ إذا اطّلع عليها أحد، ظنّ أنّ الشيخ ليس لديه أيّ عمل يصنعه طوال الأربع والعشرين ساعة سوى العبادة؛ فقد جمع هذا الإنسان العظيم بين العبادات الطويلة والاجتهاد العلميّ العميق، بشكلٍ يُدهش الإنسان ويُصيبه بالحيرة، وقد كانت زيارة عاشوراء وصلاة جعفر الطيّار تُعتبر من جملة الأعمال العاديّة واليوميّة للشيخ الأصفهانيّ.



وفي أواخر عمره الشريف كان ﵀ ـ بعد أداء كلّ هذه الأعمال والمطالعات والعبادات وتلاوة القرآن ـ يرقد إلى فراشه ليلًا، فتمتلئ وسادته من دموع عينيه! حقًّا ينبغي أن يُقال في حقّه: طوبى وهنيئًا له».

وإنّ الأمر المهمّ ـ في هذا المجال ـ أنّ أولياء الله هؤلاء يسلكون هذا الطريق الشاقّ بكلّ ما فيه من متاعب، لا لأجل أن يحصلوا على أجر، أو أن تُقضى لهم حاجة، أو أن تظهر لهم آثار أعمالهم في هذه الدنيا، بل إنّ كلّ حكاية هؤلاء يختصرها قوله تعالى: ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾[1]. وكلّ رغبتهم في أن يكونوا كالعاشقين، يقضون وقتهم من الليل إلى الصباح قرب معشوقهم جلّ وعلا، فليسوا كالتجّار الذين يريدون بصلاة ليلهم أن يُتاجروا ويكسبوا.

وفي جميع الأحوال، فإنّ الغرض من نقل هذه الخواطر والحالات التي عاشها العظماء، هو بالدرجة الأولى أن نستيقظ من عالم الغفلة إلى حدّ ما، وأن نتوقّف لحظاتٍ قليلة ونتأمّل في حالنا. فحقًّا ماذا نمثّل نحن في مقابل أمثال الشيخ محمّد حسين الأصفهانيّ؟ وماذا نقول أمامهم؟! فإذا كان مثوى هؤلاء العلماء والعظماء مع مثل هذه المعارف في محضر الرسول الأكرم ﷺ والأئمّة الأطهار ﵈ فأين هو مثوى أمثالنا؟ هل من الممكن أن نُمنح مكانًا لنا ولو تحت أقدام هؤلاء العظام وعلى أعتابهم؟!

خاطرتان أُخريان عن الشيخ الأصفهانيّ

كان الشيخ علي محمّد البروجرديّ ﵀ أحد تلامذة الشيخ الأصفهانيّ ﵇، وقد كان لديه عدد كبير من المقلّدين في منطقتَي «بروجرد» و«لرستان»،

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٤.



ومع أنّه كان من العلماء الكبار، لم يكن معروفًا جدًّا في المناطق الأخرى. وكان الشيخ البروجرديّ ـ كآية الله الميلانيّ ﭬ ـ من التلامذة القدماء للشيخ الأصفهانيّ، وقد حضروا درسه سنواتٍ طويلة واستفادوا من محضره المبارك. وعلى أيّة حال، ينقل أحد السادة خاطرةً لطيفة عن الشيخ الأصفهانيّ سمعها من دون واسطة من الشيخ علي البروجرديّ:

كان من المتعارف في النجف الأشرف سابقًا أن يُقيم غالبيّة العلماء والمراجع والأساتذة الكبار مجلسًا أسبوعيًّا. وعادةً، كان يُقام هذا المجلس في آخر أيّام الأسبوع الدراسيّ، كعصر يوم الخميس، أو صباح يوم الجمعة أو عصره. وقد كان هذا البرنامج الأسبوعيّ سنّةً حسنةً يجتمع فيها طلّاب العلماء ومحبّوهم، فيقرأون أذكار التوسّل بأهل البيت عليهم السلام، ويطرحون فرعًا فقهيًّا وبحثًا علميًّا ويناقشونه فيما بينهم.

وعلى أيّة حال، فقد كان الشيخ محمّد حسين الأصفهانيّ واحدًا من العلماء المشاركين في هذا المجلس الأسبوعيّ. وكان قد ألزم نفسه بأن يجمع حذاء كلّ شخص يأتي إلى مجلسه ويحضّر له كوب الشاي بنفسه.

يقول المرحوم البروجرديّ: ولقد كنت أرى أنّ الشيخ الأصفهانيّ في الفترة التي يأتي فيها الضيوف ويلقون السلام عليه، لم يكن يقول أيّ شيء غير «السلام عليكم، مسّاكم الله بالخير»، إلّا أنّ شفتيه كانتا على الدوام تتحرّكان، كأنّه يلهج بذكر ما. فسعيت كثيرًا لأفهم ما هو الذكر الذي واظب الشيخ على قراءته إلى هذا الحدّ، بحيث إنّه كان مباشرة بعض أن يقول للضيف «السلام عليكم، مسّاكم الله بالخير» يعود مباشرة إلى قراءته. أردت عدّة مرّات أن أسأل الأستاذ حول هذا الدعاء أو الذكر الذي يواظب على قراءته، إلّا أنّ هيبته كانت تمنعني من أن أسأله. إلى أن تجرّأت في النهاية فسألته في مرّة من المرّات عن هذا الذكر الذي



كان يكرّره دائمًا ولو في الفترة المتخلّلة بين جمع الأحذية والسلام على ضيوفه. فلم يرد أن يجيبني في البداية، ولكن لأنّني كنت من تلامذته وخاصّته تأمّل برهةً وقال: «من الجيّد أن يقرأ الإنسان في اليوم سورة القدر ألف مرّة».

وممّا يزيد الإنسان دهشة وحيرة أنّ صاحب هذه العبادة هو ذلك الذي كتب حاشية كتابي **الكفاية والمكاسب** بذلك العمق والدّقّة، بحيث إنّ الذي يفهم هذه الحاشية جيّدًا يُعتبر مُستحقًّا لإجازة الاجتهاد.

وإنّ أستاذنا العظيم الشيخ محمد تقي بهجت قد كان أيضًا من جملة العلماء الذي تتلمذوا في محضر الشيخ الأصفهانيّ ونهلوا من فيض علمه. وكما ينقل آية الله بهجت، إنّ الشيخ الأصفهانيّ نفسه كان يقول: إنّني شاركت في درس الشيخ الآخوند كلّ ليلة لمدّة ثلاث عشرة سنة، وعلى طول هذه المدّة لم أتغيّب عن الدرس إلّا ليلةً واحدةً! فبسبب حرارة الطقس في ذلك الزمان كان من المتعارف عادةً أنّ يلقي علماء النجف دروسهم بعد صلاتي المغرب والعشاء. ومن هنا، كان درس الشيخ الآخوند يقام في الليل أيضًا. يقول الشيخ الأصفهانيّ: إنّ علة تغيّبه عن ذلك الدرس، أنّه كان في تلك الليلة في زيارة مقام الإمامين الكاظمين عليهما السلام، وكان قد نظّم وقته بنحو يتمكّن من الوصول إلى النجف قبل موعد الدرس، ولكن صادف أن طرأ مانع على الطريق، ولعلّه كان عطلًا في السيارة التي تقلّه، ممّا أدّى إلى تأخّره وعدم تمكّنه من الوصول إلى الدرس. يقول الشيخ أيضًا: إنّه عندما التفت إلى عدم تمكّنه من الوصول إلى الدرس جلس في مكانه، وبدأ باستنتاج ما ينبغي على الشيخ الآخوند أن يلقيَه في هذه الليلة، على أساس المطالب المطروحة في الليلة السابقة، فحدس ببعض المطالب وكتبها. وفي صباح اليوم التالي،



قارن ما كتبه مع تقريرٍ لزميله في درس الشيخ الآخوند، فوجد تطابقًا بين تقريره وتقرير زميله؛ فقد كانت المطالب التي بيّنها الشيخ الآخوند في درسه هي عينها التي كتبها الشيخ الأصفهانيّ. نعم، إنّ تلك العبادات والأذكار وقراءة سورة القدر ألف مرّة ترتبط بشخصٍ قد بلغ اجتهاده وعظمته وعمقه العلميّ حدّ أن يكتب درس أستاذه الذي لم يحضره من دون أيّة نقيصة، وألّا يغيب عن درس أستاذه إلّا جلسة واحدة على طول ثلاث عشرة سنة، وأن تكون علّة غيابه مانعًا يطرأ عليه أثناء سفره إلى مقامات الأئمّة عليهم السلام.

الفرق شاسع والمسافة كبيرة

والآن، فلنكن منصفين، ألا ينبغي لحالنا ووضعنا أن يكون له على الأقلّ أدنى تشابه مع حال هؤلاء العظماء؟ إنّني ينبغي أن أعترف عن نفسي من دون أيّة مجاملة، أنّ بيني وبين أمثال هؤلاء الكبار مسافة طويلة. وأعتقد أنّ أمثالي ليسوا قلّةً، وخاصّة في هذه الظروف الخاصّة الموجودة في زماننا، والتي تؤدّي إلى ازدياد المشاغل الدنيويّة. هذا، وإنّ كثيرًا من الأشخاص ـ مع الأسف الشديد ـ يجلسون عادةً حتى وقت متأخّر من الليل أمام شاشة التلفاز، وبعد انتهاء وقت التلفاز هذا، تصل النوبة إلى مشاهدة الأفلام.

بالطبع، في أيّامنا هذه يوجد عظماء وشخصيّات بارزة في الحوزة العلميّة من أمثال الشيخ الأصفهانيّ، حتّى إنّني شاهدت عن قرب بعض اجتهاداتهم وحالاتهم. ومن جملة هؤلاء العظام يمكن الإشارة إلى آية الله الشيخ الجوادي الآملي حفظه الله، أحد الأساتذة العظام في الحوزة العلميّة في قم المقدّسة في أيّامنا هذه. ولقد رافقت الشيخ الجوادي سنواتٍ عديدةً في مدرسة «الحجّتيّة»، فكنت أراه في كلّ ليلة بعد صلاتي المغرب



والعشاء، يجلس عدّة دقائق فقط، فيتناول طعام العشاء ويستريح قليلًا، ثمّ يمضي بقيّة ليله حتّى قريب منتصف الليل في الدرس والمطالعة. وعلى طول تلك المدّة لم أره في أيّ وقت من الأوقات جالسًا لا يقوم بأيّ عمل، بل كان مشغولًا على الدوام، بين التدريس والمطالعة والاشتغال في درسه ومباحثاته. والخلاصة، أنّني لا أذكر أبدًا أنّني رأيته مرّة في المدرسة العلميّة جالسًا دون أن يقوم بأيّ شيء ولو نصف ساعة.

في تلك الأيّام، لم يكن عدد الطلبة من أمثال الشيخ الجوادي قليلًا، ولكنّ الحال على ما يبدو قد اختلف في أيّامنا هذه ـ مع الأسف ـ. بالطبع، ليس لديّ كثيرٌ من الاحتكاك عن قرب مع طلبة العلوم الدينيّة، ولكن من الأمور التي أسمعها هنا وهناك، أحدس أنّ حال الحوزة العلميّة في هذه الأيّام قد بات بعيدًا جدًّا عن حالها في ذلك الزمان، وهذا في الواقع خسارة كبيرة لنا. وممّا يدعو إلى الأسف، أنّ جوّنا الثقافيّ قد بدأ يتبدّل تدريجيًّا، تبعًا لما يحدث في أرجاء العالم، وإنّ قيمنا قد تغيّرت حتى بلغت درجة أن تظهر أعمال أولئك العظام وعباداتهم بمنزلة الأساطير والخرافات عندنا. حتى إنّ بعضنا قد بدأ يتجرّأ أحيانًا ويستخفّ ببعض الحرمات، بل من الممكن أن يطرح أشكال الشبهات حول عبادة أمير المؤمنين عليه السلام وسائر الأئمّة عليهم السلام، ويضع عليها علامات استفهام. وقد بات اليوم من غير القابل للتصوّر والفهم، أن يُقال لنا: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يذهب في جوف الليل إلى بساتين النخل في الكوفة والمدينة، فيبكي حتّى يهويَ إلى الأرض كالخشبة اليابسة، وكأنّه سلّم روحه لخالقها.

ولو غضضنا الطرف عن أحوال الأئمة عليهم السلام، فإنّ جرأتنا تشتدّ في مورد العلماء والعظماء، وأحيانًا نبرز تساؤلاتنا وشبهاتنا علنًا حول المطالب



والحالات التي تُذكر حول أحد هؤلاء العظام؛ فإنّنا ـ على سبيل المثال ـ نعجز عن فهم معنى قولهم: إنّ الميرزا جواد الملكي التبريزيّ كان يبكي في جوف الليل في منزله ويصرخ إلى درجة أنّ جيرانه كانوا يتعجبّون ممّا يحصل داخل منزله. وفي بعض الأحيان، عندما نكون متعبّدين ومعتقدين ولا نشكّك أبدًا في أصل هذه القصص والحالات التي تنقل عن العظماء، نتوهّم أن هذه الحالات والروحيّات ليست إلّا خوفًا من نار جهنّم، وأنّ من يكون على هذا النحو هو من يخاف من عذاب الله ونيرانه فقط. والحال أنّ هذا التصوّر مجانب للصواب، فبكاء الخوف ليس إلّا واحدًا من أقسام البكاء، وإلّا فهناك كثير من أنواع البكاء الأخرى، كالبكاء حياءً أو حُبًّا، اللّذين يعتبران أرفع وأسمى من بكاء الخوف.

وعلى أيّة حال، فلا بأس أحيانًا بأن يستمع الإنسان لمثل هذه المسائل الموجودة، ويعلم أنّ بعض الآيات القرآنيّة التي لا تكون مفهومة عنده، قد تبلورت وتجلّت بشكل عينيّ عند بعض النّاس، حتّى أصبحت حقيقيّة عندهم. نعم، هناك بعض الآيات في القرآن الكريم هي ـ في الحقيقة ـ عجيبة، وإنّي طوال سنين عمري هذه لم أرَ ولم أسمع بمصداق واحد لها. ومن جملة هذه الآيات يمكن أن نشير إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[1]، أحيانًا قد يجلس الإنسان أرضًا ويسجد لله تعالى، ولكن في بعض الأحيان قد يسقط إلى الأرض واضعًا رأسه على التراب من دون أيّة إرادة أو اختيار. وإنّ تعبير «خَرُّوا» الوارد في الآية الكريمة، يحكي عن هذه الحالة الثانية، حيث تقول الآية: إنّ بعض عباد الله تحدث لهم مثل هذه الحالة، حيث يقعون إلى الأرض من دون أيّ اختيار، بمجرّد سماعهم للآيات الإلهيّة! وشاهدُ

---

(١) سورة مريم، الآية ٥٨.

مثل هذه الحالة، الآية القرآنيّة التي استعملت نفس هذا التعبير في حقّ نبيّ الله موسى عليه السلام وحكايته في جبل الطور، حيث يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[1].

والنُّكتة المهمّة في آية: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[2] أنّ الحديث فيها لا يدور حول شخصٍ أو شخصين، بل يُستفاد من الآية أنّ جميع «عباد الرحمن» بشكل عامّ لهم مثل هذه الحالة. وشبيه هذا المضمون أيضًا ما ورد في آية أخرى من سورة «السجدة»، حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[3].

من الجيّد أن نتأمّل أكثر في هذه الآية الكريمة، وأن نُقارن بعض الشيء بين مضمونها وحالنا، فنرى ماذا يريد القرآن الكريم؟ ونعرف إلى أيّ مقام وصل هؤلاء العباد الصالحون؟ وماذا أدركوا من هذا العالم؟ ونعلم حينها من الفائز؟ أنحن أم هم؟! من ذا الذي يُدرك أيّة لذّة حازها هؤلاء العباد بفضل عبادتهم وكيف سيجازيهم الله ويتعامل معهم؟ يقول القرآن الكريم حول هذا الموضوع: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[4].

هـؤلاء هم «عباد الرحمن» الذين يناجون الله تعالى مناجاة العاشقين في جوف الليل حتّى ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٤٣.

(٢) سورة **مريم**، الآية ٥٨.

(٣) سورة **السجدة**، الآية ١٥.

(٤) سورة **السجدة**، الآية ١٧.

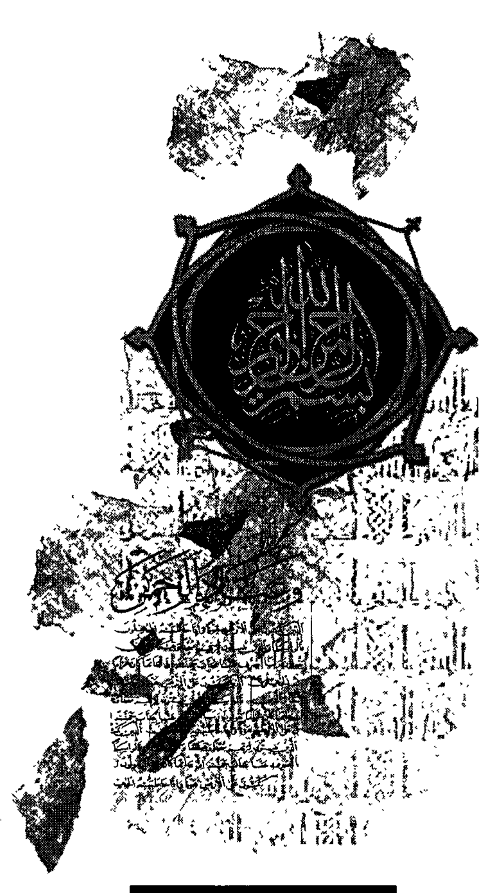


رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[1]، فلا أحد يعلم أيّة لذّة يجدونها في مناجاتهم في جوف الليل، ولا أحد يعلم أيّ سرّ هو الذي يوقظهم من فراشهم الدافئ والناعم ويجذبهم نحو محضر الغنيّ المطلق. وإنّ الشخص الوحيد الذي يتسنّى له أن يُدرك هذه اللذة هو فقط من تذوّق حلاوتها، وإلّا فلا سبيل آخر لتصوّر أو إدراك هذه اللذة.

نسأل الله تعالى أن يتفضّل علينا ببركة عباده الصالحين، وأن يرحمنا، ويغفر لنا ذنوبنا، التي تحول بيننا وبين الأنس معه وتذوّق طعم عبادته.

---

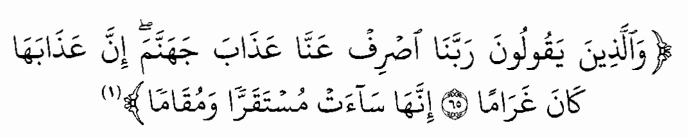
(١) سورة **السجدة**، الآية ١٦.



الدرس الثاني عشر:

عباد الرحمن، أهل الخوف والقلق




﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾[1]

خوف عباد الرحمن من عذاب جهنّم

استعرضنا في الدروس السابقة بعض المطالب حول أوصاف «عباد الرحمن» بالاستفادة من آيات سورة «الفرقان». وقد وصل بنا البحث إلى الآية الكريمة التي تصف «عباد الرحمن» بأنّهم يسألون الله تعالى أن يصرف عنهم عذاب جهنّم وأن يعصمهم من دخول هذا المنزل الشديد، والتعرّض لنيرانه المُلتهبة. وإنّ كلمتي «مُستَقر» و«مُقام» وإن كانتا تحملان معنى واحدًا، وهو المنزل أو الموضع أو محلّ الإقامة، إلّا أنّه من الممكن أن نجد فرقًا بينهما، وهو أنّ المستقرّ أعمّ من المنزل المؤقّت أو الدائم، أمّا المُقام فيُطلق على محلّ الإقامة الدائم دون المؤقّت.

وبشكلٍ عامّ، فإنّ واحدًا من الأوصاف التي يُثبتها الله تعالى لعباده الصالحين هو خوفهم من نار جهنّم، وقلقهم الدائم من عذاب الآخرة،

---

(١) سورة **الفرقان**، الآيتان ٦٥ و٦٦.

ودعاؤهم باستمرار أن يحميَهم الله ويعصمهم من عذاب جهنّم. وإنّ هذا المطلب مشهود في مختلف آيات القرآن الكريم، وهذه الآيات من سورة «الفرقان» أحد هذه النماذج القرآنيّة. ويمكن أن نشير إلى الآيات الختاميّة من سورة «آل عمران» بوصفها نموذجًا آخر للمطلب المذكور، التي يقول فيها الله تعالى في توصيف «أولي الألباب»: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1].

«أولو الألباب»، أي: أهل العقل والفكر وأصحاب النظر العميق والإدراك والذكاء، البعيدون عن النظرة السطحيّة وغير العميقة، عندما يشاهدون هذا العالم الواسع العظيم، لا يمرّون أمام هذا المشهد ببساطة وسذاجة، بل يُبحرون في أعماق بحر التفكّر والتأمّل ويقولون: «لا يُعقل أن تكون خلقة عالم الوجود هذا، ومنه خلقة الإنسان، عبثيّةً، من دون هدف!»؛ يقول الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[2].

إنّ التفكّر والتدبّر في عالم الوجود، الذي يتبعه الإحاطة بهدفيّة وغائيّة خلق العالم والإنسان، يوصل أولي الألباب إلى نتيجة، مُفادها أنّ الهدف من خلق هذا العالم لا يمكن أن يتحقّق إلّا بوجود عالم آخر، عالم يُثاب فيه الصالحون على صلاحهم، وينال فيه الطالحون جزاء ما اقترفوه من طالحات. فلو لم يكن عالم الثواب والعقاب موجودًا، فما الفائدة من خلق الإنسان؟ وما الغاية من حياته في هذه الدنيا؟ فلو ارتكب المجرمون

---

(١) سورة **آل عمران**، الآيتان ١٩١ و١٩٢.

(٢) سورة **المؤمنون**، الآية ١١٥.



آلاف الجرائم على طول سنين حياتهم ولم يلقوا جزاء جرائمهم، أفلا يعني هذا أنّ خلقة العالم والإنسان باتت عبثيّة لا هدف منها؟! من هنا، فإنّ نتيجة ما يقوم به أولو الألباب حين ﴿يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هي أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾.

ومعنى ألّا يكون هذا العالم عبثيًّا هو وجود حساب وكتاب وثواب وعقاب. ولكن من جهةٍ أخرى، فإنّ جميع البشر في معرض التعثّر والوقوع في الذنب، ومن هنا يوجد في حقّ كلّ إنسان احتمال قويّ أن يصبح مستحقًّا للعذاب ودخول النار، جزاءً على ذنوبه. **بعبارةٍ أخرى**: إنّ كلّ إنسان إمّا أن يرتكب الذنوب فعلًا ـ لا سمح الله ـ، وإمّا أن يكون ـ بحكم كونه إنسانًا ـ في معرض الخطأ والسقوط في كلّ لحظة من حياته. وفي كلا الحالين، من الطبيعيّ أن يبقى في حالة خوف من العقاب والعذاب الإلهيّين.

وبناءً عليه، فإنّ السير التفكّري لأولي الألباب، سوف يصل بهم بشكل طبيعيّ إلى أن يسألوا الله بتضرّع وخشوع أن يصرف عنهم عذاب جهنّم وأن يقيَهم عذاب النار. وإنّ كلّ إنسان يطلب من الله تعالى أن يقيَه من نار جهنّم بمقدار ما يملك من معرفة وعلم. ولكن في جميع الأحوال، فإنّ أوّل مرتبة من مراتب الدخول في زمرة أولي الألباب، هي الخروج من أسر الحواسّ وسجن حصر المعرفة بالأمور الحسّيّة، وأن يتفكّر الإنسان في أنّ هذا العالم ليس عبثيًّا من دون هدف، بل إنّ أصغر عمل يصدر من الإنسان في هذا العالم له حسابه الخاصّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1]. ومن هنا، فإنّ العمل

---

(١) سورة **الزلزلة**، الآيتان ٧ و٨.



الحسن أو السيّئ سوف يرى الإنسان في مقابله ثوابًا أو عقابًا، ولو كان هذا العمل بمقدار رأس الإبرة. وليس من الصواب أن يقول الإنسان: «لأنّ ذنوبي كثيرة جدًّا، لا فرق إن زادت قليلًا أو نقصت»، بل إنّ هذا التوهّم باطل؛ إذ لكلّ ذنب حسابه الخاصّ. بل لو كان الإنسان غارقًا في ذنوبه، فإذا استطاع أن يُنقص من هذه الذنوب ذنبًا واحدًا بأن يمتنع عن فعله، فهو قطعًا أحسن وأفضل.

وفي جميع الأحـوال، فإنّ أحد أوصاف «عباد الرحمن» أنّهم على الدوام في حالة خوف وقلق من عذاب الآخرة، فيسألون الله تعالى أن يمنحهم الأمان والحماية من هذا العذاب. وإنّ هذا الدعاء في الأصل يرجع إلى أنّ «عباد الرحمن» يسألون الله ـ في الواقع ـ أن يحفظهم من مقدّمات العذاب، أي: الذنوب والعثرات، كي لا يستحقّوا على أثر هذه المعاصي، العقابَ والجزاءَ، أي: عذابَ جهنّم.

تأكيد القرآن والأنبياء على الإنذار

وفي الأساس، إنّ مسألة الخوف من العذاب والحذر من نار جهنّم تعتبر من المسائل التي حازت على اهتمام خاصّ في آيات القرآن الكريم. وبالإضافة إلى القرآن، كان لهذه المسألة مكانة خاصّة في تعاليم الأنبياء الإلهيّين عليهم السلام. بالطبع، إنّ المتون والنصوص التي تحوي تعاليم الأنبياء السابقين عليهم السلام ليست متوفّرة بين أيدينا في هذه الأيّام، وما هو موجود الآن بحوزة أتباع الديانات الأخرى ليس مورثًا للاطمئنان عندنا، ولكنّنا بالاستفادة من هذا المقدار من المطالب، الذي بيّنه القرآن الكريم حول تعاليم الأنبياء السابقين عليهم السلام، يمكننا أن نستنتج أنّ واحـدًا من أهمّ تعاليمهم كان مسألة الإنذار والتحذير من عذاب الآخرة. ومن هنا، فلا يختصّ هذا الأسلوب الكلاميّ بالقرآن الكريم، بل هو أسلوب كلّيّ اعتمده



جميع الأنبياء الإلهيّين عليهم السلام. وعلى هذا الأساس، تُعتبر صفة «النذير» واحدة من الصفات التي يشترك بها جميع الأنبياء. و«النذير» هو الذي يُخوّف من العواقب، ويحذّر من الأخطار. وقد ذكرت آيات قرآنيّة متعدّدة الأنبياء بهذا الوصف. ونشير هنا إلى بعض النماذج من هذه الآيات:

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[١].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[٢].

﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾[٣].

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٢٢ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾[٤].

ومن هنا، يُعتبر الإنذار والتحذير واحدًا من أهمّ الأساليب التي اعتمدها جميع الأنبياء بوصفه ركيزةً من ركائز الدعوة، بغرض التأثير على البشر. وبشكل عامّ، يُعتبر الخوف عاملًا مهمًّا في إيجاد الدوافع والتحرّكات عند الإنسان. وإنّ هذه المسألة وإن كانت تدعمها النتائج العلميّة في علم النفس، فإنّها ـ في الأساس ـ لا تحتاج إلى هذا الكمّ من الاستدلال، بل يمكن لأيّ أحد أن يجرّبها بنفسه في حياته اليوميّة. إنّنا إذا دقّقنا في أفعالنا، لاحظنا أنّ أكثر عامل يدفعنا نحو النشاط والتحرّك هو عامل الخوف؛ فإنّ أنواع المخاوف المختلفة من قبيل: الخوف من الفقر، والخوف المرض، والخوف من العقاب، والخوف على السمعة، والخوف

---

(١) سورة **فاطر**، الآية ٢٤.

(٢) سورة **سبأ**، الآية ٣٤.

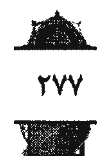
(٣) سورة **الملك**، الآية ٨.

(٤) سورة **فاطر**، الآيتان ٢٢ و٢٣.

من المصير، وعشرات المخاوف الأخـرى، تُلقي بتأثيرها على أفعالنا وسلوكيّاتنا.

بالطبع، إنّ لعامل «الأمل» أو «الترغيب» و«طلب الثواب» دورًا أساسيًّا في تحديد سلوكيّاتنا، وهو أيضًا يشكّل محرّكًا أساسيًّا في أفعالنا، ولكنّنا إذا دقّقنا، اكتشفنا أنّ تأثير الخوف أكبر وأهمّ في تحديد هذه الأفعال. ويؤيّد هذا الادّعـاء، أنّنا في الموارد التي يدور فيها الأمر بين جلب المنفعة ودفع الضرر، نرجّح إبعاد الضرر عن أنفسنا. **بعبارةٍ أخرى:** عادةً ما يُفكّر الإنسان أوّلًا في حفظ نفسه من المخاطر والأضرار، ومن بعدها يفكّر ـ في المرحلة الثانية ـ في جلب المنفعة.

وفي المباحث الكلاميّة والعقائديّة أيضًا، يطرح العلماء والمتكلّمون قاعدةً تؤيّد المدّعى المذكور؛ ففي مقام الإجابة عن هذا السؤال: «لماذا يجب البحث حول مسائل الدِّين والله وأمثال هذه الأمور؟» يتمسّكون بقاعدة تسمّى «وجوب دفع الضرر المحتمل». وخلاصة هذه المسألة، أنّ الإنسان الذي لم يبحث على الإطلاق في مثل هذه الأمور، إذا احتمل على أقلّ تقدير وجود الله، وعذاب القبر، والقيامة، والجنّة والنار، واحتمل أن تكون هذه الأمور حقيقيّة وواقعيّة، فإنّه يعلم ـ حينئذٍ ـ أنّه إذا لم يبحث حول هذه الأمور، فإنّه يحتمل على الدوام أن يناله ضررٌ كبيرٌ. وعندئذٍ يُقال: إنّ العقل يحكم بوجوب دفع هذا الضرر المحتمل، وفي النتيجة، ليطمئنّ الإنسان أنّه قد دفع عن نفسه الضرر، من اللازم عليه أن يبحث في هذه الأمور، وأن يوضّح المسألة لنفسه. وعلى أيّة حال، فإنّ الغرض من كلامنا أن نقول: إنّ المتكلّمين في هذه الموارد لا يتحدّثون عن حكم العقل بوجوب جلب المنفعة المحتملة، بل إنّ محور حديثهم هو دفع الضرر المحتمل. **بعبارةٍ أخرى:** لم يقل المتكلّمون: إذا لم تبحث، فإنّك



سوف تخسر منفعة محتملة، بل قالوا: إنّك بهذا التحقيق والبحث تدفع عن نفسك ضررًا محتملًا.

وفي المحصّلة، إنّ الإنسان قد خُلق بنحوٍ جُعل أكثرُ عاملٍ يؤثّر في روحه، ويدفعه نحو العمل والنشاط، هو حبَّه لأن يحفظ نفسه من الأخطار، وأن يدفع عنها مختلف الأضرار. وكما أشرنا، إنّ الله تعالى وجميع الأنبياء عليهم السلام قد استفادوا من هذا العامل الفطريّ والطبيعيّ من أجل سَوْق البشر نحو الأهداف المطلوبة، أي: الكمال الإنسانيّ، فأصل الإنذار يعتبر من الأصول العامّة التي استعملها جميع الأنبياء عليهم السلام؛ فهم بناءً على أمر الله تعالى، قد شدّدوا على الاستفادة من هذه الوسيلة في تبليغ رسالاتهم. وإنّ آيات القرآن المتعدّدة تشهد على هذا المدّعى، وكنّا قد أشرنا إلى بعضها، ومن أجل تثبيت المطلب بشكل أكبر نستعرض مجموعة من الآيات الأخرى في هذا المجال:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾[1].

﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾[3].

بالطبع، إلى جانب أسلوب الإنذار، يُعتبر أصل التبشير والترغيب واحدًا من الأساليب والأصول التربويّة والتبليغيّة، ولهذا السبب يؤكّد

---

(١) سورة **نوح**، الآيتان ١ و٢.

(٢) سورة **النحل**، الآية ٢.

(٣) سورة **المدثر**، الآيتان ١ و٢.

القرآن الكريم في توصيفه للأنبياء عليهم السلام بصفة «المُبشِّر» بالإضافة إلى صفة «المُنذر»؛ يقول الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[1].

ولكن كما بيّنا، إنّ العامل الذي من شأنه أن يترك تأثيرًا أكبر في تحريك الإنسان وإيجاد الدافع في داخله هو عامل الإنذار، ولذلك نرى الأنبياء الإلهيّين يؤكّدون على عامل الإنـذار أكثر، بالقياس إلى عامل التبشير.

وهناك نكتة جديرة بالذكر تتعلّق بإنذار الأنبياء عليهم السلام، وهي أنّ إنذارهم لم يكن مرتبطًا دائمًا بنار جهنّم والعذاب الأخـرويّ، بل إنّ إنذارهم للنّاس في بعض الأحيان، كان يتمّ عن طريق بيان العقوبات والبلاءات التي من الممكن أن تطالهم في هذه الدنيا على أثر ذنوبهم وعصيانهم لله تعالى. وسرّ هذه المسألة، أنّ أقوام الأنبياء ـ وخاصّة في أوائل الدعوة ـ لم يكن لديهم أيّ إيمان أو اعتقاد بالآخرة والمعاد. ومن هنا، كان من الممكن للخوف من البلاءات والمصائب الدنيويّة أن يترك تأثيرًا أكبر في سَوْقهم نحو الإيمان والهداية. ولهذا السبب، نرى أنّ الأنبياء عليهم السلام في بداية بعثتهم كانوا أكثر ما يعتمدون في تحذير أقوامهم على مسألة أنّهم لو خالفوا أمر الله تعالى، ولم يقبلوا الدعوة الإلهيّة، واستمرّوا في عبادة الأوثان والأصنام، فإنّ حياتهم في هذه الدنيا سوف تنقلب رأسًا على عقب، وأنّ نعمهم سوف تزول وتتبدّل إلى نقمة عليهم، وسوف يحلّ عليهم العذاب الشديد. ومن الأمثلة على هذا الأمر، خطاب النبيّ شعيب عليه السلام لقومه، حيث كان يذكّرهم بمصير الأقوام السابقين،

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢١٣.



وما نزل عليهم من البلاء والعقاب، حيث قال لهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾(١).

وعلى أيّة حال، فبالنسبة إلى الأفراد الذين لم يؤمنوا أصلًا، أو الذين لا يمتلكون إيمانًا قويًّا، يكون الإنذار بالعذاب الدنيويّ ذا تأثير أكبر في تحريكهم. أمّا بعدَ أن يؤمنوا بالآخرة، فيكون الإنذار الأخرويّ مؤثّرًا في نفوسهم بمقدار إيمانهم ومرتبة اعتقادهم.

تأمُّل في العذابات الأخرويّة

فيما يرتبط بالعذابات الأخرويّة، لا بدّ من الالتفات إلى أنّ هذه العذابات لا تقبل المقايسة أبدًا بالعذابات الدنيويّة، لا من حيث شدّتها، ولا من حيث مدّتها. فمن خلال التأمّل في التوصيفات التي جاءت في بعض الروايات الشريفة، يمكن أن نقول: إنّ العذابات الدنيويّة ـ في الحقيقة ـ لا تمثّل شيئًا مقارنةً بالعذابات الأخرويّة، بل إنّ عذابات الدنيا لا تعدو كونها لونًا أو طعمًا محدودًا ومختصرًا جدًّا عن الآلام والعذابات الأخرويّة.

وبما أنّنا لم ندرك أيّ نموذج من العذابات الأخرويّة، فلا يمكننا تصوّر مدى شدّتها بنحو صحيح، كي نقايسها بعذابات الدنيا، ولكنّ مسألة مدّة العذابات الأخرويّة ملموسة أكثر، وقابلة للفهم عندنا؛ فجميعنا إلى حدّ ما على معرفة واطّلاع بسلسلة الأعداد، وباستطاعتنا أن ندرك الاختلاف بين أعداد الخمسين والمئة والمئة ألف والخمسمئة

---

(١) سورة **هود**، الآية ٨٩.

مليون. ومن هنا، فإنّ المقايسة الكمّيّة والزمانيّة بين العذابات الدنيويّة والعذابات الأخرويّة أكثرُ سهولةً ويُسرًا، ومتاحةٌ أكثر عندنا.

إنّ أيّة مصيبة أو بلاء يحلّ علينا في هذه الدنيا، فإنّ أقصى حدّ يمكن أن يصل إليه بحسب النوع البشريّ هو الخمسين سنة، ولو رفعنا السقف كثيرًا، لوصل إلى مئة سنة. ولو عاش الإنسان سنواتٍ طويلة من حياته في السجن، أو في الفقر والبؤس والشقاء، فهل ستبلغ هذه السنوات مئة سنة؟ من هنا، فإنّ لدينا مثلًا شعبيًّا نستعمله أحيانًا في مقام المزاح، حيث نقول: «أوّل مئة سنة فيها صعوبة، ومن بعدها يرتاح المرء».

أما العذابات الأخرويّة، فالكلام فيها ليس في مئة سنة أو ألف، بل إنّ المسألة أكبر من ذلك. فالعذاب الأخرويّ بحقّ كثيرٍ من البشر عذابُ خلودٍ، عذابٌ أبديٌّ لا نهاية له؛ ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[1].

وكذلك في الجهة المقابلة، فيما يتعلّق بجزاء المؤمنين والصالحين، فسوف يمكث في جنّة الخلد إلى الأبد: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾[2].

أمّا بالنسبة إلى شدّة العذابات الأخرويّة، فكما أشرنا سابقًا، إنّ حقيقة هذه المسألة غير قابلة للإدراك نوعًا ما عندنا. وما جاء في الآيات والروايات في هذا الصدد، يتعدّى حدود فهمنا وإدراكنا، وهو عجيب إلى درجة أن يُبقيَ الإنسان عاجزًا ومتحيّرًا في فهم معناه وحقيقته. وفي

(١) سورة **الجن**، الآية ٢٣.

(٢) سورة **الكهف**، الآيتان ٢ و٣.



جميع الأحوال، فقد سعى القرآن الكريم في آياته المُتحدّثة عن كيفيّة العذاب وشدّته، إلى أن يُنذر البشر من هذا العذاب، من خلال استعمال أدبيّاتهم وأسلوب بيانهم، وأن يوجد في أنفسهم الدافع نحو طاعة الأوامر الإلهيّة، والابتعاد عن الذنوب ومخالفة أحكام الله تعالى. ولكنّ كثيرًا منّا لا يشعر بالخوف الجدّيّ تجاه عذاب الآخرة، ولا يقلق حيال هذا الأمر بالمقدار الذي ينبغي. فإنّني ـ على الأقلّ أعترف عن نفسي ـ من هذا القبيل؛ فأنا حتى الآن اشتغلت في تحصيل العلوم الدينيّة لما يقارب الستّين عامًا[1]، وطوال هذه المدّة استفدت من محضر علماء ربانيّين كبار، وعملت مع القرآن الكريم ومختلف الكتب الحديثيّة، واستمعت لمواعظ العديد من العظماء، ولكنّني مع هذا كلّه، عندما أتأمّل في نفسي اليوم، لا أرى فيها عُشر الخوف الذي ينبغي أن ينتابني من عذاب الآخرة. وليت شعري، ألم تأتِ آيات القرآن الكريم على ذكر هذا العذاب الأخرويّ بأعظم التعابير وأشدّها؟! أولم تأتِ الروايات الشريفة شاهدة على هذا الأمر؟! أوليست الأدلّة العقليّة خيرَ دليل على صدقه؟! فلماذا إذًا لا نحمل في قلوبنا سوى أدنى درجات الخوف والرهبة من هذا العذاب؟! ولماذا لا يظهر علينا كثيرٌ من القلق والاضطراب حياله؟! بالطبع، إنّ المراد من الخوف الذي نتحدّث عنه هنا هو الخوف الواقعيّ، الذي يؤثّر في سلوك الإنسان، وإلّا فإنّنا جميعًا نُقرّ بألسنتنا بهذه المسألة، ونعتقد بقلوبنا أيضًا بوجود عذاب الآخرة، ذلك العذاب الشديد الذي لا يقبل التصوّر، ولكنّ المهمّ في الأمر أن تعتقد قلوبنا حقيقةً بشدّة هذا العذاب، وأن يؤثّر هذا الاعتقاد الواقعيّ في أعمالنا وسلوكيّاتنا. فإذا كان هذا هو المعيار في

---

(١) هذا في زمن تدوين الكتاب، أمّا الآن فقد تجاوز سماحة الشيخ (حفظه الله) السبعين عامًا من التحصيل العلميّ. (المترجم)

نظرنا إلى مسألة الخوف، فينبغي ـ حينئذٍ ـ أن نقول: إنّ تأثير الاعتقاد بالعذاب الأخرويّ عند كثيرٍ منّا في غاية الضعف، وهو باهت وهزيل.

وفي هذا المجال، عندما يرى الإنسان أحوال العلماء والأنبياء والأئمّة عليهم السلام، أو يسمع عن حالات خوفهم أو يقرأ عنها، ينتابه التعجّب والحيرة! ويعجز عن فهم حقيقة هذه المناجيات والأدعية والحرارة، ويحار في فهم منشئها وغايتها! فما أعظم المناجيات الطويلة والبكاء والأنين لأمير المؤمنين والإمام السجاد وسائر الأئمّة عليهم السلام، مع أنّهم كانوا معصومين لا يرتكبون الذنوب. وإنّ هذا الأمر شاهد على مدى صدقهم في قولهم واعتقادهم بالآخرة حقّ الاعتقاد، بخلاف ما نحن عليه؛ إذ لا تعدو هذه المسائل كونها محضَ لقلقة لسان عندنا، وقلّما نشاهد في أنفسنا أثرًا للخوف من يوم القيامة وعذاب الآخرة، بحيث يظهر في أحوالنا وأعمالنا. وإنّني في هذا الصدد أبدأ بنفسي، وأقرّ بأنّني قد أكون أكثر الناس تقصيرًا في هذه المسألة.

وفي جميع الأحوال، فمن الجيّد على الأقلّ، أنّ ندقّق ونتأمّل قليلًا في الآيات القرآنيّة المتحدّثة عن نار جهنّم وعذاب الآخرة؛ فإنّه إذا وردت رواية في هذا المجال، فقد يُناقَش في سندها ودلالتها. أمّا الآيات القرآنيّة فلا مجال للتشكيك فيها، ولا إمكانيّة لأخذها مُزاحًا. إنّ من شأن هذه الآيات القرآنيّة أن تترك أثرًا في نفس الإنسان، وأن توقظه من غفلته. هذا، وإنّ المقارنة بين هذه الآيات وبعض الموارد الدنيويّة المشابهة ـ وإن كانت أضعف بمئات آلاف المراتب ـ من شأنها أن توضح زاويةً من عظمة هذا الخطر المحدق بالإنسان، ومن الممكن أن تكون مفيدة وبنّاءة.



الفضيحة، العذاب القاتل

من جملة الموارد التي وردت في الآيات القرآنيّة حول عذاب العاصين في عالم الآخرة، الذلّة والفضيحة التي سيتعرّضون لها يوم القيامة. وإنّ تصوّر هذه المسألة ـ في الحقيقة ـ يحمل لنا كثيرًا من المواعظ والتحذيرات. ومن الجيّد أن نتأمّل قليلًا، ونرى إلى أيّ حدّ نهتمّ بعزّتنا وسُمعتنا في هذه الدنيا، وإلى أيّ حدّ إذا كان فينا نقطة ضعف، أو بدر منّا زلّة، نحذر من أن ينتبه أحدٌ، فيُراق ماء وجهنا. وأحيانًا، إذا اطّلع أحدٌ على زلّة صدرت منا، نغرقُ في اضطرابنا وقلقنا، ويسلب خوفُ الفضيحة وذهابُ ماء الوجه النومَ من أعيننا، فنُحرمُ الرقادَ. إنّنا ـ بحسب فطرتنا ـ نحبّ أنّ نكون دائمًا عزيزين، وأن ننال احترام الناس، بأن يقيموا لنا وزنًا وحُرمة. بالطبع، إنّ هذا الأمر له حسابه الخاصّ عند بعض الأشخاص الذين بنَوا أنفسهم وتربّوا تربيةً خاصّة في مدرسة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام. وهذا الحساب يختلف عمّا هو موجود عند أمثالنا؛ فنحن عمومًا عندما نكون في وسط جماعة نحبّ أن يستقبلونا بالسلام والصلوات أو كما يُقال: «أن يؤهّلوا ويُسهّلوا بنا». وإذا رجع كلّ شخص منّا إلى نفسه، لوجد قطعًا أنّ سلام الناس وصلواتهم عنده لا تتساوى بالطبع مع سبابهم ولعنهم، بل إنّ أحوالنا وأوضاعنا تختلف كلّيًّا بين هذين الأمرين. هذا، والحال أنّ المؤمنين الخاصّين حالهم في هذه الأمور كما يصفه الإمام الباقر عليه السلام لجابر بن يزيد الجعفيّ، حيث يقول له: «وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لا تَكُونُ لَنا وَلِيًّا حَتّى لَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْكَ أَهْلُ مِصْرِكَ وَقالُوا: إِنَّكَ رَجُلٌ سُوءٌ، لَمْ يَحْزُنْكَ ذلِكَ. وَلَوْ قالُوا: إِنَّكَ رَجُلٌ صالِحٌ، لَمْ يَسُرُّكَ»[1].

---

(١) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٧٨، الصفحة ١٦٣، الرواية ١، الباب ٢٢.

نعم يريد الأئمّة عليهم السلام من أتباعهم ألّا يُحدِثَ إقبالُ الناس عليهم ولا إدبارهم عنهم، أيَّ تغيير في حالهم. ولكن على أيّة حال، فإنّنا بعيدون كلّ البعد عن مثل هذا المقام وهذه المرتبة. فإنّنا إذا كنّا في مجلسٍ ما وأساء احترامَنا مجموعةُ أشخاص، أو استهزأوا بنا وأهانونا، فإنّنا لا نحتمل ذلك، بل ترتبك كلّ أنظمة وجودنا، وباختصار: إنّنا نتألّم وننهار، فكيف بنا لو تعرّضنا لاستهزاء أهل مدينة بأكملها؟!

يحبّ الإنسان ـ بشكلٍ طبيعيّ ـ أن يكون ذا سمعة حسنة، وأن يكون عزيزًا ومحترمًا. وفي هذا السياق، يقول علماء النفس: إنّ من أهمّ الغرائز الإنسانيّة هي غريزة حفظ الشخصيّة وحفظ الاحترام. ومن هنا، فليس من الغريب أو المُستهجن أن يحبّ الإنسان أن يُعطى قيمةً واحترامًا من الآخرين.

والآن، تصوّروا لو كان من المقرّر أن يخسرَ الإنسانُ ماءَ وجهه، وأن يفقد شخصيّته واحترامه وعزّته، فكيف سوف يصبح حاله؟! وإنّ هذا الفرض يمكن تصوّره جيّدًا في مورد عقوبة «التشهير»؛ فقد جاء في بعض الأحكام الإسلاميّة أنّ واحدةً من أشكال المجازاة ما يُعرف بـ«التشهير». ومعناه أن يوضع المجرم بوضعيّة مُذلّة، ويطاف به في الأزقّة والطرقات كي يراه جميع الناس، ويتعرّفوا عليه، فيشتهر بينهم بالسمعة السيّئة، فتكون هذه المجازاة عبرة للآخرين، كي لا يرتكبوا مثل هذه الجرائم.

ومن الجيّد بين الحين والآخر أن يختليَ الإنسان بنفسه قليلًا، ويفكّر فيما لو تعرّض يومًا لمثل هذا البلاء وأريق ماء وجهه، أو افتُضح بين الناس، أو وضعوا قيدًا في عنقه وطافوا به بين الناس في الأزقّة والطرقات! يقول القرآن الكريم: إنّ بعض الأشخاص سوف ينالهم يوم القيامة مثل هذا البلاء: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ



أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾[١].

فالشخص الذي أمضى سنين عمره في هذه الدنيا عزيزًا بين الناس، محترمًا عندهم، يصلّي جماعةً في صفوفهم، من الممكن في ذلك اليوم ـ وأمام أعين جميع الخلائق من الأولين والآخرين ـ أن يكبَّل بالأغلال والأصفاد، ويُقادَ مُهانًا إلى نار جهنّم.

نظرة إلى عذاب جهنّم

ولكن بعد أن يُقاد هذا الشخص إلى جهنّم أيّ مصير سوف يحلّ به؟! في بداية المطاف يُستقبل وتؤدّى بحقّه آداب الاستقبال! في الاستضافات الدنيويّة، عندما يدخل الضيف إلى منزل المُضيف، يأتون له أوّلًا بالماء والمشروبات. وكذلك ضيوف جهنّم، يؤتى لهم أوّلًا بشراب النار ومائها الحميم؛ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾[٢].

وعندما يُسقَون من هذا الماء تشتعل أمعاؤهم وأحشاؤهم؛ ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[٣].

هل يمكن لأذن الإنسان أن تتحمّل سماع مثل هذه العذابات؟! ضيوف جهنّم تُصبّ على رؤوسهم مياه الحميم، ويلبسون ثيابًا من نار!

---

(١) سورة **الحاقّة**، الآيات ٢٥ إلى ٣٢.

(٢) سورة **الواقعة**، الآيتان ٩٢ و٩٣.

(٣) سورة **محمّد**، الآية ١٥.

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾(١).

وهذا البائس الشقيّ ليس أمامه أيّ طريق للفرار؛ فعذاب النار قد أحاط به من كلّ جانب؛ ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾(٢).

كلّ هذه العذابات، وهم عوضًا عن ارتداء الثياب المناسبة، يرتدون لباسًا من مادّة لزجة كريهة الرائحة، كالأسفلت والقطران؛ ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾(٣).

ولهب النار في جهنّم كأنّه سوطٌ نارّي يلفح وجوههم فيحرقها؛ ﴿تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾(٤).

في هذه الدنيا، إذا احترق جلد الإنسان بالنار، فإنّه يحترق مرّةً وينتهي الأمر، أمّا في جهنّم فيختلف الأمر؛ كلّما احترقت جلود أهل جهنّم تتبدّل بجلود جديدة، كي يذوقوا عذاب النار من جديد، ويحترقوا على الدوام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾(٥).

ويستمرّ هذا العذاب والاحتراق، ويغلب العطش على أهل جهنّم على أثر حرارة النار، إلى درجة أن يستغيثوا من أغوار النار والعذاب طلبًا

---

(١) سورة **الحج**، الآية ١٩.

(٢) سورة **العنكبوت**، الآية ٥٥.

(٣) سورة **إبراهيم**، الآية ٥٠.

(٤) سورة **المؤمنون**، الآية ١٠٤.

(٥) سورة **النساء**، الآية ٥٦.



للماء، إلّا أنّ جواب استغاثتهم يكون أشدّ حرارةً ولظىً؛ ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾(١).

ولكنّ العطش يلقي بثقله عليهم، إلى درجة تجبرهم أن يشربوا تلك المياه الحارّة بشغف وولع، كما تشرب الجمال العطشة التي تسير ساعاتٍ طويلةً في الصحراء الحرّة: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾(٢).

هذا حال ماؤهم. فما حال طعامهم؟! يأكلون من الدماء والقيح والقذارة التي تشمئزّ منها الأبدان؛ ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾(٣). حقًّا، ما أعظم عذاب جهنّم! وما أشدّ هذه الظروف التي تحيط بأهل جهنّم، حتّى يشربوا الماء الحميم من فرط عطشهم، ويأكلوا الدماء والقيح والقذارة من فرط جوعهم ويرضوا بها!

وينبغي أن نعترف أنّ حقيقة هذه المسألة لا تصل إليها أوهامنا، ولا تنالها تصوّراتنا. ولذلك ترانا نكتفي بنقل هذه الآيات وقراءتها والاستماع إليها.

وإنّ هذه الظروف غير القابلة للتصوّر، والمحفوفة بالنيران والعذاب، تُرهق أهل جهنّم أشدَّ الإرهاق، وتسلب منهم طاقتهم. فتصوّروا حجم صراخهم واستغاثتهم، إلّا أنّهم لا يعلمون ممّن يطلبون العون ويسألونه الأمان والحماية، وفي هذه الغمرات لا يجدون أفضل من «مالك» رئيس ملائكة جهنّم والعذاب، وعندما يرَون أنّ كلّ شيء في يده واختياره،

---

(١) سورة **الكهف**، الآية ٢٩.

(٢) سورة ***الواقعة***، الآيتان ٥٤ و٥٥.

(٣) سورة **الحاقّة**، الآيتان ٣٥ و٣٦.

يستجدون منه المساعدة، ويطلبون منه العون. فما هو طلبهم يا ترى؟! يطلبون الموت! ويستجدون «مالكًا» أن يطلب من الله أن يقضيَ عليهم! ولكن هيهات، فلا مجال للموت هنا، بل لا مكان سوى للعذاب والنيران المحيطة بأهل جهنّم: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾[1].

وعندما يرى أهل جهنّم أنّ نداءهم هذا لا يلقى أذنًا صاغية، يلجأون عاجزين إلى طلب آخر، وهو أن يُخفّف الله عنهم العذاب ولو يومًا واحدًا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾[2].

نعم، لقد بلغ عجزهم هذا الحدّ، وأخذ البؤس منهم مأخذَه، ووصل بهم الضعف في مقابل العذاب الأبديّ وغير المتناهي، إلى أن يطلبوا باستجداء وأنين، أن يُخفف عنهم العذاب يومًا واحدًا فقط! ومع ذلك، يرجعون بأيدٍ خالية. وا حسرتاه! لا يمكن أن يخفَّف عنهم العذاب ولو يومًا واحدًا!

أمّا أحوال يوم القيامة، فهي مهولة وعظيمة إلى أبعد الحدود. هناك، يُسيطر الهول والوحشة على جميع البشر، حتّى يصبح الإنسان على استعداد ـ كما يعبّر القرآن الكريم ـ لأن يضحّيَ بأولاده لكي ينجوَ من العذاب! إنّ الأفراد المتزوّجين يعلمون إلى حدّ ما حقيقة علاقة الأب والأمّ بولدهما، ويعلمون أنّ الإنسان مستعدٌّ للتضحية بروحه فداءً لولده، وأنّ

---

(١) سورة **الزخرف**، الآيات ٧٤ إلى ٧٧.

(٢) سورة **غافر**، الآية ٤٩.



الإنسان بطبيعته يحبّ الأولاد إلى درجة أنّ الأشخاص الذين يواجهون مشكلة تمنعهم من الإنجاب يتوسّلون بكلّ وسيلة، ويطرقون كلّ باب، ويلجأون إلى كلّ طبيب أو دواء أو نذر أو دعاء، ليرزقَهم الله ولدًا. وإنّ كثيرًا من الناس في هذه الدنيا يُقدمون على الكسب الحلال والحرام، ويتعاملون بالرِّبا، ولا يؤدّون الحقوق الشرعيّة الماليّة، وباختصار: يُدخلون أنفسهم في زمرة الجهنميّين. كلّ هذا من أجل ماذا؟! من أجل أن يجمعوا أموالًا وأملاكًا وثرواتٍ لأولادهم، كي يضمنوا راحتهم وسعادتهم.

الأمور يوم القيامة تتبدّل؛ يقول القرآن الكريم: إنّ الإنسان في هذا اليوم يصبح مستعدًّا للتضحية بولده لينجوَ هو من العذاب، بعد أن كان في هذه الدنيا يقدّم روحه وحياته فداءً له؛ ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ﴾[١].

وأمّا المصيبة الكبرى، فهي أنّ الوحشة والخوف من العذاب تصل بالإنسان إلى درجة أن يصبح مستعدًّا للتضحية، لا بولده فقط، بل بزوجته وكلّ قومه وعائلته، بل بأهل الأرض جميعًا، كلّ هذا فداءً له لينجوَ بنفسه من عذاب جهّنم! ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾[٢].

ولكن هيهات؛ ففي ذلك اليوم لا مفرّ للمجرمين والعاصين، وما من جوابٍ يتلقّونه سوى لهيبِ النار المُشتعل؛ ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ﴾[٣].

---

(١) سورة **المعارج**، الآية ١١.

(٢) سورة **المعارج**، الآيات ١١ إلى ١٤.

(٣) سورة **المعارج**، الآيتان ١٥ و١٦.

«نزّاعة للشوى» اصطلاح قرآنيّ معناه أنّ النار المُحرِقة التي تقتلع جلد أمّ الرأس. وهذه الآية تقول: إنّ ألسنة اللهب تنقضّ على الإنسان الجهنّميّ، فتشويه كما تُشوى الحيوانات، وعلى أثر هذه النيران، تُشوى جلود الرأس والبدن وتتفرّق بعضها عن بعض.

الاستغاثة بالله تعالى

والآن، فليقارن الإنسان بين هذه العذابات وعـذاب الدنيا ونيرانها المحدودة، التي لا تمثّل شيئًا أمام نيران الآخرة، وليتأمّل في نفسه، كيف يمكنه أن يصمد أمام عذاب الآخـرة؟! وعلينا ألّا ننسى أنّ جميع هذه الأمور هي مجرّد توصيفات وألفاظ تحكي عن عذاب جهنّم ونيرانها. أمّا حقيقة هذا الأمر، فلا يمكن أن تتّضح عندنا من خلال الألفاظ والأوصاف. فمثلًا، إنّ شراب أهل جهنّم هو «الغَسَّاق» وطعامهم هو «الغِسْلِين»، ولباسهم مادّة لزجة كريهة الرائحة اسمها «القَطِران»، ولكنّ حقيقة هذه الغسّاق والغسلين والقطران، تعجز الألفاظ والكلمات عن بيانها. وقد جاء في بعض الروايات أنّ الرسول الأكرم ﷺ قد سأل الأمين جبرئيل عليه السلام عن نار جهنّم، فبدأ جبرئيل عليه السلام بوصفها، حتّى وصل إلى لباس أهل جهنّم فقال: «لَوْ أَنَّ ثَوْبًا مِنْ ثِيَابِ أَهْلِ جَهَنَّمَ أُخْرِجَ إِلَى الْأَرْضِ، لَمَاتَ أَهْلُ الْأَرْضِ مِنْ نَتَنِ رِيحِه»[1]؛ فلباسٌ يحمل هذه الأوصاف هو اللباس الأبديّ لأهل جهنم!

بالطبع، إنّ الله تعالى لا يريد أبدًا أن يأخذ بعبده إلى جهنّم، ولكنّ بعض العباد بأعمالهم التي يقترفونها، لا يُبقون أمامهم أيّ طريق سوى طريق جهنّم. والله تعالى قد وضع في هذه الدنيا أشكال النِّعم التي لا

---

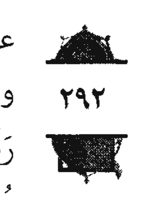
(١) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٨، الصفحة ٣٠٥، الرواية ٦٤، الباب ٢٤.



تعدّ ولا تحصى في اختيار الإنسان، وأراه طريقَ الفلاحِ والحقّ، كي يجازيَه على سلوكه لهذا الطريق جنّات الخلد والنِّعم الأبديّة. وهذه الجنّة هي المكان الذي جُعل فيه للإنسان أبهى الألبسة، وأفضل الأطعمة وألذّها، وأعذب المشروبات وأحلاها، وباختصار: لقد هُيّئ له فيها كلّ ما يريده ويخطر في باله. وشرط الوصول إلى هذه الجنّة أن يعيش في هذه الدنيا بشيءٍ من التيقّظ والتنبّه، وأن يراعيَ مسائل الحلال والحرام.

إنّ الاستفادة من مواهب هذه الدنيا ونِعَمِها أمرٌ محلّل، وليس الكلام في ألّا يأكل الإنسان ولا يشرب ولا يلبس ولا يلتذّ بالدنيا، بل إنّ الكلام ـ كلّ الكلام ـ هو ألّا تكون هذه الاستفادة عشوائيّة وبلا أيّ حساب. بل ينبغي على الإنسان أن يراقب نفسه أثناء استفادته من هذه المواهب، وأن يجعل التذاذه بهذه النِّعَمِ وتصرّفه بها ضمن حدود الضوابط التي حدّدها الله تعالى؛ فكلّ مَيْلٍ أو رغبة وضعها الله تعالى في وجود الإنسان قد وضع في مقابلها مسيرًا لإشباعها ومهّده أمام الإنسان. فمثلًا، عندما وضع الله في وجود الإنسان غريزة الجوع والعطش، خلق له في مقابلها الماء والطعام كي يستفيد منهما في إشباع هاتين الغريزتين. إلّا أنّ بعض البشر جشعون، ولا يقنعون أبدًا بالاستفادة الصحيحة والمفيدة من هذه المواهب. ونتيجة هذا الجشع والطمع، أن يتجاوز الإنسان الحدود الإلهيّة، ويُقدم على فعل الحرام وارتكاب الذنوب. ويستتبع هذه الذنوب وتجاوز الحدود الإلهيّة دخول نار جهنّم، واستحقاق العذاب الذي صورّت لنا الآيات التي مررنا بها بعض جوانبه المهولة.

إنّ أجسادنا الضعيفة وأبداننا النحيفة لا تستطيع ـ قطعًا ـ أن تتحمّل هذه العذابات. ولو التفت الإنسان إلى ضعفه وعجزه، وإلى كونه على الدوام في معرض السقوط وارتكاب الذنوب، وإلى عظمة الله وشدّة



عذاب الآخرة، فعندئذٍ سوف يرفع على الدوام كفَّ الاستغاثة والدعاء ويسأل الله تعالى سؤالَ «عباد الرحمن» حين يقولون: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[1].

إنّنا إذا استغثنا بالله تعالى، فإنّ الله الكريم والرحيم وسريع الرضا، لن يُهمل استغاثتنا، ولن يتركنا من دون إجابة. وإنّ التمرّد والطغيان أمام المحضر الإلهيّ، لن يوصلَنا إلى أيّ مكان، ولن يوديَ بنا سوى إلى نيران جهنّم. وعليه، فإنّ أمامنا طريقًا مُرهِقًا محفوفًا بالمخاطر الكبيرة التي لا تقبل الوصف، ولكن لا شيء يصعب على الكريم، لذا فلنُقبل عليه ولنستغث به، ولنَشْتَكِ في محضره، ولنسأل ذاته المقدّسة: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2].

---

(١) سورة **الفرقان**، الآيتان ٦٥ و٦٦.

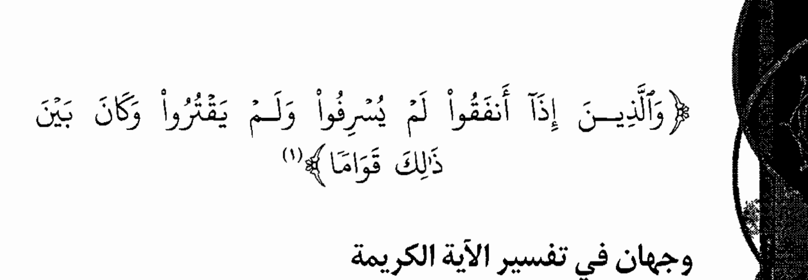
(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٦.



الدرس الثالث عشر:

الاعتدال في الإنفاق





﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾(١)

وجهان في تفسير الآية الكريمة

وصل بنا الكلام في بحث أوصاف «عباد الرحمن» إلى الآية التي تقول: إنّ من أوصاف «عباد الرحمن» أنّهم أثناء إنفاقهم يجتنبون الإسراف، وفي الوقت نفسه لا يبخلون، بل يراعون الحدّ الوسط بين الإسراف والبخل، وبين الإفراط والتفريط، فيسلكون طريق الاعتدال والحدّ الوسط.

ويوجد في بيان معنى هذه الآية وجهان ورأيان بين المفسّرين:

الوجه الأوّل: أنّ المراد من «الإنفاق» في هذا الآية معناه المتعارف عندنا، والمرتكز في أذهاننا، أي: «إعطاء المال وبذله للآخرين». وهذا الإنفاق ـ بطبيعة الحال ـ قد يكون واجبًا، كالخمس والزكاة في الاصطلاح الفقهيّ، وقد يكون مستحبًّا. وفي جميع الأحوال، فطبقًا لهذا الوجه يُصبح تفسير الآية على الشكل التالي: إنّ «عباد الرحمن» في مقام الإنفاق وبذل

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٧.

المال وإعطاء الخير، لا يبسطون أيديَهم أكثر من الحدّ اللازم، ولكنّهم ـ أيضًا ـ لا يشوبون إنفاقهم بالبُخل والشحّ، بل إنّ نهجهم في الإنفاق هو نهج الاعتدال.

وفي القرآن الكريم آية مشابهة لهذه الآية، ولعلّ معناها أوضح وأجلى، والخطاب في تلك الآية موجّه إلى الرسول الأكرم ﷺ، حيث يقول له الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[1].

وإنّ كلا التعبيرين الواردين في هذه الآية الكريمة وردا على نحو الكناية؛ فالمراد من «جعل اليد مغلولة إلى العنق» ألّا يبذل الإنسان شيئًا من ماله، والمراد من «بسط اليد كلّ البسط» أن تصبح يده فارغة ولا يبقى معه شيء لنفسه، وإذا احتاج شخصٌ آخر إلى المال فلن يستطيع تقديم المساعدة له، فيصبح الإنسان موردًا للملامة والسخط.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أنّ رسول الله ﷺ كان ذات مرّة قد أنفق كلّ ما لديه للفقراء، ثمّ جاءه سائلٌ لديه حاجة ضروريّة ومُستعجَلة، وقد أحبّ رسول الله ﷺ أن يقدّم له المساعدة، إلّا أنّه كان قد بذل كلّ ما يملك، فلم يبق عنده شيء يعطيه إيّاه. ولعلّه قد تمنّى في قلبه المقدّس حينذاك لو أنّه كان قد أعطى الفقراء الآخرين مقدارًا أقلّ كي يبقى شيءٌ لهذا السائل. فنزلت هذه الآية الكريمة ـ كما تنقل بعض الروايات ـ تأمره ﷺ ألّا يبسط يده كلّ البسط أثناء الإنفاق، فيبذل كلّ ما لديه، ممّا يؤدّي إلى عدم قدرته على مساعدة الفقير الذي يأتيه سائلًا بيد خالية.

---

(١) سورة **الإسراء**، الآية ٢٩.



وعلى أيّة حال، فإنّ ما تقدّم هو وجه من الوجوه التي ذكرها بعض المفسّرين، ومعنىً من المعاني التي طرحوها لهذه الآية، وكذلك الأمر بالنسبة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[١]. وعلى أساس هذا المعنى، فإنّ الآية الكريمة إمّا أن تكون مشتملةً على حكمٍ أخلاقيٍّ، أو أنّها بصدد الإرشاد إلى حكمٍ عقليٍّ مبنيٍّ على لزوم الاعتدالِ في الإنفاق، والابتعاد عن الإفراط في بذلٍ المال من جهةٍ، والابتعاد عن البخل من جهةٍ أخرى. وإنّ فلسفة لزوم الاعتدال أنّ الإنسان إذا أنفق كلّ أمواله، بحيث لم يبق بحوزته شيءٌ، فإنّه لن يتمّكن من الإنفاق بعد ذلك إذا سأله شخص آخر وكان لديه حاجة ضروريّة وملحّة، وعندئذٍ سوف يتمنّى الإنسان لو كان قد أبقى مقدارًا من ماله ليصرفه في هذا المورد؛ لأنّه أشدّ ضرورة. ومن هنا، فإنّ الاعتدال في الإنفاق هو تدبير عقلائيّ في الواقع، وهو مقتضى بُعد النَّظَر، وأخذ المصالح الكلّيّة بعين الاعتبار.

وفيما يرتبط بسلوك طريق الاعتدال، ورد في بعض الآيات القرآنيّة والروايات الشريفة استعمال مفهوم «الاقتصاد». فعلى سبيل المثال، جاء في القرآن الكريم في مقام توصيف بعض عباد الله تعالى تعبير: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾[٢]. أو مثلًا يذكر أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته المعروفة «خطبة المتّقين» وصفًا من أوصاف المتّقين بقوله: «مَلْبَسُهُمُ الاقتِصاد»[٣]. وقد أفرد الشيخ الكلينيّ رحمه الله في كتابه الشريف **الكافي** بابًا خاصًّا بعنوان

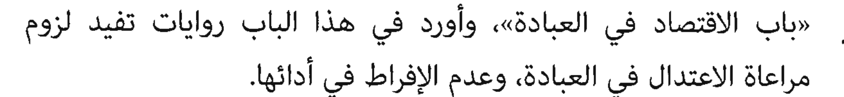
---

(١) سورة الإسراء، الآية ٢٩.

(٢) سورة لقمان، الآية ٣٢، وجاء في سورة فاطر، الآية ٣٢: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾.

(٣) السريف الرضي، **نهج البلاغة**، الخطبة ١٨٤.





«باب الاقتصاد في العبادة»، وأورد في هذا الباب روايات تفيد لزوم مراعاة الاعتدال في العبادة، وعدم الإفراط في أدائها.

الوجه الثاني: أن يُحمل تعبير «الإنفاق» على المعنى اللغويّ، لا الاصطلاحيّ؛ فكما ذكرنا سابقًا، إنّ المعنى الاصطلاحيّ والخاصّ للإنفاق هو بذل المال للآخرين، أمّا في اللغة فللإنفاق معنىً أعمّ، يشمل كلّ صرف ودفع للمال. وإنّ التعابير التي تُستعمل عادةً من قبيل: «نفقة العيال»، و«النفقة الواجبة»، من هذا الباب أيضًا. ووفقًا لهذا المعنى، يصبح بذل المال وتقديم المساعدة الماليّة للآخرين أحدَ مصاديق عنوان الإنفاق، ويصبح الإنفاق أعمّ من أن يصرف الإنسان مقدارًا من المال على نفسه أو على عياله أو أن يبذله للآخرين. ويمكن أن يكون للإنفاق بهذا المعنى دوافع مختلفة، وهو من حيث الحكم الفقهيّ يمكن أن يكون واجبًا، أو مستحبًّا، أو مباحًا، أو مكروهًا، أو محرّمًا. وعلى هذا الأساس، يكون معنى الآية الكريمة أنّ من أوصاف «عباد الرحمن» أنّهم بشكل عامّ، لا يبذّرون ولا يسرفون في صرفهم الماليّ، فلا تكون يدهم مبسوطة كلّ البسط، وفي الوقت نفسه، لا يبخلون ولا يقترون.

وإذا فسّرنا الآية وفق هذا المعنى للإنفاق، فهي ـ في الواقع ـ أيضًا كما ذكرنا في المعنى السابق بصدد التأكيد على حكمٍ يستقلّ عقل الإنسان في إدراكه؛ إذ إنّ عقلنا يحكم بأنّ الأسلوب الصحيح الذي ينبغي اتّباعه في الحياة هو ألّا يصرف الإنسان ماله بشكل عشوائيّ، فيصبح خاليَ اليد بشكل كامل، وفي المقابل ينبغي عليه أيضًا ألّا يكون حادًّا في صرف ماله، وألّا يُمسك ويقتر في أمور معاشه. فبعض النّاس فيما يرتبط بموضوع البخل والإنفاق يبخلون على أنفسهم في الاستفادة من النِّعَم التي وضعها الله في اختيارهم، فضلًا عن أنّهم لا يبذلون للآخرين شيئًا!



وقد نُقلت قصص عجيبة وغريبة حول أحوال البخلاء، تعكس صورةً بشعة عن أسلوب حياتهم. وقد شاهدت بنفسي على طول سنين عمري بعض الأفراد من هذا القبيل، وقد كانوا على الرَّغم من تنعّمهم بالمال والثروة الكبيرة، يحرمون أنفسهم من الاستفادة من هذه النِّعَم، ويعيشون حياة الفقر، وليس ذلك بدافع الزهد والعيش البسيط، بل بسبب حبّ المال والتعلّق الشديد بالثروة، فأصبحت قلوبهم لا ترضى بصرف هذه الأموال. على أيّة حال، فهذا أيضًا من عجائب عالم الدُّنيا، حيث إنّ الإنسان قد يتعلّق أحيانًا بأمواله إلى درجة أن يُنسيَه هذا التعلّق الهدف الأساسيّ من المال والثروة، فتنحصر رغبته في جمع المال ومَلْءِ الحسابات المصرفيّة فقط، من دون أن يستفيد أبدًا من هذه الأموال والثروات.

المقصود من الإسراف في الإنفاق

بيّنا إلى هنا أنّ المفسّرين قد ذكروا في تفسير هذه الآية الكريمة وجهين اثنين. وإنّ بحثنا هنا ينسجم مع كلا الوجهين؛ لأنّ كلًّا من هذين المعنَيين زاخرٌ بالمعارف المفيدة، ونحن في حاجة إلى الالتفات إلى هذه التوصية القرآنيّة والبحث فيها، سواء في ذلك مورد الصرف الشخصيّ في حياتنا اليوميّة ومورد الإنفاق على الآخرين.

ومن جملة النُّكات الجديرة بالتدقيق والتأمّل في هذه الآية، تعبير: ﴿لَمۡ يُسۡرِفُواْ﴾؛ فالآية تقول: إنّ «عباد الرحمن» هم أشخاص ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ﴾، والسؤال المطروح هنا: ما المقصود من الإسـراف؟ هل المقصود منه ذلك الإسراف الذي نقول بحرمته؟ أم المراد مطلق الإفراط وإن كان إفراطًا في العمل الحسن؟ فمثلًا، يعدّ الإنفاق وبذل المال عملًا حسنًا وليس بالفعل المحرّم، ولكن لو قلنا: إنّ المراد من الإسراف مطلق



الإفراط، فيكون مقصود الآية الكريمة أنّ في هذا الإنفاق أيضًا لا ينبغي الإفراط والإسراف.

وفي مقام الإجابة عن هذا السؤال، ينبغي أن نقول إنّه بقرينة سبب النزول الذي ذكرناه لآية: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا﴾[1]، يمكن القول: إنّ المقصود من الإسراف في هذه الآية مطلق الإفراط في صرف المال، وإن لم يكن إسرافًا مذمومًا أو محرّمًا شرعًا؛ فكما أشرنا سابقًا، إنّ سبب النزول الذي ذكره المفسّرون لهذه الآية هو أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كان قد تصدّق بجميع ماله الذي كان يمتلكه حتّى لم يبق بحوزته أيّ مال. ومن الواضح أنّ فعل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هذا ليس حرامًا ـ والعياذ بالله ـ، بل كلّ ما في الأمر أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قد تجاوز الحدّ في الإنفاق والبذل الذي يعدّ من الأفعال الحسنة والأعمال الصالحة.

وبعد هذا البيان، يُطرح سؤال آخر: هل ينحصر المراد من الإسراف في هذه الآية في الإفراط في المباحات والمستحبّات ولا يشمل الإسراف في المحرّمات؟ **بعبارةٍ أخرى**: هل إنّ سبب النزول الذي ذكر لآية: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا﴾[2] على فرض صحّته يبعث على حمل الآية (محلّ البحث) على الإسراف في المباحات والمستحبّات فقط بحيث يكون الإسراف في المحرّمات غير مقصود في الآية؟

---

(١) سورة **الإسراء**، الآية ٢٩.

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ٢٩.



تتّضح الإجابة عن هذا السؤال من خلال الالتفات إلى الأسلوب القرآنيّ الكلّيّ في بيان القيمة. إنّ أسلوب القرآن الكريم في بيان القيمة وضدّ القيمة يعتمد على النظر إلى الماهيّة العامّة والكلّيّة للقيمة، بحيث يشمل البيان القرآنيّ جميع مراتب القيمة أو ضدّ القيمة ومختلف مصاديقها؛ فمثلًا، إنّ المطالب التي تقدّم بيانها حول الصلاة لا تختصّ بفردٍ أو مصداقٍ خاصّ منها، بل هي مطالب تصدق على جميع مراتب الصلاة ومصاديقها. وبالطبع، يختلف صدقها باختلاف المرتبة. فآيات من قبيل: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1] و﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾[2] و﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[3] وأمثالها، لا تختصّ بالصلاة الواجبة أو المستحبّة. فعلى أقلّ تقدير، يوجد احتمال قويّ ووجه موجّه في تفسير أمثال هذه الآيات، وهو أنّ هذه البيانات بصدد الترغيب والحثّ على أصل العمل، وهو الصلاة في مثالنا، وبالطبع تختلف مرتبة الترغيب باختلاف مرتبة مصداق العمل. فمثلًا، إنّ إحدى مراتب هذا العمل هي المرتبة الوجوبيّة، وبعدها تأتي المرتبة الاستحبابيّة، ونفس هذا الوجوب وهذا الاستحباب، له بدوره مراتب مختلفة من ناحية تأكّده. فبناءً على هذا الوجه، تكون هذه الآيات بصدد الترغيب والتشجيع على أصل حقيقةٍ ما بجميع مراتبها ومصاديقها المختلفة. أمّا المرتبة التي يحوزها كلّ مصداق من حيث الوجوب، والوجوب المؤكّد، والاستحباب وما شابه، فهو أمر ينبغي معرفته من القرائن الخارجيّة. وكذلك الأمر في المنهِيّات والممنوعات والأمور المنافية للقيمة، فهي أيضًا ذات مراتب مختلفة، تبدأ من المكروهات

---

(١) سورة **طه**، الآية ١٤.

(٢) سورة **العنكبوت**، الآية ٤٥.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٤٣، وموارد أخرى.

والذنوب الصغيرة، حتّى تصل إلى الذنوب الكبيرة والكبائر الموبِقة[١]. ومن هنا، لا تختصّ البيانات القرآنيّة المرتبطة بالمنهِيّات بالكبائر الموبقة فقط، بل تشمل سائر المراتب أيضًا وتصدق عليها، وإن كان صدقها يختلف باختلاف هذه المراتب. ومن هنا، تُحمل أمثال هذه الآيات أيضًا على النهي والزجر عن طبيعة المفهوم، أمّا درجة هذا النهي ومرتبته ـ كالحرمة والكراهة ـ فتُعرف بواسطة القرائن الخارجيّة.

وعلى أيّة حال، فكما أشرنا سابقًا، إنّ هذا الاحتمال المذكور يُطرح على الأقلّ بوصفه وجهًا جديرًا بالملاحظة في تفسير هذه الآيات. وإنّنا فعلًا نسير في بحثنا هنا وفقًا لهذا الاحتمال، فنعتبر الآية ـ مورد البحث ـ بيانًا كليًّا يرتبط بجميع أشكال صرف المال. وعلى أساس هذه الرؤية، فإنّ القدر المتيقّن من الإسراف المراد في الآية التي تقول: إنّ من أوصاف «عباد الرحمن» أنّهم ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ﴾[٢] هو الإسراف المحرّم، إلّا أنّها لا تختصّ به، بل تشمل كلّ إفراط في صرف المال، وإن لم يبلغ حدّ الحرمة. **بعبارةٍ أخرى:** إنّ كلّ إنفاق يكون مرجوحًا نوعًا ما، ولا يكون راجحًا وفق مذاق الشريعة، فهو مشمول في هذه الآية الشريفة. وكما أشرنا سابقًا، إنّ سبب نزول آية: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾[٣]، على فرض اعتباره وصحّته، يؤيِّد هذا المعنى بالكامل؛ ذلك لأنّ هذه الآية قد نزلت في شأن إنفاق النبيّ الأكرم ﷺ، ومن البَدَهيّ أنّ النبيّ ﷺ لا يرتكب أيّ فعل محرّم ـ والعياذ بالله ـ. ومن هنا، لا يمكن القول: إنّ الفعل الذي قام به النبيّ

---

(١) وهي الذنوب التي توجب الخلود الأبديّ لفاعلها في نار جهنّم.

(٢) سورة **الفرقان**، الآية ٦٧.

(٣) سورة **الإسراء**، الآية ٢٩.



هو مصداقٌ للإسراف المحرّم. بل أكثر من ذلك، لا يمكن اعتبار إنفاق النبيّ ﷺ من مصاديق الفعل المكروه، بل إنّ فعله قطعًا إمّا أن يكون واجبًا أو مستحبًّا. ولكن في الوقت نفسه، على فرض اعتبار سبب النزول هذا صحيحًا ومعتبرًا، لا بدّ من القول إنّ في فعل النبيّ ﷺ نوعًا من المرجوحيّة؛ إذ إنّه يُتلقّى بوصفه نوعًا من الإفراط. ومن هنا، نهى الله تبارك وتعالى نبيّه الأكرم ﷺ وردعه عن هذا الإفراط المرجوح.

وعلى هذا الأساس، فليس من اللازم أن يكون وصف «عباد الرحمن» الوارد في آية: ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ﴾[1]، محمولًا على الإسراف المحرّم، بل يمكن حمله على الإنفاق الذي يحوي أيّ نوع من المرجوحيّة وإن كانت مرجوحيّة بالعنوان الثانويّ.

وعليه، فمن خصائص «عباد الرحمن»، أنّهم لا يفرطون في إنفاقهم ولا يمسكون أو يقترون أكثر من الحدّ؛ ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾[2]، و«القتر» في اللغة معناه الضِّيق والتشدّد. ومن هنا، يكون المراد من قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾، أنّهم لا يضيّقون ولا يتشدّدون.

فأصبحت النتيجة الكلّيّة للبحث أنّه قد جاء في كتب التفسير لهذه الآية الكريمة وجهان، وكلّ مفسّر اجتهد في تقوية وجه من الوجهين:

الوجه الأوّل: أن نعتبر أنّ المراد من الإنفاق في الآية هو معناه الشائع والرائج، أي: بذل المال للآخرين.

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٧.

(٢) سورة **الفرقان**، الآية ٦٧.



والوجه الآخر: أن نفسّر الإنفاق بمعناه المطلق، وهو كلّ صرف للمال في جميع شؤون الحياة. وقد بيّنّا المراد من الإسراف في الآية الكريمة على ضوء كلا التفسيرين.

التسليم لله تعالى طريق السعادة الوحيد

من الواضح أنّ التعريف بفئة «عباد الرحمن» في الآيات والروايات وذكر أوصافها هو ـ في الحقيقة ـ من أجل تشجيع الآخرين وترغيب الضعاف من المؤمنين أمثالنا، ليوجدوا في أنفسهم هذه الفضائل عبر التأسّي بـ«عباد الرحمن» وجعلهم القدوة والمثل. وإنّ روح جميع هذه الأوصاف ـ في الواقع ـ أنّ الأناس الجيّدين وعباد الله الصالحين ليسوا أحرارًا وطلقاء في أعمالهم وتصرّفاتهم، بل إنّهم ينظّمون جميع أعمالهم ويرتّبون كلّ حياتهم على طبق المقرّرات والضوابط التي وضعها الله تعالى. وبشكل عامّ، فإنّ أصل الإسلام وأساسه ليس سوى هذا التسليم، والمسلم الواقعيّ هو ذلك الإنسان الذي يسلّم لله ولإرادته سبحانه وتعالى. «المسلم» هو مَن يكون سمعه وبصره بأمر الله وإشارته، والشخص الذي يراقب في جميع أحواله الإرادةَ الإلهيّةَ، وما يريده الله تعالى منه، ويسلّم كامل التسليم لهذه الإرادة. وإنّ قول الإنسان: «قلبي يريد» يقع في النقطة المقابلة للإسلام، وينافي روح العبوديّة.

وإنّ الله تعالى لم يخلق الإنسان كي يتّبع أهواءه ورغباته وشهواته، بل جعل تكامله مرهونًا بالتسليم لإرادته تعالى. ومن هنا، فإنّ الثقافة الرائجة التي تحكم العالم في هذه الأيّام، والتي قد أطلقوا عليها اسم «الحرّيّة» تخالف الإسلام تمام المخالفة. إنّ «الحرّيّة» في عالمنا اليوم باتت تعني أن يمارس الإنسان كلّ ما تهواه نفسه، وأن يكون حرًّا في فعل كلّ ما تمليه عليه أهواء النفس ورغباتها. وإنّ انتشار هذه الثقافة



وتوسّعها، قد أوصل الأمور في أيّامنا هذه إلى درجة أنّ الأب والأم إذا نهيا ولدهما عن القيام بفعل ما، فإنّ الولد يواجههما بعبارات من قبيل: «أنا أحبّ القيام بهذا الفعل ونفسي تريده، إذًا سوف أقوم به»، وممّا يدعو إلى الأسف، أنّ هذه الثقافة قد راجت كثيرًا، حتّى بلغت حدّ اعتبار هوى النفس معيار القيمة والفعل الصحيح، وظهور الاعتقاد القائل: إنّ الفعل الحسن هو ذلك الفعل الذي ترغبه نفس الإنسان!

وكما أشرنا سابقًا، إنّ هذه الثقافة تخالف تعاليم الإسلام والثقافة الإسلاميّة مئة بالمئة. فالإسلام يقول: أيّها الإنسان أنت عبد لله، فينبغي عليك أداء حقّ هذه العبوديّة، بأن تسلّم لإرادة معبودك؛ فدع أهواءك جانبًا، وسلّم أمرك لله ولإرادته وارفع شعار: ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾[1].

فريضة الحجّ: مظهر تنمية روح التسليم في الإنسان

أحيانًا، أثناء استعراض المباحث يحضرني بعض الخواطر حول بعض العظماء، التي قد لا يكون لها ذلك الارتباط بأصل البحث، ولكن من أجل أداء حقّ هؤلاء العظماء وتمجيد أسمائهم وتخليد ذكراهم، نرى من المناسب ذكر هذه المطالب. وبمناسبة بحثنا الفعليّ، خطرت في ذهني خاطرة عن المرحوم الشيخ علي أكبر تربتي، ولا يخلو نقلها من الفائدة:

في بعض أيّام الحجّ، كان هذا العبد الصالح رحمه الله يعتلي المنبر في مدرسة الفيضيّة، فيتحدّث عن فلسفة فريضة الحجّ وأسرارها وأحكامها. وكان يقول: إنّ فريضة الحجّ هذه في جميع أنحائها هي ـفي الواقعـ تمرينٌ على أداء العبوديّة. يقولون لك: قم بالطواف حول البيت، فتقول:

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٢٠.

سمعًا وطاعة! اذهب إلى المسعى وابدأ بالهرولة، فتقول: سمعًا وطاعة! اخلع عنك رداء الدنيا وأشكال التجمّل، فتقول: سمعًا وطاعة! توجّه نحو عرفات وامكث تحت أشعّة الشمس المحرقة، فتقول: سمعًا وطاعة! توقّف ليلًا في الصحراء وجبال المَشعر الحرام، فتقول: سمعًا وطاعة! وإن سألت عن سبب كلّ هذا، يقولون لك: «لا تسأل عن السبب، وما عليك إلا أن تتمرّن على القول: سمعًا وطاعة، وتعلّم التسليم لله تعالى!».

يقولون لإبراهيم الخليل عليه السلام اذبح ابنك! وهل يوجد عمل أصعب من هذا؟! ماذا يفهم عقل الإنسان من مثل هذا الأمر؟ يقول الله تعالى: يا إبراهيم قدّم ولدك الطاهر والمعصوم قربانًا واذبحه بيدك! فماذا كان قول ابراهيم عليه السلام؟! قال: سمعًا وطاعة! وماذا كانت ردّة فعل إسماعيل عليه السلام في مقابل هذا الأمر؟! يقول له أبوه إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾، فيقول إسماعيل عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1].

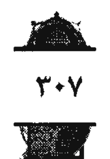
نعم، إنّ سرّ التكامل الإنسانيّ يكمن في التسليم لله تعالى، لا في الحرّيّة والفرار من القيود واتّباع هوى النفس والعمل وفقه. وإنّ هذه السنّة الإلهيّة لا تقبل التغيير، بل الأنبياء العظام ـ كإبراهيم عليه السلام ـ قد تجاوزوا امتحان «التسليم»، حتّى نالوا أعلى المقامات الإنسانيّة.

بحث في قاعدة الاعتدال والحدّ الوسط

إنّ الضابطة المطروحة في هذه الآية في مورد الإنفاق سارية أيضًا في سائر الأفعال الأخرى. والآية (محلّ البحث) هي في مقام التعريف بفئةٍ

---

(١) سورة **الصافات**، الآية ١٠٢.



اختار أفرادها اجتناب حدّي الإفراط والتفريط في الإنفاق، وسلوك طريق الاعتدال؛ ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾.

وفي مورد كثيرٍ من الأفعال الأخرى يمكن تصوير المسألة بهذا النحو أيضًا؛ فأثناء أداء تلك الأفعال يواجه الإنسان حدّين، هما الإفراط والتفريط، ولكنّ الطريق الصحيح هو اجتناب كلا الحدّين، وسلوك طريق الاعتدال. وإنّ عموميّة هذا المطلب قد دفعت بكثيرٍ من المذاهب الأخلاقيّة والفلاسفة الأخلاقيّين، إلى أن يعتبروا هذا الأمر المحور الأساسيّ في رؤاهم ونظرياتهم الأخلاقيّة. وقد قبل عدد كبيرٍ من علماء الشيعة وعلماء الأخلاق الإسلاميّة هذا المبنى أيضًا، وقالوا بصحّة هذه القاعدة، ودوّنوا كتبهم على أساسها.

فإذا تأمّلنا في الكتب الأخلاقيّة من قبيل: **جامع السعادات** و**معراج السعادة**، نجد أنّها قد دوّنت على أساس قاعدة الاعتدال والحدّ الوسط؛ فقد ذكروا في بيان الفضائل والمكارم الأخلاقيّة، أنّ لكلّ صفة من هذه الصفات حدّين، هما الإفراط والتفريط. وأثناء بيان مذموميّة كلّ من هذين الحدّين قدّموا أصل الاعتدال ومراعاة الحدّ الوسط تحت عنوان: «الفضيلة الأخلاقيّة». فقالوا ـ على سبيل المثال ـ: إنّ الإنسان إذا تجاوز الحدّ في عدم الخوف فهذا هو التهوّر، وهو ليس بمطلوب، وإذا تجاوز الحدّ في الخوف فهذا هو الجبن، وهو أيضًا ليس بمطلوب، وينبغي اجتنابه، أمّا الحدّ الوسط بين هذين الأمرين، فهو ألّا يبلغ الإنسان حدّ التفريط فيتهوّر، ولا يبلغ حدّ الإفراط فيجبن، بل ينهج منهج الاعتدال المتمثّل بصفةٍ اسمها «الشجاعة»، وهي صفة ممدوحة ومطلوبة. أو مثلًا في مورد بحثنا الفعليّ، فحدّ الإفراط فيه هو «الإسراف»، وحدّ التفريط

هو «البخل»، وبين هذين الحدّين تقع صفة تحمل اسم «السخاء»، وهي تعتبر من الفضائل الأخلاقيّة.

ويمكن أن نشاهد لهذه القاعدة ـ أي قاعدة الاعتدال والحدّ الوسط ـ مؤيّدات في الروايات الإسلاميّة إلى حدّ ما. وإنّ العبارة المشهورة بيننا والتي باتت بمثابة مثل شعبيّ: «خَيْرُ الأمُوْرِ أَوسَطُها»، قد أُخذت من بعض الروايات الإسلاميّة؛ إذ إنّها قد وردت بهذه الصورة عينًا ضمن بعض هذه الروايات الشريفة[1]. وقد ورد أيضًا في مقطع من عهد أمير المؤمنين عليه السلام المعروف إلى مالك الأشتر: «وَلْيَكُنْ أَحَبُّ الأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطَها فِي الْحَقّ»[2].

وبإمكاننا في أغلب الأفعال أن نتصوّر حدّي الإفراط والتفريط، وأن نستنتج أنّ العمل الصحيح والسلوك الحسن هو اختيار الحدّ الوسط بين هذين الحدّين. ولكنّ الشيطان من أجل خداع الإنسان يستفيد عادةً من هذين الحدّين، وبالطبع غالبًا ما يدخل الشيطان عن طريق التفريط في كثيرٍ من الموارد؛ فمثلًا، يسعى الشيطان إلى ألّا يؤدّي الإنسان صلاته بنحو صحيح ـ لا سمح الله ـ، أو أن يترك بعض الصلوات الواجبة عمدًا. ولكنّه أحيانًا في مورد بعض الأفراد لا يتمكّن من النفوذ من طريق التفريط هذا، فيسعى جاهدًا سالكًا طريق الإفراط، فيلقي في قلب الإنسان أنّه كلّما قام بالفعل أكثر كان أفضل وأكثر مطلوبيّة؛ فبعض الناس يذرون كلّ أعمالهم ومشاغل حياتهم، ويشتغلون على الدوام في الصلاة والعبادات. وفي مثل هذه الموارد، يصبح هذا السلوك شيئًا فشيئًا طريقةً يسيرون عليها، ومشربًا يتبنّونه في حياتهم، ومسلكًا يتّخذونه، بل يتشعّب هذا

---

(١) العلّامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٧٨، الصفحة ١١، الرواية ٧٠، الباب ١٥.

(٢) الشريف الرضي، **نهج البلاغة**، باب المختار من كتبه عليه السلام، (٥٣).



المسلك وينتشر ويروج، حتّى ينجذب إليه كثيرٌ من الناس من أصحاب النوايا الحسنة. ويعتقد هؤلاء أنّ أعمالهم هذه ممدوحة جدًّا، وأنّها مورد رضا الله تعالى، إلّا أنّهم يغفلون عن أنّهم على أثر أعمالهم هذه يفوّتون كثيرًا من الأعمال الحسنة، وأنّهم ـ في الواقع ـ يعمدون إلى ترك الواجب من أجل أداء المستحبّ. فيفرح هؤلاء أنّهم صلّوا كثيرًا، ويغفلون عن أنّهم تركوا أداء كثيرٍ من الواجبات، من قبيل: تحصيل العلم، وكسب الرزق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومواجهة الظلم، وعشرات الواجبات الأخرى التي أهملوها ولم يعتنوا بها بسبب مداومتهم على هذا الفعل المستحبّ.

ولكن كما ذكرنا سابقًا، إنّ الأفـراد عادةً ما يبتلون بالتفريط في أفعالهم، والشيطان غالبًا ما يختار سلوك هذا الطريق من أجل السيطرة عليهم. فعلى سبيل المثال، فيما يرتبط بالصلاة يسلك الشيطان أوّلا طريق الوسوسة فيما يرتبط برعاية أداء الصلاة في أوّل وقتها، وشيئًا فشيئًا يبدأ الإنسان بعدم إعطاء أهمّيّة لأداء الصلاة في أوّل الوقت. ومن بعدها يمتنع عن أداء المستحبّات. ثمّ يفقد رغبته تجاه أداء سائر مستحبّات الصلاة، حتّى تصل النوبة تدريجيًّا إلى الواجبات. وفي الواجبات أيضًا، يبدأ الأمر مع الشيطان بأن يوسوس للإنسان بأنّه ليس بالأمر المهمّ أن يراعيَ أحكام الإعراب في كلمات الصلاة، أو أنّه ليس من الضروريّ رعاية أحكام التجويد ومخارج الحروف، وأنّ الصلاة تصحّ من دونها، ثمّ يوسوس له أنّه لا فرق بين أن تؤدّي صلاة الصبح قبل دقيقة أو بعد دقيقة، وهكذا يصل الأمر بالإنسان تدريجيًّا إلى أن يصلّي صلاة الصبح بعد طلوع الشمس. وشيئًا فشيئًا، تراه بات يشكّك في أصل الصلاة، وفي النهاية يصل به الأمر إلى ترك الصلاة بشكل كلّيّ.

نعم، إنّ إبليس أستاذ ماهر في عمله، وفي مواجهته للمؤمن المصلّي، لا يبدأ مباشرة بسلوك طريق الحثّ على ترك الصلاة كلّيًّا، ولا يبدأ مباشرةً بترغيبه في ألّا يصلّي. بل يتقرّب إليه بتأنٍّ شديد وتمهّل كبير، وتكون تحرّكاته أحيانًا في غاية الهدوء، كدبيب النمل، بحيث يغفل عنها الإنسان نفسه، ولا يلتفت إلى أنّه قد بدأ بسلوك طريق الانحراف. ومن هنا، ينبغي علينا أن نكون في غاية الحذر والمراقبة، وأن نراعيَ كافّة الضوابط، حتى أثناء قيامنا بالأعمال الصالحة، كي لا نتجاوز الحدّ فيها. ومن النُّكات المهمّة في هذا السياق، أنّه ينبغي ألّا نتصوّر أنّ العمل إن كان حسنًا فمن الأفضل أن نزيد منه مهما أمكن!

بل ينبغي في هذا الموضوع أن نلتفت إلى أنّ العمل الصالح ليس واحدًا، بل يوجد أعمال صالحة كثيرة، وهذه الأعمال الصالحة قد تتزاحم فيما بينها في كثيرٍ من الحالات، وهنا لا بدّ على الإنسان من أن يترك بعضها من أجل أداء بعضٍ آخرَ. في مثل هذه الحالات، يوجد ضابطة واضحة، وهي أنّه بين أيّ فعلين صالحين أحدهما واجب والآخر مستحبّ، فمن الخاطئ أن يُقدَّم المستحبّ ويُترَك الواجب. فمثلًا، طالب العلوم الدينيّة المشتغل في تحصيله، ينبغي عليه ألّا يقصّر في درسه من أجل أن يؤدّيَ الصلوات المستحبّة. ولكنّنا نرى في هذا الصدد بعض أتباع المدارس الصوفيّة يتوقّفون عن أداء الصلاة عندما يصلون إلى بعض المراحل، ومن أجل تسويغ أفعالهم هذه يقولون: إنّ قراءة ذكر «نادِ عليًّا» أعلى بدرجات من أداء الصلاة! وهذا الأمر ـ في الواقع ـ نظير أن يقصّر طالب العلم في دروسه ويشتغل ـ عوضًا عن ذلك ـ بأداء الصلوات المستحبّة والأدعية والأذكار، مسوّغًا فعله هذا بأنّ قراءة «زيارة عاشوراء» أرفع بدرجات من تحصيل العلم. بالطبع، ينبغي أن تؤدّى الصلاة في أوّل وقتها، مع مراعاة كامل آدابها. ومن الضروريّ أيضًا قراءة القرآن الكريم،



ولكن في الوقت نفسه، ينبغي على الطالب أن يعطي للدرس والتحصيل العلميّ أهمّيّة كبيرة، وأن يحضر إلى الدرس في موعده، وأن يستمع إليه بدقّةٍ، ويقرأه بتأنٍّ، ويباحثه بجدّيّة.

إنّ العمل المستحبّ لا يمكن أبدًا أن يأخذ مكان التكليف الواجب. وينبغي الالتفات أيضًا إلى أنّه يوجد على عاتقنا تكاليف واجبة متعدّدة، ينبغي أخذها جميعًا بعين الاعتبار وتوزيعها على أوقاتنا ومواعيدنا، بحسب ما يقتضيه كلّ تكليف منها؛ فطالب العلم ـ على سبيل المثال ـ وإن كان التحصيل العلميّ واحدًا من واجباته المؤكّدة، وخاصّة في زماننا هذا، إلّا أنّ لديه وظائف وتكاليف تجاه والديه وزوجته وأطفاله، وهذه الواجبات ينبغي مراعاتُها. ومن هنا، لا يمكن للطالب أن يتذرّع بالدراسة والتحصيل ليسوّغ تقصيرَه في أداء وظيفته تجاه والديه وزوجته وأطفاله؛ فلكلّ تكليف مكانه الخاصّ، وينبغي أخذه بعين الاعتبار بحسب مقدار وجوبه.

ومن هنا، ينبغي أن نفهم بشكل جيّد المراد من أصل الاعتدال والحدّ الوسط الذي طرحه علماء الأخلاق، وأن نكون حذرين من الوقوع في فخّ بعض التفسيرات الخاطئة والمنحرفة؛ إذ لم يفهم بعضٌ المرادَ من هذا الأصل جيّدًا، فتوهَّمَ أنّ مراعاة الحدّ الوسط في تحصيل الرزق وكسب المال والثروة ـ مثلًا ـ أنّ الإنسان إذا استطاع أن يكسب في اليوم الواحد مبلغًا يتراوح بين الألف تومان والمليون تومان، فعليه ـ مراعاةً لأصل الاعتدال ـ أن يجتنب هذين الحدّين، ويختار الرقم المتوسّط، فيكسب في اليوم خمسمئة ألف تومان. أو فيما يرتبط بتحصيل العلم ـ مثلًا ـ، فإنّ الحدّ الأقلّ هو أن يتعلّم الإنسان عدّة كلمات من عالِمٍ ما، وأعلى درجات التحصيل العلميّ هو أن يسعى سعي العلماء الذين صرفوا جلّ عمرهم

في طلب العلم، فقالوا: إنّ هذين الحدّين يمثّلان حدّي الإفراط والتفريط في السعي العلميّ. ومن هنا، فإنّ الطريق الصحيح والمسير المطلوب ومنهج الاعتدال، تقتضي ألّا يكتفيَ بعدّة كلمات فقط، وفي الوقت نفسه، ينبغي ألّا يسعى ليصبح علّامةً أو مرجعًا أو ما شابه!

من الواضح أنّ مثل هذا التفسير لأصل الاعتدال والحدّ الوسط، تفسير خاطئ، بل يؤدّي بالإنسان إلى الضلال والتيه؛ فليس الحدّ الوسط المطروح هنا حدًّا كمّيًّا حتى يُقال ـ على أساسه ـ: إنّ الحدّ الوسط بين الألف والمليون هو الخمسمئة ألف. بل المراد من الحدّ الوسط ـ كما تقدّم ـ أنّ الإنسان إذا تزاحمت عليه الأمور والتكاليف، فينبغي أن يؤدّي كلَّ واحد منها بنحوٍ لا يسبّب الإضرار بالتكاليف الأخرى. وعلى هذا الأساس، فإنّ الحدّ الوسط في أيّ أمر يحُدَّد في الحقيقة على ضوء الأمور المزاحمة له. فمثلًا، ينبغي على الطالب أن يشتغل في تحصيله العلميّ إلى الحدّ الذي لا يعود بالضرر على إنجاز باقي التكاليف الواجبة على الطالب، كواجباته تجاه الوالدين والزوجة والأولاد. وإذا أعطى الطالب لتحصيله العلميّ أهمّيّة كبيرة إلى درجة التقصير في أداء التكاليف الأخرى، يصبح تحصيل العلم عملًا غير مطلوب، بل من الممكن في بعض الموارد أن تصبح بعض مصاديق طلب العلم من الأفعال المحرّمة أو شبه المحرّمة.

وبناءً عليه، فلا وجه على الإطلاق لتصحيح التفسير الكمّيّ للحدّ الوسط. بل من الواضح أنّه ليس المراد من رعاية الحدّ الوسط في طلب العلم ـ مثلًا ـ أنّ الإنسان ينبغي ألّا يكون جاهلًا أمّيًّا، وفي الوقت نفسه، ألّا يجتهد كثيرًا ويصبح علّامة! أو أن نقول في مورد كسب المال بأنّ على الإنسان ألّا يكون فقيرًا وألّا يملك مالًا كثيرًا. وإن قلنا بهذا القول، فيصبح



فعل نبيّ الله سليمان عليه السلام في غير محلّه؛ إذ كان لهذا النبيّ ملكٌ وسلطانٌ في غاية السَّعة.

إنّ رعاية الاعتدال والحدّ الوسط تعني أن يصرف الإنسان قواه وإمكاناته في مختلف الأعمال ضمن حدّ الاعتدال، ولا يعني هذا أن يأخذ الحدّ المتوسّط من النتيجة التي بإمكانه أن يجنيَها من العمل ويكتفي بها.

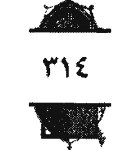
ومن هنا، فمن الممكن للإنسان أن يبلغ حدّ الإفراط في تحصيل المال، فيصرف قواه وإمكاناته في هذا العمل أكثر من الحدّ اللازم، ورغم ذلك، لا يجني كثيرًا من المال. وفي هذه الحالة، لا يكون كسب القليل من المال فقط، باعثًا على عدم تسمية هذا العمل بالإفراط، وعلى عدم تقبيحه وذمّه. ومن جهةٍ أخرى، فمن الممكن للإنسان أن يصرف قليلًا من وقته وإمكاناته في كسب المال، ولكن يكون من نصيبه كثيرٌ من المال الحلال. وهنا أيضًا، لا يكون الحصول على كثيرٍ من المال سببًا في اعتبار فعل الإنسان غير أخلاقيّ أو مصداقًا من مصاديق الإفراط.

تطبيق قاعدة الاعتدال في مورد الإنفاق

ولا ينبغي أن نغفل عن أنّ مُفاد الآية (محلّ البحث) يرتبط بمسألة الإنفاق، وأنّ الآيـة الكريمة في مقام التعريف بأحد أوصـاف «عباد الرحمن»؛ إذ تعتبر أنّهم أولئك الذين يجتنّبون الإفراط والتفريط في الإنفاق، ويراعون حدّ الاعتدال؛ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾[1].

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٧.



ومن هنا، فإنّ هذه الأبحاث التي قدّمناها، إنّما هي على فرض قيامنا بما يعرف في الاصطلاح العلميّ بـ«إلغاء الخصوصيّة» في الآية (محلّ البحث)؛ فعندئذٍ، بالالتفات إلى عبارة: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾، بإمكاننا أن نستفيد من الآية الكريمة مِلاكًا كلّيًّا وأصلًا عامًّا، وأن نقول: إنّه لا خصوصيّة للإنفاق، بل إنّ كلّ عملٍ ـ بشكل عامّ ـ فيه حدّ وسط مطلوب، وينبغي اعتباره الملاك في العمل.

بالطبع، ليس من المقرّر فعلًا أن ندخل في البحث في هذا المبنى من وجهة نظر فلسفة الأخلاق الإسلاميّة، وأن نبحث في مقدار صحّته وسقمه. ولكن من الممكن في أبحاث أكبر وأعمق أن نصل إلى نتيجة، مُفادها أنّ هذا الملاك لا يتوافق مع التعاليم الإسلاميّة في جميع الموارد ولا ينسجم معها في جميع الحالات.

ولكن في جميع الأحوال، إذا قبلنا بهذا المبنى، فينبغي أن نلتفت إلى أنّ المراد ليس الحدّ الوسط الكمّيّ والعدديّ، حتى نقول ـ على سبيل المثال ـ باحتساب المقدار الممكن من تحصيل المال والثروة، ثمّ نقول بأخذ نصفه والاكتفاء به، فنكون قد قمنا بعمل حسن ومطلوب من اللحاظ الأخلاقيّ! أو مثلًا فيما يتعلّق بصرف المال، فإنّنا إذا اكتفينا دائمًا بصرف نصف الأموال التي نمتلكها، فيكون فعلنا أخلاقيًّا وحسنًا، أمّا لو صرفنا أقلّ من ذلك أو أكثر ففعلنا غير سويّ!!

إن تفسير الحدّ الوسط بالنصف العدديّ هو قطعًا تفسير خاطئ وباطل. فمن الممكن في بحث الإنفاق وصرف المال، أن تطرأ على الإنسان بعض الظروف التي يغدو فيها من الواجب أو المستحبّ أن ينفق كلّ ما لديه من مال؛ فعلى سبيل المثال، إذا شنّ أعداء الإسلام هجومًا على الدولة الإسلاميّة، وكان من اللازم من أجل نجاة الإسلام والمسلمين،



أن يبذل الأغنياء كلّ أموالهم ومدّخراتهم، فينبغي أن يقوموا بهذا الأمر. فإذا كان من اللازم بذل الأرواح للدفاع عن الإسلام، فإنّ بذل الأموال سوف يكون لازمًا بطريقٍ أولى. وإنّ القرآن الكريم أيضًا يؤكّد على هذا الأمر في آيات متعدّدة، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[١].

وبناء عليه، فعلى فرض أنّنا استخرجنا واستنبطنا من هذه الآية الكريمة قاعدة كلّيّة، مُفادها أنّ كلّ فعل يكون له حدّ إفراط وحدّ تفريط، فالمطلوب مراعاة الحدّ الوسط فيه. ولا ينبغي أن نتصوّر أنّ هذا الحدّ الوسط حدٌّ كمّيٌّ، فنجعل تعاملنا في أمور كسب المال والمعاشرة وغيرها من المسائل، وفقَ هذا الملاك الكمّيّ؛ إذ إنّ هذا الأمر أقرب إلى المزاح منه إلى الحقيقة، كأن نقول: لمّا أباح الإسلام للرجل أن يختار أربع زوجات دائمات، فمن أجل مراعاة الحدّ الوسط من الأفضل للرجل أن يختار زوجتين! بالطبع، ليس الأمر على هذا النحو، بل يقول الله تعالى: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾[٢].

ومن هنا، فإنّ رعاية الحدّ الوسط الكمّيّ هو في الحقيقة من الأفعال المضلّة بشكل كامل. بل إنّ من المسلّم به أنّ كلّ عمل ينبغي الاشتغال فيه ضمن حدّ معيّن، بحيث لا يتزاحم مع سائر التكاليف والقيم. فإن كان الفعل واجبًا، فينبغي ألّا يزاحم سائر الواجبات، وإن كان مستحبًّا، فينبغي ألّا يزاحم الأفعال الواجبة وسائر الأفعال المستحبّة. وبشكل عامّ، إنّ التدبير العقلائيّ والتصرّف الحكيم يقتضي أن يعيش الإنسان حياته بنحوٍ يُمكّنه من إدارة كافة شؤون حياته، وأن يُقدم على تلبية جميع حاجاته

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٤١.

(٢) سورة **النساء**، الآية ٣.



المتزاحمة والمختلفة بحسب ما تقتضيه كلّ واحدة منها. ولكنّ الإنسان أحيانًا يدير طرفه إلى جهةٍ واحدة فقط، ويركّز نظره عليها، بحيث يغفل عن باقي المسائل والجهات الأخرى. وإنّ مراعاة أصل الاعتدال والحدّ الوسط هو الذي يحفظنا من السقوط في فخّ مثل هذه الغفلة.

خطاب إلى طلبة العلوم الدينيّة

فيما يرتبط بالإنفاق، ينبغي التذكير بمسألة ترتبط بأولئك الذين يشاركونني زيّ طلبة العلوم الدينيّة، وزملائي في الحوزة العلميّة، وهي مسألة لا يخلو ذكرها من لطف وفائدة، وخاصّة أنّ بعض الزملاء أحيانًا يغفلون عنها.

فبالإضافة إلى مسألة تزاحم التكاليف التي أشرنا إليها فيما يرتبط بدرس طلبة العلوم وتحصيلهم الدراسيّ، حيث قلنا: إنّ تحصيل الطالب ينبغي ألّا يكون مانعًا من قيامه بواجباته الأخرى، نظير: برّ الوالدين، وصلة الأرحام، ثمّة مسألة أخرى في هذا السياق، ترتبط بالإنفاق الواجب والحقوق الشرعيّة التي تكون أحيانًا في ذمّة بعض الطلبة، إلّا أنّهم يغفلون عنها.

جميعنا يعلم أنّ أمور معيشتنا نحن طلبةَ العلوم الدينيّة تُؤمّن عن طريق الوجوهات الشرعيّة؛ فالأموال التي يدفعها الناس إلى المراجع والعلماء، تحت عنوان الخمس والزكاة وسائر الوجوهات الشرعيّة، توضع بواسطة هؤلاء العظام تحت تصرّف طلبة العلوم الدينيّة بعنوان حقوق شهريّة، ليصرفوا منها في تأمين أمور حياتهم. وقد يكون هذا الأمر أحيانًا موجبًا لأن يتصوّر بعض الطلبة الأعزّاء أنّه ليس من الواجب عليه أن يؤدّيَ فريضة الخمس لأنّ مصاريف سنته تؤمّن عن طريق أموال الخمس والزكاة



التي يدفعها الناس. ومن هنا، نرى بعض الطلبة أحيانًا، وعلى أساس هذه الرؤية التي يحملونها، لا يقومون بوضع حساب سنويّ لمداخيلهم ومصاريفهم. وعلى فرض كون هذه المسألة صحيحة، إلّا أنّ هؤلاء الأعزّاء لا يلتفتون إلى أنّ طالب العلوم الدينيّة، قد يحصل أحيانًا على موردٍ ماليٍّ من غير طريق الحقوق الشهريّة والوجوهات الشرعيّة.

وفي هذه المسألة أمران ينبغي على الأعزّة أن يلتفتوا إليهما:

الأمر الأوّل: أنّه إذا زاد شيءٌ من هذه الحقوق الشهريّة ولم يُدفع في مصاريف طالب العلم، فلا بدّ من إرجاعه إلى بيت المال؛ إذ إنّ هذه الحقوق التي يعطيها السادة المراجع إلى الطلبة من أموال الوجوهات الشرعيّة، إنّما تُعطى لهم عادةً تحت عنوان مصروف شهريّ. ومن هنا، فعلى فرض أنّ أحد الطلبة لم يصرف مقدارًا من هذه الحقوق الشهريّة التي منحت له تحت هذا العنوان، فإنّه لا يبقى مالكًا لهذا المقدار الفائض، بل ينبغي إعادته إلى بيت المال. وهذا الأمر في غاية الأهمّيّة، وقد يحصل سوء فهم عند بعض الطلبة، فيغفلون عنه. ومن أجل أن تتّضح هذه المسألة بشكل أكبر، من الجيّد أن نلتفت إلى هذه المسألة المشابهة لها:

فيما يتعلّق بموضوع دفع أموال الخمس والزكاة وسائر الوجوهات الشرعيّة، من أجل ألّا يتكبّد الناس عناء القدوم مباشرة إلى مكاتب المراجع، يقوم مراجع التقليد العظام ـ عادةً ـ بتنصيب وكلاء عنهم في مختلف المناطق والمدن، كي يرجع الناس إليهم في هذه المسائل. وعلى فرض أنّ لأحدِ الأشخاصِ وكالةً من قبل المرجع لقبض الوجوهات الشرعيّة، وأنّه مجاز بأخذ ثلث هذه الأموال من أجل صرفها في تأمين حاجاته الشخصيّة، ففي مثل هذه الحالة، قد يحصل في بعض الأحيان أن تُجمع



مبالغ كبيرة من هذه الوجوهات عند الوكيل، ولا يكون لديه أيّة حاجة إلى الاستفادة منها. فعلى فرض أنّ هذا الوكيل قد فارق الحياة، عندئذٍ لا تنتقل هذه الأموال إلى ورثته، بل تُعتبر أمانةً عند الميّت، ولأنّه الآن قد مات، فينبغي أن تُرجع الأموال إلى بيت المال.

المسألة عينها متحقّقة في مورد طلبة العلوم الدينيّة؛ فهذه الحقوق الشرعيّة يُعطَونها بوصفها مصروفًا شهريًّا، ففي صورة عدم صرف مقدارٍ منها، ينبغي إرجاع هذا المقدار الزائد إلى بيت المال.

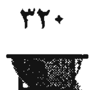
والأمر الثاني: أنّ طالب العلوم الدينيّة من الممكن أن يحصل على مدخول ماليّ من غير طريق الحقوق الشهريّة. فعلى سبيل المثال، قد يؤلّف كتابًا، أو يكتب مقالًا، فيحصل على مقدار من المال إزاء حقّ التأليف، أو مثلًا قد يلقي خطبة أو محاضرة ما، ويحصل في مقابلها على مبلغٍ من المال. ففي هذه الحالة، لا يعدّ هذا المدخول من الحقوق الشهريّة والوجوهات الشرعيّة حتى يُقال: إنّه لا خمس فيه. بل إنّ لهذه الأموال حسابًا مستقلًّا، وإذا زاد شيءٌ منها عن مصاريف السنة، فينبغي حتمًا أن يُدفع خمسه. وبناءً عليه، فلا يمكن لطالب العلوم الدينيّة أن يعتبر نفسه بمنأى عن القيام بحساب سنويّ لأمواله بذريعة أنّ معيشته وأمور حياته تؤمّن عن طريق الحقوق الشهريّة وأموال الخمس. وإنّ قوله: «إنّي دائمًا غارقٌ في ديوني»، أو «إنّ مصروفي أقلّ بكثير من مدخولي» لا يمكن أن يكون ذريعةً وحجّةً لعدم قيامه بحساب سنويّ أو عدم دفعه للخمس؛ فكلّ مسلم ينبغي أن يكون لديه رأس سنة خمسيّة، وأن يحسب مداخيله ومصاريفه في الموعد المقرّر، بل لو كان المال الفائض زهيدًا جدًّا، وَجَبَ دفع خمسه. بل لو كان هذا المبلغ الزائد مئة تومان أو ألف تومان، وَجَبَ أداء خمسه. وإنّ الذي لا يدفع خمس ماله الزائد مهما كان



قليلًا وزهيدًا، يُعتبر غاصبًا لهذا المال، ويُعدّ تصرّفه فيه من المصاديق البارزة للغصب. بل إنّ هذا الغصب ليس كغيره من أشكال الغصب، بل هو غصبٌ لمال الإمام المعصوم عليه السلام وذرّيّة رسول الله صلى الله عليه وآله والسادة الهاشميّين، لذا فهو أسوأ أشكال الغصب.

ومن هنا، فإنّ عدم وضع رأس سنة خمسيّة وعدم دفع مال الخمس، يعدّ مسألة في غاية الخطر، ولا يمكن الفرار منه أبدًا بحجّة عدم وجود مصدر دخل ثابت، أو بحجّة الاعتماد على أموال الخمس وسهم الإمام عليه السلام في مصاريف الحياة. بل أولئك الذين يستفيدون من المساعدات الماليّة التي تُقدّم لهم من أقاربهم، إذا علموا أن أقاربهم هؤلاء ليسوا من أهل أداء الخمس، وأنّهم لا يدفعون الأموال الشرعيّة، فعليهم دفع خمس هذه الأموال قبل التصرّف فيها. وينبغي على المؤمنين في عائلاتهم أن يُعلّموا هذه المسائل لصبيانهم وبناتهم منذ بداية سنّ التكليف، وأن يؤكّدوا أمامهم على ضرورة أن يضعوا لأنفسهم رأس سنة خمسيّة، وأن يقوموا بحسابٍ سنويّ لما يحصلون عليه من الأموال، وأن يدفعوا خمس المال ولو كان المال الزائد مقدارًا زهيدًا.

إنّ الامتناع عن دفع مال الخمس، بالإضافة إلى كونه من الذنوب الكبيرة ذات الآثار التكليفيّة، فإنّ له أيضًا آثارًا وضعيّة في غاية السوء؛ فأكل المال الحرام ـ بالإضافة إلى أنّه يودي بصاحبه في جهنّم والعذاب الأخرويّ ـ يؤدّي إلى قساوة القلب، وشقاء الإنسان في هذه الدنيا. وإنّ الشخص الذي يأكل المال الحرام ويملأ بطنه من أموال الناس، يفقد الميل نحو عبادة الله، والرغبة في فعل الخير، ويُسلب التوفيق، ويُحرم استجابة الدعاء. وإنّ ترتّب هذه الآثار السيّئة لا يختصّ بأولئك الذين يمتنعون عن دفع الملايين أو المليارات تحت عنوان الخمس، بل يشمل



الذين لا يملكون مالًا كثيرًا وثروات وفيرة؛ فهم أيضًا قد تطالهم مثل هذه العواقب الوخيمة. وعليه، فينبغي الالتفات إلى أنّه لا يشترط في وجوب أداء الخمس أن يكون الإنسان صاحب رؤوس أموال ضخمة، أو أن يكون صاحب دخل مرتفع وثروة تُقدّر بالمليارات، بل ـ مع هذا المدخول الزهيد والحياة المتوسّطة ـ يُمكن لنا أيضًا أن نكون مشمولين في مسألة دفع الخمس.

على جميع الأحوال، فخلاصة هذا القسم من البحث، أنّنا نحن طلبةَ العلوم الدينيّة ينبغي أن نتنبّه إلى أنّ اشتغالنا في الدرس والبحث وأداء هذا التكليف الواجب، ينبغي ألّا يشكّل مانعًا من أداء سائر الواجبات الأخرى، نظير: برّ الوالدين، وتقديم المساعدة الماليّة لهم عند الاستطاعة، وصلة الرحم، ورعاية حقوق الزوجة والأولاد والأقارب والجيران. وكذلك ينبغي ألّا نغفل عن الإنفاق الماليّ الواجب، ونتوهّم أنّه بما أنّنا نأخذ حقوقًا شهريّة ونصرف من سهم الإمام عليه السلام، فلا حاجة إلى أن نضع لأنفسنا سنةً ماليةً وحسابًا سنويًّا، وليس من الضروريّ أن ندفع الخمس في سائر مداخيلنا الماليّة الأخرى.



الدرس الرابع عشر:

الصفات السلبيّة لعباد الرحمن





﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا﴾[١]

الصفات الثبوتيّة والسلبيّة لعباد الرحمن

كان محور بحثنا في الدروس السابقة الأوصاف التي ذُكرت لعباد الرحمن في سورة «الفرقان» المباركة. ومن الواضح أنّ القرآن الكريم في هذه الآيات ليس في مقام الحصر، فلا ينبغي أن نستنتج من هذه الآيات أنّ أوصاف «عباد الرحمن» تنحصر بهذه الأوصاف المعدودة. وكما أشرنا سابقًا، إنّ اقتصار القرآن الكريم على ذكر مجموعة الصفات هذه واكتفائه بها من بين جميع أوصاف «عباد الرحمن»، قد تمّ ـ قطعًا ـ من خلال ملاحظة ما يقتضيه الحال والمقام. أمّا ما هي طبيعة هذه الاقتضاءات الموجودة بالدّقّة، التي أوجبت ذكر هذه الصفات خاصّةً من بين جميع الصفات، فهي مسألة غير واضحةٍ بشكل تامّ عندنا، والذات الإلهيّة المقدّسة أعلم بهذا الأمر منّا. ولكن يمكن أن نطرح في هذا

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٨.

المجال احتمالات عدّة، وأن نحدس ببعض العلل. ولكن من الحريّ بنا ـ عوضًا عن الاشتغال في الظنّيّات ـ أن نغتنم الفرصة، فنصرف وقتنا في دراسة يقينيّات هذا البحث.

وإنّنا ـ حتّى الآن ـ قد تناولنا البحث في خمس صفات من صفات «عباد الرحمن». وقد كانت أولى هذه الصفات صفةَ التواضع، والتي تحدّثت عنها الآيات الكريمة بهذا التعبير: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا﴾[1]، فقلنا: إنّ المشي على الأرض بهون كنايةٌ عن صفة التواضع. وكما ذكرنا في طيّات بحثنا في الآية الكريمة، إنّ سير الإنسان بتواضع وبهون، علامةٌ على تحلّيه بروح التواضع بشكل عامّ، وإلّا فقطعًا ليس المراد من الآية أنّ «عباد الرحمن» يتصرّفون بتواضع أثناء مشيهم فقط، وأمّا وجود التواضع وعدمه في سائر أعمالهم فمغضوضٌ عنه الطرف ومسكوتٌ عنه! فإنّ الإنسان الذي يُعدّ من «عباد الرحمن» ـ بالإضافة إلى التواضع في مشيه ـ متواضعٌ في قوله وكتابته وجلوسه وقيامه وبحثه ومعاشرته لأصدقائه وأقربائه وأسرته وفي سائر حركاته وسكناته.

ولكن بالطبع، أكثر ما يشاهده سائر الناس بأعينهم، ويمكن للجميع أن يرَوه وأن يشخّصوه، هو التواضع في المشي، حين لا يمشي الإنسان بتكبّر وتبختر، ولا يسير نافخًا صدرَه رافعًا رأسه، بل يمشي بهدوء وأناة، ومن دون زهو أو اختيال.

والصفة الثانية التي ذُكرت لعباد الرحمن في هذه الآيات الكريمة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾[2]. وإنّ هذه الصفة

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٣.

(٢) سورة **الفرقان**، الآية ٦٣.



تعني أنّ «عباد الرحمن» يُظهرون الحلم وسَعة الصدر عندما يواجهون الجاهلين، أو ينالهم منهم أفعالًا صبيانيّة، فلا ينفعلون بسرعة، بل يُظهرون ـ بكلّ رزانة ـ ردّةَ فعل هادئة ومناسبة، مقابلَ أفعال الجاهلين وأقوالهم غير اللائقة.

وبالطبع، إنّ هذين الوصفين (الأوّل والثاني) متقاربان بشدّة؛ فالإنسان المتواضع تكون روح التواضع عنده سببًا في عدم تشاحنه وتشاجره مع الجاهلين، مقابل أفعالهم العشواء والطائشة، وأقوالهم غير اللائقة، وباعثًا على عدم اللجوء إلى مقابلتهم بالمثل.

أما الصفة الثالثة لهذه الفئة فقد عبّرت عنها الآيات بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾[1]. وقد ذكرنا في توضيح معنى هذه الآية أنّه بالالتفات إلى فعل «يبيتون» يظهر أنّ من صفات «عباد الرحمن» أنّهم يقضون تمام الليل، أو على الأقلّ قسمًا كبيرًا منه، في العبادة والسجود لله تبارك وتعالى. وفي مقام تأييد هذا المعنى، أوردنا الآيات الأولى من سورة «المزمّل» شاهدًا على ذلك، حيث يخاطب الله تعالى نبيّه الأكرم ﷺ: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[2].

ومن البَدَهي والغنيّ عن البيان، أنّ هذه الصفة لا تظهر سوى في الإنسان المُلتزم بصلواته الواجبة، وبالإضافة إلى أصل أداء الصلاة، تراه يُبدي اهتمامًا بخصوصيّاتها المستحبّة المهمّة، كرعاية أدائها في أوّل الوقت وسائر آدابها. وبناءً عليه، فإنّ الدلالة الالتزاميّة لقوله تعالى:

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٤.

(٢) سورة **المزمّل**، الآيات ٢ إلى ٤.

﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾، هي أنّ «عباد الرحمن» بشكل عامّ يُعطون لأداة الصلاة أهمّيّة فائقة وخاصّة، وبالإضافة إلى التزامهم الكامل بصلواتهم الواجبة واليوميّة، يبلغ اهتمامهم بالصلاة أوجَهُ عندما يمضون تمام ليلهم أو قسمًا كبيرًا منه في القيام والركوع والسجود.

والصفة الرابعة التي جاءت الآيات على ذكرها هي قلق «عباد الرحمن» وتوجّسهم الدائم حيال الآخرة وعذاب جهنّم ونيرانها، واستغاثتهم أمام المحضر الإلهيّ، ليعصمَهم من هذا العذاب المهول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[1].

وفي طيّات بحثنا في هذه الآية الكريمة، أشرنا إلى أنّ مضمونها يشبه إلى حدّ ما، ما جاء في الآيات الأخيرة من سورة «آل عمران»، وهناك يقول الله تعالى ـ في مقام توصيف أولي الألباب، الذين تخطّوا ظاهر الإيمان وقشوره وبلغوا حقيقة الإيمان ولبّه وباطنه ـ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2].

إنّ أولي الألباب يصلون من خلال تفكّرهم في خلق السماوات والأرض إلى نتيجة، مفادها أنّ هذا الخلق ـ حتمًا ـ له حكمة وغاية، ولا يمكن أبدًا أن يكون عبثيًّا وباطلًا ومن دون هدف. ومن خلال سيرهم التفكّري هذا، يصلون إلى أنّ خلق الإنسان في هذه المجموعة الكبيرة

(١) سورة **الفرقان**، الآيتان ٦٥ و٦٦.

(٢) سورة **آل عمران**، الآيتان ١٩٠ و١٩١.



إنّما يُصبح ذا معنى ويحوز على حكمة، إذا ما كان في البين حساب وكتاب ومقرٌّ آخر، يُجازى فيه الأخيار على ثواب أعمالهم الحسنة، ويرى فيه الأشرار والمجرمون أيضًا جزاء أعمالهم القبيحة. ولمّا كان الإنسان بطبعه على الدوام في معرض التعرّض للانحراف والتعثّر، وفي النتيجة استحقاق النار والعذاب الإلهيّ، ينتهي هذا السير التفكريّ بأولي الألباب إلى رفع يد الاستغاثة واللجوء إلى المحضر الإلهيّ، طلبًا للأمان من نار جهنّم المحرقة.

ولأنّ «عباد الرحمن» أيضًا ـ بطبيعة الحال ـ قد بلغوا المراحل العُلى من الإيمان والعبوديّة، وأصبحوا ـ كأولي الألباب ـ أصحاب بصيرة وفكر نورانيّ ـ **وبتعبيرٍ** آخر: هم في الواقع من أولي الألباب ـ، فَهُم أيضًا قد بلغوا هذه الحقيقة، ووصلوا إليها، فسألوا الله تعالى بعجزٍ وفاقةٍ: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[1].

وفي الختام، آخر صفة تقدّم البحث فيها كانت ترتبط بالاعتدال في الإنفاق واجتناب «عباد الرحمن» للإفراط والتفريط في الإنفاق، حيث يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[2]. وذكرنا في توضيح هذه الآية أيضًا أنّه من الممكن أن يُقال: إنّ رعاية الحدّ الوسط والاعتدال لا يختصّ بمورد الإنفاق، بل هو أصل كلّيّ عامّ، يجري في جميع الأفعال والأعمال، وإنّ الإنسان ينبغي أن يجعل روح الاعتدال حاكمةً على أفعاله في جميع أمور حياته.

---

(١) سورة **الفرقان**، الآيتان ٦٥ و٦٦.

(٢) سورة **الفرقان**، الآية ٦٧.

إلى هنا، كانت جميع الصفات التي بيّنتها الآيات الكريمة صفات ثبوتيّة في الواقع، وتحكي عن أفعال ينبغي على الإنسان القيام بها، كي يدخل في سلك «عباد الرحمن». ولكن من الآن فصاعدًا، بدأت الآيات الكريمة حديثها حول بعض الصفات والأعمال ذات الجنبة السلبيّة، التي نسلبها عن «عباد الرحمن»، والتي ينبغي على الإنسان اجتنابها ليتمّكن من الدخول في زمرتهم؛ يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[1].

أوّل صفات عباد الرحمن السلبيّة: اجتناب الشرك

يشير الله تبارك وتعالى في هذه الآية إلى ثلاثة ذنوب تُعتبر من أكبر الذنوب، بل من الكبائر الموبقة، وإنّ ساحة «عباد الرحمن» لا بدّ من أن تكون بريئةً من هذه الذنوب، وطاهرةً من رجسها، ومنزّهةً عن دنسها. وأوّل هذه الذنوب الثلاثة الشرك؛ يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

تُعدّ مواجهة الشرك والدعوة إلى التوحيد أهمّ عنصر من العناصر التي تشكّل مجموع تعاليم جميع الأنبياء الإلهيّين، وتُعتبر على رأس قائمة التعاليم التي جاءت بها جميع الأديان الإلهيّة؛ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[2].

بل وردت هذه المسألة في تعاليم بعض الأشخاص الذين لم يكونوا أنبياء. وقد أوردت آيات القرآن الكريم بعض هذه التعاليم؛ فعلى سبيل

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٨.

(٢) سورة **النحل**، الآية ٣٦.



المثال، يمكن ملاحظة التأكيد على هذه المسألة في وصايا لقمان الحكيم لابنه. وإنّه وإن كان ظاهر بعض الأدعية والشواهد الأخرى يحكي عن أنّ لقمان الحكيم كان نبيًّا من أنبياء الله، إلّا أنّه ـ على أيّة حال ـ ليس من الواضح والبيّن عندنا ما إذا كان لقمان الحكيم نبيًّا من الأنبياء أم مجرّد إنسان صالح وحكيم. وفي جميع الأحوال، فإنّ القرآن الكريم يعرّف في آياته بلقمان تحت عنوان عبدٍ صالح، أعطاه الله حكمةً من عنده، وقد ورد قسم من وصاياه التي وجّهها إلى ابنه في سورة تحمل اسمه. ومن جملة هذه المواعظ، ما جاء في صدرها وبدايتها، حيث قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[1].

وفي هذه الآية من سورة «الفرقان» أيضًا، وأثناء توصيف القرآن الكريم لعباد الرحمن، نرى أنّ أوّل صفة طُرحت في مقام بيان الصفات السلبيّة هي مسألة الشرك هذه. وإنّ للشرك أنواعًا ومراتب مختلفة، بعضها من المراتب الاعتقاديّة، وبعضها من المراتب العمليّة؛ فعلى سبيل المثال، من أنواع الشرك الاعتقاديّ «الشرك في الخالقيّة»، أي: أن يعتقد الإنسان بأنّ للعالم خالقين أو عدّة خالقين. ومن أنواعه أيضًا «الشرك في الربوبيّة»، أي: أن يعتقد الإنسان بوجود إلهين أو عدّة آلهة يتدخّلون في إدارة هذا العالم، ويؤثّرون في تدبيره. ولكن الآية (محلّ البحث) لا تحكي بحسب ظاهرها عن الشرك الاعتقاديّ، بل هي ناظرة إلى الشرك العمليّ. فظاهر العبارة في قوله تعالى: ﴿لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، هو الشرك في العبادة، والمراد أنّ «عباد الرحمن» في مقام العبادة لا يجعلون لله تعالى أيّ شريك آخر.

---

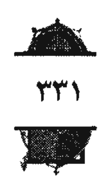
(١) سورة **لقمان**، الآية ١٣.



فكما أشرنا، إنّ الشرك لا ينحصر بالشرك الاعتقاديّ، كأن يعتقد الإنسان بوجود خالقَين أو مجموعة خالقين في هذا العالم، بل من الممكن أن يكون معتقدًا بوجود خالق واحد لا نظير له، ولكنّه بسبب مجموعة من العوامل ـ نظير العادات والتقاليد أو الظروف الاجتماعيّة الخاصّة ـ يكون مبتلىً بالشرك في العمل. والشرك في العمل هو الآخر ذو مراتب متعدّدة، ولكنّ مصداقه البارز والمشهور أن يعبد الإنسان بشكلّ رسميّ موجودًا غير الله، فيسجد ـ مثلًا ـ أمام معبود آخر غيره تعالى. ولكنّ الشرك العمليّ لا ينحصر بهذا المصداق فقط، بل له أيضًا مصاديق أخرى ومراتب مختلفة.

إنّ أحد أهمّ أنواع الشرك العمليّ، وعادةً ما نسمع به كثيرًا، ما يُعرف بـ«الرياء في العبادة». وهناك مرتبة أخرى من الشرك العمليّ هي «الشرك في الاستعانة»، بمعنى أن يجعل الإنسان اعتماده على الآخرين، عوضًا عن أن يطلب حوائجه من الله تعالى، وأن يعقد آمالًا على الآخرين، بأنّهم سوف يوفّرون له حلولًا وعلاجات لمشكلاته، وأنّ من شأنّهم أن يُنجزوا له أموره وأعماله. وإنّ هذا النوع من الشرك يُشاهَد في حياة كثيرٍ منّا؛ إذ إنّنا عندما نشعر بمختلف الاحتياجات، سواءٌ أكانت مادّيّة جسميّة أم روحيّة نفسيّة، فإنّنا من أجل رفع هذه الحاجات، عادةً ما نلجأ أوّلا نحو غير الله، ونعطف توجّهنا نحو الأسباب والوسائل الظاهريّة والإنسانيّة.

وبالطبع، ليس معنى هذا الكلام أنّه لا ينبغي للإنسان أن يستفيد من الأسباب والعلل الظاهريّة، وأنّه ما عليه إلّا أن يجلس في زاويةٍ ويرفع يديه بالدعاء، وأن يُسلّط نظره إلى السماء بانتظار أن يتدخّل الله تعالى بذاته وبشكل مباشر لرفع مشكلته! إنّ مثل هذا الأمر ـ بالطبع ـ مخالفٌ للحكمة الإلهيّة؛ فالله تعالى قد خلق هذا العالم على أساس نظام عِلّيٍّ



ومعلوليٍّ، نظام الأسباب والمسبّبات، وإنّ نفس الاستفادة من هذه العلل والأسباب والتعامل مع الناس يحمل في باطنه آلاف الحكم المخبَّأة والكامنة. ولكنّ الكلام أنّ الإنسان إلى أين وجّه قلبه؟ وعلى أيّة نقطة اتّكاؤه واعتماده؟ وعلى من وماذا عقد آماله؟

فإنّ التاجر الموحّد والمرتبط بالله ـ على سبيل المثال ـ عندما يخرج من بيته صباحًا، ويتّجه إلى عمله وكسبه، ويقول «بسم الله الرحمن الرحيم» أو «يا رزّاق» أو «لا حول ولا قوّة الا بالله»، فإنّ كلماته هذه لا تكون لقلقة لسان فقط، بل إنّها تخرج من صميم قلبه، وهو يعتقد فعلًا بما يقول. ولكن في المقابل، هناك كثيرٌ من التجّار والكسبة الذين يلجأون إلى آلاف الخدع والحيل من أجل كسب حفنة من المال، فيرسمون الخطط لخداع فلان وفلان، ويرتكبون أقبح الأفعال بحقّ غيرهم، كي يحصلوا على بضع أوراق نقديّة. وإنّ هؤلاء الذين يطمعون بمال هذا وذاك، قد يرتكبون آلاف الأعمال المحفوفة بالشبهات، بل قد يُقدمون على ارتكاب الأعمال المحرّمة ـ والعياذ بالله ـ. كلّ ذلك من أجل كسب حطام الدنيا فقط. وسرّ كل هذه الأمـور، أنّ كثيرًا من أشكال الإيمان لا تعدو كونها إيمانًا باللسان فقط؛ فهي ضعيفة وواهنة إلى درجة أنّ وجودها مثل عدمها، لا يختلفان أبدًا! وإنّ ثمرة مثل هذا الإيمان هي أن يتوجّه الإنسان من أجل رفع حاجاته إلى كلّ مخلوقات الله وجميع البشر، دون أن يتوجّه إلى الله تعالى!

وبإمكاننا نحنُ طلبةَ العلوم الدينيّة أن نراقب هذه المسألة في أعمالنا واشتغالاتنا. ففي الصباح الباكر، عندما نفتح أعيننا من النوم، ونذهب إلى الدرس والبحث، أو نشتغل في المطالعة والتحقيق، كيف تكون أحوالنا؟

فتارةً: يكون لسان حالنا أن: «يا الله ارزقني علمًا وفهمًا، ووفّر لي وسائل التحصيل، وهيّئ لي أستاذًا جيّدًا»، وحينئذٍ فمهما بذلنا من جهد، ومهما ذهبنا إلى هنا وهناك تكون قلوبنا متوجّهةً نحو الله تعالى، ونرى أنّ تدبير كلّ أعمالنا وحلّ كل مشكلاتنا بيده هو، ولذلك لا نطلبها إلّا منه.

وأخرى: لا يكون في بالنا أصلًا أنّ الله موجود، ولا يكون هنالك أيّ توجّه عندنا إلى أنّ كلّ الأمور في قبضة قدرته سبحانه وتعالى؛ فعندما ننهض في الصباح الباكر، يكون تمام توجّهنا إلى أنّنا نريد أن نصبح من العلماء وأن يُطلق علينا لقب «المُلّا»، فقط ليس غير. فما أكثر ما يكون هدفنا من أن نصبح من العلماء هو أن نفتخرَ أمام الآخرين، ونغترّ بأنفسنا، ونزهوَ بعلومنا! وأن نُصبح موردًا لتمجيد الناس أو أن نُصبح شخصيّاتٍ مشهورة وأعلامًا في محيطنا وحوزاتنا وبين زملائنا أو أهل مدينتنا! فمن الممكن أن تكون غايةُ بعض النّاس من الاشتغال في تحصيل العلوم الدينيّة، الوصولَ إلى المقام والمنصب والرئاسة، أو لكي تصبح أسماؤهم عناوين في القصص والأخبار.

ولكنّ الموحّد الواقعيّ هو ذلك الإنسان الذي يكون تمام سعيه وكلّ جهده العلميّ من أجل الله، ويكون قلبه في جميع مراحل دراسته واشتغاله العلميّ ناظرًا إلى الله فقط، ولا يستمدّ العون إلّا منه. إنّ من المسائل المهمّة جدًّا أثناء رفع حاجاتنا وإنجاز أعمالنا، أن ننظر واقعًا إلى أين وإلى من تتوجّه قلوبنا؟ فإذا كان القلب متوجّهًا نحو الله تعالى، فإنّ صاحب هذا القلب إنسان موحّد، وإلّا فهو مشرك بمقدار انقطاع توجّه قلبه نحو الله، وبمقدار التفاته إلى سائر الأمور والأشخاص والأدوات والوسائل. وإذا اعتقدنا أنّ هذا هو الملاك ـ والحال أنّ الواقع أيضًا ليس إلّا هذا ـ، فينبغي حينئذٍ أن نقول: إنّ أكثر البشر مشركون. وإنّ الله تبارك



وتعالى أكّد على صحّة هذه الحقيقة في القرآن الكريم، حيث يقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[١].

إنّ إيمان أكثر البشر يكون توأمًا مع نوع من الشرك؛ فقد ترى إنسانًا قد بلغ مراحل ومراتب من الإيمان، ويمكن اعتباره مؤمنًا، إلّا أنّ إيمان هذا الإنسان في بعض المراحل لا يكون له أيّ أثر عمليّ، بل تكون أعماله وأفعاله ملوّثةً بأدران الشرك بشكل كامل. وبإمكانك أن ترى في أعماله بوضوح، أنّه يعتقد بوجود تأثير للقوى والأسباب الأخرى بِعَرْضِ تأثير الله تعالى. وفي بعض الأحيان، تراه ينسى الله تعالى بشكل كامل، ويتصرّف بطريقة يظهر منها أنّ لسائر البشر والأسباب الأخرى تمامَ التأثير وتمامَ الفاعليّة، وأنّ الله تعالى ليس له أيّ دور أو تأثير في هذه الأمور! ومع أنّه إذا سئل عن الرازق، فيقول: هو الله، ولكنّك تراه في عمله وكأنّه يرى الرزق في أيدي الآخرين، وأنّ عليه أن يطلب العون منهم، وأن يسألهم المال أو إصلاح الحال.

ومن هنا، فإنّ المهمّ في هذه المسألة أن يعرف الإنسان حقيقةً إلى أين وإلى من يتوجّه قلبه؟! وعلى ماذا وعلى من يعقد آماله؟! فهل تنادي أعماقُ قلبه «الله»، ولكنّه بلسانه وأعماله الظاهريّة يلجأ إلى الآخرين، وإنّما يتوسّل بالأسباب الظاهريّة لأنّ هذا العالم هو عالم الأسباب والمسبّبات؟! إذا كان الأمر كذلك فهذا هو التوحيد. أمّا إذا كان ظاهره ولفظه ولسان قالِه يلهج بذكر «الله»، ولكنّه يعتقد في باطن قلبه ولسان حالِه أنّ فلانًا وفلانًا إذا تدّخلا في الوساطة فإنّ عمله سوف يتمّ، فهذا هو الشرك؛ فالإنسان الذي يرسم أشكال الخطط ليوقع في الناس ويخدعهم

---

(١) سورة **يوسف**، الآية ١٠٦.

من أجل كسب المال وأداء الديون والأقساط ودفع القروض المتأخّرة، فمن المعلوم أنّ اعتماده على خططه أكثر من اعتماده على الله، وأنّ اطمئنانه بها أشدّ من اطمئنانه بالله. أمّا الإنسان الموحّد، فهو من يملك اعتقادًا راسخًا وحقيقيًّا بأنّ: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾[1].

وإنّ أولئك الذين رأَوا بأعينهم سقوط قارون مع كلّ ما كان يمتلكه من ثروةٍ عظيمةٍ يصعُب إحصاؤها، قد صدّقوا فعلًا أنّ الفقر وضيق المعيشة أو الثراء والرفاه ليس إلّا بـإرادة الله تعالى؛ فالذين كانوا ـ حتّى يوم أمس ـ يُشاهدون أموال قارون وثرواته، فيتحسّرون على مثل هذه الحياة، عندما شاهدوه يهوي إلى الأرض دفعة واحدة مع كلّ ثرواته، تغيّرت نظرتهم، وأعادوا النظر في اعتقادهم؛ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[2].

إنّنا إذا أردنا أن نبتعد عن مستنقعات الشرك القذرة، وأن نغدو موحدّين، فينبغي علينا أن نجتهد في جعل نظرنا منصبًّا دائما نحو الله تعالى، وأن نولّي وجوهنا نحو محضر الغنيّ الأوحد فقط، من أجل رفع حوائجنا، وألّا نرى في الأغيار سوى أدوات ووسائل للفعل الإلهيّ. بل في مقام التوسّل بأولياء الله، ينبغي أن نلتفت إلى أنّهم بالاستقلال عن الله تعالى والإرادة الإلهيّة، لا يمكنهم أن يقوموا بأيّ شيء، بل إنّ توسّلنا

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٢.

(٢) سورة **القصص**، الآيتان ٨١ و٨٢.



بعنايتهم هو من جهةِ أنّ الله تعالى قد جعلهم الوسيلة إليه، وأنّه هو مَنْ أمر باتّخاذ هؤلاء العظماء واسطةً في سؤال حوائجنا؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[١].

أمّا لماذا جعل الله تعالى أهل البيت عليهم السلام والأولياء الإلهيّين واسطةً ووسيلةً في تلقّي فيوضاته، فهي مسألة لها حِكَمُها الخاصّة وفلسفاتُها المتعدّدة، ولا مجال فعلًا للتعرّض إليها، بل يحتاج بحثها إلى فرصة منفصلة. ولكنّ إجمال المسألة، أنّ هذا الأمر يرجع إلى لطف الله وعنايته ومحبّته لعباده، هذه المحبّة التي لا تقبل القياس بأيّة محبّة أخرى، فحتى محبّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للناس، التي يعبّر القرآن الكريم من فرط شدّتها بتعبير «الحِرص»، هي في الحقيقة قطرة صغيرة من بحر المحبّة الإلهيّة؛ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

يقول القرآن الكريم: إنّ نبيّ الرحمة صلى الله عليه وآله وسلم كان في غاية الحِرص على هداية الناس وسعادتهم، وكان يتأذّى من ضلالهم وكأنّه سيخسر روحه من شدّة الحزن؛ ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[٣]، ولكنّ مسألة كون النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام مجرىً للفيض الإلهيّ والرحمة الإلهيّة، هي في حدّ نفسها نموذج للّطف الإلهيّ بحقّ عباده، وإنّنا في مقام التوسّل بهم عليهم السلام، ينبغي ألّا نغفل عن أنّ كون هؤلاء العظام وسيلةً للفيض الإلهيّ هو أمر بإرادةٍ من الله تعالى، لا أنّه في عَرْضِ فاعليّة الله وسببيّته وتأثيره، أو أنّه أمرٌ مستقلّ عنها.

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٣٥.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ١٢٨.

(٣) سورة **الكهف**، الآية ٦.

وإنّ كل ما يجري من خلال وسائل الفيض الإلهيّ ووسائطه، إنّما يجري بإرادة الله ومشيئته. وإنّ الله تعالى هو من يعطي لهذه الوسائط تأثيرَها وسببيّتَها بالمقدار الذي يريده.

وعلى أيّة حال، فسواء أعرفنا أم لم نعرف، إنّ الذين وصلوا إلى قمم المعرفة الإلهيّة وأوْج المعارف النورانيّة، وإن توجّهوا إلى الأسباب والعلل الظاهريّة وأنجزوا أمورهم عن طريقها، فإنّ توجّههم هذا كان توجّهًا أداتيًّا، ونظرتهم إلى هذه الأسباب كانت نظرةً وسائليّةً، لا أنّ لديهم توجّهًا استقلاليًّا نحو هذه الأمور، أو رؤيةً لها على نحو الهدف والغاية.

وفي المحصّلة، إنّ أولى صفات «عباد الرحمن» السلبيّة أنّهم لا يجعلون لله تعالى شريكًا. وبالطبع، إنّ في هذا القسم من الآية ـ أي: قوله تعالى: ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ـ بحوثًا تفصيليّة، وجهاتٍ فنيّةً وأدبيّةً وتفسيريّةً متعدّدةً، ولكنّنا صرفنا النظر عنها فعلًا، واكتفينا بهذا المقدار من البحث. وخلاصة ما ذكرناه في هذا الصدد، أنّ أصل التوحيد ومقارعة الشرك يتصدّر لائحة تعاليم جميع الأنبياء عليهم السلام، ويُعتبر أحد أكبر أهدافهم. وانّ الشرك ذنب كبير جدًّا، ويكفي من أجل بيان كبر هذا الذنب أن نذكر قوله الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1]. لذا، ينبغي أن يكون الإنسان في غاية الحذر من أن يُبتلى بالشرك.

وبالطبع، إنّ جميع المؤمنين تقريبًا مُصانون من الشرك الجليّ الذي يوجب ارتداد الإنسان وخروجه عن الدّين والحكم بنجاسته، ولكنّ للشرك مراتب أخرى يُعبّر عنها اصطلاحًا بالشرك الخفيّ. وعلى عكس

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٤٨.



الشرك الجليّ، فكثيرٌ منّا مبتلى بهذا الشرك. لذا، ينبغي الاجتهاد في سبيل الخلاص من أسره، والتحرّر من قيوده.

تبرئة ساحة «عباد الرحمن» من ذنب «قتل النفس»

والصفة السلبيّة الثانية التي ذُكرت لعباد الرحمن في هذه الآيات، هي اجتنابهم لذنب «قتل النفس»، والذي يُعتبر أيضًا من الكبائر الموبقة: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1].

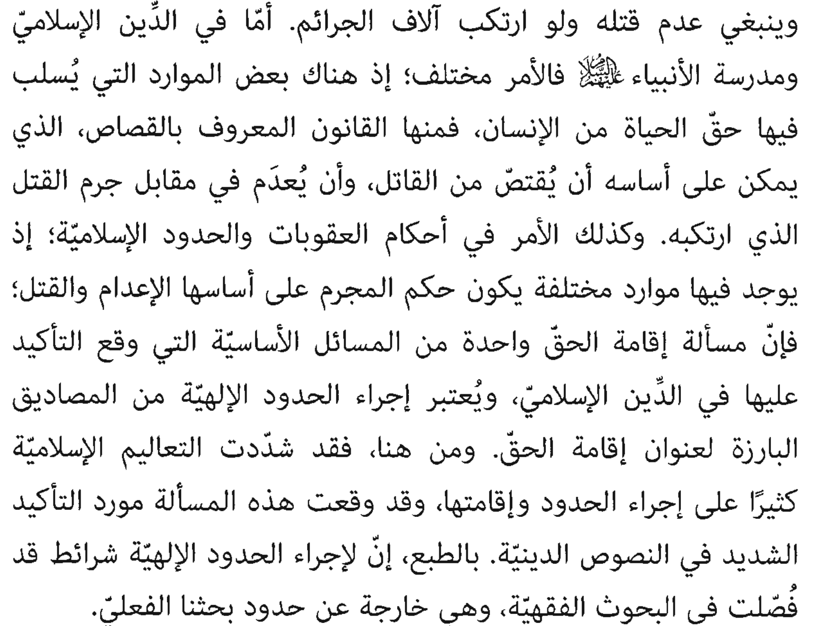
إنّ أحد الذنوب الكبيرة والخطرة جدًّا، التي لا تُغفر لفاعلها بسهولة، بل تصعب التوبة منها، ذنب قتل النفس؛ فإنّ الإنسان الذي خلقه الله تعالى ومنحه حقّ الحياة، لا ينبغي لأحدٍ أن يتعرّض لحياته، أو أن يسلبه إيّاها. وفي مقام توصيف عظمة هذا الذنب يقول القرآن الكريم: إنّ الذي يرتكب مثل هذا الذنب كأنّه قتل جميع الناس: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[2].

بالطبع، هناك موارد عدّة يستثنيها الله تعالى من هذه القاعدة، فيجيز سلب حقّ الحياة من بعض البشر، بل قد يوجبه في بعض الموارد. وإنّ واحدًا من الاختلافات والمغايرات بين أتباع الدِّين الإسلاميّ وأتباع الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان، يدور حول هذه النقطة وهذه الاستثناءات؛ فأتباع الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان يقولون: إنّ حقَّ الحياةِ هذا مطلقٌ، بحيث لا يقبل أيّ استثناء. وعلى هذا الأساس، تُعتبر عقوبة الإعدام - من وجهة نظر هؤلاء - ممنوعة بشكلٍ كلّيّ ومطلق، وأيّ شخص يرتكب أيّ تجاوز أو جريمة، لا يحقّ لأحد أن يتعرّض لحياته،

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٦٨.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ٣٢.


وينبغي عدم قتله ولو ارتكب آلاف الجرائم. أمّا في الدِّين الإسلاميّ ومدرسة الأنبياء عليهم السلام فالأمر مختلف؛ إذ هناك بعض الموارد التي يُسلب فيها حقّ الحياة من الإنسان، فمنها القانون المعروف بالقصاص، الذي يمكن على أساسه أن يُقتصّ من القاتل، وأن يُعدَم في مقابل جرم القتل الذي ارتكبه. وكذلك الأمر في أحكام العقوبات والحدود الإسلاميّة؛ إذ يوجد فيها موارد مختلفة يكون حكم المجرم على أساسها الإعدام والقتل؛ فإنّ مسألة إقامة الحقّ واحدة من المسائل الأساسيّة التي وقع التأكيد عليها في الدِّين الإسلاميّ، ويُعتبر إجراء الحدود الإلهيّة من المصاديق البارزة لعنوان إقامة الحقّ. ومن هنا، فقد شدّدت التعاليم الإسلاميّة كثيرًا على إجراء الحدود وإقامتها، وقد وقعت هذه المسألة مورد التأكيد الشديد في النصوص الدينيّة. بالطبع، إنّ لإجراء الحدود الإلهيّة شرائط قد فُصّلت في البحوث الفقهيّة، وهي خارجة عن حدود بحثنا الفعليّ.

وعلى أية حال، فالأصل الأوّليّ والقانون الكلّيّ يقضي باعتبار حياة الإنسان محترمة، ولا يحقّ لأحد أن يتعرّض لها. ولكن في الوقت نفسه، نعلم إجمالًا أنّ هذا القانون يقبل الاستثناء في موارد عدّة يُصبح فيها قتل النفس وسلب حياة بعض الأفراد جائزًا في الشرع الإسلاميّ. ولكن لو تجاوزنا موارد الاستثناء هذه، فيكون قتل النفس في بقية الموارد ممنوعًا ومحرّمًا، بل من الكبائر الموبقة، وخاصّة إذا كان قتلًا لنفس إنسان مؤمن؛ ففي هذه الصورة، يُصبح من أكبر الكبائر الموبقة، ويكون موجبًا للخلود في نار جهنّم؛ يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[1].

(١) سورة **النساء**، الآية ٩٣.



تنزُّه «عباد الرحمن» عن الانحرافات الجنسيّة

وثالث الصفات السلبيّة المذكورة لعباد الرحمن في هذه الآيات الشريفة، هي بُعدهم عن الانحرافات الجنسيّة: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾.

وإنّ هذا الذنب يُعتبر من الكبائر الموبقة، مثل قتل النفس والشرك. وقد تحدّثنا حول هذه المسألة بالتفصيل فيما سبق ـ أثناء تفسير الآيات الابتدائيّة من سورة «المؤمنون» ـ وأشرنا أيضًا إلى بعض الآيات الأخرى في هذا الصدد؛ فإنّ هذا الموضوع قد طرح بشكل أكثر صراحة في سورة «المؤمنون»، حيث بيّنت الآيات هناك أيضًا حدود الاستفادة من الغريزة الجنسيّة وإرضائها، حيث قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾[1].

فالطريق المشروع الوحيد لإشباع الغريزة الجنسيّة، ينحصر في أمرين: إمّا الزواج وإمّا مِلك اليمين، وإرضاء هذه الغريزة ممنوع من أيّ طريق آخر. وبالطبع، في زماننا هذا، لم يعد بحث الإماء وملك اليمين مطروحًا؛ فبات الطريق الوحيد المجاز والمتوفّر لإرضاء الغريزة الجنسية، هو الزواج القانونيّ. وإنّه وإن ذُكرت في هذه الآية مسألة الزنا فقط، إلّا أنّه من الواضح أن المقام ليس مقام حصر؛ فعباد الرحمن مبرّأون وطاهرون من سائر الانحرافات الجنسيّة أيضًا. أمّا وجه الإشارة إلى الزِّنا دون غيرها من الانحرافات الجنسيّة، فيمكن أن يُطرح له حِكَمٌ مختلفة؛ فعلى سبيل المثال، يمكن أن يكون السبب في ذكر هذا المصداق فقط هو شيوعه أكثر من غيره، أو لأنّه يقع موردًا للسؤال أكثر من غيره.

(١) سورة **المؤمنون**، الآيتان ٥ و٦.

وفي جميع الأحـوال، فبالتوجّه إلى مذاق الشريعة وآيات القرآن الكريم، يمكن أن نطمئنّ بأنّ المقصود هنا هو اجتناب «عباد الرحمن» لكافّة أشكال الانحراف الجنسيّ، ولا خصوصيّة للزِّنا.

أهميّة الصفات السلبيّة في سعادة الإنسان ونجاته

إنّ ما يمكن استخراجه من هذه الآية بوصفه رسالةً كلّيّةً، هو أنّ الإنسان إذا ما أراد أن يُصبح كاملًا، وأن يدخل في زمرة «عباد الرحمن» وعباد الله الصالحين، فينبغي عليه أن يأخذ بعين الاعتبار سلسلة أمور إيجابيّة وسلسلة أمور سلبيّة. **بعبارةٍ أخرى**: إنّ الإنسان الذي يريد أن يكون عبدًا لله تعالى، عليه من جهةٍ أولى أن يهتمّ بأداء بعض الأمور وإنجازها، ومن جهةٍ أخرى أن يبديَ اهتمامًا أيضًا ببعض الأمور التي ينبغي عليه تركها والاجتناب عنها. وإنّ هذين الأمرين ـ أي: الأفعال والتروك ـ ينبغي أن يكونا جنبًا إلى جنب، كي تتحقّق النتيجة المرجوّة؛ لأنّ التقيّد بأداء بعض الأعمال الصالحة وحدَه ليس كافيًا في النجاة، بل من اللازم أيضًا الحذرُ والاجتنابُ عن أمور أخرى.

إنّ الإنسان إذا عبد الله تعالى آلاف السنين، وأمضى لياليَه في الصلاة والسجود والعبادة، وصام كلّ أيّامه، وأدّى أشكال الأعمال الصالحة، ولكنّه إلى جانب هذه الأمور كان مبتلى بارتكاب أحد الذنوب الكبيرة الموبقة، فعندئذٍ كلّ أعماله الصالحة وعبادته الجمّة سوف تحبط وتزول. وإنّ بحث «حبط الأعمال» من البحوث المفصّلة، الذي لا نرمي الآن إلى الغوص فيه، وإنّما نشير إلى هذا البحث ضمن حدود هذه الآية الكريمة من سورة «الفرقان».



إنّ ذنب الشرك بالله الذي أشير إليه في صدر هذه الآية الكريمة، واعتبر من الأوصاف السلبيّة لعباد الرحمن، يُعدّ من جملة الذنوب التي توجب حبط أعمال الإنسان. فإذا عبد الإنسان الله سبعين سنة، ولكنّه في آخر لحظة من عمره وقع في فخّ الشرك بالله، وخرج من هذه الدنيا مشركًا، فإنّ تمام أعماله تذهب هباءً منثورًا. وفي الواقع، إنّ الشرك كالنار التي يلقيها الإنسان في أكوام الهشيم، ومن الواضح أنّ هذه النار سوف تلتهم كلّ هذا الهشيم وتحوّله إلى رماد. وإنّ بحث «حبط الأعمال» في الأساس، هو أنّ تأثير بعض الذنوب والأعمال القبيحة شبيهٌ بإضرام النّار في أكوام أعمال الإنسان، بحيث تلتهمها جميعًا ولا تذر منها شيئًا، وكلّ ما قام به المرء من أعمال الصالحة يحترق في لحظة واحدة ويزول.

ومن هنا، ينبغي علينا أن نكون مراقبين وحذرين تجاه تأكيدات القرآن الكريم فيما يرتبط ببعض المعاصي، وأن نأخذها على محمل الجدّ. وإنّ أخذ هذه التأكيدات على محمل الجدّ يكون عبر الاجتناب عن مقدّماتها أيضًا؛ فبالإضافة إلى نفس هذه المعاصي، علينا أن نرسم حدودًا حولها أيضًا، وأن نُلزم أنفسنا بعدم التعدّي على هذه الحدود، التي يُعتبر تخطّيها ـ في الواقع ـ مقدّمةً لارتكاب الذنب والورود إلى ساحته. وإنّ هذه الحياض شبيهة بتلك التي توضع على حافّة الطرقات كي تمنع من سقوط السيارات في الأودية السحيقة. ومن الطبيعيّ، أنّ الإنسان لا يُقدم على الاقتراب من حافّة الوادي حتّى آخر سنتيمتر، بل على العكس؛ فعندما يصادف مثل هذا الوادي، يحاول قدر الإمكان أنّ يكون بينه وبين حافّته مسافة عدّة خطوات ليكون على اطمئنان من أنّه لن يسقط فيه. وإنّ الأشخاص الذين يقودون سيّاراتهم في الطرقات الجبليّة، وخاصّة في أجواء الأمطار والثلوج، يدركون هذه المسألة بشكل ملموس، ويقفون عندها جيّدًا. وإنّ مسألة الابتعاد عن ارتكاب الذنب والاتّقاء منه، على

هذا النحو أيضًا؛ فكي يتمكّن الإنسان أكثر من حماية نفسه من السقوط في فخّ الذنب، فمن اللازم أن يجتنب بعض المقدّمات التي يحتمل أن تسوقَه نحو ارتكاب الذنب. وهذه المقدّمات، وإن كان من الممكن أن تكون من الأمور المحلّلة التي لا مشكلةَ شرعيّةً في فعلها، ولكن حيث إنّ من شأنها أن تسوق الإنسان نحو ارتكاب الذنب، يصبح من المطلوب تركها والاجتناب عن فعلها؛ لأنّ الإنسان إذا جعل سيره وحركته على حدود الهاوية، فإنّه عند طروء أيّة غفلة سوف ينزلق فورًا، ويسقط في أعماق الوادي؛ قيل في الأثر: «وَمَن يَحُمْ حَوْلَ الْحِمَى أَوْشَكَ أَنْ يُوقَعَ فيه».

ومن هُنا، ينبغي علينا أن نكون في غاية الحذر والمراقبة فيما يتعلّق بالكبائر الموبقة، وأن نتنبّه جيّدًا، وأن نراعيَ الاحتياط اللازم في هذا الأمر. ففي بعض الموارد، نرى أنّ القرآن الكريم نفسه ينبّه على موارد الاحتياط هذه، ومن أجل وقاية المؤمنين من السقوط في فخّ الذنوب، يؤكّد على ضرورة رعاية هذا الاحتياط، بل يحرّم ارتكاب مقدّماته. ومن جملة هذه الموارد يمكن التمثيل ببحث الانحراف الجنسيّ؛ فإنّ كثيرًا من الانحرافات الجنسيّة تبدأ من البصر، فإذا استطاع الإنسان أن يحفظ بصره، وأن يراقب نظره، يمكن له أن يصون نفسه إلى حدّ كبير من الوقوع في الانحراف الجنسيّ؛ فالنظر إلى غير المَحْرَم في حدّ ذاته ذنب، إلّا أنّ هذا الذنب الصغير يُعدّ مقدّمة لذنوب تليه أكبرَ منه. ومن هنا، ينبغي على الإنسان من أجل ألّا يُبتلى بالعوارض اللاحقة، أن يتحكّم منذ البداية ببصره؛ يقول القرآن الكريم ـ في هذا الصدد ـ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۚ﴾[1].

(١) سورة **النور**، الآية ٣٠.

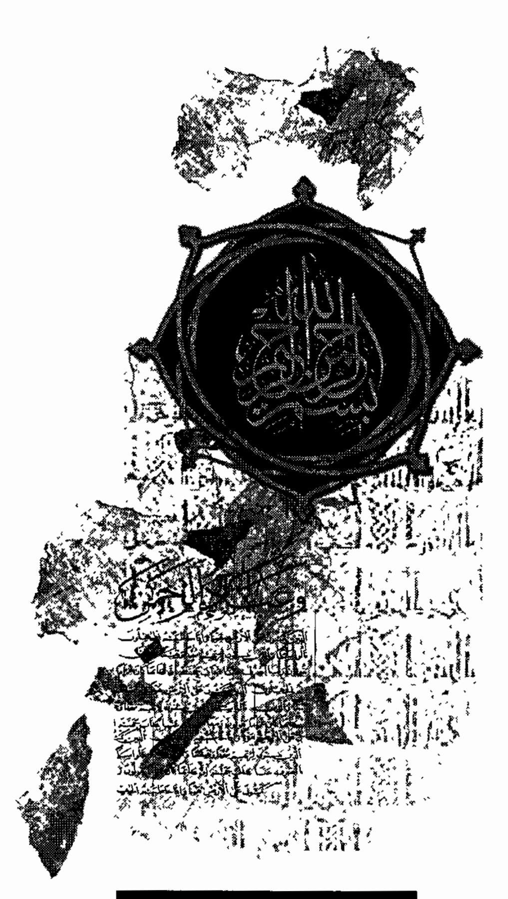


فمن سياق هذه الآية، يُستنتج أنّ النَّظَر مقدّمة للتلوّث والانحراف الجنسيّ، وإذا استطاع الإنسان أن يتحكّم ببصره، فبإمكانه أن يحفظ نفسه أيضًا من التلوّث الجنسيّ. وإذا كان الإنسان مراقبًا لنفسه منذ البداية ـ وخاصّة في أوائل فترة شبابه ـ؛ فإنّ السيطرة على بصره من شأنها أن توجب بقاءَه في مأمن من كثير من المفاسد الأخرى. وبالطبع، إنّ للظروف الاجتماعيّة أيضًا تأثيرَها في هذا المجال؛ إذ يمكن أن تلعب دور العامل الإيجابيّ والمقوّي أو العامل السلبيّ والمخرّب. وإنّ مسألة فرض الحجاب على المرأة في الإسلام تهدف ـ في الواقع ـ إلى إيجاد هذا المحيط الاجتماعيّ المناسب من أجل السيطرة على البصر والنظر. وبالطبع، من الواجب على الرجال أيضًا ستر قسم من أبدانهم، بناءً على فتوى جميع العلماء، وبعض أقسام البدن الأخرى من الراجح والمستحبّ سترها خاصّة أمام أنظار غير المحارم. بل يرجح أن تستر المرأة ـ مضافًا إلى ستر عورتها ـ أقسامًا أخرى من بدنها، أمام النساء، وكذلك يرجح أن يستر الرجل قسمًا من بدنه ـ مضافًا إلى العورة ـ أمام الرجال. كلّ هذه الأمور من أجل أن يكون الإنسان أبعدَ ما يمكن عن وساوس الشياطين، ولسدّ الطريق مهما أمكن أمام بروز هذه المعاصي والإقدام عليها. من هنا، ينبغي على المصلحين والمهتمّين بشؤون المجتمع والذين أنيطت بهم مهمّة إدارة أمور المجتمع، أن يسعَوا في سبيل توفير هذه الظروف الملائمة، التي من شأنها أن تُبعد الناس عن هذه المفاسد إلى حدّ كبير.

وإذا تعدّى الإنسانُ الحدودَ الإلهيّةَ، وتجاوزها حدًّا تلوَ الآخر، بحجّة أنّها من الذنوب الصغيرة، وليست بهذا القدر من الأهمّيّة؛ فإنّ الأمور سوف تصل به شيئًا فشيئًا إلى درجة أن تصبح الظروف غير قابلة للسيطرة عليها بعد ذلك. وعندئذٍ، لن يتمكّن من الوقوف أمام هذه المفاسد أبدًا. وإذا لم يكن الإنسان حذرًا من الذنوب والخطوات الصغيرة،

فإنّه سوف يسلك طريق الانحراف خطوة تلو الخطوة، وسرعان ما يفتح عينيه فيجد نفسه قد أصبح على حافّة الهاوية وفي معرض السقوط في الوادي السحيق. لذا، فإنّ التساهل بهذه الأخطاء والتهاون بهذه الخطوات الانحرافيّة الصغيرة، هو أمر في غاية الخطر. ويمكن في نهاية المطاف أن يؤدّيَ إلى حدوث فاجعة وسقوط حتميّ. وإنّ كون الثقافة العامّة الرائجة في عالم اليوم تستحسن أمرًا ما، لا يصلح أن يكون دليلًا على لزوم قبولنا بهذا الأمر، بل ينبغي علينا أن نضع نصب أعيننا تعاليم القرآن الكريم، وأن نستفيد منها. وبالإضافة إلى هذا الأمر، هناك كثيرٌ من المطالب التي بيّنها لنا أهل البيت والأئمّة الأطهار عليهم السلام، ينبغي أيضًا أن نضعها في صدر قائمة أفعالنا وطريقة عيشنا.

نسأل الله تعالى أنّ يوفّقنا وكلّ المسؤولين والعاملين كي نُهيّء الظروف الاجتماعيّة التي تصون جميع الناس ـ وخاصّة الشباب الإسلاميّ ـ من المحرّمات قدر الإمكان.



الدرس الخامس عشر:

عذاب الخُلد مصير العاصين





﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾[1]

عدّة نُكات أدبيّة وتفسيريّة

كما أشرنا سابقًا، في الآيات الختاميّة من سورة «الفرقان» وفي مقام توصيف «عباد الرحمن»، ذُكـرت في البداية مجموعة من الفضائل والصفات الإيجابيّة لهذه الفئة، ثمّ ذُكرت بعض الذنوب والصفات السلبيّة التي يُنزّه عنها «عباد الرحمن» وهم بمنأىً عنها. وفي هذا القسم، ذكرت الآيات أوّلا أكبر الذنوب وأعظمها، وهو الشرك بالله تعالى، ثمّ ذكرت إلى جانب الشرك بالله ذنبين كبيرين آخرين، الأوّل هو قتل النفس، والثاني هو الانحراف الجنسيّ والفحشاء. وقد قدّمنا في الدرس السابق مجموعة

(١) سورة **الفرقان**، الآيات ٦٨ إلى ٧١.





توضيحات حول هذه الذنوب الكبيرة الثلاثة، ونكتفي بهذا المقدار من التوضيح. ونرمي في هذا الدرس ـ في مقام تكميل البحث السابق ـ إلى التأمّل في ذيل هذه الآية والآيات التي تليها، أي: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾(1).

ومن الجدير أن نذكر هذه النُّكتة فيما يرتبط ببحث القراءات، وهي أنّ من بين آيات القرآن الكريم يوجد مورد واحد فقط يلزم فيه إشباع الكسرة وفق القراءة المشهورة، وهذا المورد هو كلمة ﴿فِيهِۦ﴾ الواردة في هذه الآية الكريمة. وعلى أيّة حال، فإنّ المهمّ هنا هو تبيين وتفسير هذه الآيات الكريمة، وهو ما سوف نتصدّى له في بحثنا الحاضر بعون الله تعالى، وسنشير إلى بعض النُّكات الموجودة في هذه الآيات.

في تفسير هذه الآيات، نبّه بعض المفسّرين إلى مسألة أنّ قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾، يشير إلى العذاب الجسمانيّ، وأمّا قوله: ﴿مُهَانًا﴾، فيشير إلى العذاب الروحيّ والنفسيّ. وسرّ هذا المطلب، أنّه بالنسبة إلى الذين يرَون لأنفسهم مقامًا وموقعيّة، من الممكن أحيانًا أن يكون التوهين والإهانة أصعب وآلم من أيّ عذاب آخر. ومن هنا، يقول الله تعالى في هذه الآية: إنّ مرتكبي هذه الذنوب الثلاثة ـ بالإضافة إلى تعرّضهم لعذاب جهنّم ونيرانها ـ يُصبحون موردًا للإهانة والتوهين أيضًا. وكلمة: ﴿مُهَانًا﴾ من الناحية الأدبيّة هي اسم مفعول من مصدر «الإهانة»، ومعناه الشخص الذي يكون موردًا للإهانة.

---

(1) سورة **الفرقان**، الآيتان ٦٨ و٦٩.



والنُّكتة التفسيريّة الأخرى والجديرة بالذكر في هذه الآية، ترتبط بكلمة: ﴿ذَٰلِكَ﴾، فهي اسم إشارة، ولكن إلى ماذا تشير؟ فمن الناحية الأدبيّة كلمة «ذلك» هي اسم إشارة للمفرد، ولذا ينبغي أن يكون المشار إليه هو الآخر مفردًا. هذا، والحال أنّ هذه الآيات كانت قد ذكرت ثلاثة ذنوب قبل كلمة: ﴿ذَٰلِكَ﴾. عندما ترد مجموعة أشياء بعضها تلو بعض، ثمّ يؤتى بعدها باسم إشارة للمفرد، فمن ناحية الظهور اللفظيّ ينبغي لاسم الإشارة هذا أن يرجع إلى الأمر الأخير فقط من بين مجموعة الأشياء المذكورة. وعلى هذا الأساس:

١ ـ فمن المُحتمل أن نقول: إنّ كلمة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ في هذه الآية ترجع إلى الزِّنا والفاحشة.

٢ ـ والاحتمال الآخر هو أن ننظر إلى هذه الأمور الثلاثة على أنّها مجموعة واحدة، ونقول: إنّ كلمة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ترجع إلى هذا المجموع، والمقصود عندئذٍ، أنّ الذين يرتكبون جميع هذه الذنوب الثلاث سوف يواجهون عاقبة وخيمة.

٣ ـ والاحتمال الثالث أن نقول: إنّ المقصود من ﴿ذَٰلِكَ﴾ أنّ من يرتكب أيّ واحدٍ من هذه الذنوب الثلاثة سوف يلقى أشدّ العذاب يوم القيامة.

مسألة خلود مرتكب الكبيرة في النار

وبعد أن تصوّرنا كلّ واحد من هذه الاحتمالات الثلاثة، تقول الآية التالية: إنّ هؤلاء الأشخاص يُضاعَف عليهم العذاب يوم القيامة، ويبقون في النار خالدين إلى الأبد.



ولكنّ الإشكال الذي يطرأ هنا، هو أنّ هذا المضمون قد لا ينسجم مع بعض المباني الكلاميّة عند العدليّة والشيعة. وتوضيح ذلك أن نقول:

إنّ من المسائل التي طرحتها بعض المجموعات التي تدّعي الإسلام أنّ ارتكاب الذنب الكبير يوجب خلود المرتكب في نار جهنّم، بل هو موجب لخروجه عن دائرة الإيمان. ومن هنا، تعتبر هذه الفئة أنّ الإنسان الذي يرتكب الكبيرة كافر ومخلّد في نار جهنّم والعذاب الأخرويّ. ويعتقد هؤلاء أنّ من يرتكب أيّ ذنب من الكبائر لا طريق أمامه للنجاة يوم القيامة. وأوّل من طرح هذه العقيدة كانوا خوارج النهروان؛ ففي حادثة معركة صفّين الشهيرة وقضيّة التحكيم وقبول أمير المؤمنين عليه السلام لدخول التحكيم فيما يرتبط بخلافه مع معاوية (لعنه الله)، قال الخوارج: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام قد أصبح كافرًا لأنّه ارتكب كبيرةً عند قبوله بالتحكيم ومرتكب الكبيرة كافر.

وإنّ مثل هذا الاعتقاد باطل ومردود من وجهة نظر سائر الفرق الإسلاميّة، وخاصّة الشيعة. وإنّ اعتقادنا نحن الشيعةَ في هذه المسألة ـ وهو اعتقاد مستفاد من الآيات القرآنيّة وروايات أهل البيت عليهم السلام الشريفة ـ قائم على أنّ الذنوب الصغيرة إذا لم يتكرّر صدورها من الإنسان تُغتفر له وإن لم يتب، ولكن بشرط اجتنابه للكبائر. وأمّا الذنوب الكبيرة، فتُغتفر للإنسان إذا تاب منها. وبالإضافة إلى ذلك، إنّ الشفاعة تشمل مرتكب الكبيرة في صورة خروجه من هذه الدنيا من دون التوبة من ذنبه، إذا كان لا يزال أصل إيمانه محفوظًا، بعد أن يتعرّض للعذابات والشدائد عند موته وفي عالم البرزخ وعرصات يوم القيامة. وبالطبع، إنّ مقدار هذه الشدائد والعذابات يرتبط بمقدار الذنوب الكبيرة التي قام بها؛ فمن الممكن أن يُعذّب الإنسان آلاف السنين في عالم البرزخ كي



تُغفر ذنوبه، ومن الممكن أيضًا أن يصبح موردًا للرحمة والمغفرة الإلهيّة، من خلال التعرّض لعذاب قبض الروح وسكرات الموت فقط. بل في بعض الموارد، من الممكن لمثل هذا الشخص على أثر بعض العلل والعوامل أن يُعفى عنه وتشمله الرحمة الإلهيّة دون تعرض لأيّ عذاب أو عقوبة.

وفي القرآن الكريم آيات تدلّ على غفران الذنوب الصغيرة من دون التوبة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[1].

والمراد من «اللَّمَم» في الآية الكريمة هي الذنوب الصغيرة، فيُستفاد من الآية أنّ هذه الذنوب ـ مع عدم الإصرار عليها وتكرارها ـ تُغتفر لمرتكبها.

وأمّا شفاعة المذنبين الذين يرتكبون الذنوب الكبيرة، فقد وردت في روايات متعدّدة. وإنّ أصل مسألة الشفاعة قد وردت أيضًا في القرآن الكريم، ولا شكّ في ذلك. ومن جملة الروايات في هذا الصدد ما نقله الفريقان ـ السنّة والشيعة ـ عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث يقول: «ادَّخَرْتُ شَفاَعتي لِأَهْلِ الكَبائِرِ مِنْ أُمَّتي»[2].

وبالطبع، إنّ للشفاعة شروطًا، فلا تشمل جميع أهل المعصية، ولكن في جميع الأحوال، فإنّه لا شكّ ولا ترديد في أصل استفادة مجموعة من مرتكبي الذنوب الكبيرة من الشفاعة ونجاتهم من العذاب بفضلها. وعُمدة هذه الشروط، أن ينتقل الإنسان من هذا العالم وهو من أهل

---

(١) سورة **النجم**، الآيتان ٣١ و٣٢.

(٢) العلامة المجلسي، **بحارالأنوار**، الجزء ٨، الصفحة ٣٠، الرواية ٣٣، الباب ٢١.

الإيمان وولاية أهل البيت عليهم السلام. فمثل هذا الإنسان، سوف يكون حتمًا موردًا للشفاعة يوم القيامة. ولكن بالطبع، لا وجود لأيّة ضمانة فيما يتعلّق بعذاب عالم البرزخ، وإنّ مرتكب الكبيرة الذي يخرج من الدنيا دون توبة، من الممكن أن يُعذّب في عالم البرزخ سنواتٍ طويلةً ومديدةً.

وعلى أيّة حال، فمن وجهة نظرنا، لا يثبت الخلود في جهنّم لمرتكب الكبيرة، بل الخلود مختصّ بالكافرين. وليس لمطلق الكافرين، بل الذين سلكوا طريق الكفر عن عناد وجحود، فمع أنّ الحجّة كان تامّة عليهم، لم يؤمنوا بدين الحقّ جحودًا. ولكنّ المشكلة هنا، أنّ الآية (محلّ البحث) ظاهرة في القول بخلود مرتكب الكبيرة في النار! حيث تقول: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾[1].

فينبغي أن ننظر في كيفيّة معالجة هذه المشكلة، وفي كيفيّة حلّ هذا التعارض الأوّليّ بين مُفاد هذه الآية الكريمة والأدلّة الحاكية عن عدم خلود مرتكب الكبيرة في النار.

وجوه في حلّ التعارض

في سبيل حلّ الإشكال المذكور، قال بعض المفسّرين: إنّ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في هذه الآية الكريمة يعود إلى مجموع الذنوب الثلاثة، فمعنى الآية، أنّ الإنسان إذا ارتكب مجموع هذه الذنوب الثلاثة، فإنّ هذا الأمر سوف يكون موجبًا لخلوده في نار جهنّم. وقالوا: إنّ الذنب الأساسيّ بين هذه الذنوب الثلاثة، والذي يوجب الخلود في النار هو الشرك بالله،

(١) سورة **الفرقان**، الآيتان ٦٨ و٦٩.



أمّا الذنبان الآخران ـ أي: قتل النفس والزنا ـ فهما طفيليّان وزائدان على الذنب الأساسيّ، أي: الشرك؛ لأنّه وفقًا للنّصّ القرآنيّ، فإنّ ذنب الشرك فقط هو الذي لا يُغتفر. أمّا بقيّة الذنوب، فإنّ الله يغفرها ويعفو عنها لمن يشاء؛ حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[1].

ولكنّ هذه الإجابة لا يمكن أن تكون موردًا للقبول بالحدّ الكافي:

أولًا: لأنّها خلاف ظاهر الآية الكريمة.

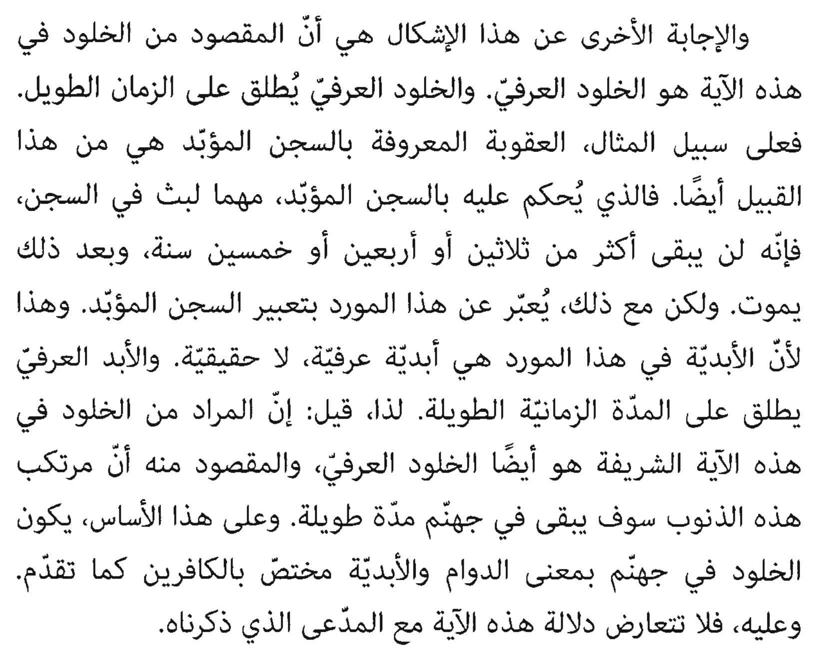
وثانيًا: لأنّ هناك آيةً في القرآن الكريم تعتبر جزاء قتل النفس عمدًا هو الخلود في نار جهنّم أيضًا.

بعبارةٍ أخرى: إنّ الإشكال الأوّل على هذه الإجابة أنّ كلمة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ من حيث الظهور اللفظيّ وفقَ الأصول اللفظيّة والأدبيّة، ينبغي إرجاعها إلى الأمر الأخير فقط وهو «الزنا»، أو أن نرجعها إلى كلّ واحد من تلك الموارد المذكورة قبلها. وفي جميع هذه الأحوال، فإنّ إرجاع ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى مجموع الأمور الثلاثة مخالف للظاهر بشكل كامل. ولو تجاوزنا هذا الإشكال، يُطرح الإشكال الآخر، وهو أنّ القرآن الكريم يقول في آية أخرى: ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا﴾[2]، وهذه الآية تقول ـ صراحةً ـ: إنّ الذي يقتل مؤمنًا بشكل عمديّ، فإنّ جزاءَه يوم القيامة هو الخلود في جهنّم ودخول النار إلى الأبد. ومن هنا، فبسبب وجود هذه الآية لا تكون الإجابة المذكورة مُقنعة وقابلة للقبول عندنا.

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٤٨.

(٢) سورة **النساء**، الآية ٩٣.



والإجابة الأخرى عن هذا الإشكال هي أنّ المقصود من الخلود في هذه الآية هو الخلود العرفيّ. والخلود العرفيّ يُطلق على الزمان الطويل. فعلى سبيل المثال، العقوبة المعروفة بالسجن المؤبّد هي من هذا القبيل أيضًا. فالذي يُحكم عليه بالسجن المؤبّد، مهما لبث في السجن، فإنّه لن يبقى أكثر من ثلاثين أو أربعين أو خمسين سنة، وبعد ذلك يموت. ولكن مع ذلك، يُعبّر عن هذا المورد بتعبير السجن المؤبّد. وهذا لأنّ الأبديّة في هذا المورد هي أبديّة عرفيّة، لا حقيقيّة. والأبد العرفيّ يطلق على المدّة الزمانيّة الطويلة. لذا، قيل: إنّ المراد من الخلود في هذه الآية الشريفة هو أيضًا الخلود العرفيّ، والمقصود منه أنّ مرتكب هذه الذنوب سوف يبقى في جهنّم مدّة طويلة. وعلى هذا الأساس، يكون الخلود في جهنّم بمعنى الدوام والأبديّة مختصّ بالكافرين كما تقدّم. وعليه، فلا تتعارض دلالة هذه الآية مع المدّعى الذي ذكرناه.

وهذا الاحتمال بالطبع ـ كالاحتمال الأوّل ـ مخالفٌ لظاهر الكلام، ولكن إذا قام عليه دليل قطعيّ، فيمكن أن نقبل به؛ إذ إنّ من المطالب التي تقع موردًا للقبول في المباحث اللفظيّة وقواعد المحاورة، أنّه إذا قامت قرينةٌ قطعيّةٌ على خلاف ظاهر الكلام، فينبغي رفع اليد عن الظاهر وحمل الكلام على خلاف الظاهر استنادًا إلى القرينة.

ومن الإجابات الأخرى التي يمكن تقديمها، ما بحثه بعض المفسّرين في تفسيرهم لهذه الآية الكريمة، وكذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾[1]، وخلاصة ما ذكروه، أنّ هذه الذنوب الثلاثة فيها مقتضي العذاب الأبديّ والخلود في النار،

---

(١) سورة النساء، الآية ٩٣.



ولكنّ هذا الاقتضاء لا يصل دائمًا إلى مرحلة الفعليّة، إلّا في مورد الشرك، حيث يبلغ مرحلة الفعليّة. أمّا في مورد سائر الذنوب الكبيرة، فإنّه وإن كان المقتضي موجودًا، فإنّ الله تعالى من باب التفضّل يعفو عن هذه الذنوب. وفي بعض الموارد الخاصّة، يتأكّد هذا التفضّل، عندما تُصبح الشفاعة أيضًا أمرًا زائدًا على علّة العفو، وسببًا آخر في تحقّقه، فيُعفى عن هذه الذنوب الكبيرة. ولكن يبقى مورد الشرك بالله تعالى هو المستثنى من هذا الأمر، فيخلّد المشرك في نار جهنّم قطعًا.

وخلاصة هذه الإجابة، أنّ هذه الذنوب مع أنّ فيها مقتضيَ الخلود في نار جهنّم، فإنّ هذه العقوبة لا تصل دائمًا إلى الفعليّة، بل في بعض الموارد، قد ينال الفضل الإلهيّ أو الشفاعة هذا الإنسان، فينجو من هذه العقوبة. وفي هذا الخِضَمّ، يُستثنى ذنب واحد فقط، وهو الشرك بالله؛ حيث إنّ الإنسان إذا انتقل من هذا العالم مشركًا، ولم يتب من شركه، فلا يُتصوّر أيّ طريق أمامه للنجاة، وحتمًا سوف تكون عقوبة هذا الذنب الخلود في نار جهنّم.

وعلى ما يبدو، فمن بين هذه الاحتمالات التي بيّناها في تفسير الآية الكريمة، يعتبر الاحتمال الأخير أكثرها توجيهًا وقابليّة للقبول في المجموع. ولكن في جميع الأحوال، فإنّ التعبير الوارد في هذه الآية يشير إلى مدى عظمة هذه الذنوب، حتّى إنّها ـ على أقلّ تقدير ـ تحتوي على اقتضاء أن يكون مرتكبها خالدًا في العذاب ونار جهنّم.

تساؤل آخر

وبعد ذكر عقوبة الخلود في نار جهنّم للذين يرتكبون الذنوب المذكورة، تتحدّث الآية التالية عن الذين يُستثنَون من هذه العقوبة، وهم الذين

يتوبون من هذه الذنوب، فتقول: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

فإنّ الإنسان إذا تاب من ارتكاب أيّ ذنب اقترفه، ولو كان هذا الذنب شركًا بالله، فإنّه سيكون موردًا للمغفرة الإلهيّة. وإنّ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[2]، يرتبط بمورد الخروج من هذه الدنيا دون توبة، وإلّا فإنّ الأصل الكلّيّ هو أنّ الله تعالى يغفر أيّ ذنب، ويرحم أيّ مذنب إذا تاب عن ذنبه.

وفي تكملة هذه الآية، يطرح القرآن الكريم ـ بالإضافة إلى التوبة ـ شرطين، هما الإيمان والعمل الصالح، حيث يقول: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾[3]. وأوّل تساؤل يُطرح هنا، هو أنّ الكلام ـ في الأساس ـ يدور حول الإنسان المؤمن، والبحث لم يتطرّق أبدًا إلى الكافر، فلماذا إذًا ذكر الله تعالى بعد التوبة أنّ من اللازم على المذنب أن يؤمن ويعمل صالحًا ليغفر الله تعالى ذنبه ويبدّل أعماله السيّئة إلى خيرات وحسنات؟

وهنا أيضًا بيّن المفسّرون وجوهًا مختلفة في الإجابة عن هذا التساؤل، ولا مجال فعلًا للتطرّق إلى جميعها، ويمكن للمهتمّين أن يراجعوا كتب التفسير المفصّلة للاطّلاع على تلك الوجوه المختلفة. ولكن بالطبع، في مثل هذه المباحث التفسيريّة لا رأيَ قاطعًا، ومن الصعب جدًّا أن يقول أحد المفسرين: «هذا هو الرأي الصحيح ليس غير»، وقلّما

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٠.

(٢) سورة **النساء**، الآية ٤٨.

(٣) سورة **الفرقان**، الآية ٧٠.



تجد مفسّرًا يمتلك مثل هذه الجرأة والثقة، بل غالبًا ما تطرح هذه المطالب على نحو الاحتمال. وفي كثيرٍ من الموارد لا يطرح المفسّر احتمالًا واحـدًا، بل احتمالات متعدّدة ومختلفة. أمّا المراد الواقعيّ والتفسير القطعيّ لمثل هذه الآيات فعلمه عند الإمام المعصوم عليه السلام، وإنّ الآخرين مهما اجتهدوا في تفسيرها وتبحّروا وتخصّصوا، فإنّهم في كثيرٍ من الموارد سيعجزون عن إعطاء الرأي القطعيّ، وأقصى ما يمكن لهم فعله، هو طرح المسألة على نحو الاحتمال وتحت عنوان وجهٍ من بين مجموعة وجوهٍ مُتصوّرة.

تأمّل في معنى التوبة

وعلى جميع الأحوال، فمن أجل توضيح معنى هذه الآية، ينبغي أوّلًا أن نلتفت إلى أنّ لنفس التوبة مراتب متعدّدة ولوازم مختلفة؛ فأصل التوبة ـ كما جاء في بعض الرويات ـ هو الندم. وإنّ خجل الإنسان وندمه على الفعل الذي قام به هو في حدّ ذاته توبة: «كَفى بِالنَّدَمِ تَوْبَة»[1].

ووفقًا لهذا الأساس، تكون التوبةُ أمرًا في غاية اليسر ويمكن بلوغه بسهولة؛ فبمجرّد أن يستشعر الإنسان بصدق الندم في نفسه ممّا اقترفه، فهذا كافٍ في تحقّق التوبة. ولكن من جهةٍ أخرى، لدينا بعض الروايات التي اعتبرت التوبة أمرًا شاقًّا، ولم تنظر إليها بهذه النظرة البسيطة. ومن جملة هذه الروايات، الرواية المعروفة التي وردت في الكتاب الشريف **نهج البلاغة**. ووفقًا لما جاء في هذه الرواية، فإنّ إنسانًا قد استغفر الله بحضور أمير المؤمنين عليه السلام، وتلفّظ بكلمة «أستغفر الله»، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، أَتَدْرِي مَا الاسْتِغْفَارُ؟»، ثمّ بدأ عليه السلام ببيان

(١) العلامة المجلسي، **بحارالأنوار**، الجزء ٦، الصفحة ٢٠، الرواية ٩، الباب ٢٠.

شروط الاسغفار والتوبة الواقعيّة، وأوضح أنّ مجرّد الندم ليس كافيًا في قبول التوبة، بل بالإضافة إلى الندم، من اللازم أداء بعض الأمور الأخرى:

«الاسْتِغْفَارَ دَرَجَةُ الْعِلِّيِّينَ، وَهُوَ اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ:

أَوَّلُهَا: النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى.

وَالثَّانِي: الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَيْهِ أَبَدًا.

وَالثَّالِثُ: أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى اللهَ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ.

وَالرَّابِعُ: أَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا.

وَالْخَامِسُ: أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى السُّحْتِ فَتُذِيبَهُ بِالأَحْزَانِ، حَتَّى يَلْصِقَ الْجِلْدُ بِالْعَظْمِ، وَيَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ.

وَالسَّادِسُ: أَنْ تُذِيقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذلِكَ تَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ»[١].

فوفقًا لبيان أمير المؤمنين ﵇، التوبة الواقعيّة هي أن يقوم الإنسان ـ بالإضافة إلى ندمه عن ذنوبه وأعماله السيّئة ـ بأداء ما عليه من ديونٍ وحقوقٍ للناس، وأن يتدارك أيضًا الحقوق الإلهيّة والعبادات التي فاتته، ويعمل على أن يزيل ويذيب اللحم الذي نما في بدنه بفعل أكل الحرام! ومن البَدَهيّ أنّ مثل هذه التوبة أصعب بكثير من مجرّد الندم على الذنب.

---

(١) الشريف الرضي، **نهج البلاغة**، الحكمة ٤٠٩.



ومع ذلك، ينبغي أن نلتفت إلى أنّه لا تعارض أو تفاوت أبدًا بين هذين النوعين من البيان الروائيّ؛ فأصل التوبة هو ذلك الندم، ولكنّ بعض الذنوب التي يقترفها الإنسان تحمل معها تبعاتٍ ينبغي التنبّه إليها ومعالجتها من أجل تكميل تحقّق التوبة. فإذا كذّب الإنسان لا سمح الله، فإنّ التوبة على هذا الذنب الذي اقترفه هي الندم فقط. أمّا إذا ضيّع صلاةً ـ لا سمح الله ـ فمن أجل التوبة لا بدّ ـ بالإضافة إلى الندم ـ من قضاء هذه الصلوات. وكمال التوبة أيضًا أن يذيب الإنسان ويذيب اللحم الذي نما في بدنه من جرّاء أكل الحرام.

الإجابة عن التساؤل

وعلى أيّة حال، فإنّه وإن كان الأصل في التوبة ندم الإنسان ورفع يده عن ارتكاب هذا العمل السيّئ واجتناب الاستمرار فيه، فإنّ ماهيّة الذنب تُضعف روح الإيمان في داخل الإنسان، وخاصّة في مورد الذنوب الكبيرة، وأخصّ من ذلك، عندما يبادر المرء إلى اقتراف الذنب مع التفكير الكلّيّ ووضع البرامج وتمهيد المقدّمات، ففي هذه الحالة تضعف روح الإيمان بشكل أشدّ وأكبر. حتّى إنّه قد جاء في بعض الروايات ما مضمونه أنّ الإنسان عند ارتكابه للذنب تُسلب منه روح الإيمان بشكل كلّيّ، وأنّه في حالة الذنب أقرب إلى الكفر منه إلى الإيمان[1]!

---

(١) ومن جملة هذه الروايات: «إِنَّ لِلْقَلْبِ أُذُنَيْنِ فَإِذا هَمَّ الْعَبْدُ بِذَنْب قالَ لَهُ رُوحُ الإيمانِ: لا تَفْعَلْ، وَقالَ لَهُ الشَّيْطانُ: افْعَلْ. وَإِذا كانَ عَلى بَطْنِها نُزِعَ مِنْهُ رُوحُ الإيمانِ». العلامة المجلسي، **بحارالأنوار**، الجزء ٦٩، الصفحة ١٩٨، الرواية ١٦، الباب ٣٣ و الجزء ٦٦، الصفحة ٤٩٥، الرواية ٤١، الباب ١ و الجزء ٦٩، الصفحة ١٧٨، الرواية ١، الباب ٣٣ و الجزء ٦٩، الصفحة ١٩٠، الرواية ٥، الباب ٣٣.

إنّ بعض الذنوب قد تطرأ على الإنسان بنحو دفعيّ وبصورة آنيّة وللحظة واحدة؛ فمن الممكن للإنسان ـ مثلًا ـ أن يواجه مشهدًا ملوّثًا على نحو الصدفة فينظر إليه متعمّدًا، أو أن يطرق آذانه صوتٌ محرّم فيستمع إليه. ولكنّه قد يضع برنامجًا وحسابًا لارتكاب هذا الذنب، ويبادر إلى اقترافه مع تجهيز مقدّماته وطيّ بعض المراحل التمهيديّة. وبالطبع، لا يستوي تأثير كلّ من هذين النوعين من الذنوب على روح الإنسان وإيمانه، بل إنّ الآثار السلبيّة في النوع الثاني أكبر بمراتب وأشدّ بمراحل من النوع الأوّل من الذنوب. فذلك الذي يرتكب الذنب بعد وضع البرنامج وتجهيز المقدّمات تراه وكأنّه يقف أمام الله تعالى بشكل رسميّ ويقول له: «إنّك وإن كنت قد أمرتني بعدم ارتكاب هذا الفعل ولكنّني سوف أرتكبه». وإنّ هذه الحالة تختلف كثيرًا عن تلك التي يسقط فيها الإنسان في فخّ الذنب بصورة دفعيّة وتصدر منه زلّة بصورة آنيّة، فيندم فورًا ويستغفر الله. وإنّ بعض الذنوب والآثام فيها من التجاسر والوقاحة إلى درجة أنّ حال مرتكبها كحال من ينهض ويعلن الحرب على الله، ومن جملة هذه الذنوب الرِّبا؛ إذ نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[1].

بشكل عامّ، إنّ كلّ ذنب هو حرب على الله تعالى ومواجهة لأمره بمعنىً من المعاني. وإنّ هذه الحالة ـ بطبيعة الحال ـ لا تتناسب مع روح الإيمان؛ لأنّ حقيقة الإيمان الانقيادُ والتسليم في مقابل الله تعالى وأوامره. فالإيمان مستلزمٌ للعمل واتّخاذ التصميم على الطاعة، والإنسان في حالة ارتكاب بالذنب لا يمتلك هذا التسليم والانقياد، بل يكون

---

(١) سورة **البقرة**، الآيتان ٢٧٨ و٢٧٩.



مشغولًا بشكل كامل في اقتراف العمل المخالف لهذا التسليم، وخاصّة أثناء ارتكابه للذنوب التي يمهّد مقدّماتها ويؤدّيها عن قصد ونيّة مُسبقة، وعن وعيٍ كامل. فالإنسان عندما يشتغل في تهيئة مقدّمات الذنب بوعيٍ واختيارٍ كاملين، مع وضع الخطط والبرامج، لا يمكن اعتبار ذنبه هذا زلّة آنيّة حدثت لحظة معيّنة، بل إنّ هذا الأمر ـ شئنا أم أبينا ـ تجهيز لوسائل الحرب مع الله. وعليه، فلا عجب من تعبير الرواية أنّ روح الإيمان تُنزع من الإنسان أثناء ارتكاب الذنب؛ لأنّ الإنسان في هذه الحالة يكون وكأنّه ـ والعياذ بالله ـ غير معتقد بوجود الله ولا بأمره ولا بلزوم طاعته.

ولكن في جميع الأحوال، فإذا تنبّه الإنسان من غفلته بعد ارتكاب الذنب، وندم على ما اقترفه، تُهيَّأُ الأرضيّة لعودة روح الإيمان التي سُلبت منه؛ لأنّ تلك الأمور والعوامل التي كانت قد شكّلت أرضيّة تحقّق الإيمان في وجود الإنسان في البداية لم تزُل ولم تفنَ بارتكاب الذنب، بل بقيت مخبّأة في أعماق وجوده. وفي الواقع، إنّ الذنب العارض يسبّب إسدال الحجب على هذه العوامل، فتخسر تأثيرها مؤقّتًا، ولكن بعد أن تعبر سحاب الذنوب، وتنضب حالة الغضب أو الشهوة، ويرجع عقل الإنسان إلى تأثيره السابق، وتسيطر على الإنسان حالة الندم، ويدرك قبح ما قام به وسوءَه، تُمهَّد مرّة أخرى أرضيّة شروق شمس الإيمان في وجود الإنسان.

وممّا بيّناه، يتّضح معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1]، ومعناه أنّ الإنسان المذنب ـ بعد توبته ـ تعود إلى وجوده

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٠.



روح الإيمان التي سلبت منه بسبب الذنب. وهذا الإيمان المذكور في هذه الآية مشابه للإيمان الوارد في الآية الشريفة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[1]؛ إذ إنّ الإنسان بتلفّظه بالشهادتين يُقرّ بوحدانيّة الله تعالى ورسالة النبيّ محمّد ﷺ، فيدخل في صفوف أهل الإيمان والمؤمنين. ولكنّ هذا الإيمان ليس من شأنه أن يؤمّن النجاة للإنسان، بل أقصى ما يؤدّيه، هو إجراء الأحكام الإسلاميّة الظاهريّة في حقّه، مثل: طهارة البدن، وحلّية التزويج. أمّا الإيمان الواقعيّ، فإنّما يحصل عندما يعقد الإنسان العزم على الالتزام بلوازم هذا الإقرار، أي: طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ. وإنّ المقصود من هذه الآية من سورة «النساء» هو هذا الأمر؛ إذ يطلب الله تعالى فيها من الذين دخلوا في زمرة أهل الإيمان الظاهريّ بواسطة التلفّظ بالشهادتين، أن يُوصِلوا أنفسهم إلى حقيقة هذا الإيمان، من خلال الالتزام العمليّ بأحكام الله وأوامر النبيّ ﷺ.

وفي الآية (محلّ البحث) ـ الآية السبعين من سورة «الفرقان» ـ تُطرح مسألة شبيهة بهذه المسألة، ويمكن اعتبارها في مقام بيان التفاوت بين الإيمان قبل ارتكاب الذنب والإيمان بعد تحقّق التوبة. فكما أوضحنا، إنّه بارتكاب الذنب تضعف روح الإيمان في الإنسان، فيكون الإيمان بعد التوبة بمعنىً من المعاني أكمل من الإيمان الأوّل، أي: الإيمان قبل ارتكاب الذنب؛ فلقد كان ذلك الإيمان الأوّل إيمانًا ضعيفًا وفاقدًا للأثر المطلوب، وعلى أثر ارتكاب الذنب أصبح أضعف. وإذا استمرّ ارتكاب الذنوب الكبيرة، فقد يصل الأمر إلى حدّ زوال الإيمان بشكل كامل،

---

(١) سورة النساء، الآية ١٣٦.



وسيطرةِ الكفر مكانه؛ يقول القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1].

ولكنّ الإنسان الذي يندم على أفعاله، ويُعرض عن الاستمرار في الذنوب وعصيان الأوامر الإلهيّة، قبل فوات الأوان، تكون أرضيّة الإيمان مُهيّأة بالنسبة إليه. ومن هنا، فمناسبة ذكر الإيمان بعد التوبة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾، تكمن في أنّ على الإنسان أن يغتنم الفرصة بعد التوبة، فيسعى في سبيل تقوية روح الإيمان التي ضعُفت في وجوده على أثر ارتكاب الذنب.

إنّ الإيمان الواقعيّ ليس لقلقة لسان فقط، بل ينبغي لآثاره أن تظهر في أعمال الإنسان وسلوكه. أمّا الإيمان الذي لا يكون له أدنى تأثير في عمل الإنسان، فهو إيمان ظاهريّ وكاذب، ولا يمكن تسميته إيمانًا حقيقةً؛ فأحيانًا، قد يتوهّم الإنسان أنّه من أهل الإيمان، ولكنّه يكون غافلًا عن أنّه يخدع نفسه، وعندما يحين وقت العمل وأوان ظهور أثر الإيمان، يكتشف أنّه لا يملك في جعبته أيَّ شيء من الإيمان، وأنّ يديه خاليتان تمامًا.

ولكن من جهة أخرى، لمّا كانت حقيقةُ الإيمان هي التصميمَ الجدِّيَّ والعزمَ الواقعيَّ على الالتزام العمليّ، فمن الممكن للإنسان أن يمتلك مثل هذا التصميم، ولكنّه لا يوفّق لأداء أيّ عمل، ومع ذلك، ينجو بإيمانه. ويمكن أن نجد مصداقًا لهذا الفرض عند الإنسان الذي أمضى عمرًا طويلًا وهو من أهل المعصية، ثمّ ندم حقّ الندامة على ماضيه، وصمّم تصميمًا جدّيًّا على جبران ما فاته، وصادفت توبته أنّ عمره كان على وشك الانتهاء في اللحظات القادمة، ولم يكن يعلم بأنّ عمره سينتهي عمّا قريب. فمثل

(١) سورة **الروم**، الآية ١٠.

هذا الإنسان إذا أصابته نوبة قلبيّة بعد لحظات من توبته وتصميمه على العمل، وتوفّي على أثرها، فإنّ إيمانه هذا سوف يكون ذا أثر كبير، وسيكون موجبًا لنجاته.

وبناءً عليه، فإنّ حقيقة الإيمان هي الالتزام العمليّ. والإيمان الواقعيّ والحقيقيّ هو أن يصمّم الإنسان على طاعة الله، وإقامة الصلاة، وأداء الصيام، وغضّ النظر عن الحرام... ولا يمكن اختصار الإيمان بالتلفّظ ببضع كلمات لا تعدو كونها لقلقة لسان. ومن هنا، فإنّ التوبة الواقعيّة أيضًا هي أن يندم الإنسان على ما مضى، وأن يصمّم جدّيًّا على اجتناب الأعمال القبيحة، والتوجّه نحو فعل الأعمال الصالحة.

وكما أشرنا سابقًا، من الممكن بعد هذا التصميم، أن يصادف طروء مانع، فلا يوفّق الإنسان لأداء أيّ عمل صالح، ولكن هذه الحالة استثنائيّة عارضة، ونادرًا ما تحدث. أمّا الحالة الطبيعيّة والسير العاديّ، فهي أنّ الإنسان بعد توبته، وبعد بناء هذا البنيان القلبيّ، يُمنح الفرصة للعمل، ويمكن حينئذٍ أن يُثبت صدق نيّته بواسطة عمله. ومن هنا، فإذا امتنع الإنسان بعد توبته عن الأعمال السيّئة والسلوك القبيح، ولكنّه لم يؤدّ أيّ عمل صالح، فهذا ـ في الواقع ـ يكون علامةً على ضعف إيمانه. ولهذا، فإنّ هذه التوبة من شأنها في أقصى الحالات، أن تـؤدّيَ إلى غفران الذنوب السابقة التي قام بها الإنسان، ولكنّها ليست بالحدّ الذي يمكنه أن يحوّل ذنوب الإنسان وسيّئاته إلى صالحات وحسنات، فتكون مصداق قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَـٰتٖ﴾[1].

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٠.



فتحصّل من هذا البيان، أنّه وإن كان أصل التوبة كافيًا في غفران الذنوب، فإنّه من الأجل الارتقاء فوق هذه المرتبة، وبلوغ مرحلة تبديل الحسنات بالسيّئات، من اللازم أيضًا تحقيق شرطَي الإيمان والعمل والصالح.

بحث تبديل السيّئات إلى حسنات على أثر التوبة

ومن الأسئلة الأخرى التي يمكن أن تطرح حول الآية مورد البحث: «ما هو المقصود من أنّ الله تعالى يبدّل سيّئات التائبين في مثل هذه التوبة إلى حسنات؟».

وإنّ هذه المسألة ككثيرٍ من المسائل التفسيريّة الأخرى، اختلف المفسّرون في تفسيرها، وبُيّن في توضيحها وجوهٌ مختلفة. وإنّنا هنا نصرف النظر عن بيان جميع هذه الوجوه، مراعاةً للاختصار والمحدوديّة، ونقتصر على توضيح الوجه الذي نراه الأقرب إلى الصواب.

إنّ ما يُفهم من كثيرٍ من الآيات والروايات أنّ جميع أعمال الإنسان، ومن جملتها الذنوب التي يرتكبها، تدوّن وتثبت في صحيفة أعماله. أمّا حقيقة إثبات الأعمال، وكيفيّة تدوين الملائكة لها، ونوعيّة هذه الأوراق والأقلّام والخطوط واللغة التي يكتبون بها، ومسائل من هذا القبيل، فتعدّ من الأمور التي تقصر عقول أمثالنا عن إدراكها، ولكنّنا في جميع الأحوال، لدينا إيمان قاطع ويقين كامل بأنّ ما يقوله الله صحيحٌ قطعًا. ومن هنا، فإنّنا ـ وفقًا للآيات القرآنيّة المتعدّدة ـ نقطع ونعتقد أنّ لكلّ إنسان منّا صحيفةَ أعمالٍ خاصّةً، وأنّ كلّ ما نقوم به من أعمال حسنة وسيّئة تُثبت في هذه الصحيفة. ولكن، ما أكثر ما تكون الذنوب التي نقترفها والتي تُدوّن في صحيفة أعمالنا كثيرة وعظيمة، بنحوٍ يؤدّي إلى اسودادها



وظلمتها! وإذا تسنّى للإنسان أن يشاهد صحيفة أعماله لاستوحش من ظلمتها.

وإنّ المقدار المُسلّم به، أنّ الإنسان إذا ندم على ذنبه وتاب منه، وصمّم على ألّا يعود إليه مرّة أخرى، فإنّ هذا السواد الثابت سوف يُمحى، وهذه الظلمة سوف تزول من صحيفة الأعمال، ولكن هل يمكن أن يحلّ البياض والنور مكان السواد والظلام؟

وعلى ما يبدو، فإنّ الإجابة عن هذا السؤال، هي أنّ حلول النور مكان الظلام السابق مشروطٌ بأن يُحييَ الإنسانُ روحَ الإيمانِ في وجوده بعد توبته، وأن يبادر إلى فعل الأعمال الصالحة. ففي هذه الصورة ـ بالإضافة إلى زوال الظلمة الحاصلة جرّاء الذنب ـ ترتسم النورانيّة في صحيفة أعمال الإنسان بفعل هذا العمل الصالح. وفي هذه الحالة، يمكن أن نقول: إنّ السيّئات بُدّلت إلى حسناتٍ. ويمكن أن يكون هذا المعنى هو المراد من قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾[١]. وبالطبع، كما أشرنا، يوجد مطالب أخرى بُيّنت في شرح هذه الآية وتفسيرها، ويمكن للمهتمّين أن يراجعوا كتب التفسير من أجل الاطّلاع عليها.

إنذارٌ وتبشيرٌ

كنّا قد ذكرنا مُسبقًا أنّ واحدًا من الأساليب القرآنيّة الأكثر شيوعًا في مجال التربية والتعليم، ما يعتمد على الاستفادة من عنصرَي الإنذار والتبشير. فنرى القرآن الكريم ـ من حيث الأسلوب الكلّيّ ـ يعمد من جهةٍ أولى إلى

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٠.



تحذير الناس وتخويفهم من العواقب الوخيمة لأفعالهم السيّئة، ومن جهةٍ أخرى، يبشّرهم بالنتائج الجميلة والمطلوبة التي تترتّب على أعمالهم الصالحة.

وفي هذه الآيات التي تمثّل محلّ بحثنا الفعليّ، استفاد القرآن الكريم أوّلا من عنصر الإنذار، فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾[1]؛ إذ تحذّر هذه الآية الذين يقترفون الذنوب المذكورة، وتُنذرهم بالخلود في العذاب ومضاعفته عليهم، وأنّهم - بالإضافة إلى ذلك - سوف يُهانون ويتعرّضون للذلّة والاحتقار. ولكن بعد ذلك مباشرة، تستعمل الآيات عنصر التبشير، وتقول: إنّ الإنسان الذي يتوب من هذه الذنوب ويؤدّي الأعمال الصالحة، فإنّ جزاءَه لا يقتصر على غفران ذنوبه ومحو آثارها السوداء، بل سوف تحلّ النورانيّة في صحيفة أعمال الإنسان مكانَ تلك الظلمات؛ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2]

وعندما تزول الظلمة والسواد من صحيفة أعمال الإنسان، وتحلّ مكانها الأعمالُ الصالحة والنورانيّة، يمكن للإنسان حينئذٍ أن يُظهر صحيفة أعماله أمام الآخرين بكلّ فخرٍ واعتزاز، ويصبح مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾[3]؛ لأنّ صحيفة أعماله لا أثر فيها للسيّئات، وإذا اطّلع الآخرون عليها، فلن يكون هذا الأمر مدعاةً للخزي والفضيحة والخجل؛ لأنّ الظلام والسواد قد زال

(١) سورة **الفرقان**، الآيات ٦٨ و٦٩.
(٢) سورة **الفرقان**، الآية ٧٠.
(٣) سورة **الحاقّة**، الآية ١٩.

على أثر التوبة، وحلّ مكانه نور الإيمان والعمل الصالح. فأيّة بشارةٍ أعظم من هذه؟!

إنّ ذلك الذي ارتكب المعاصي، واستوجب بسببها العذاب الأبديّ، ها هو الآن بواسطة عملٍ صالح صغيرٍ وندمٍ واعتذارٍ من الله تعالى، يُستنقظ من ذلك العذاب. ومع أنّه كان بإمكانً الله تعالى أن ينجيَه من العذاب مع إبقاء صحيفة أعماله سوداء مظلمة، كما لوثّها هو بنفسه، ويجعل له صحيفة أعمال جديدة لتوبته وأعماله الصالحة، ولكن لو فعل الله ذلك، فإنّ هذا الإنسان سوف يبقى في خجل وخزي ممّا اقترفه، ولن يستطيع أن يُظهر صحيفة أعماله أمام النّاس، ويقول لهم: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾[1]. ولكنّ اللهَ الرحمنَ الرحيمَ، جعل هذه الميزة للإنسان التائب، فيمحو صحيفة أعماله السوداء، ويزيل ظلمتها بشكل كلّيّ، ولا يُبقي فيها إلّا القسم النورانيّ المرتبط بالتوبة والعمل الصالح. فما أعظم هذه البشارة للعاصين والمخطئين!

الحكم العام للتوبة

والسؤال الأخير الذي يمكن أن يُطرح هنا هو: هل تختصّ هذه الآثار وهذه النتائج بالتوبة المرتبطة بالذنوب المذكورة في الآية السابقة، أي: الشرك بالله وقتل النفس والزّنا؟!

وتُجيب الآية التالية عن هذه التساؤل، فتقول: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابٗا﴾[2].

---

(١) سورة **الحاقّة**، الآية ١٩.

(٢) سورة **الفرقان**، الآية ٧١.



فهذه الآية تريد أن تقول: إنّ القاعدة المذكورة هي قاعدة كلّيّة، وكلّ إنسان يرتكب أيّ نوع من أنواع الذنوب والزلّات، إذا تاب وعمل صالحًا، فإنّ طريق الرجوع إلى الله تعالى يكون مشرّعًا أمامه، وأنّ الله تعالى بحكم رأفته ورحمته سوف يقبله ويتعامل معه[١].

ولقد جاء في مضمون الرواية المنقولة عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ العبد عندما يرتكب معصيةً، يبقى الله تعالى في انتظارٍ دائمٍ للوقت الذي يتوب فيه هذا العبد ويرجع إليه. نعم، هذا والحال أنّ العبد عند ارتكابه للذنب يكون مُعرضًا عن الله تعالى مولّيًا وجهه شطر إبليس، ولكنّ الله تعالى لا يكون راضيًا عن بُعد عبده عنه، بل يبقى منتظرًا الوقت الذي يرجع فيه هذا العبد! في هذه الرواية يقول الإمام عليه السلام: عندما يتوب العاصي من ذنبه، فإنّ الله تعالى يفرح فرحًا لا حدّ له. بالطبع، إنّ معنى فرح الله تعالى من المسائل التي ينبغي توضيحها في مكانها، ولكن لو لم تستعمل الروايات الشريفة هذه التعبيرات لما اتّضحت حقيقة المطلب عند البشر. يقول الإمام عليه السلام: إنّ فرح الله تعالى بتوبة عبده يفوق فرح رجلٍ أضاع زاده وراحلته في صحراء قافرة، ثمّ وجدها بعد ساعات من البحث عنها. وإنّ الرواية الشريفة تصوّر هذه الحالة بشكل جميل جدًّا.

تصوّروا إنسانًا في صحراء قاحلة جافّة، يمشي وحيدًا وقد أضاع راحلته التي يركبها، وضاقت عليه الأرض بما رحبت وانتابه اليأس. حتّى إنّ ماءه وطعامه قد بقيا على ظهر راحلته الضائعة، فقد خسر زاده أيضًا،

---

(١) ولكن تجدر الإشارة إلى أنه في الآية السابقة طرحت قضيّة الإيمان أيضًا، حيث قالت الآية: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾. أمّا في هذه الآية، فلم يُطرح بحث الإيمان؛ ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾.



وبات محرومًا من قطرة ماء ولقمة طعام، يتّقي بهما الحرّ واللهيب، ويدفع العطش، ويسدّ الجوع. وغدا كالحيران الضائع، يبحث هنا وهناك في الصحراء الحارّة الجافّة، متأملًا أن يجد أثرًا لراحلته، ولكنّه ـ على الرغم من إجهاد نفسه وبحثه ـ لم يجد أيّ أثر لزاده وراحلته. وفي النهاية، سيطر عليه اليأس، واستحكم منه التعب، وعندما وصل إلى رمقه أخير، وسلّم نفسه للموت المحتوم، ووضع يديه وراء رأسه وتمدّد أرضًا، وفي هذه الحال، فتح عينيه فجأة، فرأى أمامه شخصًا مُمسكًا براحلته وزاده ويناديه ليمسك بعنان راحلته. من الطبيعيّ أنّ فرحة هذا الإنسان بعثوره على زاده وراحلته هي بحدّ لا يمكن أن تصفه الألفاظ أو تعبّر عنه الكلمات؛ في هذا الحديث يقول الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ اللهَ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حينَ يَتُوبُ مِنْ ذلِكَ الرَّجُلِ»[1].

نسأل الله أنّ يوفقّنا للتوبة النصوح من جميع أخطائنا وزلّاتنا.

---

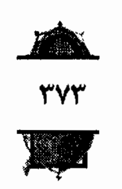
(١) نصّ الرواية كما جاء في كتاب **بحار الأنوار**: «ألا إنَّ اللهَ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حينَ يَتُوبُ مِنْ رَجُل ضَلَّتْ راحِلَتُهُ في أرْض قَفْر وَعَلَيْها طَعامُهُ وَشَرابُهُ فَبَيْنَما هُوَ كَذلِكَ لا يَدْري ما يَصْنَعُ وَلا أَيْنَ يَتَوَجَّهُ حَتّى وَضَعَ رَأْسَهُ لِيَنامَ فَأَتاهُ آت فَقالَ لَهُ: هَلْ لَكَ في راحِلَتِكَ، قالَ: نَعَمْ هُوَ ذِهِ فَاَقْبِضْها فَقامَ إِلَيْها فَقَبَضَها. فَقالَ أَبُو جَعْفَر عليه السلام: وَاللهُ أفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْده حينَ يَتُوبُ مِنْ ذلكَ الرَّجُلِ حينَ وَجَدَ راحِلَتَهُ». العلامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٦، الصفحة ٣٨، الرواية ٦٧، الباب ٢.

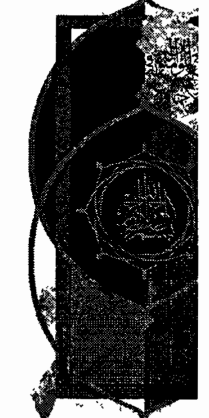


الدرس السادس عشر:

وصفان سلبيّان لعباد الرحمن







﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[١]

احتمالان في معنى «الشهادة»

يتمحور بحثنا الحاليّ حول أوصاف «عباد الرحمن» الواردة في سورة «الفرقان» المباركة. وكما تقدّم سابقًا، إنّ علّة اختيار اسم «عباد الرحمن» لهذه الفئة من العباد، وعلّة ذكر مجموعة الصفات هذه دون غيرها من الأوصاف الممكنة، من المسائل التي يعجز أمثالنا عن إدراك حقيقتها تمام الإدراك. ولكن بالطبع، يمكن ذكر عدّة وجوه محتملة. أمّا حقيقة هذا الأمر، فمن الجدير بنا أن نعترف بأنّها مبهمة عندنا، وعلمها عند الله تعالى، وعند الذين منحهم الله تبارك وتعالى علمًا خاصًّا من عنده.

وفي مقام توصيف «عباد الرحمن» ذكرت الآيـات أوّلًا مجموعة أوصاف إيجابيّة، ثمّ وصل بنا الكلام إلى سلسلة من الأوصاف السلبيّة التي يحترز عنها «عباد الرحمن» ويجتنبونها. وكان من جملة هذه الأوصاف السلبيّة التي تقدّم البحث فيها اجتناب «عباد الرحمن» لثلاثة من الذنوب

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٢.

الكبيرة، وهي الشرك والقتل والفحشاء. وبعد الفراغ من بحث هذه الصفات الثلاثة، تعرّضت الآيات لبحث التوبة على هيئة جمل معترضة. وبهذه المناسبة، عرضنا مجموعة مطالب ترتبط بالتوبة، وذكرنا بعض النُّكات الموجودة في هذه الآيات. ونرمي في هذه الآية إلى استعراض بعض المباحث والآراء المختلفة التي طرحها المفسّرون حول جملتين تبيّنان وصفين من أوصاف «عباد الرحمن» السلبيّة.

إنّ أوّل صفة وردت في هذه الآيـة هي قوله تعالى: إنّ «عباد الرحمن» أناسٌ ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾. وإنّ فعل ﴿يَشْهَدُونَ﴾ مأخوذ من «الشهادة»، والشهادة في هذه الآية يُحتمل فيها أحد معنيين اثنين:

الأوّل: أن نقول: إنّ الشهادة هنا بمعنى أداء الشهادة، الذي يُطرح عادةً بوصفه مسألةً من المسائل القضائيّة والحقوقيّة. ومن جملة موارد استعمال القرآن الكريم لكلمة «الشهادة» بهذا المعنى قوله تعالى ـ في قصّة النبيّ يوسف عليه السلام ـ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1].

والآخر: أن نقول: إنّ الشهادة هنا بمعنى الحضور، كما نقول: «شهد المجلس»، أي: حضر فيه.

وعلى هذا الأساس، فإن كانت الشهادة هنا بمعنى أداء الشهادة، فيُصبح معنى الآية أنّ من أوصاف «عباد الرحمن» أنّهم لا يؤدّون الشهادة بغير حقّ. فالزُّور بمعنى الباطل، أي: الشيء الذي يمتلك ظاهرًا منظّمًا ومرتّبًا، ولكنّ باطنه فاسد. وإنّ الباطل بهذا المعنى يشمل الكذب، وكلّ

---

(١) سورة **يوسف**، الآية ٢٦.



فعل يكون ظاهره مرتّبًا وباطنه فاسدًا. ومن جملة هذه الأمور أيضًا، ما يُعرف بـ«شهادة الزور».

بتعبيرٍ آخر: يمكن أن نقول: إنّ الزور هو الأمر المزيّف. وعلى هذا الأساس، تكون «شهادة الزور» بمعنى أداء الشهادة بكذبٍ وتزييفٍ. والتزوير أيضًا من هذا القبيل، ويَحمل معنى الاحتيال والخداع. فشهادة الزور هي أن يقدم الإنسان على أداء شهادة على خلاف الواقع، ويقوم بإلباس الباطل لَبوس الحق؛ كأن يقول الإنسان: إنّه رأى ما حدث، والحال أنّه كاذب، لم يرَ أيّ شيء مطلقًا. فعباد الرحمن منزّهون عن مثل هذا الفعل، ولا يؤدّون شهادة كاذبة مخالفة للواقع على الإطلاق.

وبالطبع، في مورد الشهادة مباحث فقهيّة وأخلاقيّة متعدّدة إذا ولجناها، فإنّ بحثنا سوف يمتدّ ويطول؛ فمن المباحث المطروحة ـ مثلًا ـ: هل يُعتبر أداء الشهادة أمرًا لازمًا وواجبًا أم ليس فيه وجوب ولزوم؟ وجواب هذا السؤال ـ إجمالًا ـ: أنّ أداء الشهادة قد يكون واجبًا في بعض الموارد. فإذا طلبوا من إنسانٍ أن يكون شاهدًا وناظرًا على عمل معيّن كي يؤدّي الشهادة حوله إذا استدعت الحاجة في زمان ما، ففي الصورة التي يكون فيها الامتناع عن أداء الشهادة موجبًا لتضييع حقّ مؤمن، يصبح الإقدام على أداء الشهادة واجبًا شرعًا؛ فعلى سبيل المثال، ينبغي حضور شاهدين من أجل إجراء صيغة الطلاق، فمن الممكن أن يُطلب من إنسانٍ أن يحضر شاهدًا على الطلاق. ففي هذه الحالة، إذا وقع لاحقًا اختلاف حول ما إذا وقع الطلاق أم لا، فيجب على هذا الإنسان أن يحضر ويُدليَ بشهادته. وبنحوٍ كلّيّ، يمكن القول: إنّه كلّما كان هناك حقّ لمؤمن في معرض الضياع لزم على الشاهد أن يحضر ويؤدّيَ شهادته. نعم، إذا كان هناك شهود آخرون يُحترز بواسطة شهادتهم عن ضياع حقّ المؤمن، ففي



هذا الفرض لا يجب على الشاهد أداء شهادته. وفي بعض الموارد، قد يكون أداء الشهادة أمرًا مستحبًّا.

وعلى أيّة حال، فإذا تجاوزنا أمثال هذه الأبحاث الفقهيّة، يمكن أن نقول: إنّ الشهادة ينبغي أن تكون مطابقة للواقع، وإذا ما أراد الإنسان أن يؤدّيَ شهادته، فينبغي عليه أن يؤدّيَها بشكل دقيق، كما تحمّلها وتلقّاها. وكذلك ينبغي أن تكون الشهادة «عن حسّ»، فإذا كان الشيء الذي يريد الإنسان أن يشهد به مرئيًّا، يبنغي أن يكون الشاهد قد رآه بنفسه، وإذا كان مسموعًا، ينبغي أن يكون قد سمعه بنفسه، أو تلقّاه بواسطة القرائن الحسّيّة.

ولكن، كما أشرنا في مستهلّ بحثنا، هناك احتمال آخر في تفسير الشهادة، وهو اعتبارها بمعنى الحضور. وبحسب ما يُفهم من لحن كلام العلّامة الطباطبائيّ ﷺ في **تفسير الميزان**، فإنّه على ما يبدو يميل إلى هذا الاحتمال أكثر من الاحتمال الأوّل. وعلى هذا الأساس، يصبح قوله تعالى: ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ بمعنى أنّ «عباد الرحمن» لا يحضرون في الأماكن التي يخوض أهلها بالذنوب والفساد، أو يكون فيها شبهة باطل أو فساد أو معصية. وإنّ الأمر الذي أدّى إلى أن يرجّح العلّامة هذا الاحتمال على الاحتمال الأوّل، هو ذيل هذه الآية، أي: الجملة التي أتت بعد عبارة: ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[١]؛ فاعتبار الشهادة بمعنى الحضور أكثر تناسبًا وانسجامًا مع الجملة التي تليها؛ حيث يُصبح معنى الآية ـ في المجموع ـ أنّ «عباد الرحمن» هم أنفسهم لا يحضرون أبدًا في مجالس المعصية والباطل

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٢.



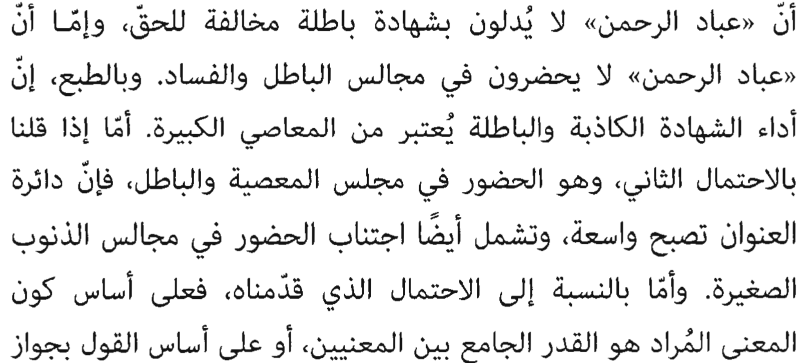
عن عزم وقصد، ولكن لو اتّفق أن مروّا بأشخاص مشغولين في المعصية والأمور الباطلة، فإنّهم يمرّون بهم مرورَ الكرام ولا يتوقّفون.

وإنّ العلّامة الطباطبائيّ بعد ذكر هذين الوجهين، وإن كان قد قوّى الاحتمال الثاني بالبيان الذي ذكرناه، فإنّه ـ في النهاية ـ لم يختر أيًّا من الاحتمالين.

احتمال ثالث في معنى الشهادة

ولكن يبدو أنّه ـ بالإضافة إلى هذين الوجهين ـ يمكن تصوّر احتمال ثالث في المسألة، وهو أن نعتبر الشهادة هنا قد جاءت بمعنى أعمّ من الحضور وأداء الشهادة، وهو أن نتصوّر القدر الجامع والمشترك بين المعنيين المذكورين، والذي يعتبر ـ بطبيعة الحال ـ أعمّ منهما، وأن نحمل الآية الكريمة على هذا المعنى العامّ. أضف إلى ذلك، أنّ من يكون مبناه في مباحث أصول الفقه هو جواز استعمال اللفظ في أكثر من معنى، يمكنه أن يحمل تعبير الشهادة في الآيـة الكريمة على كلا المعنيَين. ويحضرُني في هذا السياق، أنّ المرحوم السيّد الحكيم في كتابه **حقائق الأصول** قد اختار هذا المبنى، وضمن استدلالاته التي أوردها هناك من أجل إثبات هذا المبنى، استشهد بمطلبٍ أخذه عن الملّا فتح علي السلطان آباديّ، حيث قال السيد الحكيم: «لقد كان الملّا السلطان آباديّ في سامرّاء يلقي درسًا في التفسير، وفي تلك الجلسات ذكر لإحدى الآيات اثني عشر معنى، وكان كلّما يطرح معنى من المعاني يعتقد أنّه أفضل من المعنى السابق»!

وفي جميع الأحوال، فبناءً على الاحتمالين اللذين ذكرهما أغلب المفسّرين، يُصبح المقصود من هذا القسم من الآية أحد أمرين، فإمّا



أنّ «عباد الرحمن» لا يُدلون بشهادة باطلة مخالفة للحقّ، وإمّا أنّ «عباد الرحمن» لا يحضرون في مجالس الباطل والفساد. وبالطبع، إنّ أداء الشهادة الكاذبة والباطلة يُعتبر من المعاصي الكبيرة. أمّا إذا قلنا بالاحتمال الثاني، وهو الحضور في مجلس المعصية والباطل، فإنّ دائرة العنوان تصبح واسعة، وتشمل أيضًا اجتناب الحضور في مجالس الذنوب الصغيرة. وأمّا بالنسبة إلى الاحتمال الذي قدّمناه، فعلى أساس كون المعنى المُراد هو القدر الجامع بين المعنيين، أو على أساس القول بجواز استعمال اللفظ في أكثر من معنى، يمكن أن يُستفاد من هذه الآية أنّ «عباد الرحمن» يجتنبون كلا هذين الأمرين، وهم منزّهون عن ارتكاب كلٍّ منهما.

يمرّون باللغو مرور الكرام أم يتعاملون معه؟

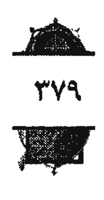
نقرأ في تكملة الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾[1]. وموضوع هذا القسم من الآية بحث «الإعراض عن اللغو». وقد كنّا في أحد الدروس السابقة قد طرحنا بعض المطالب حول هذا البحث، ووعدنا هناك أن نطرح مزيدًا من المطالب عندما يصل الكلام إلى هذه الآية. وقد آن أوان الوفاء بهذا الوعد.

كما مرّ معنا في الآيات الأولى من سورة «المؤمنون» التي تقدّم البحث فيها، يُعتبر الإعراض عن اللغو واحدًا من الأوصاف المطروحة لعباد الله المفلحين، وقد أشير إليها بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾[2].

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٢.

(٢) سورة **المؤمنون**، الآية ٣.



وقد بيّنا في محلّه أنّ كلمة «اللغو» تُستعمل ويراد منها العمل الذي فائدة منه ولا نفع. وهذا المعنى أعمّ من أن يكون الفعل بلا نفع ولا فائدة، وأن يكون ـ بالإضافة إلى ذلك ـ ذا ضرر وأذى على الإنسان. ومن هنا، فإنّ المرتبة الأعلى والقدر المتيقّن من اللغو هو الذنب، وبالإضافة إلى هذا القدر المتيقّن، يشمل عنوان «اللغو» المكروهات، وكذلك المباحات التي لا ترجع بالفائدة الدنيويّة أو الأخرويّة على الإنسان.

ولقد كان التعبير الـوارد في سورة «المؤمنون» عامًّا، حيث كان الإعراض عن «اللغو» يشمل ـ بالإضافة إلى كون اللغو صادرًا عن آخرين ـ أن يكون صادرًا عن نفس هؤلاء المؤمنين. فالمؤمن لا يحضر في مجلس يشتغل أصحابه في الأمور اللّغْويّة، وهو أيضًا ليس من أهل اللغو. أمّا في سورة «الفرقان»، فقد جاء التعبير أخصّ من ذلك الوارد في سورة «المؤمنون»؛ لأنّ تعبير: ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾، إنّما يُستعمل في الموارد التي يكون الآخـرون مشتغلين باللغو ويتّفق أن يمرّ الإنسان بهم. أمّا في الصورة التي يكون الإنسان نفسه مبادرًا إلى الأمور اللغْويّة، فلا يقال في حقّه: «مَرَّ بِاللَّغْو». وبناءً عليه، فإنّ التعبير الوارد في هذه الآية أخصّ من التعبير الوارد في سورة «المؤمنون»، وما هو ناظر إلّا إلى الموارد التي يمرّ فيها الإنسان من جانب أناسٍ يرتكبون الأفعال اللّغْويّة، فتقول الآية الكريمة: إنّ «عباد الرحمن» إذا واجهوا مثل هذه الحالة لا يتوقّفون، بل يعبرون من جانبها دون مبالاة.

والـسـؤال الـذي يطرح نفسه هنا: «مـاذا عن مسألة النهي عن المنكر؟»؛ فوفقًا للأحكام الإسلاميّة لا يحقّ للمسلم أن يكون غير مبالٍ تجاه ارتكاب الآخرين للذنوب. ومن هنا، فإن واجـه المسلم أناسًا يشتغلون بالمعاصي، فمن الواجب عليه ـ عند توفّر بعض الشرائط



والظروف ـ أن ينهاهم عن المنكر، لا أن يمرّ بهم مرور الكرام. وبالطبع، إنّ للنهي عن المنكر مراتب عدّة؛ فأحيانًا قد يصل النهي عن المنكر إلى مرحلة يجب فيها على الإنسان أن يتكلّم بغلظة وحدّةٍ مع مرتكب الذنب، أو مثلًا قد يصل الأمر ـ فيما يرتبط بالمسائل الحكوميّة، إذا كان الإنسان في منصب أو مسؤوليّة حكوميّة ـ إلى وجوب المواجهة الجسديّة لمرتكب الذنب، وتطبيق العقاب الجسديّ بحقّه. ولكن في جميع الأحوال، فليس من مظاهر العبوديّة وعلامات الإيمان أن يمرّ الإنسان مرور الكرام ومن دون أيّة مبالاة، إذا واجه أناسًا يرتكبون المعاصي والمُنكرات، بل تقع على عاتقه وظيفة التصدّي لهم ونهيهم عن المنكر.

وكما أشرنا سابقًا، إنّ القدر المتيقّن من «اللغو» هو الفعل المحرّم. ومن هنا، فإنّ معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾[1]، أنّ «عباد الرحمن» عندما يواجهون أناسًا مشتغلين بارتكاب الذنوب، يمرّون بهم دون أن يبالوا. لذا، فإنّ الإشكال في هذا الأمر أنّ ظاهر هذه الآية لا ينسجم مع وجوب النهي عن المنكر.

تأمّل في الآية الخامسة والخمسين من سورة القصص

في سبيل حلّ هذا الإشكال، من المناسب أن نتأمّل في آية مشابهة، وهي الآية الخامسة والخمسين من سورة «القصص» المباركة. والتي جاء فيها: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[2].

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٢.

(٢) سورة **القصص**، الآية ٥٥.



ولا يدور الكلام في هذه الآية حول مطلق الأفعال اللّغويّة، بل إنّها تتحدّث عن خصوص اللغو الكلاميّ؛ ذلك لأنّها تقول: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ﴾. وبالنظر إلى سياق الآية، يُستفاد أيضًا أنّ البحث هنا ليس في أنّ هؤلاء النّاس المتحدّثين باللغو يتحدّثون فيما بينهم ويوجّهون كلماتهم بعضهم إلى بعض، بل إنّ البحث هو أنّ هؤلاء النّاس يستهدفون في كلامهم المؤمنين وعباد الله الصالحين، وينالون منهم بالاستهزاء والتوهين والتفوّه بالكلام غير المناسب؛ فتقول الآية الكريمة: إنّ ردّة فعل المؤمنين في مقابل هذا السلوك السيّئ والتصرّف الجاهل، هو ابتعداهم وإعراضهم عن هذا الصراع، والتعامل مع هذه القضيّة بِلُيُونَةٍ وصبر ورزانة، فيُخاطبون المستهزئين قائلين: «لكم أعمالكم هذه ونحن أيضًا لنا أعمالنا، فلا نتدخّل بكم ولا تتدخّلون بنا». وإنّ تعبير: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ هو رسالة من المؤمنين إلى تلك الفئة، مُفادُها: «إنّه لن ينالكم منّا أيّ خطر أو ضرر، وفي المقابل نأمل منكم أيضًا ألّا تتدخّلوا بنا، وأن تسمحوا لكلّ منّا أن ينصرف في طريقه الخاصّ».

وأمّا فيما يتعلّق بجملة: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، فيؤكّد المفسّرون، وخاصّةً العلّامة الطباطبائيّ ﵀، على أنّ هذه الجملة لسان حال المؤمنين في مقابل هؤلاء الأفراد، لا أنّهم يقولون هذه الجملة ويتلفّظون بها؛ ذلك لأنّ غاية المؤمنين وهدفهم الأساسيّ في مقابل هذه الجسارة والسلوكيّات الصبيانيّة التي يتعرّضون لها من هذه المجموعة، أن يُخلّصوا أنفسهم من شراكهم، باتّباع أسلوب المسالمة واجتناب التصادم معهم. ومن الواضح والغنيّ عن البيان، أنّ المؤمنين إن قالوا لتلك الفئة: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، فقد أعطوهم ذريعة وحجّة ليُسعّروا نيران الجدل والشجار. وعليه، فلا يمكن أن تكون جملة: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ حاكيةً



عن لسان قالِ المؤمنين في خطابهم لتلك المجموعة، بل هي قطعًا لسانُ حالِهم.

وعلى أيّة حالٍ، فيُستفاد من هذه الآية أنّ عباد الله الصالحين عندما يواجهون أفرادًا جاهلين وسُذّج يتفوّهون بكلام غير منطقيّ، وليس في أيديهم أيّة وسيلة سوى التوهين والتحقير والسخرية والإسـاءة، ينبغي عليهم أن يجتنبوا مناقشتهم وتبادل الكلام معم، والاحتراز عن الدخول في جدالات ومصادمات معهم. ووجه هذا الأمر هو أنّ هؤلاء الأشخاص ليسوا أصلًا من أهل المنطق، ومشكلتهم ليست في الفهم والإدراك، واصطلاحًا: مشكلتهم ليست مشكلة نظريّة، بل كلّ ما في الأمر أنّ هدفهم التوهين والسخرية والتفوّه بالكلام المسيء فقط، لا يحملون أيّ هدف غير ذلك. ومن هنا، فإنّ مجادلتهم ومناقشتهم لن تجديَ أيّة نتيجة أو فائدة، وأفضل أسلوب للتعامل معهم هو أن يدير الإنسان لهم أذنه الصمّاء، وألّا يبدي أيّ اهتمام بكلامهم، وأن ينأى بنفسه عن أيّ شكل من أشكال التصادم معهم، وأن يُخرج نفسه بسرعة من هذه المعركة. فمثل هؤلاء الأشخاص ليسوا بصدد الإصغاء للكلام المنطقيّ وسماع الكلام الحقّ، حتى ينهاهم الإنسان عن المنكر. إنّ النهي عن المنكر في حقّ هؤلاء يعود بنتيجة عكسيّة، وهؤلاء الأشخاص إن ذُكّروا ونُبّهوا إلى حرمة أعمالهم وقبحها، فإنّ جرأتهم على ارتكاب هذه الأفعال سوف تزيد، وإصرارهم على أعمالهم السيّئة وسلوكيّاتهم غير السويّة سوف يتضاعف. ففي مثل هذه الحالات، أفضل ما يمكن فعله هو الإعـراض عن ساحتهم بهدوء وصبر، وإخراج النفس من هذه المعركة بالتصرّف الرزين. أمّا لو أراد الإنسان أن يجابه هؤلاء، أو يدخل في نِزالٍ وعراكٍ معهم، ويذهب بالأمر نحو الشجار الجسديّ، فإنّ هذا الأمر لن يعود بأيّة فائدة أو نتيجة سوى



جعل الأوضاع أكثر وخامةً ممّا كانت عليه. وقد رأينا أنّ تصرّفًا طفوليًّا، أو كلامًا صبيانًّا غير لائق، يصدر من شخص واحدٍ، يؤدّي إلى مواجهةٍ بين طائفتين، قد تبلغ حدّ القتل وسفك الدماء.

ومن هنا، فلا قيمة لصدور سخرية أو كلام مُسيء من شخص جاهل ووضيع، حتّى ينهض المؤمن ويواجهه ويجيبه. بل إنّ شأن المؤمن وعبد الله الصالح أجلّ من أن يقف في مقابل هذا الشخص ويواجهه. وإنّ السلوك العقلانيّ في مثل هذه الموارد، يقضي بالتعامل السلميّ والبعيد عن أيّ اشتباك لفظيّ أو جسديّ. لذا، يمرّ الإنسان المؤمن من أمام هؤلاء النّاس وسلوكهم السيّئ بحلم وسعة صدر، ويتركهم في حالهم. حتى إنّه ـ على حدّ تعبير القرآن الكريم ـ يُعلمهم من خلال قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ أنّه من ناحيته لن يصل إليهم أيّ خطر أو مضايقة، ويطلب منهم أن يفسحوا له المجال ليهتمّ كلّ شخص بأموره ويسير في طريقه: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾.

ولكن يجدر الالتفات إلى أنّ الآية الخامسة والخمسين من سورة «القصص» تتحدّث فقط حول اللغو الكلاميّ، ولا يُحتمل أيّ احتمال آخر فيها.

تفسير الآية (محلّ البحث) على ضوء ما سبق

والآن بقرينة الآية الخامسة والخمسين من سورة «القصص»، وبحكم التشابه الموجود بينها وبين الآية (محلّ البحث)، بإمكاننا أن نقول: إنّ الآية الثانية والسبعين من سورة «الفرقان» هي أيضًا بصدد الحديث عن اللغو الكلاميّ. وخاصّة أنّ أبرز مصاديق اللغو هو اللغو الكلاميّ. وعلى هذا الأساس، يُحتمل بقوّة أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ



مَرُّواْ كِرَامًا﴾[١]، أنّ «عباد الرحمن» عندما يقابلون أناسًا يتعرّضون لهم بالتوهين والسخرية والكلام الذي ينمّ عن جهل صاحبه يمرّون مرور الكرام، ويعبرون من أمام هذه المسألة بسعة صدر، ويتركون الجاهل بحاله.

وإذا فسّرنا الآية الكريمة على هذا النحو يصبح مُفادها قريبًا جدًّا من مُفاد الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾[٢]، التي كانت من أوائل الصفات المذكورة لعباد الرحمن، وقد تقدّم بحثها سابقًا. وعلى هذا الأساس، تُصبح هذه الآيات الثلاث ـ أي: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[٣] و ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾[٤] و ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾[٥] ـ تحمل مضمونًا واحدًا، وهو أنّ «عباد الرحمن» عندما يواجهون أناسًا يخاطبونهم بكلام لغويّ يعبرون قربهم برصانة وسعة صدر، ويجتنبون التصادم معهم.

والاحتمال الآخر في تفسير الآية (محلّ البحث) هو أنّ نعمّم عنوان: «اللغو» الوارد فيها، فنقول: إنّه لا يختصّ باللغو الكلاميّ، بل يشمل كافّة أشكال اللغو. ويمكن أن نقوم أيضًا بإجراء تعميم آخر، بأن نقول: إنّ اللغو المقصود في الآية الكريمة لا يختصّ بذلك اللغو الذي يستهدف «عباد الرحمن» ويتعرّض لهم بالسوء، بل هو أعمّ من ذلك، فهو يشمل

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٢.

(٢) سورة **الفرقان**، الآية ٦٣.

(٣) سورة **القصص**، الآية ٥٥.

(٤) سورة **الفرقان**، الآية ٦٣.

(٥) سورة **الفرقان**، الآية ٧٢.



الحالات التي يكون فيها أهل اللغو مشتغلين في لغوهم ومعاصيهم دون أن يتعرّضوا لعباد الرحمن بالسوء. وعلى أساس هذا التعميم، يُصبح مُفاد الآية الكريمة أنّ «عباد الرحمن» إذا واجهوا أيّ نوع من أنواع اللغو يمرّون من أمامه برزانة ورحابة صدر وحلم، ويهتّمون بأمورهم الخاصّة.

وأمّا فيما يرتبط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد ذكرنا سابقًا هذه النُّكتة ونكرّرها باختصار. إنّه لمن المسلّم أنّ «عباد الرحمن» لا يمكن أن يكونوا غير مبالين تجاه ارتكاب الذنوب، أو أن يمرّوا بالمعاصي مرور الكرام في حال كانت ظروف النهي عن المنكر مهيّأة؛ فترك الواجب ليس بالأمر الحسن، حتى نقول: إنّ من أوصاف «عباد الرحمن» أنّهم لا ينهون عن المنكر، بل يمرّون كرامًا! بل إنّ النهي عن المنكر من الواجبات القطعيّة والمسلّمات الإسلاميّة. وكلّ مسلم، وخاصّة إذا كان في زمرة «عباد الرحمن»، على عاتقه وظيفة، وهي أن يقدم على هذا الواجب.

ومن هنا، فإنّ الآيات القرآنيّة الواردة في مسألة النهي عن المنكر تُشكّل قرينة قطعيّة على أنّ المراد من المرور الكريم من أمام اللغو والمعصية، الذي تتحدّث عنه هذه الآية، إنّما يرتبط بالحالات التي لا تكون شرائط وأرضيّة النهي عن المنكر متوفّرة للإنسان.

وفي الأساس، إنّ النهي عن المنكر يعدّ من جملة ضروريّات الدِّين؛ فلو فُرض عدم وجود أيّة آية أو رواية تتحدّث عن النهي عن المنكر، فينبغي اعتبار الآية مختصّة بالموارد التي لا تكون شرائط النهي عن المنكر مهيّأة؛ فعلى سبيل المثال، إنّ من شرائط النهي عن المنكر احتمالَ التأثير، فإذا لم يكن لدى الإنسان أيُّ احتمال للتأثير على الطرف الآخر، وكان على يقين من أنّ كلامه وخطابه لن يصل إلى أيّة نتيجة، ففي هذه



الحالة لا يكون النهي عن المنكر واجبًا عليه؛ فافرض ـ مثلًا ـ أنّ مؤمنًا عبر صدفةً من أمام حفلة عرس أو حفلة طرب وغناء، وكان الجميع خارجًا عن طوره مشغولًا بالغناء والرقص، فمن البَدَهيّ ـ في وسط كلّ هذا الغناء والضوضاء المذهب للعقل ـ ألّا يصل صوت المؤمن إلى أذن أيّ شخصٍ كي ينهاه عن المنكر. ومن هنا، فإنّ الحديث عن مرور «عباد الرحمن» باللغو مرور الكرام في هذه الآية إنّما يرتبط بمثل هذه الموارد.

والنُّكتة الأخرى الجديرة بالذكر، أنّه من الممكن أن يكون المراد من قوله تعالى: ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾، أن يعبر الإنسان من هذه الأمور بحذر ومراقبة شديدَين كي لا يتلوّث بهذه الذنوب. فقد ورد في بعض كتب التفسير، ومن جملتها **تفسير الكشّاف** وتفسير **مجمع البيان**، مجموعة شواهد على أنّه عندما يُقال: «إنّ شخصًا مرّ تكرّمًا»، فيكون المقصود من ذلك أنّه عبر دون أن يتلوّث.

بتعبيرٍ آخر: يمكن أن نقول: إنّ قولنا «مرّ تكرّمًا» يعني «نزّه نفسه عن هذا الأمر».

وبتعبيرٍ ثالث: على ضوء هذا المعنى، يصبح المراد من الآية أنّ «عباد الرحمن» يرون أنفسهم أعزّ وأجلّ من أن يلوّثوا أنفسهم بمثل هذه الأمور. وبناءً عليه، فإنّ من أوصاف «عباد الرحمن» أنّهم عندما يواجهون أهل المعاصي ومجالسهم يحذرون ويحترسون، لئلّا يخوضوا معهم ويتلوّثوا في أدران معاصيهم.

التحذير من آفة أخلاقيّة

وعلى أيّة حال، فإنّ من الدروس الكلّيّة التي يمكن استفادتها من مجموع الآيات التي مرّ الحديث عنها في هذا الدرس ـ أي: الآية الخامسة



والخمسين من سورة «القصص» والآية الثانية والسبعين من سورة «الفرقان» والآية الثالثة من سورة «المؤمنون» ـ أنّ في الإنسان أرضيّةً واستعدادًا لظهور آفة أخلاقيّة اجتماعيّة، ينبغي أن يكون في غاية الحذر من أن يُبتلى بها، وهذه الآفة هي «التقليد الباطل». وخاصّةً إذا قلنا: إنّ المراد من اللغو كلّ كلامٍ وحديثٍ باطل، فعندئذٍ تشتدّ أهمّيّة هذه المسألة؛ ذلك لأنّ أكثر أشكال التأثّر الأخلاقيّ والاعتقاديّ والعمليّ فيما يرتبط بهذه الآفة، تحصل من خلال مجالسة أهل المعصية وأصحاب الفكر المنحرف والباطل. وإنّ القرآن الكريم قد أبدى حساسيّة خاصّة تجاه هذه الآفة، وطلب من المؤمنين في أكثر من مورد أن يلتفتوا إليها التفاتًا خاصًّا. فبالإضافة إلى الآيات الثلاث التي مرّ ذكرها، يُطالعنا نموذج آخر من هذه الآيات في سورة «النساء» المباركة، حيث يقول تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[1].

وإنّ تعبير «الخوض» الذي ورد في هذه الآية نادرًا ما يُشاهد في الأدبيّات العربيّة المتعارفة، بَيد أنّ القرآن الكريم قد استعمله في موارد متعدّدة تصل إلى حدود خمسة عشر موردًا، منها ما جاء في سورة «المدّثّر»: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾[2].

---

(١) سورة **النساء**، الآية ١٤٠.

(٢) سورة **المدّثّر**، الآيات ٣٨ إلى ٤٥.



فوفقًا لهذه الآية الكريمة، إنّ واحدًا من أسباب دخول أهل جهنّم إليها، الخوضُ مع الخائضين، ومجالسة المنحرفين وصحبتهم. و«الخوض» معناه الغور في أمر والانغماس فيه. فأحيانًا، يجلس بعض النّاس معًا، ويتحدّثون حول موضوعٍ ما بنحوٍ يجعل تمركزهم منصبًّا على هذا الموضوع، وحواسّهم معطوفة نحوه. أو مثلًا قد يبدأ بعض النّاس عملًا جماعيًّا ما، ويتشاركون معًا في إنجازه بكلّ جدّ. ففي مثل هذه الموارد يُستعمل تعبير «الخوض مع الخائضين». وبالطبع، إنّ القرآن الكريم في جميع الموارد التي استعمل فيها هذا التعبير أراد معنى سلبيًّا يرتبط بالموارد التي تشترك فيها جماعة في عملٍ باطلٍ، وتنغمس فيه كلّ الانغماس.

وفي جميع الأحوال، فإنّ هذه الآيات ـ في الواقع ـ ناظرة إلى واحد من الميول الفطريّة عند الإنسان، وهو الميل نحو التقليد. وإنّ هذا الميل يصبح أقوى وأشدّ عند الإنسان في مرحلة المراهقة والشباب، فترى أنّ هذه الفئة تميل بشدّة نحو مشاكلة ومشابهة أصدقائها وأقرانها وقادتها. ويُعبَّر عن هذا الميل في بعض الأحيان أيضًا بالميل نحو التماهي مع الجماعة. وإنّ هذا الميل في حدّ ذاته ليس بالأمر المذموم أو غير المطلوب، بل إنّ له العديد من الآثار الإيجابيّة في حياة الإنسان؛ فإنّ كثيرًا من الأمور الحسنة التي يتعلّمها الأطفال، تتشكّل عندهم على أساس هذا التقليد. هذا، ويُعتبر التقليد عاملًا مهمًّا وأساسيًّا في التأثّر الثقافيّ والاجتماعيّ، والاستفادة من الصفات الحسنة عند الآخرين. وقد ترى أنّ عامل التقليد هذا هو العامل الأساسيّ والأهمّ في إصلاح كثيرٍ من المراهقين والشباب، وجذبهم ليصبحوا متديّنين ومن أهل المسجد والصلاة والصيام، من خلال مجالستهم ومصاحبتهم لأصدقاء متديّنين. ولقد كان هذا العامل أيضًا ذا دور أساسيّ في سنوات الدفاع المقدّس



في التحاق كثيرٍ من الشبّان بالجبهات القتاليّة بسبب تأثّرهم بأصدقائهم المجاهدين. وكثيرًا ما كان يحدث أن يكون التحاق فرد واحد بالجبهة عاملًا ودافعًا في انخراط كثيرٍ من الشبّان، بفضل ارتباطهم به ومعاشرتهم له. وفي كثيرٍ من الأحيان، كان وجود تلميذ واحد من أبناء المسجد أو الهيئات في الصفّ الدراسيّ، موجبًا لدخول عدد كبير من زملائه في مصافّ أهل المسجد والهيئات. ومن هنا، فإنّ أصل التقليد والميل نحو التماهي مع الآخرين، عامل وضعه الله تعالى في روح الإنسان وضميره، وتحت تأثير هذا العامل يميل الإنسان نحو مشابهة أقرانه والتعاون معهم ومشاكلتهم.

ولكن على الرغم من هذا، فإنّ هذا التقليد، حاله كحال كثير من الغرائز الإنسانيّة الأخرى، لا يُوظّف دائمًا في وجهته الإيجابيّة، وعندئذٍ قد يعود على الإنسان بكثيرٍ من الآثار السلبيّة. فإذا ابتُلِيَ الإنسان بصديقٍ سيّئ، فإنّه حينئذٍ ـ على أثر عامل التقليد هذا والميل نحو التماهي مع الأصدقاء ـ قد ينجرّ نحو السقوط في فخّ الانحراف والانجرار نحو المفاسد. وبتعبير القرآن الكريم، إنّ كثيرًا من أهل جهنّم يعترفون يوم القيامة بأنّ أحد أسباب دخولهم إلى جهنّم هو تعاملهم مع الأفراد السيّئين وغير الجديرين بالتعامل: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾[1].

فلا ينبغي للإنسان بمجرّد رؤية أصدقائه وأقرانه وجيرانه وأقاربه قد قالوا كلامًا ما، أو اختاروا طريقًا ما، أو قاموا بعملٍ ما، أن يحذوَ حذوَهم ويخوض معهم. ولا ينبغي أن يقلّد الآخرين في مبادئهم ومذاهبهم وأفكارهم وأفعالهم، من دون تحقيق وإقامة دليل واتّباع منطق، ومن

---

(١) سورة المدّثّر، الآية ٤٥.

دون أن يطّلع على أهدافهم ونيّاتهم. فهذا هو المنطق الباطل الذي يقول: «إذا أردّت ألّا تواجه تقريعًا فتماهى مع الجماعة!». وإنّ مثل هذه الطريقة، من شأنها أن تجرّ الإنسان نحو «الخوض مع الخائضين»، وفي النهاية تودي به في نار جهنّم.

وفي الأساس، إنّ نفس حضور الإنسان بين جمع من الأفراد المنحرفين هو في حدّ ذاته أمر خطر، وإن كان لا يؤيّد المبدأ الذي يحملونه، والمسلك الذي يسيرون وفقه، ولا يشاركهم فيه عمليًّا. وقد ذكرنَا سابقًا تلك الآية الكريمة من سورة «النساء»، التي تشير إلى هذا المطلب تحديدًا، وتحذّر المؤمنين منه بلحن شديد؛ ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[١].

تقول الآية الكريمة: إذا شاهدت جماعةً منشغلةً في إثارة الشبهات حول الدِّين والمسائل الدينيّة والآيات الإلهيّة، ويُقدمون على تحقير الدِّين وتوهينه وجعله عرضة للسخرية والإساءة، فلا تشارك في جمعهم هذا. ولا فرق بين أن تكون هذه الجماعة من أقربائك وبين أن تكون من أصدقائك أو زملائك وجيرانك. فما داموا يطرحون مثل هذا الحديث، فلا تجلس معهم، واصبر حتّى ينتقلوا إلى حديث آخر؛ ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾.

ثمّ تؤكّد الآية فتقول: إنّك لو لم تراع هذه المسألة، فذهبت إليهم وجالستهم، فإنّك سوف تغدو مثلهم؛ ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾.

---

(١) سورة النساء، الآية ١٤٠.



وفي الختام، تقول الآية: إنّ مجالسة مثل هؤلاء تُضعف روح الإيمان في الإنسان، وتدفع به نحو الدخول في زمرة النفاق والمنافقين، واعلم أنّ الكفر والنفاق غير مختلفين؛ إذ إنّ مصير كلّ منهما جهنّم والعذاب؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

وإنّ هذه المسألة شديدة الأهمّيّة؛ فبالإضافة إلى هذه الآية الموجّهة إلى جميع المؤمنين، إنّ في القرآن الكريم آيةً أخرى تُخاطب شخص رسول الله ﷺ وتنبّهه على أهمّيّة هذه المسألة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١].

بالطبع، إنّ هذه الآية من باب «إيّاك أعني واسمعي يا جارة»؛ إذ من الواضح أنّ الشيطان عاجز عن السيطرة على الرسول الأكرم ﷺ، ولا سبيل له إلى هذا الأمر. ومن هنا، فإنّ هذه الآية ـ في الواقع ـ خطاب للمؤمنين، أمّا جعل النبيّ ﷺ مخاطبًا فيها، فللتأكيد على أهمّيّتها الفائقة. وفي الحقيقة: إنّ «الخوض في الآيات الإلهيّة» أحد مصاديق اللغو، وبالالتفات إلى وصف «عباد الرحمن» بأنّهم ﴿إِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾، نعلم أنّهم منزّهون عن هذا الأمر، مجتنبون له. **بعبارةٍ أخرى:** إنّ «عباد الرحمن» أنفسهم، شأنهم أجلّ وأرفع من أن يخوضوا في الآيات الإلهيّة، ولكن بالإضافة إلى ذلك، إذا مرّوا بأُناس يخوضون في الآيات الإلهيّة لا يُجالسونهم، بل يُعرضون عنهم. فعباد الرحمن في مثل هذه الحالة، يتصرّفون كما يتصرّفون في سائر الأمور اللّغْويّة، فيعرضون عن

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ٦٨.

المشتغلين باللغو، ويحترسون عن أن يتلوّثوا بأدرانهم. فهم ينظرون إلى هذه المجالس وكأنّها مركز للتلوّثات الفكريّة المتعدّدة، ومنبع للڤيروسات الثقافيّة المختلفة. لذا ينبغي على الإنسان أن يعبر من قربها بحذر وانتباه كاملين، كي لا يتلوّث بها.

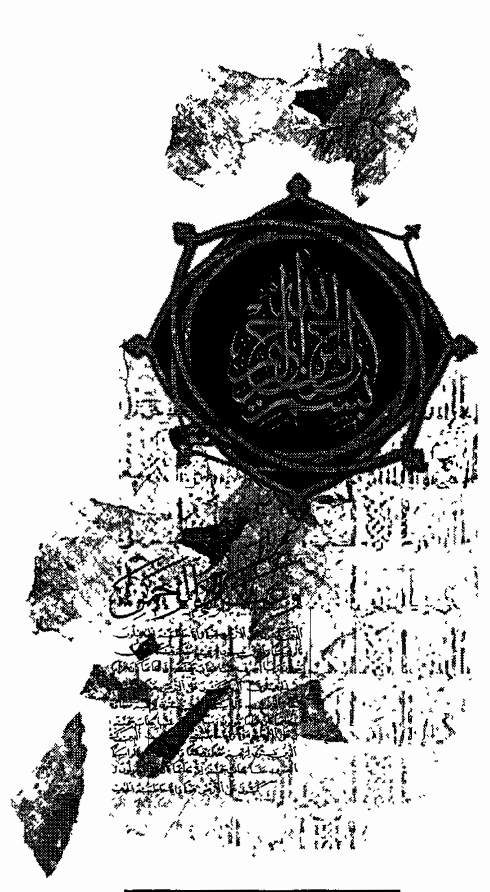
إنّ أمثال هذه التعبيرات القرآنيّة تنظر دائمًا إلى التأثيرات السلبيّة لمرافقة أصدقاء السوء، وللجلوس مع الأشخاص الفاسدين. وإنّ القرآن الكريم يحذّر المؤمنين وينبّههم على خطر هذه المسألة، ويطلب منهم أن يراعوا الحذر اللازم تجاهها. وعلى أيّة حال، فإنّ هذه المسألة في غاية الجدّيّة، وإنّ مجالسة أهل المعاصي ومؤانسة أهل الفساد الذين يحيكون الأباطيل، ويطرحون كلامًا في غير محلّه، من شأنها أن تؤثّر في روح الإنسان، وتقوده إلى الكفر والنفاق. وإنّ هذا الأمر يتأكّد في خصوص جيل الشباب ويصبح أكثر جدّيّة؛ ذلك لأنّ الشاب يقع بشكل أسرع تحت تأثير سلوك الجماعة وتصرّفات أصدقائه وأقرانه. ولذلك، نرى القرآن الكريم في مكان آخر من سورة «الفرقان» يبيّن التأثير الكبير لرفاق السوء، حيث يقول: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[1].

ويكفي من أجل فهم جدّيّة هذه المسألة وعظمة هذا الخطر، أن نرى القرآن الكريم في هذه الآيات من سورة «الفرقان»، قد ذكر هذه المسألة ـ المرور الكريم من أمام اللغو ـ بوصفه واحدًا من أوصاف «عباد الرحمن» السلبيّة إلى جوار اجتناب ذنوب كبيرة، من قبيل: الشرك بالله

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٢٩.



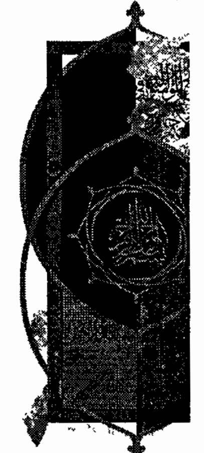
وقتل النفس وارتكاب الفحشاء! فأيّ تناسب بين اجتناب هذه الذنوب الكبيرة واجتناب مجالسة أهل اللغو حتى يذكرها القرآن بعضها إلى جانب بعض؟! مع أنّ بعض مصاديق مجالسة أهل اللغو قد لا يمكن اعتبارها من المحرّمات. فعلى سبيل المثال، لو اطمأنّ الإنسان بأنّ حضوره في مثل هذه المجالس لا يؤثّر فيه أبدًا، فقد لا يكون عمله هذا حرامًا. ولكن مع ذلك، فإنّ «عباد الرحمن» يعرضون عن مرتكبي اللغو، ويتجنّبون الحضور في جمعهم. كلّ هذا بلحاظ نُكتة أخلاقيّة، مفادها أنّ معاشرة أهل السوء تجعل الإنسان في معرض الانحراف والسقوط، إلى درجةٍ توجب على المؤمنين أن يعتبروا هذه المعاشرة بعظمة الذنوب الكبيرة، كالشرك وقتل النفس وارتكاب الفحشاء، كي يحترزوا جيّدًا من الوقوع في شراك أصدقاء السوء!

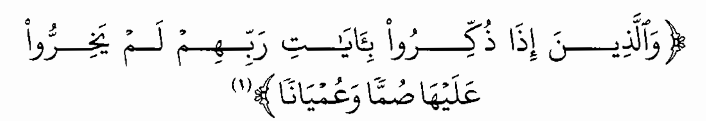


الدرس السابع عشر:

عباد الرحمن والآيات الإلهيّة






﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[1]

توضيح لمعنى الآية

وصل بنا الكلام في تكميل بحثنا لأوصاف «عباد الرحمن» إلى الآية التي تقول: إنّ من أوصاف «عباد الرحمن»، أنّهم عندما يستحضرون الآيات الإلهيّة، لا يتعاملون معها كما يتعامل الصمّ والعميان، بل يتفاعلون معها قلبيًّا بشكلٍ كاملٍ، ويتفكّرون فيها، فتلقي بتأثيرها على أحوالهم وأفعالهم. هذا هو مضمون الآية، ولكن من أجل تطبيق هذا المضمون على العبارة الواردة في ألفاظ الآية الكريمة من اللازم أن نقدّم توضيحًا بمقدارٍ معيّن.

في البداية، ينبغي ألّا نغفل عن أنّ هذه الآية ـ في الواقع ـ هي استمرار لبيان الصفات السلبيّة لعباد الرحمن. وكما أشرنا في الدروس السابقة، إنّ الآيات الختاميّة من سورة «الفرقان» تستعرض أوّلًا سلسلةً من الأوصاف الإيجابيّة لعباد الرحمن (الأفعال التي ينبغي أن يؤدّوها)، ثمّ

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٣.

تُستكمَل هذه الآيات بذكر بعض الأوصاف السلبيّة لعباد الرحمن (الأفعال التي ينبغي أن يجتنبوها). وإنّ الآية (محلّ البحث) من القسم الثاني، وهي ـ في الواقع ـ في مقام بيان صفة ينبغي أن ينزّه عباد الرحمن أنفسَهم عنها، وأن يجتنبوها.

بعبارةٍ أخرى: عندما تطرق الآيـات الإلهيّة سمع الإنسان، هناك مجموعة من الأفعال التي لو صدرت من الإنسان حينها لكان هذا الأمر حسنًا ومقبولًا، وفي المقابل توجد مجموعة من الأفعال التي لو صدرت منه لكانت قبيحةً ومذمومةً. وإنّ الآية الكريمة ليست بصدد بيان الأفعال التي ينبغي صدورها من «عباد الرحمن» عند سماع الآيات الإلهيّة، إنّما هي في مقام بيان ردّة الفعل السلبيّة التي ينبغي على «عباد الرحمن» اجتنابها والامتناع عنها عند سماع هذه الآيات، فتقول: إنّ من أوصاف «عباد الرحمن» أنّهم لا يتعاملون مع الآيات الإلهيّة كما يتعامل الصمّ والعميان: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾.

كلمة: ﴿يَخِرُّواْ﴾ الواردة في هذه الآية مصدرُها «الخُرور» بمعنى «السقوط»، يُقال «خَرَّ عَلَيهِمُ السَّقْف»، أي: سقط وتهاوى فوق رؤوسهم. ويقول الله تعالى ـ في مقام بيان القصّة المعروفة، حيث ذهب جمعٌ من بني إسرائيل إلى جبل الطور بصحبة نبيّ الله موسى عليه السلام وطلبوا منه أن يروا الله جلّ وعلا ـ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[1].

﴿خَرَّ مُوسَىٰ﴾، أي: سقط على الأرض. وبالطبع، إنّ هذا الفعل في الآية (محلّ البحث) جاء مصاحبًا لحرف الجرّ «على» ـ ﴿يَخِرُّواْ عَلَيْهَا﴾ ـ

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٤٣.



أو كما يُقال اصطلاحًا، إنّ الفعل جاء متعدّيًا بحرف «على». وعليه، فإنّ قوله تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا﴾ يعني «لَمْ يَسْقُطُوا عَلَى الآياتِ الإلَهِيَّةِ». لذا، فإن أردنا توضيح معنى الآية الكريمة، فلا بدّ في البداية من أن نبيّن المراد من السقوط على الآيات الإلهيّة.

ضمن حدود مراجعتي لكتب التفسير، وجدت أنّ المفسرين عادةً ما يعتبرون فعل «خَرَّ» الوارد في هذه الآية معادلًا لفعل «أكبّ»، فيقولون إنّ تعبيرَي «خرّ عليه» و«أكبّ عليه» بمعنى واحد. ومعنى «أكبّ»: «أقبل على الشيء وجعل تمام توجّهه متمركزًا عليه منشدًّا نحوه». وعلى هذا الأساس، اعتبر المفسّرون أنّ المراد من الآية الكريمة أنّ «عباد الرحمن» ليسوا من الذين يتعاملون مع الآيات الإلهيّة تعامل الصمّ والعميان، ولا يتّبعونها اتّباع المتعصّبين، بل إنّ اعتقادهم بها وتسليمهم لها، قائم على أساس الوعي والبصيرة.

ومن أجل توضيح هذا المعنى أكثر، نقول:

إنّ الإنسان في مواجهة أيّة عقيدة أو مذهب أو مسلك، إمّا أن يكون غير مبالٍ به، فلا يعطيَه أيّةَ قيمة أو اعتبار، وإمّا أن يقبل به ويتبنّاه ويمنحه قيمةً واحترامًا وتقديسًا. وفي صورة قبوله بهذا المذهب، إمّا أن يكون قبولًا تعصّبيًا أعمىً، وإمّا أن يكون متينًا، وعلى رؤية واضحة وفهم ووعي وبصيرة. وتريد هذه الآية أن تقول: إنّ تمسّك «عباد الرحمن» بالآيات الإلهيّة والتزامهم بها ليس حركةً تعصبيّةً غيرَ واعيةٍ، بل هي حركة ناشئة عن وعي كامل، ومبدؤها الفهم والبصيرة. وفي الأساس، إنّ واحدًا من الاختلافات المهمّة بين المؤمنين من جهةٍ، والكفار والمشركين من جهةٍ أخرى، يرجع إلى هذه المسألة؛ فالكفّار وعبدة الأوثان وأتباع المذاهب الباطلة، كالمؤمنين من جهة التعلّق بعقيدةٍ ومسلكٍ





ومقدّساتٍ، بل قد يكونون في بعض الأحيان على استعداد للتضحية بأوراحهم فداءً لمعتقدهم، إلّا أنّ تمسّكهم بهذا المعتقد ليس عن وعي وفهم، بل هو تمسّك مبتنٍ على أساس التعصّب، وليس للتعقّل والتفكير الدور الكافي في ترسيم هذا الاعتقاد.

وبناءً عليه، فإنّ كلًّا من المؤمنين والكافرين ـ على حدّ تعبير القرآن الكريم ـ يخرّون على مقدّساتهم ويلزمون بها ويحفظونها، ولكنّ الاختلاف يكمن في أنّ فئة الكافرين تعتمد حركتها على الأساس التعصّب، فهم كالصمّ والعميان. أمّا فئة المؤمنين، فمنشأ حركتها البصيرة والفكر. وإنّ التزام «عباد الرحمن» بالآيات الإلهيّة وحمايتهم لها ليس من قبيل الحركات التعصّبيّة العمياء، بخلاف الكافرين الذين إذا تعلّقوا بمسلك أو مُعتقد خرّوا عليه من دون أيّ دور للتعقّل والتدبّر والبصيرة.

احتمالٌ آخر في تفسير الآية

كما ذكرنا سابقًا، ضمن حدود اطّلاعي على المصنّفات التفسيريّة، وجدت أنّ المفسرين عادةً ما يُفسّرون الآية الكريمة وفق المعنى الذي ذكرناه آنفًا. ولكن، يُحتمل في تفسير هذه الآية احتمال آخر، وهو ما قد يكون مناسبًا أكثر من التفسير المذكور في كتب المفسّرين. وإنّ هذا المعنى لم أشاهده في شيءٍ من كتب التفسير، ولكن نستعرضه بعنوان وجه من الوجوه في تفسير الآية الكريمة.

كنّا قد أشرنا إلى أنّ منشأ اختيار المفسّرين لذلك الوجه في تفسير الآية هو اعتبار كلمة «خَرَّ» مرادفة لكلمة «أكبّ». هذا، والحال أنّ بين هاتين الكلمتين اختلافًا في المعنى، على ما يبدو. فلو قالت الآية: «لَمْ يُكِبُّوا عَلَيْها صُمًّا وَعُمْيانًا»، لكان من الواضح أنّ معناها ما بيّنه المفسّرون



في كتبهم، ولكنّ الآية قالت: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، وإنّ لتعبير «خَرَّ عَلَيْه» بُعدًا سلبيًّا من حيث المعنى؛ إذ ليس المراد من الخُرور على الشيء حفظه وحراسته والتعلّق به، بل عادةً ما يُستعمل هذا التعبير ويُفيد معنى شبيهًا بسقوط شيءٍ من غير ذوات الأرواح على مكان ما، كأن يسقط شيءٌ ما على الأرض، أو أن يسقط على شيءٍ عظيم القيمة والشأن كالقرآن الكريم ـ والعياذ بالله ـ فحينئذٍ يُستفاد من تعبير: «خَرَّ عَلَيْه». أمّا لو ألصق الإنسان كتاب الله به وحضنه، أو حفظه وحرسه، أو أدّى له أشكال الاحترام، فإنّه لا يُستعمل في حقّ هذا الإنسان تعبير: «خَرَّ عَلَيْه».

وانطلاقًا ممّا بيّناه، قد يُصبح من غير المناسب لتعبير الآية الكريمة ـ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا﴾ ـ أن نقول: إنّ المؤمن والكافر كليهما يخرّان على ما يعتقدان به، ولكنّ خرور الكافر منشؤه التعصّب الأعمى، أمّا خرور المؤمن فمنشؤه البصيرة لا التعصّب، وأنّ الآية تخبرنا أنّ «عباد الرحمن» إنّما يخرّون عن بصيرة وفهم، لا عن تعصّب. نعم، لو كان تعبير الآية: «لَمْ يُكِبُّوا عَلَيْها» لكان من المحتمل أن تفيد ما ذكره المفسّرون، إلّا أنّ تعبير «لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها» لا يفيد مثل هذا المعنى.

وينبغي أيضًا ألّا يغيب عن أنظارنا، أنّ البحث في هذه الآية لا يدور حول مطلق أشكال الاعتقاد، حتى نقول: إنّ الكافرين يلتزمون بعقيدةٍ ويتعلّقون بها ويخرّون عليها. بل إنّ الآية تتحدّث عن خصوص الآيات الإلهيّة. فالكلام هنا، أنّ «عباد الرحمن» عندما يُذَكَّرون بالآيات الإلهيّة لا يخرّون عليها صمًّا وعميانًا، ويُفهم من هذا التعبير أنّ في مقابل «عباد الرحمن» يوجد أشخاص يخرّون صمًّا وعميانًا على الآيات الإلهيّة أيضًا. **بتعبيرٍ آخر:** إنّ البحث في هذه الآية يتمحور حول نوعين من الخُرور

على «الآيـات الإلهيّة»، لا أنّ في البحث طرفين، طرفٌ أوّل ـ يشمل المؤمنين و«عباد الرحمن» ـ يُطرح في حقّه بحث الخُرور على الآيات الإلهيّة، وطرفٌ ثانٍ ـ يشمل غير عباد الرحمن والمؤمنين ـ يُطرح في حقّه بحث الخُرور على عقيدةٍ خاصّة! بل إنّ الكلام يدور حول خصوص الخُرور على الآيات الإلهيّة.

ومن هنا، يمكن أن يُقال: إنّ المراد من هذه الآية أنّ «عباد الرحمن» هم الذين يتعاملون بأدب واحترام وتأمّل وتدقيق في مقابل الآيات الإلهيّة، فيفتحون لها آذان قلوبهم، وعندما يطرق كلام الله أسماعهم، يعطفون تمام توجّههم نحوه، فيتأمّلون فيه حقّ التأمّل، ويتفكّرون فيه حقّ التفكّر، فيلقي بآثاره على أحوالهم وأفعالهم. ووفقًا لهذا التفسير، يُصبح التعبير الوارد في هذه الآية شبيه بتلك الآية التي تقول: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[١]، فمع أنّه لم يرد في هذه الآية نحو تعبير «خَروُّا عَلَى الآيات»، بل عبّرت أنّ هذه الفئة من عباد الله عندما يسمعون الآيات الإلهيّة يسقطون أرضًا بحالة من السجود والبكاء، إلّا أنّه لا يخفى ما بين الآيتين من تشابه كبير.

وفي جميع الأحوال، فإنّ هذا الوجه أيضًا احتمال وارد في تفسير هذه الآية، بحيث نقول ـ على أساسه ـ: إنّ المراد من قوله تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، أنّهم ليسوا كالعميان والصمّ في تعاملهم مع هذه الآيات، بل يقفون باحترام مقابل هذه الآيات ويتأمّلون بها، بخلاف المشركين والكفّار، الذين إذا سمعوا هذه الآيات الإلهيّة سقطوا عليها كما يسقط السقف المتهاوي على الأرض.

---

(١) سورة مريم، الآية ٥٨.



وعلى أيّة حال، فسواء اخترنا هذا الوجه في تفسير الآية أم ذلك الوجه الذي ذكره المفسّرون، القدرُ المتيقّنُ من الآية الشريفة أنّ من أوصاف «عباد الرحمن» أنّهم لا يتصرّفون كالصمّ والعميان مقابل الآيات الإلهيّة، بل يتفاعلون معها بقلوبهم وأرواحهم، ويعطفون تمام توجّهم نحوها، كي يتزوّدوا منها قدر الإمكان.

أُناسٌ صمّ وعميان

والآن، يمكن أن يُطرح السؤال التالي: «في الأساس، كيف يمكن أن يتعامل الإنسان عند سماع الآيات الإلهيّة كالصمّ والعميان؟ وفي المقابل كيف يمكن أن يتعامل «عباد الرحمن» عندما يسمعون الآيات الإلهيّة بتوجّه كامل، ويصغون إليها بأذن القلب ويتأثّرون بها؟ ما هو منشأ هذا الاختلاف في التعامل؟ وهل باختيار الإنسان أن يتوجّه بشكل كامل نحو أمر ما متى أراد وأن يتفاعل معه قلبيًّا، وإذا لم يرد فإنّ تعامله معه يصبح تعامل غفلة وعمىً وصمم؟ لماذا وكيف يصل بعض إلى مرحلة أنّهم عندما يواجهون الآيات الإلهيّة يصبحون كأنّهم صمّ وعميان لم يروا أيّ نور وكأنّهم لم يسمعوا وحيًا وكلامَ حقّ؟».

ولقد بيّنت بعض الآيات القرآنيّة هذه المسألة على هذا النحو: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾[1].

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٧٩.

يقول القرآن الكريم: إنّ هؤلاء لهم عقول إلّا أنّهم لا يستفيدون منها، ولهم آذان وأعين أيضًا إلّا أنّهم لا يسمعون ولا يبصرون. ويقينًا ليس المراد من هذه الجملة، أنّهم يعمدون طوال عمرهم إلى إغماض أعينهم فلا يرون شيئًا، وسدّ آذانهم فلا يسمعون شيئًا؛ إذ إنّ أيّ إنسان ـ ولو كان مجنونًا ـ لا يقدم على مثل هذا الفعل. ومن الواضح أنّ معنى تعبير: ﴿لَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾، أنّهم لا يسمعون الكلام الحقّ، وإلّا فإنّهم أحرص الناس وأكثرهم استعدادًا على استماع الكلام الباطل. وكذلك تعبير: ﴿لَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾، ليست بمعنى أنّهم لا يرون شيئًا بأعينهم، بل المراد أنّهم لا يرون حقائق العالم التي ينبغي لهم أن يروها، وإلّا فإنّهم يرون حقّ الرؤية الأمور الباطلة والمحرّمة. وهذه الآية الكريمة يمكن تفسيرها بآية أخرى من القرآن الكريم، وهي قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1].

وفي جميع الأحوال، فيمكن أن يستفاد من أمثال هذه التعبيرات القرآنيّة، أنّ الإنسان بالإضافة إلى عينه وأذنه الظاهريّتين، لديه عين وأذن أخريان. أمّا حقيقة هذه العين والأذن، وموقعهما في بدن الإنسان، وهل هي في الأصل ماديّة جسمانيّة؟ فهذا بحث آخر. وإنّ أسئلةً وأبحاثًا من هذا القبيل، مطالب يعجز أمثالنا عن فهمها. ولكن من المسلّم به أنّ للإنسان بالإضافة إلى العين والأذن الظاهريّتين، اللتين يرى ويسمع من خلالهما كلّ شيء أعمّ من الأمور المحلّلة والمحرّمة، عينًا وأذنًا أخريين يرى ويسمع من خلالهما حقائق العالم. وإنّ الإنسان الذي يتمتّع بمثل هذه الأذن، عندما يسمع كلام الله تعالى، لا يسمع ألفاظًا عربيّة تُتلى

---

(١) سورة **الحج**، الآية ٤٦.



بصوت عذب فقط، بل إنّه يسمع بأذن قلبه هذه الكلمات والألفاظ بمعانيها الحقيقيّة، المعاني التي أرادها الله تعالى من هذه الألفاظ. وفي المقابل، هناك أناس عندما تُتلى عليهم آيات القرآن لا يفهمون منها أيّ معنى ولا يدركون أيّة حقيقة، وجلّ حظّهم وخلاقهم من هذه الآيات أن يصرخوا «أحسنت أحسنت» أو «الله الله» إذا سمعوا هذه الآيات من قارئ عذب الصوت جميل التلاوة.

إذا أُغلقت أذن الإنسان الباطنيّة وأطبقت عينه التي تُبصر الحقائق، فلن يستطيع بعد ذلك أن يرى حقائق العالم، ولن يسمع الكلام الحقّ. ومن المحتمل أنّكم أيضًا قد جرّبتم هذه المسألة أيضًا، فمع أنّ الإنسان في بعض الأحيان يفهم الكلام المفيد والحقّ بشكل كامل، تجد قلبه لا يميل أبدًا إلى سماعه. وقد يكون اتّفق أن حصل معكم مرارًا أن رأيتم أنّه لا حال لكم ولا رغبة باستماع كلام من يلقي موعظة، أو يفسّر القرآن، أو يشرح رواية شريفة. وليسوا قلّةً أولئك الذين إذا دُعوا إلى حضور درس تفسير أو أخلاق أو مجلس وعظ وإرشاد، فإنّهم يتحجّجون بمختلف الأعذار كالتعب وألم الرأس والانشغال في الأعمال، ويعتذرون عن حضور هذه المجالس. هذا، والحال أنّ هؤلاء الأفراد لو كان لديهم في نفس الوقت فيلمٌ سينمائيٌّ أو مسلسلٌ تلفزيونيٌّ أو برنامجٌ مسلٍّ، أو كان لديهم في مكان آخر نشاطات محبّبة أكثر عندهم ومألوفة أكثر لآذانهم وأعينهم، فإنّهم لا يشعرون أبدًا بالتعب ولا يتكاسلون على الإطلاق، بل يستقبلون هذه النشاطات بكلّ حفاوة وميل ورغبة.

وقد يحدث أحيانًا أن تعرض إحدى القنوات تلفزيونيّة درس تفسير للشيخ الجوادي الآملي حفظه الله ـ مثلًا ـ، ولكن عندما نستمع إلى هذا الدرس سرعان ما نشعر بالنعاس والملل. أمّا لو غيّرنا القناة في الوقت نفسه



لوجدنا أنفسنا نجلس ساعتين أو ثلاث ساعات متواصلة أمام برامج أخرى لا تعود علينا بأيّة فائدة أو نفع لدنيانا أو آخرتنا! ومن العجيب أيضًا أنّنا لو سؤلنا عن درس التفسير هذا لأجبنا أنّه جيّد جدًّا ومفيد وممتاز، ولكن نحن لم نكن بالمزاج المناسب لاستماعه. وفي المقابل، فإنّنا نعترف أنّ ذلك البرنامج الذي تعرضه القناة الأخرى هو برنامج لغْويّ وغير مفيد، بل مضرٌّ، ومع ذلك، نصرف وقتنا في مشاهدته! حقًّا إنّ بعض هذه الأفلام التي تعرض مشاهد العنف والرعب، لا تعود على الإنسان بأيّ نفع، سوى أنّها تنمّي في شخصيّته شعور الغضب والكراهية وازدياد الاضطراب والقلق! فلماذا إذًا نضيّع وقتنا في مشاهدة أمثال هذه الأمور واستماعها مع أنّنا نعلم حقيقتها؟!

وفي الوقت الذي نعاني فيه من مثل هذه الأوضاع، نرى القرآن الكريم يأتي على ذكر المؤمنين الذي يفتحون آذان قلوبهم أمام الكلام الإلهيّ بعشق واشتياق ويتزوّدون منه الطاقة لأنفسهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1].

فأيّ فرقٍ بيننا وبين هؤلاء؟! وما السبب الذي بعث على حصول مثل هذا حالة الاشتياق والتوق للكلام الإلهيّ والإقبال عليه عند هذه الفئة، وحصول حالة التقصير والنفور عندنا؟!

إذا علم الإنسان سرّ هذه المسألة وعرف طريقها، فمن الممكن أن يساعده ذلك على تغيير حاله، ورفعِ مقدار من نقائصه، وسَوْقِه نحو إصلاح وضعه. بالطبع، لا ينبغي أن نغفل عن مسألة التوفيق الإلهيّ في

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٢.



هذا المسير، بل ينبغي أن نجعل هذا الأمر مدّ نظرنا على الدوام؛ لأنّ الله تعالى هو وحده الذي يأخذ بيد عبده. أمّا وظيفتنا، فأن نأخذ بالأسباب ونعمل وفقها في مورد الأمور التي نعرف أسبابها، وأن نسعى في سبيل تحقيق هذه الأسباب في أنفسنا، وأن نبتعد عن الأمور التي توجب إلحاق الضرر بنا. وفي النهاية، ينبغي أن ندعوَ الله تعالى، ونسألَه أن يهبنا توفيقًا من عنده. ينبغي أيضًا ألّا ننسى أنّ التوفيق الإلهيّ لا يكون من نصيب أحد عن عبثٍ، بل يمنح للإنسان وفق قانون خاصّ. **والخلاصة**: أنّه ينبغي علينا تفكيك الأبحاث بعضها عن بعض؛ فمن غير الصحيح أن نعتمد على الدعاء فقط، وأن يكون سعينا في الوصول إلى مقصدنا وإنجاز أمورنا عن طريق الدعاء فقط، بل بالإضافة إلى الدعاء، من اللازم القيام بأمور أخرى وضعها الله باختيارنا، ولا ينبغي أن نقصّر في السعي لإنجازها، وفي الوقت نفسه، ينبغي علينا أن نلتمس العون من الله دائمًا، وأن نطلب التوفيق منه.

السرّ في عمى الإنسان وصممه

إنّ ما يُستفاد من الروايات الشريفة إلى حدّ ما، وما تؤيّده التجارب البشريّة، هو أنّ لاختلاف حالاتنا في التعامل مع الآيات الإلهيّة والمواعظ والكلام الحكيم ارتباطًا وثيقًا بأعمالنا السابقة. وفي أيّامنا هذه وصل هذا المطلب إلى مرحلة الإثبات في علم النفس؛ حيث ثبت أنّ الإنسان يتوجّه أكثر إلى الأمور التي يحبّها، ويوظّف أدواته الحسّيّة، كالعين والأذن، في خدمة إدراكه لهذه الأمور. ومن جهة أخرى، فإنّه إن لم يحبّ أمرًا ما، فإنّ توجّهه نحو هذا الأمر يقلّ بشكل غير شعوريّ، ويجعله ضمن حدود إدراكه بنحو أضعف. وقد أُجريَت في هذا المجال اختبارات كثيرة ومختلفة، وإنّ بيانها جميعًا يخرج عن دائرة اطّلاعي وتخصّصي، والفرصة

لا تسمح للبحث فيها. من جملة هذه الاختبارات، أنّهم يضعون أمام مرأى شخصين مشهدًا واحدًا لمدّة زمنيّة واحدة ومحدودة، ثمّ يطلبون منهما أن يصفا ما شاهدا. تشير نتائج هذه الاختبارات إلى وجود اختلاف واضح في وصف المشاهد التي تكون محبّبة لدى طرف دون آخر. ففي مثل هذه الموارد، ترى أنّ الشخص الذي يحبّ هذا المشهد يستحضره تفصيليًّا ويصفه بجميع جزئيّاته الدقيقة، بينما الآخر لا يستحضر في ذهنه أيًّا من هذه الجزئيّات. ومن الممكن أن نكون قد سئلنا بعد خروجنا من مجلس ما، عن الشخص الذي كان يجلس قربنا مباشرةً، فإنّنا مهما حاولنا، فلن نستطيع أن نستحضره في أذهاننا، أو نعرف من كان.

منشأ عدم الاستفادة من حقائق القرآن

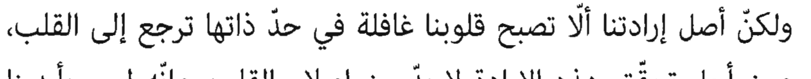
وإنّ مسألة عدم استفادتنا من حقائق القرآن الكريم عندما تُتلى علينا آياته أو نتلوها بنفسنا، منشؤها أنّ قلوبنا في السابق كانت في مكان آخر، ومرتبطة بعالم آخر، وأنّها عاجزة عن الانفصال عن تلك الأمور، كي تتوجّه إلى القرآن الكريم. وفي هذه الحالة، مهما سعينا إلى السيطرة على قلوبنا لسوقها نحو القرآن الكريم، فإنّها سوف تفرّ منّا، وتتوجّه نحو الأمور التي اعتادت عليها. ومن مصاديق هذه المسألة أيضًا صلوات كثيرٍ منّا، فمهما اجتهدنا لنوجّه قلوبنا نحو الله والصلاة، فلا نوفّق لذلك. وبطبيعة الحال، إنّ علاج هذه المسألة وإصلاحها يكمن في الرجوع إلى الخلف قليلًا، وإزالة العيوب السابقة. وإذا أردنا لقلوبنا أن تتوجّه نحو الله والقرآن الكريم والصلاة، فينبغي أن نوجِد فيها الجاهزيّة والتهيّؤ في مرحلة سابقة.

هناك أناسٌ وفّقهم الله، فأمسكوا بزمام اختيار قلوبهم. ولكن كما أشرنا سابقًا، إنّ العون والتوفيق الإلهيّ لا يأتي جزافًا، بل إنّ هؤلاء الأفراد



قد تجرّعوا كثيرًا من العناء، وهيّأوا كثيرًا من الظروف من أجل جلب عنايات الله تبارك وتعالى. وقد وصل هؤلاء إلى مرحلة أنّ بإمكانهم في أيّ وقت أرادوا، أن يعطفوا تفكيرهم نحو أمر محدّد، ويتوجّهوا إليه بكلّ وجودهم، وبإمكانهم في أيّ وقت أرادوا، أن يُخرجوا أيّ أمر من صفحة قلبهم وضميرهم وذهنهم. ولكنّ زمام قلوب أمثالنا ما زالت في قبضة الشيطان، وما زال اختيار هذه القلوب بيده. أو على الأقلّ، الشيطانُ يشغل حيّزًا كبيرًا داخل هذه القلوب، فلا يجيز لنا إدارتها كما نريد. ومن هنا نرى أنّنا أثناء المطالعة، ومع أنّنا نجتهد في المحافظة على تمركز أذهاننا، ولكن سرعان ما نلتفت إلى أنفسنا، فنرى أنّ ساعة من الزمن قد مرّت وما زلنا في الصفحة التي كنّا فيها. أو أنّنا مثلًا نعقد العزم على الدوام على أن نؤدّيَ صلاتنا هذه المرّة بتوجّه وحضور قلب، إلّا أنّنا ننتقل مباشرة بعد التكبير في أوّل الصلاة إلى عالم آخر، وعندما نرجع إلى أنفسنا، نرى أنّنا في موضع التسليم واختتام الصلاة! أي: إنّ قلوبنا طوال مدّة الصلاة قد توجّهت إلى كلّ مكان سوى الصلاة!

إنّ الإمساك بزمام القلب عمل فيه كثيرٌ من الجهد، ولا يتيسّر للإنسان بسهولة. فإذا أراد أن يروّض حصانًا جامحًا، فينبغي عليه أن يركض خلفه مدّةً طويلة، وأن يبذل كثيرًا من العناء في ذلك. فكيف بالقلب الجامح والآبق؟! عندما يتعلّق القلب بمكان ما، ويصبح مرهونًا لأمر ما، فإنّه ـ بشكل طبيعيّ ـ سوف ينجذب نحوه، وسوف يصعب إبعاده عنه ونزعه منه. ومن هنا، فبمجرّد أن يغفل الإنسان عن قلبه لحظةً، يرى أنّه قد فرّ هاربًا منه، وتوجّه نحو مكان آخر!



ولكنّ أصل إرادتنا ألّا تصبح قلوبنا غافلة في حدّ ذاتها ترجع إلى القلب، ومن أجل تحقّق هذه الإرادة لا بدّ من إصلاح القلب. وإنّه ليس بأيدينا واختيارنا أن نغفل وقت نشاء ونتذكّر وقت نشاء، بل هو أمر مرتبط بشكل كامل بما فعلناه بقلوبنا سابقًا. فإذا أردنا ألّا نكون صمًّا وعميانًا أمام آيات الله، وأن نتحكّم بقلوبنا بشكل كامل، فينبغي أن نضع حسابًا لقلوبنا، وأن نقتلع جذور التعلّقات والتوجّهات غير الإلهيّة، ونستأصلها من أساسها.

بالطبع، من الممكن في بعض الأحيان أن تؤثّر فينا موعظة أو رواية أو آية قرآنيّة، وتوجد تحوّلًا في داخلنا، إلّا أنّ هذا البريق الآنيّ وسريع الزوال ليس له تلك الفائدة وذلك التأثير، بل ينبغي حلّ المشكلة بشكل جذريّ. إنّ كثيرًا منّا في غالب الأوقات تسيطر عليه الغفلة عن ذكر الله تعالى، فحتّى عندما نردّد ذكرًا أو نقرأ آيات القرآن، فإنّ هذا لا يعدو كونه لقلقة لسان ليس أكثر، أمّا فكرنا وذهننا فيسيران في عوالم أخرى. وهذا بسبب أعمالنا السابقة وتصرّفاتنا التي أفقدتنا زمام الاختيار في قلوبنا، ووضعتها في يد الشيطان. فإذا أصبح اختيار القلب في يد الشيطان، فمن الطبيعيّ ألّا يجيز له الدخول في العوالم المعنويّة والملكوتيّة والإلهيّة.

قد وضع الحبيب طوقًا حول عنقي

أمّا كيف يمكن لاختيار قلب المرء أن يقع في يد الشيطان؟ فجواب هذا التساؤل: أنّ هذا الأمر يحدث على أثر الاتّباع المتكرّر لهوى النفس؛ فهوى النفس وسيلة تسلّط الشيطان، والإنسان الذي يتّبع هوى نفسه بشكل



متكرّر، يجد أنّ قلبه بات ـ في النهاية ـ تحت اختيار إبليس، بسبب هذا الأمر، وأصبح مصداقًا لقول الشاعر:

قد وضع الحبيب طوقًا حول عنقـي

وها هو يقودني حيث يشـاء هـواه[1]

وفي هذه الحالة، إنّ الإنسان لو أراد أن يتوجّه إلى الله أثناء تأدية صلاته، تراه يتوجّه نحو أمور أخرى، من دون أيّ قصد أو إرادة، ولكنّ قلبه بات مسلوب الاختيار، غيرَ منتظرٍ لعزمه، ولا مرهونًا بإرادته. لذا، ينبغي علينا أن نعمل جاهدين في تغيير هذه الحالة، وأن نضع بشكل تدريجيّ حدًّا لسلطة الشيطان وسيطرته على الاختيار في ساحة قلوبنا، وهكذا ندخل تدريجيًّا إلى الساحة التي لا نتعامل فيها مع الآيات الإلهيّة تعامل الصمّ والعميان، وعند سماع الآيات الإلهيّة تُعرض قلوبنا عن جميع الأغيار، وتتوجّه إلى الله تعالى. وعندما تُتلى الآيات الإلهيّة، ينبغي علينا أن نلتفت إلى أنّ من يخاطبنا الآن هو الله تعالى؛ فعدم المبالاة بهذه الآيات والغفلة عنها هو بمنزلة إشاحة الوجه عن الله تعالى أثناء حديثه معنا! فإذا كنّا في مقام الحديث مع صديقٍ لنا، فبدأ ينظر هنا وهناك عوضًا عن النظر إلينا، فماذا يكون حكمنا عليه؟!

وإنّ جميعنا إلى حدٍّ ما، مبتلَون بهذه الآفة، وكما ذكرنا سابقًا، من أجل النجاة منها، ينبغي وضع برنامج مسبق كي نتمكّن عند اللزوم من عطف توجّهنا القلبيّ نحو الجهة التي نريدها. إنّ قلوب أمثالنا ما زالت حرّة طليقة، واختيارها ليس في أيدينا والتحكّم بها خارج عن سيطرتنا. وإنّ عنان قلوب كثيرٍ منّا في قبضة الشيطان، وإنّنا ـ في الواقع ـ نخدع

(١) رشته‌ای بر گردنم افکنده دوست   می‌کشد آن‌جا که خاطرخواه اوست

أنفسنا عندما نتوهّم أنّنا نقوم بأعمالنا عن إرادة واختيار منّا، بل إنّ الشيطان هو المتحكّم بنا، ومنه نأخذ أوامرنا.

كلّ هذا، والحال أنّنا منذ الأزل كنّا قد قطعنا عهدًا وأبرمنا ميثاقًا مع إلهنا أن نبتعد عن الشيطان، وألّا نضع في أعناقنا طوق الطاعة والعبوديّة له: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

إذا أردنا أن نبتعد عن طاعة الشيطان وامتثال أمره، ينبغي علينا أن نسعى إلى الإمساك باختيار قلوبنا. وهذا الأمر من الممكن أن يتحقّق بالتمرين والممارسة والجهد المستمرّ. وينبغي علينا أن نعمل تدريجيًّا على إضعاف تعلّقاتنا بالأمور التي لا ترضي الله تعالى، بل أن نوصلها إلى الصّفر إن أمكن. نعم، إنّنا ـ في الغالب ـ عاجزون عن أن نصبح مثل أولياء الله، وأن نطهّر قلوبنا بشكل كامل ممّن سوى المحبوب الحقيقيّ، أي: الله تعالى. ولكن يمكننا على الأقلّ، أن نقلّل من تعلّقنا بالدنيا، وأن نضعف من اتّباعنا لما تمليه عليه قلوبنا وأهواؤنا النفسيّة. وعوضًا عن ذلك، ينبغي أن نتحرّك تدريجيًّا باتّجاه أن نرى في كلّ عمل ما إذا كان مطلوبًا وموردَ رضا الله أم لا. فإن التزمنا بالتقوى ـ وهي رعاية الأوامر والنواهي الإلهيّة ـ، فإنّ اختيار قلوبنا سوف يعود إلينا شيئًا فشيئًا، وترجع ملكيّة هذه القلوب إلينا. وحينئذٍ، يتاح لنا أن نفكّر كما نريد وأن نتوجّه إلى حيث نريد، لا أن تشدّنا قلوبنا إلى حيث تشاء. وعندما نصبح مالكي قلوبنا وأصحاب اختيارها، يتاح لنا أن نحصّل التركيز في مطالعتنا، وحضور القلب في صلاتنا، وأن نتوجّه بقلوبنا نحو الله تعالى وحده. يقول القرآن

---

(١) سورة يس، الآية ٦٠.



الكريم: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1].

ومن هذه الآية يُعلم أنّ بعض البشر لا يملكون قلوبًا! فإنّهم وإن كان لديهم هذا العضو الصنوبريّ القابع داخل صدورهم، فإنّهم محرومون من ذلك القلب الذي ينبغي أن يدرك الواقعيّات ويرى الحقائق. وعلى حدّ تعبير تلك الآية التي مرّ ذكرها سابقًا: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾، أي: إنّهم يملكون ذلك القلب الصنوبريّ، ولكنّهم محرومون من ذلك الشيء الذي تظهر فيه محبّة الله ومحبّة أوليائه، ويتجلّى فيه الخوف والخشية الإلهيّان. ولهذا السبب، فإنّ هؤلاء لا يستفيدون من آيات القرآن الكريم، وتقصر أيديهم عن بلوغ نوره وحقيقته. فكيف يمكن لمن لا يمتلك قلبًا، أن يستفيد من القرآن، أو يجد لنفسه طريقًا نحو الحقيقة والسعادة؟!

إنّ تلك الآيات الإلهيّة المُرتسمة على تمام صفحة الوجود، إنّما تكون سبب يقظة وتذكّر، لمن له قلب وسمع: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾[2]، وفي يوم القيامة يشير أهل جهنّم إلى هذه المسألة تحديدًا، وأثناء بيانهم للأمور التي أوجبت دخولهم إلى جهنّم يقولون: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[3].

يقول هؤلاء: إنّ المشكلة التي أودت بنا في جهنّم هي أنّنا أغلقنا آذاننا وأذهاننا أمام الحقائق، ولم نُعمل عقولنا. نعم، إنّ مصير الإنسان الذي لا يستفيد من عقله وفكره، ولا عهد له بالتعقّل والتفكّر، ليس إلّا

---

(١) سورة ق، الآية ٣٧.
(٢) سورة ق، الآية ٣٧.
(٣) سورة الملك، الآية ١٠.

نيران جهنّم. ومن هنا، فليست عبثيّةً دعوة القرآن الناس إلى التفكّر والتعقّل في آيات كثيرة وبتعابير متعدّدة:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٤].

﴿وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٥].

وفي جميع الأحوال، فإنّه ينبغي علينا أن نضع حدًّا لحكومة القلب وهوى النفس على وجودنا، وأن نجعل من العقل حاكمًا على هذه المملكة. وينبغي أن نصمّم على تغيير هذا الوضع، وتخليص أنفسنا من قبضة هذا القلب وسلطته، وأن نسعى لنجعل قلبنا في قبضتنا وتحت سلطتنا. وإنّ علينا أن نضع طاعة القلب وامتثال أمر هوى النفس جانبًا، وأن ننجي أنفسنا من شرّ هذا الثنائي السيّئ، الذي يعمل على إزالة عقلنا وجعله أصمّ وأعمى.

---

(١) سورة **الحشر**، الآية ٢١.

(٢) سورة **الرعد**، الآية ٣.

(٣) سورة **النحل**، الآية ٤٤.

(٤) سورة **البقرة**، الآية ٢٤٢.

(٥) سورة **المؤمنون**، الآية ٨٠.



يقول الله تبارك تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

إنّ الإنسان الذي يجعل من نفسه تابعًا لهوى النفس، فإنّه في أفعاله الأخرى لن يفكّر في التكليف الشرعيّ الإلهيّ، ولن يهتمّ إلى ما إذا كان هذا العمل يرضي الله أم لا؛ فإنّ قلبه قد أصبح وسيلة تسلّط الشيطان، وعندما يسيطر الشيطان على المرء، يُعرض عن عبادة الله، ويُقبل على عبادة الشيطان عوضًا عن عبادة الله. وإنّ تكليف الشيطان معلوم وعاقبته مشخّصة. فإذا أردنا ألّا نُبتلى بهذا الأمر، فينبغي أن نعقد العزم على وضع حدودٍ للرَّغَبات القلبيّة، وأن نُخضِعَها للضوابط والقيود. أمّا التحرّر من القيود وكسر اللجام، فإنّه لا يوصل الإنسان إلى أيّ مكان، ولا يعود عليه إلّا بالسقوط والانحطاط. لذا، لا ينبغي أن نترك القلب حرًّا طليقًا، ولا أن نُسلّم لكلّ رَغَباته ونمتثل لها، بل ينبغي تمرين أنفسنا على هداية قلوبنا إلى مسيرٍ خاصّ، ودفعها للسير وفقه، لا أن نتركها حرّة تصول وتجول حيث تشاء، دون حسيب ولا رقيب.

وإنّه لمن الضروريّ أن نقلّل من التشتّت الذهنيّ والتبعثر الفكريّ، وأن نجعل أذهاننا متمركزة على جهة خاصّة، وهي الجهة التي توجب رضا الله تعالى. وإنّ تحقّق هذه الأمور ممكن، غاية الأمر أنّها تتطلّب تمرينًا ومثابرة؛ إذ إنّها لا تُمنح لأيّ أحد مجّانًا. وإنّ مالكيّة الإنسان لقلبه لجوهرةٌ نفيسةٌ لا تصل إليها يدُ الإنسان بسهولة، ولكن في الوقت نفسه، يمكن الظَّفَر بهذه الجوهرة من خلال السعي وبذل الجهد وشحذ الهمم.

---

(١) سورة **الجاثية**، الآية ٢٣.



وعلينا أيضًا أن نضع حدودًا وضوابطَ لتصرّفاتنا، وأوّل خطوة في هذا المسير أن نراعي الواجبات والمحرّمات بدقّة. وبعد أن نسعى حذرين من تجاوز هذه الحدود، تسري هذه الضوابط شيئًا فشيئًا إلى حالاتنا الذهنيّة وتوجّهاتنا القلبيّة، فتخرج هذه الأمور بالتدريج عن دائرة تسلّط الشيطان وتصبح باختيار الله تعالى. وإنّ استمرار هذه الحالة يُزيل الحُجُبَ عن صفحة قلب الإنسان وسمعه وبصره، فيصبح مصداقَ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾[١].

إذا اتّبعنا هذا المسار وداومنا عليه، فإنّه يمكننا أن نصل إلى المرحلة التي لا نعود فيها صمًّا وعميانًا في تعاملنا مع الآيات الإلهيّة، بل عندها نصغي إلى كلام الله بأذن القلب والروح، ونشاهد نور القرآن الكريم ومعنويّته، ونستقي من حقائقه الحقّة.

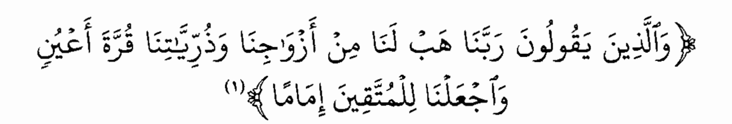
(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٣.



الدرس الثامن عشر:

عباد الرحمن والأسرة




﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[1]

الاهتمام بصلاح الأسرة وسعادتها

يقع بحثنا في دراسة الأوصاف التي ذكرت في سورة «الفرقان» لفئة «عباد الرحمن». وفي استكمال ذكر هذه الأوصاف نواجه هذه الآية التي تشير إلى وصفين آخرين من أوصاف هذه الفئة:

الأوّل: الاهتمام بالأسرة.

والثاني: هو الاهتمام بصلاح المجتمع وتقدّمه.

وسوف نطرح في هذا الدرس ـ ضمن الحدّ الذي يسمح به المقام ـ بعضَ المطالب المرتبطة بالوصف الأوّل. أما البحث في الوصف الثاني فنوكله إلى الدرس القادم، الذي يعتبر آخر دروس سلسلة مباحث أوصاف «عباد الرحمن».

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٤.

وكما قلنا، إنّ الوصف الأوّل الذي تتطّرق إليه هذه الآية هو اهتمام «عباد الرحمن» بالأسرة، وقد أشارت إليه الآية القرآنيّة بقولها: إنّ من الأمور التي يطلبها «عباد الرحمن» من الله تبارك وتعالى هي: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

وبشكل عامّ، تمثّل مسألة الاهتمام بالأسرة والاكتراث إلى صلاح الزوجة والأولاد، وتمنّي الحصول على زوجة صالحة وأولاد صالحين، منهجًا ومسلكًا مشى عليه جميع الأنبياء والصالحين، وبتعبير سورة الفرقان «عباد الرحمن».

النبيّ إبراهيم عليه السلام نموذجًا

وإنّ هذه الخصيصة والميزة، مشهودة بشكل كامل في حياة النبيّ إبراهيم عليه السلام، وفق ما نقلته آيات القرآن الكريم. وبالتأكيد إنّ واحدةً من المحطّات العظيمة في حياة هذا النبيّ الإلهيّ العظيم، التي سوف تبقى آثارها العظيمة خالدة إلى يوم القيامة، هي قصّة بنائه لبيت الله الحرام بمساعدة ولده الفتى إسماعيل عليه السلام. ويقول القرآن الكريم: إنّه في الوقت الذي كان الأب وولده مشغولَين ببناء الكعبة المشرّفة كان من أدعيتهم أمام المحضر الإلهيّ أن قالوا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[1].

فقد عرف إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أنّهما محطّ رضا الله عزّ وجلّ، بفضل أدائهم لهذه الخدمة العظيمة والعمل الجبّار. ومن هنا، فمن الطبيعيّ أن يسمع الله تعالى مسألتهم ويستجيب دعوتهم. ولهذا،

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٢٨.



شرع هذان العظيمان أثناء بناء الكعبة المشرّفة بسؤال حاجاتهم من الله تعالى، فطلبوا في محضره الإلهيّ مجموعة أمور كان من جملتها أن يجعلهم الله فردَين مسلمَين: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾، ولقد كان للنبي إبراهيم عليه السلام ارتباط خاصّ بتعبير الإسلام والمسلم، وقد استفاد من هذه التعبيرات في موارد متعدّدة، ومن جملتها ما جاء في قوله تعالى عن لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]. ومن هنا، نرى في القرآن الكريم أنّ الله تعالى يخاطب المسلمين قائلًا: إنّ النبيّ إبراهيم عليه السلام هو من اختار لكم عنوان «الإسلام والمسلم»: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[2].

وعلى أيّة حال، فإنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لم يكتفيا بالدعاء لأنفسهما، بأن يجعلهما الله تعالى مسلمَين، بل أردفا بعد هذا الدعاء مباشرة بدعاءٍ آخر، وسألوا الله تعالى أن يمنّ على أولادهما وذريّتهما أيضًا بالإسلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، وبعد هذا الدعاء أيضًا طرحا دعاءً آخر لذريّتهما، فسألا الله تعالى أن يبعث في ذريّتهما رسولًا منهم: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3]. وإنّ تحقق هذا الدعاء واستجابته قد تمّت في الزمن الذي بُعث فيه نبيّ الإسلام محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بالرسالة الإلهيّة. وقد نقل عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الموضوع أنّه قال: «أَنَا دَعْوَةُ إِبْراهيم»[4].

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٣١.

(٢) سورة **الحج**، الآية ٧٨.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ١٢٩.

(٤) العلامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ١٥، الصفحة ٢٩٧، الرواية ٢٧، الباب ٤ و الجزء ٤٦، الصفحة ٣٤٩، الرواية ٢، الباب ٩.



وبالإضافة إلى هذين الدعاءين، ينقل القرآن الكريم عن نبيّ الله إبراهيم عليه السلام دعاءً آخر، يتحدّث فيه أيضًا عن أولاده وذريّته؛ فبعد أن وُفّق النبيّ إبراهيم عليه السلام في اجتياز كلّ الإمتحانات الإلهيّة مُنح له مقام سامٍ هو مقام «الإمامة» المنيع، ولكنّ إبراهيم عليه السلام كان يفكّر أيضًا في أولاده وذريّته، فسأل الله تعالى أن يمنح هذا المقام لهم أيضًا؛ ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

إنّ الله تبارك وتعالى بعد أن أعطى نبيّه إبراهيم عليه السلام مقام النبّوة والرسالة، قلّده وسام الخلّة العظيم، فصار «خليلَ الله»، حيث يقول القرآن الكريم: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[2]، ولكنّ آخر مقام مُنح لإبراهيم عليه السلام كان مقام «الإمامة». ومن أجل بلوغ هذا المقام، كانت هناك مجموعة من الشرائط اللازمة، فكان على إبراهيم عليه السلام مواجهة أشكال الامتحانات العظيمة وإتمامها على أكمل وجه وبموفّقيّة تامّة، كي يظفر بمقام الإمامة. ومن هنا، يقول القرآن الكريم: إنّ الله تعالى قد أعدّ لنبيّه إبراهيم أصناف الابتلاءات والامتحانات؛ ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾، ولكنّه اجتاز جميع هذه الابتلاءات برأس مرفوع؛ ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، وجائزة هذه الموفقيّة كانت نيله مقام «الإمامة»؛ حيث قال له الله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وبطبيعة الحال كان إبراهيم عليه السلام مبتهجًا جدًّا بهذه الجائزة، وفي غاية السعادة والسرور؛ إذ رآه الله تعالى لائقًا بمقام الإمامة الرفيع. ولكنّ سروره وابتهاجه الناشئ من نيل مقام «الإمامة» لم يُغفِلْه عن ذريّته وأولاده. ومن هنا، دعا الله مباشرة بعد أن منحه هذا

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٢٤.

(٢) سورة **النساء**، الآية ١٢٥.



المقام العظيم، أن يمنحه أيضًا لأولاده الذين سيظهرون من ذريّته في المستقبل؛ ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، ولكن بالطبع، إنّ هذا الدعاء لم يقع موردًا الإجابة الإلهيّة بنحوٍ مطلق، بل إنّ الله تعالى في مقام إجابة دعاء إبراهيم عليه السلام قال له: إنّ هذا المقام ليس بالمقام الذي يمكن لأيٍّ كان أن يحوز لياقة إحرازه وأهليّة نيله؛ ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وعلى أيّة حال، فإنّ تفكير الإنسان بمصلحة أولاده، وأن يسأل الله تعالى الخير والصلاح والعافية لهم أمر ممدوح. ومن هنا، نرى النبيّ ابراهيم عليه السلام، وهو الذي يُعدّ واحدًا من أعظم عباد الله وأنبيائه، يتّبع هذا الأسلوب.

وإنّ الآية (محلّ البحث) من سورة «الفرقان» المباركة ناظرة أيضًا إلى أنّ هذه المسألة هي منهج ومسلك عامّ ينهجه عباد الله الصالحين أو فئة «عباد الرحمن»، حيث يفكّرون في أُسَرِهم وأزواجهم وأولادهم، ويهتمّون لخيرهم وصلاحهم وسعادتهم؛ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[1].

قرّة العين في القرآن الكريم

إنّ تعبير «قرّة العين» في لغة العرب عندما يُستعمل في حقّ شيءٍ ما، فإنّه يشير إلى مدى حبّ الإنسان الشديد له وتعلّقه الخاصّ به، فكأنّه يقول: إنّ عينيه إذا وقعتا على هذا الشيء، فإنّ السرور والنور يملآن قلبه، أو قل: تلمع عيناه برؤيته. وإن كان بعض المفسّرين قد حاولوا التدقيق في هذا المعنى، وأرادوا من خلال الرجوع إلى الجذر اللغويّ للتعبير أن

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٤.

يقولوا: إنّ معنى «البرودة» ملحوظ في هذا التعبير، فإنّ هذه المطالب ليست بتلك الصحّة على ما يبدو، بل إنّ تعبير «قرّة العين» في اللغة العربيّة يحمل المعنى الذي ذكرناه تقريبًا.

وعلى أيّة حال، فإنّ هذا التعبير قد استُعمل في القرآن الكريم في ثلاثة موارد:

أحدها: الآية (محلّ البحث) من سورة «الفرقان».

وثانيها: في سورة «السجدة»، حيث يقول الله تعالى ـ في مقام توصيف الأشخاص الذين يؤمنون بالآيات الإلهيّة حقًّا ـ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[١].

فيُعرّفنا الله تعالى في هذه الآيات الكريمة على مجموعةٍ من عباده الصالحين من خلال بيان ثلاثة أوصاف لهم:

الأوّل: أنّهم عندما يسمعون آيات القرآن الكريم أو يتذكّرونها يخرّون إلى الأرض ساجدين.

والثاني: أنّ جنوبهم في جوف الليل تتجافى وتبتعد عن الأسرّة الدافئة، فينهضون من نومهم، ويسارعون إلى عبادة الله والصلاة والمناجاة.

---

(١) سورة **السجدة**، الآيات ١٥ إلى ١٧.



والثالث: أنّهم ينفقون من الأموال التي أعطاهم الله إيّاها. وعندها يقول الله تعالى: إنّ الذين يحملون هذه الخصائص الثلاثة لا يعمل أحد حجم النعم و«قرّة العين» التي هيّأها الله لهم في مقابل أعمالهم هذه؛ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

إنّ بعض النعم التي أعدّها الله تعالى في الجنّة لعباده الصالحين والأخيار قد ذُكرت في آيات القرآن الكريم. ومن هنا، فإنّنا نعرف مجموعة من المطالب حولها، ونعلم طبيعتها بمقدار معيّن، ولكنّ هذه الآية تقول: إنّ النعم «وقرّة العين» التي أخفاها الله تعالى لهذه الفئة لا يعلم بها أحد. ومن هنا، فلا يمكن لهذه النعم أن تكون تلك التي أشار إليها كثير من الآيات القرآنيّة. فعلى سبيل المثال، نرى الآيات القرآنيّة تشير إلى وجود نِعَمٍ متعدّدة لأهل الجنّة، ومن الأمثلة على هذه الآيات:

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[1].

﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾[2].

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾[3].

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾[4].

وإنّ أمثال هذه النِّعَم التي ذكرتها آيات القرآن هي أمور نحيط علمًا بها، وقابلة للفهم إلى حدّ ما عندنا. نعم، إنّ فاكهة الجنّة وحدائقها وأزواجها وسائر النعم الموجودة فيها، تختلف كثيرًا عن تلك الموجودة

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٥.

(٢) سورة **الدخان**، الآية ٥٤.

(٣) سورة **المرسلات**، الآية ٤٢.

(٤) سورة **الواقعة**، الآية ٢١.

في عالم الدنيا، ولا يمكن مقايستها بها، ولكنّها مهما كانت، فإنّ بإمكاننا أن نتصوّر في أذهاننا مشهدًا عنها، وإن كان مبهمًا وغامضًا. ولكنّ الله تعالى في هذه الآية من سورة «السجدة» يقول: إنّ الذين يحوزون هذه الأوصاف الثلاثة لا يمكن لأيّ أحد أن يحيط علمًا بالنِّعَم التي أعدّها الله لهم، و«قرّة العين» التي أخفاها لهم. وإنّ هذا المعنى شبيه بمُفاد الرواية الشريفة التي تقول: «أَعْدَدْتُ لِعِبادي ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَر»(١).

ومن هنا، فإنّ «قرّة العين» هذه تعدّ نعمةً أعظم وأرفع من سائر النِّعَم الأخرى؛ فتلك النِّعَم يمكن للإنسان أن يفهمها إلى حدٍّ ما، وأن يحصل على تصوّر إجماليّ لها. أمّا «قرّة العين» التي أخفاها الله لعباده الخاصّين، فهي أمر لا يتسنّى لأحد أن يتصوّره! «وَلا خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَر».

وثالثها: ما جاء في قصة النبيّ موسى عليه السلام؛ فعندما ولد النبيّ موسى عليه السلام عمدت أمّه إلى وضعه في صندوق وإلقائه في نهر النيل استجابةً للإلهام الإلهيّ، حين خافت على حياته. واتّفق أنّ مسير هذا النهر يمرّ من أمام قصر فرعون، وعندما رأى عمّال فرعون هذا الصندوق، أخرجوه من الماء وفتحوه، فوجدوا في داخله مولودًا صغيرًا. ولقد كان فرعون على علم ـ بناءً على رؤيا رآها وتنبّؤات أخبره بها كهنته ـ بأنّ فردًا سيولد من بني إسرائيل، وينزع بساط الحكم من تحته، ولذلك كان يعمد طوال تلك المدّة إلى قتل أيّ مولود ذكر يولد من بني إسرائيل. فلمّا رأى فرعون هذا الصبيّ داخل الصندوق، توجّس وخاف أن يكون هذا الصبيّ من بني إسرائيل. ولكن ـ في المقابل ـ كانت آسيا زوجة فرعون

---

(١) العلامة المجلسي، **بحار الأنوار**، الجزء ٨، الصفحة ١٩١، الرواية ١٦٨، الباب ٢٣.



عاقرًا؛ لا تنجب أطفالًا، لذا عندما وقعت عيناها على هذا الطفل وقع حبّه في قلبها، فطلبت من فرعون أن يحتفظ به ويرفع مقامه ويتّخذاه ولدًا، ويكون «قرّة عين» لهما؛ ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1].

وعلى أيّة حال، فإنّ من موارد استعمال تعبير «قرة العين» في القرآن الكريم الآية (محلّ البحث) في سورة «الفرقان»، التي تقول: إنّ «عباد الرحمن» يسألون الله تعالى أن تقرّ عيونُهم بأزواجهم، وأن يرزقهم أزواجًا يكونون لهم قرّة أعين، أي: أزواجًا يصلون من خلالهم إلى أسمى حاجاتهم وأرفعها. ويدعون الله تعالى أيضًا أن يهبهم أولادًا يكونون لهم قرّة أعينهم، فيستبشرون بهم وتفرح قلوبهم بالنظر إليهم، ولا يكونون مصدر قلق واضطراب.

ماهيّة العلاقة بالأزواج والأولاد والحكمة منها

ومن المباحث الأخـرى في هذا المجال: «ما هي ماهيّة العلاقة بين الإنسان من جهة، وزوجته وولده من جهة أخرى. وأيّ آثار تحملها مثل هذه العلاقة؟».

وفي مقام الإجابة عن هذا السؤال نقول: إنّ هذه العلاقة من سنخ الميول الفطريّة والغريزيّة عند الإنسان، وضعتها يد الخلقة في باطنه؛ فالإنسان يميل بنحو طبيعيّ وغريزيّ نحو زوجته وولده. وهذا الميل كجميع الميول الفطريّة والغريزيّة، لم يضعه الله تعالى عبثًا ولا جزافًا، بل إنّ وراء وضعه حكمة أو مجموعة حكم. ومن أهمّ هذه الحكم الكامنة

---

(١) سورة **القصص**، الآية ٩.

في العلاقة بالزوجة والولد ـ وخاصّة الزوجة ـ أنّ هذا الميل يُعدّ سببًا في بقاء النسل البشريّ. ولو لم يكن هذا الميل موجودًا، لما كان الإنسان مستعدًّا لتحمّل مصاعب الحياة الأسريّة وتقبّل مشكلاتها. فهذا الميل الطبيعيّ والدافع الغريزيّ واللذّة الجنسيّة الحاصلة منه، تبعث الإنسان على تحمّل مصاعب الحياة الأسريّة ومشاكلها، وبالنتيجة تؤدّي إلى بقاء النسل البشريّ واستمراره. وإنّنا جميعًا من ثمرات هذه الحكمة، فلو لم يكن لدى آبائنا وأمّهاتنا مثل هذا الميل، لما قدمنا إلى عالم الوجود. ومن الغنيّ عن البيان ما لبقاء النسل البشريّ من أهمّيّة كبرى، ولو لم يكن لهذا الميل الإنساني سوى هذه الحكمة، لكانت كافية في الوقوف على ضرورة أن يلحظها الله تعالى في بناء طبيعة الإنسان و فطرته.

ولكنّ مجرّد وجود هذا الميل الآنيّ والعابر وسريع الزوال بين الرجل والمرأة، لا يضمن تحقّق غرض بقاء النسل، بل ينبغي لهذا الميل أن يتحقّق عند رجل وامرأة خاصّين بنحو عميق ووثيق ودائم. فهذا النوع من الميل هو الذي يبعث الرجل والمرأة نحو تشكيل الأسرة والبقاء معًا لمدّة طويلة، وبذل الجهد الجهيد والسعي الحثيث في تأمين الزّاد وإنجاب الأولاد وتربيتهم وتنميتهم. وهذا هو بقاء النسل البشريّ في الحقيقة.

في الواقع، إنّ تشكيل النظام الأسريّ يعدّ أصل الحياة الاجتماعيّة عن الإنسان وأساسها، هذه الحياة التي تعود على البشريّة بأفضل الآثار والفوائد التي لا تعدّ ولا تحصى. ومن هنا، فإنّ الله تعالى، من أجل حفظ هذا الارتباط بين المرأة والرجل، بثّ بينهما ألفة ومحبّة خاصّتين، وخلق أيضًا محبّة كبيرة عند الأمّ والأب تجاه أولادهم. يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ



ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

وإنّ هذه المودّة والرحمة ـ في الواقع ـ أمر مغاير لذلك الانجذاب الغريزيّ الذي يكون موجودًا عند الإنسان منذ البداية. بل هي علاقة أنس وألفة خاصّة، تنشأ بين الرجل والمرأة بعد عقد ميثاق الزواج. **بعبارةٍ أخرى**: ما يكون موجودًا عند الإنسان في البداية ليس محبّة، بل مجرّد ميل وانجذاب نحو الجنس المخالف. ومن هُنا، لا يكون لهذا الانجذاب اصطلاحًا أيّ مُتعلَّق أو مورد خاصّ ومشخّص، بخلاف المحبّة، فهي دائمًا تتعلّق بأمر خاصّ وتحتاج إلى مُتعلَّق. ومن هنا، فما يكون لدى الإنسان قبل أن يختار شخصًا بعنوان زوج قانونيّ هو مجرّد ميل نحو الجنس المخالف. أمّا بعد اختيار شريكٍ له بوصفه زوجًا قانونيًّا تنشأ في داخله المودّة والرحمة المذكورة في الآية الكريمة، وهي المحبّة الخاصّة بين الرجل والمرأة. ونظير هذه الألفة موجود أيضًا لدى الأب والأمّ تجاه أبناهما. وكما ذكرنا، إنّ هذا الأنس والألفة يُشكّل قاعدة الحياة الأسريّة ويؤمّن بقاءَها وثباتَها. ومن خلال مجموعة من الأُسَر تظهر المجتمعات والحياة الاجتماعيّة.

الأسرة في عالمنا المعاصر

وعلى الرغم من هذا كلّه، نرى ـ مع الأسف ـ أنّ حال الأسرة في عالمنا اليوم ليس بالحال الجيّدة، وقد باتت تطرح في هذه الأيام مسائل خطرة ترتبط بالأسرة ودورها في الحياة الاجتماعيّة. وإنّ الحياة الصناعيّة والآليّة

---

(١) سورة **الروم**، الآية ٢١.



في هذه الأيّـام، أصبحت موجبة لضعف بنيان الأسرة وتزلزل الروابط الأسريّة، حتّى تكبّدت البشريّة بسبب هذه المسائل خسائر جمّة، وعانت من أزمات جدّيّة. وجميعنا نشاهد ونقرأ أمثال هذه الأمور في وسائل الإعـلام والصحف والمجلّات، ولدينا اطّـلاع ـ إلى حدّ ما ـ على حجم الأزمات والبلاءات التي انهالت على رأس النظام الأسريّ، بفعل هذه الحياة الآليّة. فالبشريّة في هذا الزمان جاهلة بقدر هذه النِّعْمة والرحمة الإلهيّة التي لا تُقدّر بثمن، ومن أجل الوصول إلى اللذّات العابرة التي وُجدت لإشباعها طرق كثيرة تعارض أسس الحياة الأسريّة، يضربون بالنظام الأسريّ عرض الجدار، ويُضعفون بنيانه إلى أقصى الحدود. واليوم، هناك كثيرٌ من النساء والرجال، يتباعدون ويمارسون فعاليّتهم العمليّة خارج الأسرة، من أجل كسب المال وزيادة المدخول. ومن البَدَهيّ أنّ مثل هذه الظروف والأوضاع من شأنها أن تفكّك الروابط الأسريّة تدريجيًّا، وتضعف الأنس والألفة الزوجيّة، وعمليًّا لا يعود هنالك أيّ وجود للأسرة.

وممّا يدعو إلى الأسف، أنّ حال الأسرة من ضعف وخراب في أيّامنا هذه، قد بلغ درجة أن نشاهد في كثيرٍ من دول العالم زواجًا مؤلّفًا من فردين من جنس واحد! وتراهم من أجل أن يحصلوا على أبناء يتبنّون طفلًا من دُور الأيتام أو أماكن أخرى، فيثبتونه رسميًّا في الدوائر الرسميّة، وهكذا يصبح ولدًا رسميّا ووريثًا لهما. وإنّ حكومات هذه الدول، وخاصّة تلك الدّول التي تعاني من ضعف الرّشد في سكّانها، تقدّم مساعدات ماليّة لهذه الأسر التي باتت الآن ذات أولاد، من أجل أن يحتفظوا بهم. هذا حال الأسرة في القرن الواحد والعشرين، العصر الذي يُطلق عليه أنّه بلغ ذروة ازدهار الحضارة البشريّة! وإنّ كل هذه الأمور آثار لكفران النِّعمة الإلهيّة التي وضعها الله داخل البشر بنحو فطريّ وطبيعيّ، وتقوم



العلاقة بين الرجل والمرأة والحبّ المتبادل بينهما تحت تأثير هذه النِّعمة، وفي النتيجة يتزوّجان ويولد لهم أطفال.

نعمة أن نقمة؟

وفي الأساس، إنّ جميع الأمور الدنيويّة التي نعبّر عنها بعنوان «النِّعَم»، فإنّ كونَها نِعَمًا مشروطٌ بمجموعة أمور؛ فهي ليست نِعَمًا بنحوٍ مطلق؛ في جميع الظروف والشروط. فالهواء، والطعام، والنور، والحرارة وسائر النعم، من الممكن في بعض الظروف أن تتبدّل إلى نقمة وبلاء على روح الإنسان. فعلى سبيل المثال، الحرارة لازمة لجسم الإنسان ولو لم تكن موجودة لتجمّد الإنسان من شدّة البرد، ولكنّ الحرارة ليست مطلوبة بنحوٍ مطلق، فإنّها إذا بلغت حدًّا معيًّنا ودرجةً محدّدةً، فسوف تسبّب الأذى للإنسان، بل قد تـؤدّي إلى موته. وكذلك فيما يرتبط بأصناف الأطعمة والأشربة التي ذكرها الله تعالى في الآيات القرآنيّة المختلفة تحت عنوان «نِعَم» سخّرها الله للإنسان. فالأطعمة والأشربة لازمة ومفيدة لبدن الإنسان، ولكنّ استهلاكها إذا تجاوز الحدّ المطلوب والشروط الخاصّة، عاد بالضرر على الإنسان.

وإنّ هذا المطلب يصدق في بحثنا الحاليّ؛ فالمودّة والعطف والرحمة التي وضعها الله بين الزوجين أو بين الوالدين وأولادهما، إذا زادت عن حدّها ومقدارها المطلوب وأُفرِطَ فيها، فإنّها تصبح خطرة. في هذه الحالة، تنحرف الأهداف والحكم التي وضعها الله وراء هذه المحبّة والعاطفة عن مسارها الأصليّ، ويتراجع الإنسان في مسيره نحو الوصول إلى كماله اللائق به؛ فعلى سبيل المثال، إذا أفرط الأب والأمّ في محبّتهما لولدهما، فنتيجة هذا الأمر ألّا يحصل الولد على تربية صحيحة، بل من شأن هذه المحبّة، أن تُنتج طفلًا فارغًا، عبثيًّا، غيرَ متّزن، ولا يحمل هويّةً

مستقلّة، بل هو دائم التعلّق بالآخرين وعالة عليهم. ومن هنا، فإن لم يُسَيطر الوالدان على محبّتهما لولدهما، وبقيت من دون ضابطة، فإنّها ستكون عاملًا في تزلزل شخصيّة الطفل ومعيقًا أمام تكامله، عوضًا عن أن تكون عامل تقدّم له.

وعليه، فمن جهةٍ أولى، يعدّ أصل محبّة الأب والأمّ لولدهما أمرًا لازمًا، ويُسبّب انتفاؤه عقدةً عند الولد، ويُشكّل في داخله شخصيّة مختلّة غير سويّة. ومن جهةٍ أخرى، إنّ المحبّة المُفرِطة والزائدة عن الحدّ، تبعث على أن يكون هذا الطفل شخصًا غير متّزن، متطلّبًا، سريعَ الانزعاج، تابعًا لغيره، ولا يستطيع إظهار شخصيّة ثابتة ومنسجمة في المنعطفات الاجتماعيّة. والخطر الأعظم في المحبّة الإفراطيّة، أنّ هذه المحبّة في بعض الحالات قد تكون مزاحمةً لسائر التكاليف، وقد تتغلّب على أداء التكليف، فتمنع الإنسان من أدائها. ومن هنا، نرى في القرآن الكريم تحذيرًا شديدًا من هذه المسألة، حيث يؤكّد الله تعالى على خطرها بقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1].

فهذه المحبّة التي وضعها الله في وجود الإنسان، والتي تقتضيها حكمة خلق الإنسان، بحيث لو لم تكن موجودة لسيطرت الفوضى في حياة البشر وانقطع النسل الإنسانيّ، ولم يكن ليتشكّل مجتمع إنسانيّ سالم. هذه المحبّة هي نفسُها تلك التي إذا أخذت طابعًا إفراطيًّا، فإنّ

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٢٤.



الإنسان سوف يفتح عينيه يومًا ويجد أنّ زوجته وأولاده باتوا أحبّ إليه من الله والجهاد في سبيله! ومن علامات وصول الإنسان إلى هذه الحالة، أن يكون من الواجب عليه أن يبادر إلى الجبهة ويشارك في القتال، ولكنّ تعلّقه بزوجته وأولاده يشكّل مانعًا من ذلك، فيرى ـ عند وقوع التزاحم بين حبّه لزوجته وأولاده وأداء فريضة الجهاد ـ أنّه لا يستطيع ترك زوجته وأولاده. وهكذا تصبح هذه المحبّة ـ والتي لم تكن سيّئةً في الأساس، بل كانت أمرًا لازمًا ـ من موجبات شقاء الإنسان، وأسباب تركه للواجب، وليس أيّ واجب، بل ذلك الذي لو تُرك لكانت مصالح الإسلام والمجتمع الإسلاميّ في خطر كبير. ومن هنا، فإنّ الله تعالى يطرح تهديدًا عجيبًا في هذا السياق؛ ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ﴾؛ أبسبب هذه العلاقة بالمال والزوجة والولد تتركون الجهاد والإنفاق؟! إذًا انتظروا حتّى يُجريَ اللهُ عزَّ وجلَّ أمره وحكمه، فتنالوا حسابكم!

في المباحث السابقة تحدّثنا عن قاعدة الاعتدال، وأشرنا إلى أنّ هذه القاعدة ليست عامّة، بل يمكن أن يكون فيها استثناءات في بعض الموارد، ولكن يمكن اعتبار بحثنا الفعليّ من الموارد والمصاديق الصحيحة لهذه القاعدة؛ فمحبّة الزوجة والولد ينبغي أن تكون في حدّ معتدل، بحيث إذا زاحمت التكاليف الإلهيّة، فإنّها لا تقدّم عليها ولا تكون مانعًا من أدائها. وهذا التكليف قد يكون حضورًا في جبهات القتال، أو هجرةً إلى مدينة أخرى من أجل تحصيل العلم أو التبيلغ الدينيّ، ونظير هذه الأمور.

فتحصّل أنّ محبّة الزوجة والولد مطلوبة ما لم تكن مزاحمة لسائر التكاليف الإلهيّة. وإنّ القرآن الكريم يؤكّد في آيات متعدّدة على خطر المحبّة المُفرِطة للزوجة والأولاد والأموال، ويدعو المؤمنين ـ بمختلف

التعبيرات ـ إلى أن يكونوا على حذرٍ منها. وقد جاء في تعبير عدّة آيات قرآنيّة أنّ بعض الأزواج والأولاد عدوّ للإنسان، ينبغي عليه أن يحذر منهم، وأن يبقى في مأمنٍ منهم؛ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، ثمّ تتابع الآيات وتعبر عن الأموال والأولاد بالفتنة؛ ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[2].

وبناءً عليه، فلا ينبغي لأحدٍ أن يتصوّر أنّ الزوجة والولد هم دائمًا وبنحوٍ مطلق، من موجبات سعادة الإنسان وعوامل انتفاعه، بل كما يقول القرآن الكريم، من الممكن أن يكونوا أعداءً للإنسان. وهذه حقيقة تؤيّدها وتشهد على صحّتها التجارب التاريخيّة والواقعيّة المتعدّدة، ويمكن بالتحليل العقليّ أيضًا أن نتوصّل إليها إلى حدّ ما؛ ففي بعض الموارد، حين تتدخّل المنافع الشخصيّة واللذّات الفرديّة، ترى بعض الأزواج والأولاد يقدّمون هذه المنافع، ويرجّحون هذه اللذّات على أزواجهم وأهليهم. وخاصّة في مجتمعات هذه الأيّام التي يروج فيها الميل نحو الدنيا، فترى أنّ العواطف الإنسانيّة ومشاعر الإيثار بين الزوج وزوجته أو بين الأهل والأولاد قد فَقَدَتْ رونقَها وبَهَتَ لونُها. ففي زمان نزول القرآن الكريم إلى قرنٍ أو قرنين من الزمن، نادرًا ما كانت تنشأ عداوة بين زوجين، أو بين والدين وأولادهما. وقد كان من مصاديق حالات العداوة هذه، ما كان يحصل إذا دخل الأب والأمّ في الإسلام وبقي الولد على كفره، أو العكس من ذلك، بأن يسلم الولد ويبقى الوالدان على كفرهما. بالطبع، ما كان يحدث غالبًا هو المورد الثاني؛ فعادةً ما

---

(١) سورة **التغابن**، الآية ١٤.

(٢) سورة **التغابن**، الآية ١٥.





كان يدخل الشباب في الإسلام أسرع من غيرهم. أمّا الوالدان فبسبب التعصّبات القبليّة والتقاليد القوميّة والسنن الحاكمة، فلم يكونوا على استعداد لقبول الدِّين الإسلاميّ. وبطبيعة الحال، في هذه الحالات، يقع التعارض بين أعضاء الأسرة الواحدة، وقد كانت تأخذ الظروف أحيانًا منحىً يوجب على المرء أن يختار أحد أمرين، فإمّا أن يحافظ على علاقاته الأسريّة ورابطته بزوجته أو بأولاده، وإمّا أن يدخل في الإسلام، فيقطع هذه الرابطة، ويضرب بعرض الجدار هذه التعلّقات الطبيعيّة والفطريّة؛ يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: إنّه لا ينبغي أن نتصوّر أنّ المحبّة الزوجيّة أو العاطفة بين الأب والأم والأولاد هي أمر دائميّ ومطلق، بل إنّ هذه المحبّة والمودّة في بعض الموارد، يمكن أن تتبدّل إلى ضغينة وعـداوة. فإن أصبحت على هذا النحو، فينبغي ألّا تكون عواطف الإنسان سببًا في تعلّقه بزوجته وأولاده وسلوكه طريق الباطل، بحجّة حفظ الحياة الأسريّة وعدم إيقاع الفرقة والانفصال بين أعضاء الأسرة.

إنّ الملاك الأساسيّ في أفعال الإنسان ليس المحبّة والعاطفة والتعلّقات القلبيّة، بل ينبغي للإنسان أن يجعل من الحقّ والباطل ملاكًا لقراراته وأفعاله. وبالطبع، ما دام حفظ هذه الروابط وإظهار هذه المحبّة لا يشكّل أيّ ضرر على دين الإنسان، فهو من وجهة نظر الإسلام أمرٌ لازمٌ، فينبغي أن يحفظ هذه الروابط ويصونها؛ فإنّه وإن كان الأب أو الأم من المشركين وكان الولد مسلمًا، فبناءً على الأحكام الإسلاميّة، ينبغي عليه أن يتعامل معهما بالمعروف، شريطةَ ألّا يتّبعهما في أمور الدّين؛ يقول الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى

عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾[1].

فحكم الإسلام في هذه المسألة، أنّ على الإنسان أن يتعامل مع والديه بالمعروف في الأمور الدنيويّة، ولكن بحذرٍ واحترازٍ من الوقوع تحت تأثير اعتقاداتهم وأفكارهم الباطلة. وبالطبع، إنّ نفس سيطرة الإنسان على عواطفه و معرفته بمواضع إعمالها وموارد اجتناب إعمالها، هو في حدّ ذاته ليس بالأمر الهيّن والبسيط، بل يحتاج إلى مهارة خاصّة. وإنّ تحكّم الإنسان بعواطفه ومشاعره والاحتكام إلى العقل واتّباعه، يتطلّب منه قوّةً وإرادةً شديدتين؛ فعندما تنشأ رابطة عاطفيّة قويّة بين الزوجين أو بين الأهل والأبناء، من الطبيعيّ أن يكون احتمال أخذ هذه الرابطة منحىً إفراطيًّا بصورة غير شعوريّة، احتمالًا كبيرًا. وبالطبع، إنّ هذا المنحى الإفراطيّ لا يُظهر نفسه في الظروف الطبيعيّة والحالات العاديّة، إنّما يظهر حينما يقع التزاحم والتعارض بين هذه الرابطة العاطفيّة وأداء التكاليف الإلهيّة. فعندئذٍ، قد يرى الإنسان أنّ هذه العاطفة والمحبّة باتت تشكّل مانعًا أمام أدائه للتكليف، ومعيقًا عن القيام بالواجب الشرعيّ؛ فعلى سبيل المثال، قد يكون من اللازم على طالب العلوم الدينيّة أن يسافر في أيّام التبليغ، ولكن عندما يفكّر في أنّ زوجته سوف تبقى وحدها، ممّا يؤثّر على أنسها، لا يطاوعه قلبه على أن يتركها، فينصرف عن سفره التبليغيّ. أو قد يكون من الواجب عليه من أجل التحصيل العلميّ أن يسافر إلى مدينة معيّنة، الأمر الذي يؤدّي إلى ابتعاده عن والديه، ولكن بسبب رفض والديه وعدم قدرتهم على تحمّل

---

(١) سورة **لقمان**، الآيتان ١٤ و١٥.



بعده عنهم، يُشيح بوجهه عن تحصيل العلم، الذي كان بحسب الفرض واجبًا مُتعيّنًا عليه، مع أنّ الواجب إذا تعيّن على عهدة إنسانٍ ما، فإنّ رضا الوالدين وإجازتهم ليس شرطًا في القيام به. نعم، من اللحاظ الأخلاقيّ، ينبغي على الإنسان أن يسعى قدر المستطاع إلى تحصيل رضا والديه. ولكن في جميع الأحوال، فلو لم يوفّق في جلب رضاهم، لا يحقّ له أبدًا أن يترك واجبًا تعيّن عليه.

إنّ هذه المسألة أساسيّة وفي غاية الأهمّيّة، وينبغي على الإنسان أن يكون في غاية الحذر؛ فلمّا كانت جاذبيّة هذه العواطف قويّة جدًّا، وكانت ناشئة بنحو فطريّ وطبيعيّ، فإذا لم يكن الإنسان محترزًا وحذرًا، فمن الممكن أن تقوده تدريجيًّا نحو ترك التكليف الواجب وارتكاب المحرّمات. وخاصةً أنّ الإنسان بطبعه ضليعٌ في فنون التسويغ والتوجيه، وبإمكانه أن يأتي بألف توجيه وتوجيه، سواء من طريق العرف أم الشرع. كلّ ذلك من أجل ألّا يبتعد عن الأشخاص الذين يأنس بهم ويألف وجودهم معه. وأصل القضيّة وأساسها، أنّ هذه المحبّة الإفراطيّة القابعة في أعماق قلب الإنسان تقيّده وتمنعه من المبادرة إلى أداء التكليف، ولكنّه يعمد في الظاهر إلى إقناع نفسه، من خلال الإتيان بأشكال الأدلّة الشرعيّة، بأنّ هذا التكليف ليس إلزاميًّا.

ومن هنا، ينبغي التأكيد مرّة أخرى على ضرورة أن يبقى الإنسان يقظًا، وأن يعمل على إصلاح أعماق قلبه الباطنيّة، وأن يُراقب حبّه وبغضه، لكيلا تخرج عن حدّ الاعتدال وتبقى منطقيّة ومعقولة ومشروعة.

ومن جهةٍ أخرى، فكما أشرنا سابقًا، ينبغي الالتفات إلى أنّ التفريط في المحبّة والعاطفة والتفريط في إبرازهما، هو أيضًا أمر مضرّ، ويعود على الإنسان بمشكلات جمّة. وفي أيّامنا هذه، تشير التحقيقات في علم



النفس بوضوح إلى أنّ كثيرًا من الاضطرابات التي تظهر في سلوك الأفراد وشخصيّاتهم، ترجع جذورها إلى نقصٍ في المحبّة والعاطفة في أيّام طفولتهم؛ فعندما لا يرى الطفل محبّة كافية، تنشأ في شخصيّته وتربيته عقد واختلالات، حتّى إنّه قد يخرج في المستقبل على هيئة مجرم. ومن هنا، فإنّه ينبغي اجتناب الإفراط والتفريط في العاطفة، ومراعاة الحدّ الوسط وسلوك طريق الاعتدال، وهو أمر يحتاج إلى تعليمٍ وإرشادٍ.

إراءة النموذج الصحيح في كيفيّة إعمال العاطفة

عباد الله الصالحون دائمًا في حالة مراقبة وحذر، كي لا تتغلّب محبّة الزوجة والأولاد في قلوبهم على محبّة الله تعالى، وكي لا تعيقهم هذه المحبّة عن طاعة أمر الله تعالى وامتثال الحكم الإلهيّ. ويمكن أن نشاهد نموذجًا لهذا الأمر في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، حيث يقول: «وَلَقَدْ كُنّا مَعَ رَسُولِ الله نَقْتُلُ آباءَنا وَأَبْناءَنا وَإِخْوانَنا وَأَعْمامَنا، ما يَزِيدُنا ذلِكَ إِلاّ إِيمانًا وَتَسْليمًا»[1].

لقد كان الإمام عليه السلام في هذه الخطبة في مقام ذمّ أصحابه؛ لتقاعصهم عن المشاركة في الحروب وأداء فريضة الجهاد بجدّيّة، رعايةً للروابط الأسريّة والمسائل القبليّة والنزعات القوميّة ومنافع العشيرة. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ هذا التصرّف بعيد كلّ البعد عن تصرّف فئة المؤمنين في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله؛ إذ كانوا في ركاب رسول الله صلى الله عليه وآله يقفون في مواجهة آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وأعمامهم، فيقاتلونهم بل يقتلونهم. فلمّا نهض هؤلاء في مواجهة الإسلام، وقاموا للوقوف في وجه منافع الإسلام والأمّة الإسلاميّة، كان تكليف المؤمنين أن يبارزوا أعداء

---

(١) الشريف الرضي، **نهج البلاغة**، الخطبة ٥٥.



الإسلام. وعلى هذا الطريق، لم يكونوا يحسبون حسابًا لكون من يقف في مقابلهم هم آباءهم وإخوانهم وأولادهم وأعمامهم؛ فعندما يتعلّق الأمر بمواجهة الإسلام، ينبغي مواجهة المهاجم كائنًا من كان. ثمّ يقول أمير المؤمنين عليه السلام: إنّ الله تعالى عندما رأى استقامة المؤمنين وثباتهم، نصرهم؛ لأدائهم التكليف وامتثال الأمر الإلهيّ، أنزل عليهم عونًا منه، ووفّقهم للغلبة على أعدائهم؛ «فَلَمّا رَأَى اللهُ صِدْقَنا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنا الْكَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنا النَّصْر»[1].

فالمؤمن ـ على طريق أداء التكليف وامتثال الأمر الإلهيّ ـ لا يعرف أبًا أو ابنًا ولا أخًا أو عمًّا؛ فلا تمنعه روابط المحبّة والعاطفة العائليّة من أداء وظيفته. وعندما نثبت بأعمالنا صدقَ أقوالنا، وعندما نُظهر حقيقةً أنّ عملَنا لله تعالى، ونظهرُ تسليمَنا لأمره، وأنّ إيمانَنا ليس محض ألفاظ وشعارات، فإنّ الله تعالى سوف يشملنا بألطافه وعناياته، فينزل على عدوّنا الهزيمة، ويمدّنا بالنصر والظفر.

ثمّ يضيف أمير المؤمنين عليه السلام في تكملة كلامه، أنّه لو كان حال المؤمنين في تلك المرحلة كحالهم في زمن أمير المؤمنين عليه السلام، لما قام عمود خيمة الدِّين أبدًا، ولما نما عود شجرة الدين والإيمان: «وَلَعَمْرِي لَوْ كُنّا نَأْتي ما أَتَيْتُمْ، ما قامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ وَلا اخْضَرَّ لِلإيمانِ عُود»[2].

فإن كنّا نرى أنّ الدِّين قد بقي، وأن عمود خيمة الإسلام قد قام، فذلك مرهون للتضحيات التي بذلها أولئك المؤمنون في سبيل دين الله تعالى، وعلى طريق إعلاء كلمة الحقّ والدين الإلهيّ، حيث وضعوا كلّ

---

(١) المصدر نفسه، الخطبة ٥٥.

(٢) المصدر نفسه، الخطبة ٥٥.

الاعتبارات العاطفيّة والرحِميّة جانبًا، وبارزوا الباطل وأهله، وإن كانوا آباءهم وأبناءهم وإخوانهم. وهذا ـ في الواقع ـ هو الصِّدقُ الذي يريده الله منّا، وينتظر أن نؤديَه؛ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾[1].

وفي الأساس، إذا أريد للدِّين أن يبقى، فإنّه يحتاج إلى مثل هذه الشخصيّات الصلبة الفولاذيّة، التي لا يخيفها شيءٌ في مقام أداء التكليف، بل لو رأوا إخوانهم أو آباءهم أو أولادهم يقفون سدًّا مانعًا في طريق الدِّين والإيمان، فإنّهم لا يتوانون عن اقتلاع هذا السدّ والإلقاء به جانبًا. أما لو كان من المقرّر أن يُلاحظ الإنسان ما يريده أصدقاؤه وأقاربه وأبوه وولده وحزبه وتيّاره، فعندئذٍ لا يبقى من الإسلام شيءٌ؛ «لَوْ كُنّا نَأْتي ما أَتَيْتُمْ ما قامَ لِلدِّين عَمُودٌ وَلا اَخْضَرَّ لِلإيمانِ عُود»[2].

وبناء عليه، فإنّه وإن كانت محبّة الوالدين والزوجة والأولاد أمرًا مطلوبًا، وواحدةً من النعم الإلهيّة، وعوامل بقاء النسل البشريّ، وكان بناء الأسرة وتشكّل المجتمعات والروابط الاجتماعيّة الصحيحة والسالمة، متوقّفًا عليها، فإنّها إذا زادت عن حدّها وأصبحت تعلّقًا قلبيًّا بنحوٍ يشكّل مانعًا من أداء سائر التكاليف، فعندها تصبح أمرًا مذمومًا وخطيرًا. فالمحبّة والعاطفة والتعلّق القلبيّ، ينبغي ألّا تشكّل مانعًا من الذهاب إلى الجهاد، أو إجراء العدالة، أو القيام بسائر التكاليف الاجتماعيّة، وإن أصبحت كذلك، فإنّ أثرها سوف يكون معكوسًا وسلبيًّا.

---

(١) سورة **الأحزاب**، الآية ٢٣.

(٢) الشريف الرضي، **نهج البلاغة**، الخطبة ٥٥



وإنّ أمير المؤمنين عليه السلام يمثّل نموذجًا ومثالًا كاملًا ومجسّمًا لهذه التصرّفات ولهذا الأسلوب والمسلك الإسلاميّ الصحيح في مختلف الميادين، ومنها الميدان الذي نبحث فيه فعلًا؛ فالعلاقة والعاطفة بين الأب وأولاده لا يمكنها أن توجد أيّ خلل في إرادة أمير المؤمنين عليه السلام في إجراء العدالة؛ فقد رويَ أنّ ابنته عليها السلام استعارت ذات يوم عقد عنق زهيد القيمة من بيت مال المسلمين، كي تستفيد منه في حفل زفاف، ثمّ تردّه. وقد كانت هذه الاستعارة على نحو «العارِيَّة المضمونة»، حيث إنّها تضمن أنّه لو أصاب هذا العقد أيّ خلل، فإنّ عليها جبران هذه الضرر. وقد جاء في كتب التأريخ أنّ أمير المؤمنين عليه السلام عندما اطّلع على هذا الأمر آخذ ابنته أشدّ المؤاخذة، وقال لها: «لو أنّك لم تأخذي هذا العقد عاريّةً مضمونة، لكانت يدك أوّل يدٍ تُقطع في الإسلام بجرم السرقة من بيت مال المسلمين!».

فأمير المؤمنين عليه السلام ـ في مقام إجراء الأحكام الإلهيّة ـ لا ينظر إلى كون الأمر متعلّقًا بأولاده، أو إلى أن النّاس سوف تقول: «لقد سرقت ابنة حاكم المسلمين!». بل إنّ من جمال الدِّين الإسلاميّ وحسنه وسرّ دوامه أنّ المجرم فيه ينال جزاءه وإن كان ابنة أمير المؤمنين عليه السلام أو ابن حاكم المسلمين. فإذا كانت ابنة عليّ عليه السلام مجرمة، فينبغي أن تنال عقوبتها بيد عليٍّ عليه السلام نفسه.

إنّ مراعاة بعض الاعتبارات الناشئة من مصالح وتحيّزات لا أساس لها، التي تبعث على إفلات بعضٍ من المؤاخذة والمحاسبة على أعمالهم، من شأنها أن تذهب بماء وجه النظام الإسلاميّ، فضلًا عن أنّها لا تعود بالنفع عليه؛ إذ لا يليق بسمعة النظام الإسلاميّ أن يكون الشخص الفلانيّ في مأمن من المحاسبة لأنّه قريبُ الزعيمِ الفلانيّ، ونسيب صاحب المقام

الفلانيّ، بل إنّ سمعة النظام الإسلاميّ تتحقّق عندما يُجازى المجرم، ويلقى العقاب على أفعاله، وإن كان ابن حاكم المسلمين. ولقد كان عليّ عليه السلام هكذا؛ إذ لم يمنعه شيءٌ من هذه الاعتبارات عن إجراء الأحكام الإلهيّة. وإنّ جهاد عليّ عليه السلام كان في سبيل الله تعالى وحدَه، فإنّه ولو وقف في مقابل الإسلام أبوه أو ولده، يواجهه ويخاطبه بلغة السيف والقتال عوضًا عن لغة العاطفة والحبّ: «وَلَقَدْ كُنّا مَعَ رَسُولِ الله نَقْتُلُ آباءَنا وَأَبْناءَنا وَإِخْوانَنا وَأَعْمامَنا»[١]. وعدالة عليّ عليه السلام في حكومته وحكمه كانت أيضًا على هذا النحو، فلو استعارت ابنته ذلك العقد ولم يكن على نحو العاريّة المضمونة، لقطع يدها بجرم السرقة، ولم يراعِ اعتبار أنّ هذه البنت هي حفيدة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وابنة عليّ عليه السلام والسيّدة الزهراء عليها السلام. ومن جهةٍ أخرى، فإنّ محبّة عليّ عليه السلام وعاطفته قد ظهرت في تعامله مع الأيتام والفقراء، حين كان يتألّم ويذرف الدمع عند رؤية المحنة والعذاب الذي يعانيه الأيتام ومن لا معيل لهم. ولكنّ عليًّا عليه السلام الذي كان بحرًا من المحبّة والعاطفة، كان ـ في مقام إجراء العدالة والعمل بالأحكام الإلهيّة ـ يذر كلّ عواطفه جانبًا، ويُجري أحكام الله بحزم.

وفي المحصّلة، إنّ محبّة الزوجة والأولاد والأصدقاء وسائر ألوان المحبّة الدنيويّة، إذا كانت في الحدّ الذي يشكّل مانعًا أمام أداء سائر التكاليف، فهي محبّة غير مطلوبة، بل تصبح سببًا في سقوط الإنسان وانحداره. وإنّ أصل هذه المحبّة يعدّ نِعْمةً من النِّعَم الإلهيّة الكبيرة التي تعود على الإنسان والمجتمع البشريّ ببركات متعدّدة وسعادات مهمّة،

---

(١) الشريف الرضي، **نهج البلاغة**، الخطبة ٥٥.





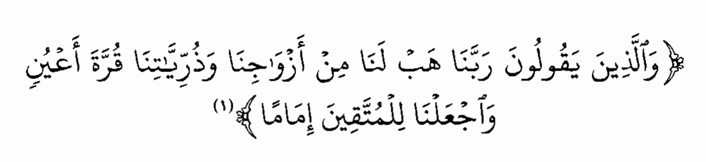
ولكنّها إذا تجاوزت الحدّ المطلوب، فإنّها تعود على الإنسان بآثار سيّئة وعواقب وخيمة.



الدرس التاسع عشر:

إمامة المتّقين تطلّع عباد الرحمن




﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[1]

معنى «الإمام»

هذه الآية هي الأخيرة في سلسة آيات سورة «الفرقان» المباركة، التي تتصدّى لبيان أوصاف «عباد الرحمن». وتذكر هذه الآية وصفين لعباد الرحمن:

الأوّل: هو اهتمامهم بالمجتمع الصغير، أي: العائلة والأولاد.

والثاني: هو اهتمامهم بالمجتمع الأكبر، وهو مجتمع الصالحين والمتقين.

وفي الجملة الأولى من هذه الآية وهي التي تتضمّن وصف اهتمام عباد الرحمن بالعائلة يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٤.



وقد تحدّثنا في الدرس السابق بما تيسّر عن هذه الصفة، وأشرنا إلى أنّ الأنبياء عليهم السلام ـ بعنوان المصداق الأبرز لعباد الرحمن ـ أبدَوا اهتمامًا خاصًّا بمسألة الأسرة والأولاد. وفي هذا السياق، تطرّقنا إلى الآيات التي تتحدّث عن النبيّ إبراهيم عليه السلام ـ نموذجًا ـ ودعائه اللهَ تعالى فيما يتعلّق بأبنائه وذريّته. وإنّنا في هذا الدرس وهو الدرس الختاميّ من سلسلة المباحث هذه، بصدد شرح القسم الثاني من الآية، وهو آخر الأوصاف المطروحة حول «عباد الرحمن».

في هذا القسم من الآية، يقول القرآن الكريم: إنّ من أوصاف «عباد الرحمن» أنّهم يدعون الله تعالى بهذا الدعاء: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

أوّل بحث يمكن أن يطرح حول هذه الآية، هو البحث في معنى كلمة «الإمام»، كي يُعلم، على ضوئها، المقصود من دعاء «عباد الرحمن» اللهَ تعالى أن يجعلهم أئمّة للمتّقين. فكلمة «الإمام» في الثقافة الشيعيّة تحظى بمعنى خاصّ، ونحن عندما نسمع هذه الكلمة عادةً مجرّدةً عن أيّة قرينة ونستعملها من دون ذكر قرائن قبلها أو بعدها، يكون المقصود منها أئمّة أهل البيت الاثني عشر عليهم السلام. ولكن ينبغي الالتفات إلى أن هذه الكلمة من اللحاظ اللغويّ، لا تحمل هذا المعنى، بل إنّ معناها في اللغة أوسع بكثير من هذا الاصطلاح الشائع في الأوساط الشيعيّة. إنّ كلمة «إمام» جمعها «أئمّة»، وهي تعني في اللغة العربيّة القائد أو الشخص الذي يكون له قيادة ورئاسة عند جماعة من النّاس، فيتقدّمهم ويتّبعونه. وهذه القيادة لا تختصّ بالقيادة والرئاسة في مسير الهداية والسعادة، بل تطلق كلمة «إمام» أيضًا على قادة الكفر وزعماء الضلال. ومن نماذج هذا الإطلاق، أنّ القرآن الكريم في بعض الموارد، يشير إلى أئمّة يقودون



الناس نحو السعادة والنجاة، فيقول: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[(١)]، وفي أحيان أخرى، يتحدّث عن أئمّة يسوقون الناس نحو الكفر والنيران، فيقول: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾[(٢)]، ويقول: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾[(٣)].

استعمال كلمة «الإمام» في القرآن الكريم

استعُملت كلمة «الإمام» في القرآن الكريم في موارد مختلفة، **منها:** إطلاقها على «الكتاب الإلهيّ»، حيث يقول تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾[(٤)]، فكما هو ملاحَظ في هذه الآية، قد أُطلقت كلمة «الإمام» على الكتاب السماويّ لنبيّ الله موسى عليه السلام، أي: التوراة.

ومنها: ما ورد في سورة «الحجر» المباركة، حيث يقول الله تعالى في هذه السورة بعد ذكره لقصّة قوم النبيّ لوط والنبيّ شعيب عليهما السلام: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[(٥)].

فوفق ما يُستفاد من الآيات والروايات، وما ذكره المفسّرون، إنّ واحدةً من المسيرات التجاريّة المهمّة والدائمة لأهل شبه الجزيرة العربيّة في ذلك الزمان، كانت نحو بلاد الشام، وفي وسط هذا المسير، على طريق مسير القافلات، كانت تقع الأرض التي كان يسكنها في الأزمنة السابقة قوم النبيّ لوط وقوم النبيّ شعيب عليهما السلام. ومن هنا، كان أهل مكّة

---

(١) سورة **الأنبياء**، الآية ٧٣.

(٢) سورة **القصص**، الآية ٤١.

(٣) سورة **التوبة**، الآية ١٢.

(٤) سورة **هود**، الآية ١٧.

(٥) سورة **الحجر**، الآية ٧٩.



والمدينة والمناطق المحيطة بها، يعبرون قرب هذه القرى المدمّرة، بشكل متكرّر، فتكون هذه المناطق في معرض رؤيتهم وتقع أمام أنظارهم بشكل واضح. ويشير القرآن الكريم إلى هذه المسألة بقوله: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، أي: إنّ هذه القرى المدمَّرة لأقوام لوط وشعيب، ها هي أمام أنظاركم وفي طريقكم بشكل واضح، ويمكنكم أن تروها، وأن تعتبروا من مصير هذه الأقوام، وأن تسيروا على الطريق الذي ساروا عليه.

ومنها: ما جاء بصورة الجمع، أي: «أئمّة»، الآية المعروفة والمشهورة جدًّا بيننا: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ﴾[1].

بالطبع، بحسب ما جاء في الروايات، فإنّ المصداق الأتمّ والتحقّق العينيّ والكامل لهذه الآية، هو إمام العصر والحكومة العالميّة له عليه السلام، ولكنّ ظاهر الآية عامّ وكلّيّ، ولا يختصّ بمورد معيّن. ولدينا في القرآن الكريم كثيرٌ من الآيات من هذا القبيل، التي لها مفهوم ومُفاد ظاهريّ عامّ وكلّيّ، ولكنها تطبّق على مصداق تامّ وكامل لها، بعنوان: «بطن» أو «تأويل» لها. فعلى سبيل المثال، هناك نموذج آخر لآيات من هذا القبيل؛ آية الولاية المعروفة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[2]؛ ففي رواياتنا الشريفة، تُفسَّر هذه الآية وتؤوَّل، بالوجود المقدّس لأمير المؤمنين عليه السلام، ولكنّ لفظها ومدلولها عامّ وشامل لسائر الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

(١) سورة **القصص**، الآية ٥.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ٥٥.



وعلى أيّة حال، فإنّ المراد من ذكر موارد استعمال كلمة «الإمام» في القرآن الكريم وتوضيح معانيها المختلفة، هو أن نلتفت إلى أنّه عندما يدعو «عباد الرحمن» بدعاء: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، ينبغي ألّا تنصرف أذهاننا إلى هذا المعنى الخاصّ، فنقول: إنّ المقصود من هذا الدعاء أنّهم يريدون أن يصبحوا أئمّةً معصومين، بل كما أوضحنا، إنّ المقصود من كلمة «إمام» في هذا المورد هو المعنى العامّ، أي: الشخص الذي يقود مجموعة من الناس.

ثلاث خصال مهمّة للإمامة

بالالتفات إلى التوضيح الذي بيّناه، فمن الطبيعيّ أنّ الذي يريد أن يكون إمامًا وقائدًا لجماعة معيّنة، ينبغي أن تُلحَظ فيه ثلاث خصال:

الخصلة الأولى: التحرّك أمام الجماعة

الأولى: التحرّك أمام الجماعة، أعني: ألّا يكون منتظرًا لأن يختار الآخرون طريقًا ما يسيرون عليه، حتّى يتّبعهم ويحذوَ حذوَهم؛ فالشخص الذي يتحرّك خلف الآخرين، كيف يمكن أن يقال: إنّه إمام لهذه الجماعة؟! بالطبع، إنّ الإمام الذي يتحرّك متقدّمًا الآخرين لا فرق بين أن يكون إمامًا معصومًا أو أيّ إمام حقّ آخر، كالأئمّة من المستضعفين، الذين سوف يوصلهم الله إلى مقام إمامة الخلق طبقًا لمُفاد الآية الكريمة: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[1].

---

(١) سورة **القصص**، الآية ٥.

والثانية: أنّ الإمام الواقعيّ والحقيقيّ، الذي يقود الآخرين ويتقدّمهم وهم يتحرّكون خلفه، إنسانٌ يمتلك صلاحيّة هذه القيادة. وعلى هذا الأساس، فإذا ادّعى أحدٌ الإمامة لنفسه كذبًا، وعرّف عن نفسه بأنّه قائد الخلق وإمامهم، فإنّ القرآن الكريم لا يختم له بختم التأييد على إمامته ولا يُصدّق بقيادته مباشرةً. بل إنّ القرآن الكريم يعتبر الإمام هو من يتحلّى بالشرائط اللازمة من أجل هذا الأمر. ومن الطبيعيّ، أنّ أوّل شروط الإمام والقائد والرئيس، أن يكون عارفًا بالطريق، محيطًا به؛ فمن كان في نفسه جاهلًا بالطريق، كيف له أن يتقدّم الناس في حركتهم؟! وكيف لهم أن يتّبعوه؟ ويبيّن القرآن الكريم هذا المطلب بأسلوب رائع حيث يقول: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1].

إنّ من الأساليب القرآنيّة في بيان المسائل، أنّه أحيانًا عندما يريد أن يبيّن حقيقة ما، فإنّه يطلب الحكم من عقول الناس، فيطرح المسألة في قالب سؤال يسأله للناس. فعلى سبيل المثال، يقول في إحدى آياته: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾[2]، فعوضًا عن أن يقول: إنّ مقام العالم أعلى من مقام الجاهل بكثير، يتوجّه بالسؤال إلى الناس: «هل يستوي العالم والجاهل؟». إنّ تأثير هذا البيان السؤاليّ يفوق بدرجات تأثير البيان الأوّل. وفي آية أخرى، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ﴾[3].

---

(١) سورة **يونس**، الآية ٣٥.

(٢) سورة **الزمر**، الآية ٩.

(٣) سورة **الرعد**، الآية ١٦.



ويسمّى هذا النوع من الاستفهام اصطلاحًا بالاستفهام الإنكاريّ، أي: إنّه من الواضح أنّ الجواب عن هذا السؤال ليس سلبًا، ولكنّ السائل يريد في الواقع من هذا السؤال أن يقول للمخاطب: إنّ الإنسان العاقل لا يمكن أن يقبل بمثل هذا الأمر.

وفي الآية (محلّ البحث)، وهي في مقام بيان الشرط الأوّل في الإمام، يسأل القرآن الكريم: «هل الشخص الذي يملك أهليّة أن يقود الآخرين إلى الحقّ والحقيقة أولى أن يتّبعه الناس ويقتفوا أثره، أم ذلك الشخص الذي لا يعرف الطريق ويحتاج إلى الآخرين ليرشدوه حتى يهتدي إلى الطريق؟» من البَدَهيّ، أنّ القائد ينبغي أن يكون شخصًا عارفًا بالطريق، محيطًا بخصوصيّاته، وأن يكون ضليعًا بمرتفعاته ومنخفضاته ومنعطفاته وتعرّجاته.

وعلى أيّة حال، فإنّ آية: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1]، من جملة الآيات التي يُستند إليها في إثبات إمامة أئمّة أهل البيت عليهم السلام؛ ففي مقابل أمير المؤمنين والأئمّة عليهم السلام كان هناك أشخاص يعترفون في موارد مختلفة بعدم امتلاكهم للمعرفة الكافية والبصيرة اللازمة فيما يرتبط بأحكام الإسلام ومصالح المجتمع الإسلاميّ؛ فكيف يمكن لمثل هؤلاء الأشخاص أن يدّعوا لأنفسهم إمامة الناس وقيادتهم؟ وعلى أيّ مستند يتّكئون في دعواهم هذه؟ فالشخص الذي يحتاج إلى غيره كي يأخذ بيده ويقول في مختلف الموارد والقضايا: «لا أعلم هذه المسألة، فسَلُوا عليًّا»، كيف له

---

(١) سورة **يونس**، الآية ٣٥.

أن يكون إمامًا للناس؟ هل ينبغي اتّباع مثل هذا الشخص، أم ينبغي اتّباع الشخص الذي يعرف الطريق جيّدًا وبإمكانه هداية الآخرين؟

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يا أيّها العقلاء! ماذا تحكمون في هذه المسألة؟ فالشخص الذي بنفسه لا يعرف الطريق هل يكون لائقًا بإمامة الناس؟! أم أنّ اللائق بهذه الإمامة هو ذلك الذي يعرف الطريق جيّدًا ويمكنه أن يأخذ بيد غيره؟ ﴿أَفَمَن يَهْدِيَ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيَ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1].

وبناءً عليه، فإنّ أولى الخصائص التي ينبغي توفّرها في الإمام، أن يتحرّك أمام الآخرين، لا أن ينتظر شخصًا أو جماعة كي يمضوا ويتقدّموا وأن يتحرّك تابعًا لهم. وثاني هذه الخصائص أن يعرف الطريق الذي يريد أن يخوضه حقّ المعرفة، لا أن يحتاج إلى من يُعرّفه بهذا الطريق، وهو ما عبّرنا عنه بامتلاك صلاحيّة القيادة.

الخصلة الثالثة: التمكّن من الهداية

والثالثة: أن يكون متمكّنًا من الأخذ بأيدي الآخرين وهدايتهم، وأن يقودهم تحت لوائه نحو المقصد.

هذه الخصائص الثلاث بالحدّ الأدنى هي خصائص ينبغي توفّرها في الإمام، أمّا الشخص الذي لا يتمتّع بهذه الخصائص فليس له صلاحيّة الإمامة والقيادة في أيّ سطح من السطوح.

---

(١) سورة **يونس**، الآية ٣٥.

عباد الرحمن يبحثون عن الرئاسة!

ومن المسائل التي يمكن البحث فيها حول صفة «عباد الرحمن» هذه أنّه: «ألا يُعتبر طلب «عباد الرحمن» من الله تعالى أن يجعل منهم قادةً وأئمّة للمتقين، نوعًا من حبّ الرئاسة وحبّ المقام وطلب الدنيا؟ فما حقيقة هذا الوصف المذكور لعباد الرحمن بوصفه آخر ما يطلبونه وخاتمة لأوصافهم؟».

يمكن بقليل من التدقيق والتأمّل أن يرتفع الإشكال، ويجاب عن التساؤل؛ ذلك لأنّ طروء هذا الإشكال في ذهني وأذهان أمثالي، من المحتمل أن يكون بسبب القياس إلى النفس؛ فأمثالي عندما ينظرون في أنفسهم يرَون أنّ قلوبهم تريد الوصول إلى المقام والموقعيّة، ويريدون أن يتقدّموا على الآخرين وأن يقودوهم، ويرغبون أن يتّبعهم الناس في سيرهم ويصطفّوا صفوفًا لتقبيل أيديهم ويرفعوا عند رؤيتهم شعار: «صلّوا على محمّد ﷺ ها قد أقبل ناصر الإمام عليه السلام!»؛ فحيث إنّنا على هذا النحو، نتصوّر أن «عباد الرحمن» يطلبون من الله أن يجعل منهم قادة للمتّقين، وأئمّة لهم؛ لأنّ روحيّة طلب الرفعة والرئاسة تتحكّم بهم، ولأنّهم يلهثون وراء الحصول على المنصب والمقام، ويريدون أن يصبح الآخرون في أيديهم ويتّبعوهم. هذا، والحال أنّ الحقيقة غير ذلك كلّيًّا، ومنشأ دعاء «عباد الرحمن» هذا ليس المطامع والأهواء والهوس الماديّ الدنيويّ.

إنّ الذين يريد الإنسان أن يتّخذهم قادة له وأئمّة يتّبعهم، قد يكونون أناسًا عاديّين؛ من عموم الناس، وبطبيعة الحال سيكون من بينهم بعض أهل الذنوب والضلال والفسق. ومن الممكن أيضًا، أن يكونوا أناسًا متميّزين وعظماء من الناحية المعنويّة. والمفترض في «عباد الرحمن»





أنّهم يسيرون على درب ومسير خاصّ بالمتقين. ومن هذه الحيثيّة، فإنّ هذا الطلب والدعاء في الواقع هو علامة على همّتهم العالية؛ إذ يريدون أن يؤدّوا دورًا متقدّمًا ورائدًا وقياديًا في هذا المسير، الذي يضمّ هذا الجمع العظيم من الصالحين والمتّقين.

وفي الواقع، إنّ دعاء «عباد الرحمن» هذا، نظيرُ أن يدعو أحدهم الله تعالى أن يجعله مجرىً لفيضه، ووسيلة في إيصال النِّعَم المادّيّة والمعنويّة إلى الآخرين. فإذا دعا إنسانٌ الله تعالى أن يرزقه ثروةً ماليّة ليساعد الفقراء، وكانت هذه نيّته الحقيقيّة، فليس في هذا الدعاء أيّ إشكال. نعم، إذا كان قصده الأصليّ أن يصبح غنيًّا وأن يتمتّع بالثروة والرفاه، وكانت مساعدة الفقراء على هامش هذا القصد، فهذا بحثٌ آخر، ومثل هذا الدعاء لا يمكن اعتباره دعاءً على درب الله تعالى والآخرة والحياة المعنويّة. أمّا لو أراد الإنسان الثروة حقيقةً من أجل مساعدة الفقراء، ومدّ يد العون للأيتام والمحتاجين، فهذا ليس من طلب الدنيا بل هو عين طلب الآخرة والحياة المعنويّة. وإنّ أمير المؤمنين وسائر الأئمّة عليهم السلام قد كانوا من هذا القبيل. فقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يعمل لمدّة طويلة ويُجهد نفسه في حقول النخيل وإنشاء آبار المياه، ثمّ يصرف جميع هذه الأموال وقفًا على الفقراء والمحتاجين. وكان الإمام الحسن عليه السلام ـ بالإضافة إلى بذله للمال الوفير وإنفاقه الكثير ـ قد قسّم كامل ثروته بين الفقراء ثلاث مرّات. وكذلك الإمام الحسين عليه السلام وسائر الأئمّة الأطهار عليهم السلام؛ فقد سلكوا نفس هذا المنهج أيضًا وقسّموا أموالهم الواصلة إليهم من مختلف الطرق بين الناس والفقراء. وفي الوقت الذي كان أمير المؤمنين عليه السلام يقوم بأعمال الخير هذه، كان طعامه المعتاد الماء مع مقدار من الخبز اليابس. وفي كثيرٍ من الأوقات، لم يكن معلومًا



ما إذا كان مقدار الخبز هذا كافيًا ليتمكّن الإمام من السير على أقدامه أم لا؟!

وبناء عليه، فإنّ عليًّا عليه السلام وأمثاله إذا طلبوا من الله مالًا وثروةً، فليس هذا طلبًا للدنيا، بل طلبٌ لخدمة خلق الله. والأمر في المسائل المعنويّة على هذا المنوال؛ فلو سأل إنسانٌ اللهَ تعالى أنّ يمنحه توفيق هداية الآخرين وقيادتهم في مسير القرب الإلهيّ، فإنّ هذا الدعاء ليس ناشئًا من طلب الجاه والمقام، بل إنّه يُظهر همّة الإنسان العالية والرفيعة. وإنّ «عباد الرحمن» من هذه المجموعة، وهمّتهم عالية إلى درجة أنّهم لا يكتفون بإدخال أنفسهم في مصافّ أهل التقوى، بل يسألون الله تعالى أن يوفّقهم ليتمكّنوا من الأخذ بأيدي المتّقين وإيصالهم إلى أعلى المقامات وأرفع الكمالات.

وإنّ التقوى مثل كثيرٍ من الأمور المعنويّة لها مراتب ودرجات. فمن الممكن للمتّقي أن يأخذ بيد شخص آخر يتمتّع بمرتبة معيّنة من التقوى، ويرفعه نحو المراتب الأعلى. وإن حظيَ المتّقون بإمامٍ وقائدٍ يليق بهذا المقام، يمكنهم حينئذٍ أن يطووا يومًا بعد يوم الدرجات الأعلى من التقوى والقرب الإلهيّ، ويتقرّبوا من الله أكثر، مستنيرين بنور هداية هذا الإمام وقيادته. وعلى العكس، فإنّ عدم وجود الإمام والقائد الجدير بهذا المقام، يؤدّي إلى بقاء المتّقين في نفس المرتبة التي وصلوا إليها، أو على الأقلّ، يبطّئ من خطوات المتّقين وتقدّمهم في مدارج الكمال ومراتب التقوى.





طلب إمامة المتقين في تحليل أعمق

إذا أردنا أن نوضح جيّدًا أهمّيّة دعاء «عباد الرحمن» هذا ومكانته، ينبغي علينا الرجوع قليلًا إلى الوراء، وأن ننظر إلى هذه المسألة على ضوء أصول الرؤية الكونية الإسلاميّة وكلّيّاتها؛ فإنّ نظرة الإسلام إلى عالم الوجود برمّته، نظرة الإسلام إلى الإنسان وهدف خلقته وطبيعة كماله، والرؤية الإسلاميّة في هدف بعثة الأنبياء، ومسائل من هذا القبيل، تشكّل أصولًا وكلّيّات، نمتلك معرفة إجماليّة حول بعض مسائلها. ولكنّ هذا الاطّلاع الإجماليّ ليس كافيًا، بل لا بدّ من السعي ضمن الحدّ المتوفّر، إلى أن نبدّل هذه المعرفة إلى معرفة تفصيليّة. وإنّ عمل العلماء والحوزات العلميّة، وأمثال هذه المباحث والدروس في الحقيقة، هو تبيين هذه المعارف الإجماليّة بوضوح وتفصيل وتفسير أكبر، كي يدركها الإنسان بشكل أفضل، ويتمكّن من النهوض للدفاع عنها بنفسه.

وفيما يرتبط بهدف بخلقة الإنسان وهدفها، عقدنا فيما سبق سلسلة دروس ومباحث، تناولنا فيها هذه المسألة بالتفصيل. وقلنا: إنّ القرآن الكريم يبيّن بصراحة تامّة هدف خلقة الإنسان، حيث يقول ـ في صريح الآية الكريمة ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]؛ فالله تعالى يقول ـ في هذه الآية ـ: إنّه ليس الإنسان فقط، بل الجن أيضًا، لم يُخلقوا إلّا لهدف واحد، وهو: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾. ولكن بقرينة الآيات الأخرى المحفوفة بهذا الموضوع، نعلم بالمجموع، أنّ العبادة ليست الهدف النهائيّ من خلق الإنسان، بل تُعدّ من الأهداف المتوسّطة، التي تُشكّل مقدّمة للهدف النهائيّ.

---

(١) سورة **الذاريات**، الآية ٥٦.



ومن الأهداف المتوسّطة الأخرى لخلق الإنسان ما أشير إليه في طيّات الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[١]؛ ففي هذه الآية عُبّر عن الابتلاء والامتحان بوصفه هدفًا لخلقة الإنسان، ولكن من الواضح أيضًا، أنّ الابتلاء ـ كالعبادة ـ لا يُعدّ الهدف النهائيّ من خلقة الإنسان، بل من الأهداف المتوسّطة ومقدّمات الهدف النهائيّ. وشبيه بهذه الآية، قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٢].

فكمّا صرّحت هاتين الآيتين، إنّ الامتحان والابتلاء مقدّمة للعمل. وبناءً عليه، فبين الامتحان والعبادة ينبغي اعتبار الامتحان مقدّمة للعبادة وواسطةً لبلوغها؛ ذلك لأنّه يُعلم أيّ البشر يسلّم لأمر الله تعالى ويسلك طريق العبوديّة له، وأيّهم يعصي ويطغى على العبوديّة، بواسطة الامتحان والاختبار. **بعبارةٍ أخرى**: إنّ مُفاد آية: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ ونتيجتها، هو أن تُجعل أعمال الذين يطوون طريق العبوديّة ﴿أَحْسَن﴾ وأرفع من أعمال الآخرين.

والآن يطرح السؤال التالي: «أيّة نتيجة هي التي تعود على هؤلاء الذين سلكوا مسير العبوديّة، وبات عملهم أحسن وأرفع من أعمال غيرهم؟».

الجواب: أنّهم ينالون مقام اسمه «القرب الإلهيّ»، وهذا القرب الإلهيّ ـ في الواقع ـ هو الهدف النهائيّ من خلق الإنسان. **بعبارةٍ أخرى**: إنّ الإنسان قد خُلق ليبلغ مقام «القرب الإلهيّ»، وطريق الوصول إلى

---

(١) سورة **الملك**، الآية ٢.

(٢) سورة **الكهف**، الآية ٧.

هذا المقام، هو سلوك مسير العبوديّة لله تعالى. وإنّ اصطلاح «قربة إلى الله» الذي نستعمله في بعض أعمالنا يشير إلى هذا المطلب. وفي القرآن الكريم أيضًا، ذُكر هذا المقام بواسطة تعابير من قبيل «عند الله» وأمثالها:

منها: ما جاء في سورة «القمر» المباركة: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾[١].

ومنها: ما ورد في قصّة السيدة آسيا زوج فرعون، عندما تعرّضت لغضب فرعون ومضايقاته بسبب إيمانها بالنبيّ موسى عليه السلام، قال تعالى ـ حكايةً عنها ـ: ﴿قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾[٢].

وفي هذا الصدد، نشاهد في الروايات الشريفة ـ بالإضافة إلى تعبير «قرب» و«عند» ـ تعبير آخر، وهو «جـوار»، وقد ورد هذا التعبير في مناجاة المريدين للإمام السجّاد عليه السلام، حيث يخاطب الله تعالى مناجيًا إيّاه: «رُؤْيَتُكَ حاجَتي، وَجِوارُكَ طَلَبي، وَقُرْبُكَ سُؤْلي»[٣].

وبناءً عليه، فإنّ على هذا المخلوق أن يصل إلى مقام اسمه «القرب إلى الله» أو «جوار الله». وهذا هو الهدف النهائيّ من خلق الإنسان، ومقدّمةُ بلوغِه، سلوكُ طريق العبوديّة التي أشير إليها في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٤].

---

(١) سورة **القمر**، الآيتان ٥٤ و٥٥.

(٢) سورة **التحريم**، الآية ١١.

(٣) الشيخ عباس القمي، **مفاتيح الجنان**، المناجيات الخمس عشرة، مناجاة المريدين.

(٤) سورة **الذاريات**، الآية ٥٦.



ومن أجل بلوغ مقام العبوديّة، ينبغي أن يُوضع الإنسان في بوتقة الاختبار والامتحان، أي: إنّ مقدّمة الوصول إلى مقام العبوديّة، هي الاختبار والامتحان. فإذا استطاع أن يخرج من الامتحانات والاختبارات برأس مرفوع، وتمكّن من سلوك طريق العبوديّة، فبمقدار ما بلغ من مراتب العبوديّة، فإنّه يتقرّب إلى الله بهذا المقدار، ويحظى بالرحمة الإلهيّة غير المتناهية.

بالالتفات إلى التوضيحات التي قدّمناها، يُطرح السؤال التالي: «ما هي السنّة الإلهيّة المجعولة من أجل طيّ البشر المسيرَ المذكور، المحفوف بالاختبارات والامتحانات، كي ينالوا لياقة الحصول على الرحمة الإلهيّة ونيل القرب الإلهيّ؟».

في مقام الإجابة على هذا التساؤل، ينبغي أن يُقال: إنّ إحدى الوسائل التي وضعها الله تعالى في اختيار الإنسان من أجل طيّ هذا المسير هو «العقل»؛ فإنّ العقل في كثيرٍ من الموارد، بإمكانه أن يحدّد للإنسان الأمر الحسن من القبيح، والصحيح من الخاطئ، وأن يبيّن له أثناء الامتحان أيّ مسيرٍ هو مسير العبوديّة. ولكن العقل وحدَه لا يغطّي جميع احتياجات الإنسان في هذا المجال، وليس كافيًا في فهم جميع الحقائق. ومن هنا، بعث الله تعالى أنبياءه الإلهيّين ليأخذوا بيد الإنسان ويصطحبوه نحو المنزل المقصود، أي: القرب الإلهيّ. وكذلك جعل بعد كلّ نبيّ أوصياءَ له وخلفاءَ بين البشر، ليبيّنوا للناس كلام الأنبياء، ويفسّروا تعاليمهم، ويستكملوا ما بدأوه في هداية الناس إلى القرب الإلهيّ.

ومن هنا، تكون الاعتقادات التي نمتلكها في أبواب أصول الدين مدوّنة بمساعدة العقل والوحي وهدايتهما، وكذلك الوظائف العمليّة التي ينبغي القيام بها؛ فإنّها تُشخَّص بناءً على قوانين وقواعد دقيقة. وفي



هذا المجال، كلّ الأدوات والقواعد والأصول اللازمة لتكامل الإنسان قد تمّ تحديدها بشكل كامل ولم ينقص أيّ شيء منها في هذا المسير أبدًا. فعلى ضوء هداية العقل والوحي، تمّ توضيح سبب خلقة الإنسان والهدف من حياته في هذه الدنيا، والطريقة التي أن ينبغي أن يعيش وفقها، والمقصد الذي ينبغي أن يبلغه، كلّ هذا بيّنه العقل والوحي لجميع البشر دونما نقص ولا إبهام.

وهنا نقطة ينبغي الالتفات إليها، وهي أنّ مسير التكامل عند جميع البشر ليس خطًّا مستقيمًا واحدًا، بحيث ينبغي على جميع البشر من أجل الوصول إلى تكاملهم أن يطووا مسيرًا مشخّصًا على نحوٍ واحد، وعلى قدم المساواة، وأن يصلوا في النهاية إلى منتهى ومقصد واحد. بل إنّ هذا المسير واسع جدًّا، وبإمكان كلّ إنسانٍ في هذا الميدان الوسيع أن يختار مبدأً ومنتهىً له، غير الذي اختاره الآخرون. ويمكن أن يكون أفضل تمثيل وتشبيه على هذه المسألة ما يعرف في الرياضيات بالنظام الإحداثيّ[١]؛ إذ يتألّف النظام الإحداثيّ من محورين اثنين، الأوّل: محور (y)، والثاني محور (x)، وتسمّى النقطة التي تشكّل مبدأ كلّ من المحورين بالنقطة (o). في المحور (y) ـ المحور الطوليّ ـ يوجد نقاط تقع فوق النقطة (o) ولها ما يعرف اصطلاحًا (y موجب)[٢] ، ونقاط تقع تحت النقطة (o) ولها (y سالب[٣]). وكذلك في المحور (x) ـ المحور العَرْضيّ ـ يوجد نقاط تقع على يمين النقطة (o) لها اصطلاحًا (x موجب[٤]) ، ونقاط تقع على يسار

---

(1) Coordinate system.
(2) y positive.
(3) y negative.
(4) x positive.



النقطة (o) ولها (x سالب[1]). وكلا المحورين (x) و(y) لهما امتداد غير متناهٍ، في الجهة الموجبة والجهة السالبة على حدّ سواء، لا يتصوّر نهاية فيهما. **بعبارةٍ أخرى:** في كلا المحورين، أيّة نقطة تتصوّرها، سواء في الجهة الموجبة أم الجهة السالبة، بإمكانك أن تتصوّر وجود نقطة بعدها، ولا يوجد أيّة نقطة لا يمكن أن تفترض نقطة بعدها.

وإنّ وضع الإنسان في مسيره التكامليّ شبيه بهذه المحاور في النظام الإحداثيّ؛ **فأوّلًا:** خلق الله تعالى الإنسان بنحوٍ يستطيع معه أن يتّخذ سيرًا موجبًا أو سيرًا سالبًا. **وثانيًا:** إنّ كلًّا من المسيرين ـ الموجب والسالب ـ ليس لهما حدّ نهاية، وإنّ كلّ مرحلة يتخطّاها الإنسان من مراحل سيره ـ أعمّ من الموجب والسالب ـ يوجد بعدها مرحلة أخرى بإمكانه أن يبلغها. فالإنسان في مسيره التكامليّ، بإمكانه أن يرتقي ويرتفع ويتقرّب إلى الله تعالى حتّى يصل إلى مرتبة: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[٢]، وبإمكانه أيضًا أن يتسافل ويسقط حتّى يصبح مقرّه: ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾[٣]. هذا حال الإنسان في سيره على المحور الطوليّ ـ المحور (y)، حيث يمكن تصوير ميزان صعوده أو سقوطه بالالتفات إليه.

أمّا تصوير «كيفيّة» صعود الإنسان أو سقوطه، فينبغي من أجل تحديدها أن نتصوّر المحور العَرْضيّ ـ المحور (x) ـ. وإنّ الأمور التي بإمكانها أن توجب صعود الإنسان أو سقوطه كثيرة ومتعدّدة، بحيث يمكن تصوّر افتراضات غير متناهية لها، من خلال تركيب هذه الأمور المختلفة. فعلى سبيل المثال، إنّ المحور العَرْضيّ (x) الموجب ـ وهو

---

(1) x negative.

(٢) سورة **النجم**، الآية ٩.

(٣) سورة **التين**، الآية ٥.

الذي يشكّل الأعمال الصالحة والأفعال الحسنة ـ يضمّ طيفًا واسعًا من هذه الأعمال؛ فالصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتلاوة القرآن الكريم، وخدمة المؤمنين، وبرّ الوالدين، والإيثار، والعفو، والتحنّن على الأيتام، وغيرها من الأعمال تمثّل نماذج لهذه الأعمال. أمّا أنّ كلّ شخص، أيّ هذه الأعمال يختار، وضمن أيّ حدّ ومقدار، وأيّة تركيبات يشكّل منها، فإنّه يستتبع فروضات متعدّدة في غاية الكثرة، وهي في الواقع غير قابلة للحساب. وعلاوة على هذا، فإنّ نفس ارتباط هذه الأعمال بعضها ببعض، وعملية التأثير والتأثّر المتقابل، فله حديثه المنفصل، الذي يزيد من أعداد هذه الفروضات، ويؤكّد خروجها عن قابليّة الحساب.

وبعد هذا التوضيح الإجماليّ حول أصول الرؤية الكونيّة الإسلاميّة وكلّيّاتها، ونظرة الإسلام إلى العالم والإنسان وهدف الخلقة، يمكننا الآن إدراك أهميّة ومكانة دعاء «عباد الرحمن» بصورة أفضل. وتوضيح ذلك أن نقول:

إنّ واحدةً من أهمّ الخطوات الكبيرة التي ينبغي طيّها في مسير التكامل الإنسانيّ، والتي يمكن أن نستلهمها على وجه الخصوص من قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، هي أنّه لا ينبغي على الإنسان أن يفكّر في نفسه فقط، وأن يتمنّى لنفسه ـ فقط ـ الوصول إلى السعادة والقرب الإلهيّ، بل ينبغي عليه أن يهتمّ بالآخرين أيضًا، ويتمنّى لهم ذلك. ومن جهةٍ أخرى، فإنّ الشريعة الإسلاميّة المقدّسة، وإن كانت قد وضعت لنا تكاليف ووظائف تجاه سائر الأفراد، فإنّ الدافع الأساسيّ من أدائها هو التكامل الشخصيّ فقط، وإنّ أغلب الناس إنّما يؤدّونها لكونها تعود عليهم بالتكامل الشخصيّ؛ فعلى سبيل المثال، عندما يدفع الإنسان



الزكاة، فصحيح أنّ هناك أناسًا يستفيدون من هذه الأموال، ويرفعون بها مشكلاتهم المعيشيّة، ولكنّ هذا الإنسان يقوم بهذا العمل بهدف أن يصبح ماله حلالًا، وكي ينجو من عذاب جهنّم ونيرانها. ومن هنا، فإنّ هذا المقدار من الإحساس بالتكليف تجاه الآخرين ليس كافيًا للمؤمن الواقعيّ، بل إنّ الإسلام طلب منّا أن نفكّر أعمق من هذا الحدّ، وأن نخطو خطوات أبعد من ذلك؛ فإنّنا ـ علاوة على هذه التكاليف الاجتماعيّة العاديّة التي نؤدّيها بنيّة التقرّب الشخصيّ إلى الله أكثر ـ ينبغي علينا أن نشعر في أنفسنا بضرورة تأدية وظائف أعلى ومسؤوليات أكبر تجاه سائر عباد الله، وأن نلتزم بالقيام بها. فلا إنجاز في أن نهتمّ بتكاملنا الشخصيّ فقط، وقربنا أكثر إلى الله تعالى، بل إنّ الإنجاز الواقعيّ يكمن في أن نكون حساسّين تجاه وصول باقي البشر إلى تكاملهم وتقرّبهم إلى الله تعالى، وأن نعيش هاجس هدايتهم، ونسعى إلى أن نأخذ بأيديهم.

إنّ المؤمنين الذين يلتذّون بالمناجاة الإلهيّة في جوف الليل ويبلغون مقام: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾[١]، حتّى نالوا عند الله ثواب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٢]، يحبّون أن يبلغ الآخرون هذا المقام أيضًا، وينالون هذا الثواب الإلهيّ. بالطبع، إنّهم لا يعبّرون عن ذلك أمام الملأ؛ لأنّ ذلك قد يكون منشأً لبروز آفة الرياء، ومهيّئًا لأرضيّة ظهوره، بل يدعون الله في خلواتهم ولياليهم أن يجعل الآخرين شركاء لهم في لذّتهم هذه، وأن يوصلهم إلى هذا المقام، ويبلّغهم هذه السعادة. وإنّ مثل هذه الروحيّة أرفع بكثير ممّا لدى المؤمنين والمتّقين؛ لأنّ الإنسان المؤمن والمتّقي أقصى ما ينبغي له

---

(١) سورة **السجدة**، الآية ١٦.

(٢) سورة **السجدة**، الآية ١٧.

أن يفكّر فيه هو نجاته من العذاب، ووصوله إلى الكمال، ونيله للقرب الإلهيّ. أمّا من يريد أن يكون إمامًا للمتّقين، فلا يمكن أن يكتفيَ بهذا المقدار، وأن يفكّر في مسيره التكامليّ الشخصيّ فقط، وقربه إلى الله، بل إنّه يدعو الله تعالى أن يعطيَ الآخرين كلّ ما أعطاه إيّاه؛ فالنبيّ إبراهيم عليه السلام عندما وصل بنفسه إلى مقام التسليم الكامل: مقام ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾[1]، وبلغ مقام أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2]، لم يرض أن يكون هذا المقام له دون غيره، بل سأل الله تعالى هو وولده إسماعيل عليهما السلام أن يمنح هذا المقام لأولادهما وذريّتهما؛ ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾[3].

و«عباد الرحمن» أيضًا، بعد أن يدعون لأنفسهم ويسألون الله تعالى أن يبلغهم أعلى مراتب الكمال، يفكّرون في أزواجهم وأولادهم أيضًا، فيسألون الله تعالى الخير والصلاح لهم، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[4]، ولا يكتفون بهذا الحدّ، بل يُظهرون اهتمامًا ومشاعر تجاه جميع أهل التقوى، ويسألون الله أن يكونوا قادتهم في نيل الكمالات والقرب إليه؛ ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[5].

ثمّ إنّ كلمة «المتّقي» تستعمل في مقابل «الفاجر»، و«التقوى» في مقابل «الفجور»، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[6].

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٢٠.

(٢) سورة **الأنعام**، الآية ١٦٢.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ١٢٨.

(٤) سورة **الفرقان**، الآية ٧.

(٥) سورة **الفرقان**، الآية ٧.

(٦) سورة **ص**، الآية ٢٨.



والمتّقي هو ذلك الذي يكون من أهل الثبات والاستقامة، أمّا الفاجر فهو ذلك المتحرّر من كلّ القيود والتابع لأهوائه وهوسه؛ فالفجّار هم الذين يتملّصون من كلّ القيود، ويفعلون كلّ ما تمليه عليهم أنفسهم، ومنطقهم في الحياة يقول: «لا تبالِ، وليكن ما يكون، واتّخذ الاستهتار مسلكًا». أمّا المتّقون فيقيّدون أنفسهم، ويراقبون أفعالهم ما إذا كانت ترضي الله تعالى أم لا؟ وهل تعود عليهم بالسعادة أم بالشقاء؟

وقد أمر الله تعالى نبيّه الأكرم ﷺ أن يعرض عن أولئك الذين دخلوا في زمرة الفجّار، وتركوا لجام أنفسهم، وأحبّوا أن يخرجوا من قيد العبوديّة الإلهيّة؛ ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾[١]؛ اترك أولئك الذين لا يبحثون سوى عن الحياة الدنيا ولذّاتها، واجعل همّك وهمّتك منصبّين على الذين يريدون بلوغ الكمالات الإنسانيّة والأمور المعنويّة والقرب الإلهيّ. ويقع في صدر هؤلاء الأشخاص الأهل والزوجة والأولاد. وفي هذا الصدد، يقول الله تعالى في خطابه للنبيّ الأكرم ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[٢].

يقول الله تعالى لنبيّه ﷺ: «بالإضافة إلى أنّك ينبغي أن تكون صابرًا على أداء الصلاة، لا تنس أهلك، بل ادعهم ليهتمّوا بالصلاة أيضًا».

وبناءً عليه، فإنّ المتّقين ـ بالإضافة إلى ثباتهم على تقواهم واحتراسهم من التعثّر والسقوط ـ يفكّرون في درجةٍ أعلى، يفكّرون في أُسَرهم وأزواجهم وأولادهم، وبعد ذلك يفكّرون في سائر المتّقين، ويجتهدون في سبيل وقايتهم من خطر التعثّر والسقوط.

---

(١) سورة **النجم**، الآية ٢٩.

(٢) سورة **طه**، الآية ١٣٢.

وحاصل الكلام، أنّ الآيات الختاميّة من سورة «الفرقان» المباركة، هي ـ في الواقع ـ في مقام ترسيم «المثل الأعلى»، وإنّ الله تعالى يريد من بيان هذه الآيات أن يعرض لنا المثل السامي لعباد الله الصالحين. وفي هذا الترسيم، تشير الآيات الإلهيّة إلى الجنبة الإيجابيّة؛ الأمور التي يهتمّ بها «عباد الرحمن» ويلتزمون بفعلها، وتشير أيضًا إلى الجنبة السلبيّة؛ الأمور التي يحترز عنها «عباد الرحمن» وينزّهون أنفسهم عن فعلها. وفي خاتمة هذه الأوصاف يشير القرآن الكريم إلى وصف تحت عنوان «الحلقة الأخيرة والمكمّلة للبحث»، وهو أنّ «عباد الرحمن» لا يفكّرون في سعادتهم الشخصيّة فقط، بل ـ بالإضافة إلى ذلك ـ يفكّرون ـ بالدرجة الأولى ـ في أُسَرهم، و يفكّرون ـ بالدرجة الثانية ـ في صلاح سائر المتّقين وسعادتهم.

وكما أشرنا، إنّ أمورًا من قبيل: «التقوى»، و«الإيمان» و«إمامة المتّقين»، لها درجات ومراتب مختلفة. وإنّ أعلى مرتبة في إمامة المتّقين تثبت للأئمّة المعصومين عليهم السلام. وبالطبع، إنّ أرفع وأكمل مراتب الشروط والأوصاف الثلاثة التي ذُكرت في إمامة المتّقين متحقّقة في هؤلاء الأئمّة العظام عليهم السلام؛ فلمّا أراد أمير المؤمنين عليه السلام أن تكون له إمامة المتّقين في كلّ زمان ومكان، فقد حاز ـ بالطبع ـ أعلى مراتب الإيمان، التقوى والأوصاف اللازمة للتصدّي للإمامة. وإنّ على أتباع عليّ عليه السلام أيضًا أن يحذوا حذوَ إمامهم عليه السلام، وأن يسعَوا في سبيل اكتساب مرتبة رفيعة من إمامة المتّقين. ومن البَدَهيّ أنّ نيل هذا المقام متوقّف على تحقيق الأوصاف الثلاثة المذكورة ضمن الحدّ والسطح الذي ينتظره منهم أمير المؤمنين عليه السلام.



وفي زمان غيبة صاحب العصر والزمان عليه السلام، فإنّ المصداق التامّ لهذه الإمامة يتجلّى في «الوليّ الفقيه»، الذي هو الآن على رأس المجتمع الإسلاميّ. ومن هنا، فإنّ «الولي الفقيه» الذي يُعتبر إمام المتّقين في زمانه:

أوّلًا: ينبغي أن يكون عارفًا بالإسلام بالمجموع أكثر من الجميع، وإلّا فلن يتمكّن من هداية المجتمع الإسلاميّ كما ينبغي: ﴿أَفَمَن يَهْدِيَ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيَ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾[1].

وثانيًا: ينبغي أن يكون بنفسه عاملًا بالإسلام. **بعبارة أخرى**: ينبغي أن يتمتّع بالتقوى والعدالة، بالإضافة إلى علمه؛ فالعلم ليس إلّا اكتساب مفاهيم وتكديسها في الذهن، ولا يكفي وحده في قيادة المجتمع الإسلاميّ، بل من اللازم ـ إلى جانبه ـ أن يكون «الولي الفقيه» في أعلى مراتب التقوى والعدالة.

وثالثًا: ينبغي أن يمتلك قدرة القيادة والإدارة، وأن يعرف كيفيّة هداية المجتمع الإسلاميّ؛ فإنّ الشرطين الأوّلين من الشروط اللازمة حتمًا، ولكنّهما ليسا كافيين في إمامة المجتمع الإسلاميّ وقيادته.

ولو تجاوزنا «الولي الفقيه»، فإنّ المراتب الأدنى من إمامة المتّقين، يمكن أن تتحقّق عند كلّ واحد منّا. فأنا وأنت، إذا أردنا أن نُكمل طريق عليّ عليه السلام في منطقة أو مدينة أو قرية، وأن نقتديَ بأهل البيت عليهم السلام، فينبغي علينا أن نوجد في أنفسنا مرتبة من إمامة المتّقين. ومن أجل تحقيق هذا الأمر، فينبغي علينا:

---

(١) سورة **يونس**، الآية ٢٣.





أوّلًا: أن نحصّل المعارف الدينيّة المرتبطة بهذا الجمع الذي نريد هدايته.

وثانيًا: أن يكون عملنا أفضل من جميع أفراد هذا الجمع، وأفعالنا متقدّمة على أفعالهم.

وثالثًا: أن نتعلّم كيفيّة هداية الآخرين وتربيتهم. وكلّ هذا يرتبط بطبيعة هذا الجمع الذي نريد إمامته وهدايته.